

الأكف

في معاني رسول الله وآله الطاهرين

لأبي عبد الله محمد بن الحسين

الطوسي

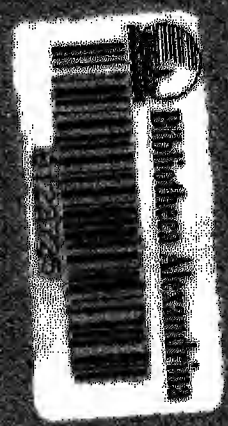
تصنيف

مطبعة دار الكتب

بمطبعة دار الكتب - طهران

المجلد الأول

الطبعة الأولى



٧١١
الالكف

فَمَعَاذِي رَسُولَ اللَّهِ وَالثَّلَاثَةَ الْخُلَفَاءَ

لِلْإِسْلَامِ أَبِي بَرْجَسٍ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى الْكَلْبَاعِي الْأَنْدَلُسِي

٥٦٥ — ٦٣٤ هـ

تَحْقِيقُ

مُصْطَفَى عَبْدِ الْوَاحِدِ

يُنْشَرُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عَلَى نِسْخَتَيْ «طَلَعَتْ» و«الْتِمُورِيَّةِ»

الجزء الأول

النَّاشِرُ
مَكْتَبَةُ الْحَاكِمِيِّ بِالقَاهِرَةِ
وَمَكْتَبَةُ الْحَلَالِ بِبَهْرُوتَ

١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين
ت ٩٠٦٠١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وبعد . . فهذا كتاب « الاكتفاء بمغازى رسول الله ومغازى الثلاثة الخلفاء » لأبى الربيع سليمان بن موسى السكلاعى الأندلسى ، أقدمه للأمة الإسلامية لأول مرة بعد أن ظل فى طوايا النسيان ثمانية قرون من الزمان . . ولا بد هنا أن نتحدث عن المؤلف قبل أن نتحدث عن كتابه وموضوعه .

السكلاعى^(١) :

هو سليمان بن موسى بن حسّان بن سليمان بن أحمد بن عهد السلام الحميرى ، ينتهى نسبه إلى ذى السكلاع يكنى أبا الربيع ويعرف بابن سالم . ولد سنة ٥٦٥ هـ فى بلنسية بالأندلس ، وأصله من ثغورها الشرقية . وقيل : كان مولده بظاهر مرسية فى مستهل رمضان سنة ٥٦٥ هـ ، وسبق إلى بلنسية وهو ابن عامين ونشأ بها .

ثقافته :

كانت بلاد الأندلس فى عصر السكلاعى لا تزال ترفع لواء العلم ،

(١) ترجمته فى تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٩/٤ ط حيدر آباد ، وطبقات الحفاظ للسيوطى ٥٦/٣ . والديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ١٢٥ ونفع الطيب ٥٠٢/٢ ، ٦٥٩ ، ٧٦٨ ط ليدن والإحاطة فى أخبار غرناطة ، والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار .

وتنوع بألوان الثقافات ، وكانت العلوم الدينية في مقدمة ما يُعنى به الطالبون ، وقد انجبه السكلاعى منذ نشأته إلى علوم الحديث فسمع ببلده أبا العطاء بن نذير وأبا الحجاج بن أيوب وأبا عبيد الله بن نوح وأبا الخطاب بن واجب ، وغيرهم . وتجوّل في بلاد الأندلس والعدوة فسمع أبا القاسم بن حُبَيْش وأبا بكر ابن الجند وأبا عبيد الله بن زرقون ، وأبا عبيد الله بن الفخار ، وأبا محمد بن عبيد الله ، وأبا محمد بن بونة ، وأبا الوليد بن رشد ، وأبا محمد بن الفرس ، وأبا عبيد الله ابن عروس وأبا محمد بن جمهور ، وأبا الحسن بن نجبة ، وخلّقا .

وقد انتفع السكلاعى من هؤلاء الشيوخ ، وصادف ذلك منه ذهماً حاداً وذكاءً متقدماً ، فكان حافظاً للحديث مبرزاً في نقده ، تامّ المعرفة بطرقه ضابطاً لأحكام أسانيده ذا كراً لرجاله .

وقد تميّز بذكره لحياة الرجال وحفظه لأسمائهم وخاصة من تأخر زمانه وعاصره ، حتى تقدم على أهل زمانه في ذلك . .

كل ذلك أدّى بالسكلاعى إلى أن ارتقى منزلة عالية في صناعة الحديث ، فكان بصيراً به عارفاً بالجرح والتمديد ، لا نظير له في الاتقان والضبط ، وعُرف بالعدالة والجلالة ، فكانت إليه الرحلة في عصره للأخذ عنه والسماع منه ، كما يقول عنه ابن الأثير : « وانتفعتُ به في صناعة الحديث كل الانتفاع وأفادنى ما لم يقد أحداً مما كان عنده من الغرائب » ولذلك كان يقال عنه : « بقيةُ الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرق » .

وإلى جانب التبحر في الحديث والاتساع في فنونه كان السكلاعى أدبياً مبرزاً في الشعر والنثر ، فقد قال عنه ابن الخطيب :

« كان رِبَّانَ من الأدب كاتباً بليغاً خطيباً بجامع بلنسية » وكان يتميز

— ه —

بحسن السرد والمسايق لما يقول ، ويظهر ذلك في كتابه الذي بين أيدينا ،
مما يدل على ملكة أدبية وحس مرهف ووجدان رقيق .
وقد أهله هذه الملكة الأدبية إلى أن يكون المتكلم عن الملوك في
مجالسهم والمبجى عنهم لما يريدونه على المنابر وفي المحافل . .
وذلك يجعلنا نضع السكلاعى في مرتبة الرئاسة في الحديث وفي الكتابة
في عصره . .

أسلوبه :

كان السكلاعى يلتزم في كتابته شارات عصره من السجع والجناس
والطباق وغير ذلك من المحسنات ، فذلك كان الأسلوب المرضي في ذلك
الحين ، ولكنه كان يتميز بحاسة مرهفة في اختيار الكلمات الرقيقة وحسن
الملاءمة بينها في الأسلوب ، وذلك هو مجال التفاضل بين السكتاب ، ويبدو
ذلك واضحاً في مقدمة كتابه هذا ، فإنك تحس فيه روح كاتب يطاوعه
الأسلوب وتحضره الكلمات المعبرة ، ومع التزمه السجع فلا تجد فيه عبارة
مستكرهة ولا لفظة مجتلبة في غير موضعها مع عاطفة بادية وشعور نابض .
وقد جمع السكلاعى رسائله في ديوان لم يصل إلى أيدينا ، وله كتب أدبية
سنذكرها في تراثه .

شعره :

كان السكلاعى ينظم الشعر في مختلف أغراضه ، ومع أنه كان من رجال
الحديث المبرزين فلم يعمقه ذلك عن الإجادة في النظم والجمال في التصوير ،
وقد عبّر في شعره عن نفسه وبث خواطره ولم يكن نظاماً مقلداً ولا شاعراً
متصنعاً ، فن شعره في شهابه ما كتب به إلى بحر بن صفوان بن إدريس عقب
انفصاله من بلنسية سنة ٥٨٧ هـ :

أَحِنَّ إِلَى نَجْدٍ وَمِنْ حَلٍّ فِي نَجْدٍ وَمَاذَا الَّذِي يُغْنِي حَبِيبِي أَوْ يُجَدِّي
وَقَدْ أَوْطَدُوها وَأَدْعَيْنَ وَخَلَّفُوا مُحِبَّهُمْ رَهْنَ الصَّبَابَةِ وَالْوَجْدِ
تَبَيَّنَ بِالْبَيِّنِ اشْتِيَاقِي إِلَيْهِمْ وَوَجْدِي فِساوَى مَا أَجَنُّ الَّذِي أَبْدَى
وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَهَا وَشَاحَ بِخَضِرٍ أَوْ سَوَارَّ عَلَى زَنْدِ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا أَلاَقِي مِنَ الْجَوَى وَبَعْضُ الَّذِي لَا قِيَّتَهُ مِنْ جَوَى بُرْدِي
فِي أَلَيْتِ شَعْرِي هَلْ تَعُودُ لِمَا لَمْ يَكُنْ وَعَيْشٍ كَمَا تَمَنَّمْتُ حَاشِيَتِي بُرْدِ
وَلَمْ يَخْتَلَفْ شَعْرُهُ عَنْ هَذِهِ الرِّقَّةِ فِي كِبَرِهِ ، فَظَلَّ جِيَاشَ الْعَاطِفَةِ حَسَنَ
الرَّوَاءِ ، فَمِنْ شَعْرِهِ فِي شَيْخُوخَتِهِ :

تَوَالَتْ لِيَالٍ لِلْغَوَايَةِ جُونُ وَوَأَقَى صَبَاحٌ لِلرَّشَادِ مَبِينُ
رِكَابِ شَهَابٍ أَزْمَعَتْ عَنْكَ رَحْلَةً وَجَيْشُ مُشَيَّبٍ جَهَّزَتْهُ مَنُونُ
وَلَا أَكْذَبُ الرَّحْمَنُ فِيمَا أَجَنَّهُ وَكَيْفَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ جَنِينُ
وَمَنْ لَمْ يَخْلُ أَنْ الرِّيَاءَ يَشِيدُهُ فَمَنْ مَذْهَبِي أَنْ الرِّيَاءَ يَشِينُ
لَقَدْ رِيحَ قَلْبِي لِلشَّهَابِ وَفَقْدَهُ كَمَا رِيحَ بِالْعَلَقِ^(١) الْفَقِيدِ ضَعْفُ
وَأَلَمْنِي وَخَطَّ الْمَشْيِيبِ بَلَمْتِي فَخُطِّبْتُ بِقَلْبِي لِلشَّجْوَةِ فَدُونُ
وَلَيْلُ شَهَابٍ كَانَ أَنْصَرَ مَنَظَرًا وَآتَقَى مَهْمَا لَا حَظَّتْهُ عَيْونُ
فَلَيْسَ عَلَى عَيْشٍ تَكْدَرُ صَفْوُهُ وَأَنْسَى خِلَا مَهْمَا صَفًا وَحَبْجُونُ
وَيَا وَيْحَ قَوْدِي أَوْ فَوَادِي كَلَمَا تَزِيدُ شَيْبِي كَيْفَ بَعْدُ يَكُونُ
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي سَكُونٌ بِغُرْقٍ وَكَيْفَ مَعَ الشَّيْبِ الْمَمُضِّ سَكُونُ

- ز -

وقالوا شباب المرء شعبة جنة فإلى عرائى للمشيب جنون
وقالوا شباك الشيب حدثان ما أنى ولم يعلموا أن الحديث شجون
وهكذا نجد شعر السكلاعى زاخرا بالصور نابضاً بالمعاطفة معبراً عن
أحلامه مصوراً لمراحل حياته .

وقد كانت له مناجاة لربه عذبة الأسلوب صادقة الالهجة ، منها قوله :

أَمْوَالِي الْمَوَالِي لَيْسَ غَيْرَكَ لِي مَوْالِي وَمَا أَحَدٌ يَارَبِّ مِنْكَ بِذَا أَوْلَى
نَبَارِكَ وَجْهٌ وَجْهٌ وَجَّهَتْ نَحْوَهُ الْمَنَى فَأَوْزَعَهَا شُكْرًا وَأَوْسَعَهَا طَوْلًا
وَمَا هُوَ إِلَّا وَجْهَكَ الدَّائِمُ الَّذِي أَقْلَ حَلِيَّ عَلَيَّائِهِ يُخْرِسُ الْقَوْلَا
تَبَرَأْتُ مِنْ حَوْلِي إِلَيْكَ وَقَوْنِي فَكُنْ قَوْنِي فِي مَطْلَبِي وَكُنَ الْخَوْلَا
وَهَبْ لِي الرِّضَا مَالِي سِوَى ذَاكَ مُبْتَغَى وَلَوْ لَقِيتُ نَفْسِي عَلَى نَيْلِهِ الْهَوْلَا

شخصية السكلاعى :

والحق أن أبا الربيع السكلاعى كان نمطاً فريداً فى عصره ، فهو حافظ
محدث وأديب متقن وشاعر رقيق ، أنيق الشارة حسن الزى ، ولكن الأعب
من ذلك أنه كان فارساً مجاهداً يشهد الفزوات ويباشر القتال بنفسه ويُبلى
البلاء الحسن !

ونحن نعلم أن الأندلس شهدت فى عصر السكلاعى معارك بين المسلمين
وبين الأسبان الذين كانوا يحاولون استرداد الأندلس من أيدي المسلمين ،
حتى تم لهم ما أرادوا على حين غفلة من الأمة الإسلامية وتخاذل
أما السكلاعى فقد كان يخرج مع المجاهدين وهو شيخ كبير ليقاتل

- ح -

في سبيل الله ، وكأنه لم يكفه أن يجاهد بلسانه وقله حتى أراد أن يقاتل أيضاً بسيفه ويحوز شرف الشهادة في سبيل الله !

وقد تحقق له هذا الأمل في آخر غزوة شهداها ، وكان في سن السبعين ! وهي موقعة تسمى « أنيشة » إذ كانت على نحو سبعة أميال منها ، فلم يزل مقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار مقبلاً على العدو ينادى بالمنهزمين : أعن الجفة نفرون ! حتى قُتل صابراً محتسباً ، غداة يوم الخميس لعشر بقين من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ .

وقد كان يذكر دائماً أنه عمره ينتهي في سن السبعين ، لرؤيا رآه في صغره ، فكان كما قال . .

فأى نمط من الرجال كان السكلاعى . . . ! !

وأية نفس تلك التى كان يحملها بين جنبيه ؟ !

هؤلاء هم العلماء حقاً ، وهؤلاء هم ورثة الأنبياء . .

وما أجمل ما رثاه عبد الله بن الأبار في قوله :

سَلامٌ على الدنيا إذا لم يُلح بها	محيي سليمان بن موسى بن سالم -
وهل في حياتي متعة بعد موته	وقد أسلمتني للدواهي الدوام -
يَمَانٍ كِلَاعِيٍّ نَمَاهُ إِلَى الْعَمَلِ	تمام حواء قبل عقد التمام -
أَنَاهُ رَدَاهُ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ	ليحظى بإقبال من الله دائم -
سَقَى اللَّهَ أَشْلَاءَ بَسْفَحِ أَنْيَشَةٍ	سوافتح تزجيها يقال الغنائم -
وَصَلَّى عَلَيْهَا أَنْفَسًا طَابَ ذِكْرُهَا	فطيب أنفاس الرياح الفواسم -
لَقَدْ صَبَرُوا فِيهَا كَرَامًا وَصَابَرُوا	ولا غرو أن فازوا بصفو المكلام -
وَمَا بَذَلُوا إِلَّا نَفُوسًا نَفِيسَةً	نحن إلى الأخرى حنين الروائم -

— ط —

فوا أسفًا للدين أعضل داؤه وأيس من آسٍ لسراه حليم
ويا أسفًا للعلم أقوت ربوعه وأصبح مهدود الذرى والدعائم
فأى به — غار ليس بطالع وأى سفاء غاب ليس بقادم
رحمه الله !

كتبه :

يدكر المترجمون للسكلاعى أسماء بعض كتبه ، وأغلبها فى علوم الحديث
الذى كان ميدان السكلاعى وشاغله فى عمره الطويل ، فن ذلك :

١ — مصباح الظلم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . نحا به
منخى الشهاب القضاى .

٢ — الأربعين حديثًا عن أربعين شيخًا ، لأربعين من الصحابة فى
أربعين معنى . جزء مفيد

٣ — الشبايعات المخرجة من أحاديث أبى على الصدى . ثلاثة أجزاء .

٤ — أحاديث المصاحفة . جزء .

٥ — جزء آخر فى مثل ذلك من حديث أبى بكر بن العربى .

٦ — حلية الأمل فى المواقفات من العوالى — خرجها من حديثه فى
أربعة أجزاء .

٧ — كتاب حافل السابقين وحلية الصادقين المصدقين فى ذكر

الصحابة الأكرمين ومن فى عدادهم بإدراك العهد الكريم من أكابر التابعين
— لم يكمله — ولو فرغ منه لكان ضعف الاستيعاب لأبى عمر بن عهد البرّ .

٨ — الإعلام بأخبار البخارى الإمام ، ومن بلغت روايته عنه من

الأغفال والأعلام .

— ى —

- ٩ — المعجم في من وافقت كنيته كنيته زوجة من الصحابة رضى الله عنهم . جزء كبير .
- ١٠ — تحفة الرواد وتحفة الرواد في التعالى الهدلية الإسناد . في أربعة أجزاء .
- ١١ — المسلسلات من الأحاديث والآثار والإنشادات . جزء كبير . كما كان له كتب في فنون الأدب منها :
- ١ — نكتة الأمثال ونفحة السحر الحلال . بنى فيه الكلام على التوشيح بما تضمنه كتاب أبى عبيد من أمثال العرب واضطرار العرب إليها . في سفر غير كبير .
- ٢ — الجهد النصيح وحظ المنيح من معارضة المعرى خطبة النصيح . سفر .
- ٣ — الامتثال لمثال المبهج في ابتداع الحكم واختراع الأمثال . جزء كبير .
- ٤ — نتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم . جزء .
- ٥ — مفاوضة القلب العليل ومناودة الأمل الطويل على طريقة أبى العلاء المعرى في ملقى السبيل .
- ٦ — الصحف المنشرة في القطع المعشرة .
- ٧ — ديوان رسائله - سفر متوسط
- ٨ — ديوان شعره - سفر
- ٩ — جنى الرطب في سني الخطب . جزء جمع فيه خطبه في الجمع والأعياد وغير ذلك . وهى نحو من ثمانين خطبة .
- وهذه الكتب نقرأ أسماءها في السكتب التى ترجمت له ولا ندرى ما فعل

— ك —

بها الزمان ! فليس منها شيء مطبوع ولا نهتدى إلى مكانها بين المخطوطات ،
وليت شعري متى تصل أيدينا إلى تراثنا المفقود ، ومتى تتصل حلقات الفكر
الإسلامي ويكتمل صرحه الذي بدأه أئمتنا عبر القرون ؟

إننا نهيب بحمة التراث الإسلامي أن يبحثوا عن هذه السكفوز المفقودة
فعلاً متوارية في مكتبات الغرب ومتاحفه ، فإنها أمانة تركها لنا الأسلاف
ولا بد أن نصونها لنفسها إلى الأخلاف .

هذا الكتاب :

وكتابتنا الذي تقدمه اليوم للسكلاعى هو نمط فريد من كتبه ، ذلك هو
كتاب « الاكتفاء في مغازى رسول الله ومغازى الثلاثة الخلفاء » فالسكلاعى
لم يكن مؤرخاً ولكنه انبعث إلى كتابة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وذكر
مغازيه بدافع ديني عميق يعبر عنه بقوله في المقدمة : « وكل ذلك يشهد الله
أن المراد فيه بالقصد الأول وجهه الكريم وإحسانه العميم ورحمته التي منها شق
لنفسه أنه الرحمن الرحيم . ثم القصد الثاني متوفر على إثارة الرغبة في إيداس
الناس بأخبار نبيهم صلى الله عليه وسلم وعمارة خواطنهم بما يكون لهم في العاجل
والآجل أنفع وأسلم ^(١) » .

وعنده أن رواية أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الأشياء بعد
كتاب الله : « فبالوقوف عليها توجد حلالة الإسلام ويعرف كيف تمهدت
السهل إلى دار السلام ^(٢) » .

وإذا استوفى هذا الغرض وبلغ منه حاجة نفسه ، فإنه يقبعه بذكر مغازى

(١) الاكتفاء ص ٥ .

(٢) الاكتفاء ص ٦ .

— ل —

الخلفاء الثلاثة الأول ، أبي بكر وعمر وعثمان ، فتنظم الفائدتان معاً ويجمع الخبر
عن مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازي خلفائه . .

فأين نضع هذا الكتاب بين كتب السيرة والمغازي . . ؟

إن ذلك يقتضي أن نتفهم منهجه وتبين مدى أصالته لندرك الجديد الذي
قدّمه في موضوعه .

لقد بدأ تدوين السيرة والمغازي منذ وقت مبكر ، وأول كتاب في ذلك
هو كتاب موسى بن عقيبة المتوفى سنة ١٤١ هـ ثم كتاب محمد بن إسحق المتوفى
سنة ١٥٠ هـ الذي اختصره عبد الملك بن هشام . ومن بعد ذلك مغازي
الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، ثم طبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ .

والسكلاعي يصرح أنه في كتابه هذا إنما يلخص من كتب أئمة هذا
الشأن الذين صرفوا إليه اعتناءهم واستفدوا فيه آنائهم^(١) ، وخاصة كتاب
محمد بن إسحق وكتاب موسى بن عقيبة .

ويذكر أن أعظم تعويله كان على كتاب ابن إسحق ، إذ قصد إلى تجريد
من اللغات وكثير من الأنساب والأشعار ، وجرى على ترتيبه وتجرى منزعه ،
بحيث نجد كتاب ابن إسحق مهذباً في خلال كتاب «الاكتفاء» فإن السكلاعي
رأى أن كتاب ابن إسحق قد تخلله أشياء من غيري المغازي تفدح عند الجور
في إمتاعه ، فأراد أن لا يبقى منه إلا الأخبار المجردة وخلاصة المغازي ، فنقص
منه ليزيده كمالات .

وقد عوّض السكلاعي ما نقصه من كتاب ابن إسحق ، فيما نقله عن غيره
من الكتب ، فقد اختار مواضع من كتاب موسى بن عقيبة ، ونقل جُملاً

(١) الاكتفاء ص ٢ .

من كتاب « المبعث » للواقدي ، واختار نفائس من كتاب أبي عبد الله الزبير بن بكار في أنساب قريش، ومن التاريخ الكبير لأبي بكر بن أبي خزيمة . . وأشياء من غيره هذه الكتب يقوم به الحديث أو يستكمل الفائدة .

تلك هي مصادر الكلاعي في سيرته التي توضح قيمة عمله ، فقد أمكن الكلاعي الذي عاش في القرن السابع أن ينظر في إحاطة إلى ما خلفه السابقون من تراث في المغازي والسير وأن يتأنى في الاختيار والترتيب فيستكمل النقص ويجمع المزايا ، ويحفظ لنا جانباً من تراثنا عدا عليه الزمان .

وقد تجلّت ملكة الكلاعي في التأليف وذوقه الرقيق في الترتيب ، في منهجه الذي التزمه في العرض والتنسيق ، فهو لا يلتزم نسبة كل قول إلى صاحبه ولا ذكر كل مرجع فيما ينقله ، بل يوائم في أغلب الأحيان بين الأقوال ليؤلف منها حديثاً متسقاً وقصة مرتبة ما دامت تسير في اتجاه واحد « ليسكون المساق أبين والاتساق أحسن^(١) » .

وهو لا يتدخل برأيه إلا عندما تختلف الآراء ليفصل بينها ويرفع الإشكال عنها . .

وربما فصل بين بعض الأحاديث المتشابهة لضرورة وضعها أو حلاوة موقعها . . حسب ما تهدي إليه حاسته الجمالية .

ذلك في سيرة رسول الله ومغازيه . .

أما مغازي الخلفاء الثلاثة الأول ، أبي بكر وعمر وعثمان ، فإن الكلاعي يصرح أنه اعتمد فيها على كتاب شيخه الخطيب أبي القاسم بن حُبَيْش وعلى غيره مما يشابهه . . ولم يورد شيئاً عن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب لأنه شغل بمقاومة الفتن ومجابهة المتمردين عن الفتوح والغزو .

(١) الاكتفا ص ٥ .

— ن —

وبهذا نرى في كتاب السكلاعى مزيّتين واختين ، تجملاّن له أصالة
في موضوعه الذى يعرض له :

الأولى : الجمع والإحاطة وحسن النظر فيما سلف من تراث ، والنقل
عن كتب لم تصل إلى أيدينا ، كمغازى موسى بن عقبة والتاريخ الكبير
لابن أبى خيثمة والمبعث لواقدي .

وهذا حفظ لنا « الاكتفاء » جانباً هاماً من تراثنا وأغنانا عن النظر
فيما سواه من كتب المغازى والسّير .

الثانى : أنه جمع بين مغازى رسول الله صلوات الله عليه ومغازى خلفائه
الثلاثة الأول ، وهم الذين تمت أعظم الفتوحات الإسلامية في عصرهم الزاهر ،
في كتاب واحد ، بحيث نرى امتداد جهاد الرسول الكريم في جهاد خلفائه
وأصحابه ، فنتمثل حركة المدّ الإسلامى على حقيقتها ، ولا نقطع حلقات هي
في حقيقتها متصلة متلاحمة .

وكتاب « الاكتفاء » بهذا الاعتبار عمل جديد بين كتب المغازى
تتضح فيه حاسة دقيقة في الترتيب وبشده نظام واحد ، فهو ليس نقلاً
أو حشداً للأخبار ، بل هو بناء جديد كان لابد منه لتتم مرحلة النضج في كتب
المغازى وتكتمل حلقاتها ، في هذه الصورة الجميلة التى أرادها السكلاعى
لكتابه ، الذى تجنب فيه الإسناد والتكرار والحشو وبالع في الدقة والإحاطة .
وهذه الميزة هي التى جعلتني أرى في نشر هذا الكتاب عملاً ضرورياً
وواجباً نحو تراثنا وعصرنا على السواء . .

أصول الكتاب :

اعتمدت في إخراج هذا الكتاب على أربع نسخ خطية :

١ — نسخة في مكتبة طلعت بدار الكتب المصرية تحمل رقم ٢٠٧٤

— س —

تاريخ في مجلد واحد وهي أقدم النسخ وأوثقها ، إذ كتبت في سنة ٨٦٢ هـ وعدد أوراقها ٢٢٤ ورقة ، في كل صفحة ٤١ سطرأ ، وقد كتبت بخط مشرق دقيق ، وعلى هوامشها مراجعات ، وجاء بآخرها :

« تم كتاب الاكتفا من مغازى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازى الثلاثة الخلفاء رضى الله عنهم وحشرنا معهم ، وربنا الحمد لا إله غيره ولا مرجو إلا بركته وخيره ، برسم الفقير إلى الله تعالى جمال الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن السابق الحنفي الحوى ، لطف الله تعالى به على يد الفقير لعفو ربه القدير محمد بن خليل بن إبراهيم الحنفي ، عامله الله بلطفه الخفى . وفرغ من كتابته في اليوم المبارك نهار الأربعاء السادس من صفر سنة ستين وثمانمائة أحسن الله عاقبتها . آمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم » وقد قوبلت هذه النسخة في تسعة وثلاثين مجلسا بمكة المكرمة ، آخرها يوم الخميس سابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثمانمائة . كما جاء في آخرها بعد ذلك عدة مقابلات وتمايكات .

٢ — نسخة بالـمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية في مجلد واحد ، تحمل رقم ١٥٥٧ تاريخ ، وقد كتبت سنة ١٠٨٩ هـ ، وعدد أوراقها ٣٨٠ وفى كل صفحة ٣٣ سطرأ ، وهي أيضاً بخط مشرق ، وإليها الإشارة بحرف (ت) ٣ — نسخة بدار الكتب المصرية في جزء واحد تحمل رقم ٢٦٥٣ تاريخ ، في مجلد واحد ، في ٣٠٨ صفحة في كل صفحة ٣٥ سطرأ وقد كتبت بخط مغربى وفى آخرها ما يفيد أنها كتبت سنة إحدى وسبعين ومائة وألف . وإليها الإشارة بحرف (ا)

٤ — نسخة بدار الكتب المصرية في أربعة مجلدات متوسطة ، تحمل رقم ٥٠٣٦ ، تاريخ ، وهي غير كاملة ، إذ وقفت عند كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى .

- ع -

وفي الجزء الثاني منها ما يفيد أنها كتبت سنة ثمانية وعشرين وألف من الهجرة ، وقد كتبت بخط مغربي كبير . وإليها الإشارة بحرف (ب)

هذا وقد طُبع من هذا الكتاب جزء يسير في الجزائر سنة ١٩٣١ م بإشراف الأستاذ هنري ماسه الأستاذ بكلية الآداب بالجزائر ، وهو مليء بالتحريف والتصحيح ، وقد أشرت إلى كثير من أخطائه في هذا الجزء ، ثم أمسكت عن ذلك حين رأيت الخطأ يشيع فيه واكتفيت بالإشارة إلى ذلك ، ويبدو أنه طبع على نسخة شائبة .

وقد ورد اسم الكتاب في مقدمة المؤلف : « الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله ومغازي الثلاثة الخلفاء » والسكنى اخترت الاسم الذي ورد في أكثر مراجع ترجمة السكلاعي : « الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلثة الخلفاء » لإيجازه ووضوحه .

منهج التحقيق :

كان لا بد من مقابلة هذه النسخ الخطية الأربع ، وقد جعلت من نسخة طلعت النسخة الأمّ لقدمها ودقتها ، وأشرت إلى أهم الفروق بين هذه النسخ ، وأغفلت الإشارة إلى الفروق التي تنشأ عن التحريف وأخطاء الكتابة إذ ليس لها وزن علمي .

وفي هذا الجزء الذي أقدمه اليوم يجد القارئ كثرة الفروق بين السكلاعي وبين ابن هشام ، وقد التزمت الإشارة إلى هذه الفروق في المواضع التي يتضح فيها منهج السكلاعي في الإيراد أو التي تقوم من سيرة ابن هشام التي بأيدينا ، فلعل نسخة السكلاعي منها كانت أصح وأوثق ، أما الأجزاء الباقية فإن هذه المقابلات ستقل ، لتختلف مقابلات بين السكلاعي وبين المصادر الباقية التي يقل عنها . .

— ف —

أما الشرح والتعليق فإني أسير فيه على الخطة التي أرتضيها ، وهي أن يكون ذلك في مواضع الضرورة التي يحتاج إليها فهم النص أو وضوحه ، بحيث تعين القارئ على حسن الاستفادة منه ، حتى لا نزحم النص بشرح يقترب من الحواشي التي طالما نعينا عليها . أما التنزيح فلا أشير إليه إلا في مواضع الخلاف ، وقد يسر السكلاعى الأمر لقارئه فدلّه على مصادر كتابه التي أشرنا إليها قبل ، فهذه هى المصادر المحدودة التي رجع إليها ، وما بقى منها عدد قليل .

وأرجو أن أستكمل فى الأجزاء الباقية جوانب الجهد الممكن فى إخراج هذا الكتاب ، ليكون دعوة إلى البحث عن آثار مؤلفه واستنقاذها من يد الفناء ونحن أحوج ما نكون إلى ما فيها من السنا والضياء . .

ولا أملك هنا إلا شكر الأستاذ العالم الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، فقد كان لرغبته إلى فى إخراج هذا الكتاب أثر قوى فى اتجاهى إليه وبحثى عن أصوله ، حتى وقفنى الله إلى الهدى فيه منذ خمس سنين ، ثم قامت فى سبيله الصعاب ، حتى أراد الله له أن يخرج فى هذه الأيام الحاسمة فى تاريخ الأمة الإسلامية ليكون حافزاً للجهاد ومذكراً بأعجاد الآباء والأجداد . .

وبعد . .

فله الحمد فى الأولى والآخرة ، منه نستلهم العون والهداية ، نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة فى { شوال سنة ١٣٨٧
يناير سنة ١٩٦٨ }

مصطفى عبد الوامد

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٠	إبراهيم يؤذن بالحج	٧ - ١	مقدمة الكتاب
٦١	إبراهيم يتعلم مناسك الحج	٩	ذكر نسب رسول الله
٦٣	وفاة إبراهيم	١١	أولاد عدنان
٦٣	ولادة البيت بعد إسماعيل	١٢	أولاد معد
٦٤	بين جرم وقطوراء	١٥	» نزار
٦٥	ولاية كنانة وخزاعة	١٩	» مضر
٦٦	تعظيم العرب للحرم	٢٠	» الياس
٦٩	خروج جرم من مكة	٢٢	» مدركة
٧١	ولاية خزاعة البيت	٢٢	» خزاعة
٧٢	حديث قصي	٢٣	» كنانة
٧٥	صوفة تحبذ للناس بالحج	٢٤	» النضر بن كنانة
٧٩	عود إلى قصي	٢٤	» فهر بن مالك
٨٤	عبد الدار	٢٥	» غالب بن فهر
٨٥	وفاة قصي	٢٥	» لؤي بن غالب
٨٥	بنو عبد مناف وبنو عبد الدار	٢٩	البسمل
٨٨	حلف الفضول	٣١	أولاد كعب بن لؤي
٩١	العرب في جاهليتهم	٣٣	» عبد مناف
٩٢	عمر بن لحي	٣٤	» عبد المطلب
٩٣	بداية الوثنية	٣٤	محمد بن عبد الله
٩٧	اليهودية في بلاد العرب	٣٦	قصيدة أبي عبد الله بن أبي الحصل
١٠٢	من أخبار تبع		في نسب رسول الله
١٠٥	النصرانية في بلاد العرب	٤٥	ذكر أولية بيت الله المحرم
١٠٨	عبد الله بن التامر وأصحاب الأخدود	٥١	إبراهيم وإسماعيل في موضع البيت
١١٤	ربيعة بن نصر والسكمان	٥٨	بناء إبراهيم للبيت

— ق —

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٣٣	إنذار يهود بالنبي	١١٩	شق وسطيح
٣٣٦	حديث سلمان الفارسي	١٢٢	عمرو يقتل حسان
٢٤٤	حديث أمية بن أبي الصلت وأبي سفيان	١٢٤	الخنيعة ذو شنار
٢٥٠	الحنفاء		دخول الحبشة أرض اليمن
٢٦٠	صفة النبي في التوراة	١٢٦	وقصة أصحاب الفيل
٢٦٢	ذكر المبعث	١٣٩	سيف بن ذي يزن
٢٦٧	بدء نزول القرآن	١٤٥	عود إلى أبناء قصي
٢٧٠	إسلام خديجة	١٥٥	عبد المطلب يحفر زمزم
٢٧١	فترة الوحي	١٦١	نذر عبد المطلب
٢٧٢	فرض الصلاة	١٦٧	ولادة النبي صلى الله عليه وسلم
٢٧٣	إسلام علي بن أبي طالب	١٦٨	من سمى محمداً قبله
٢٧٤	إسلام زيد بن حارثة	١٦٩	الرضاعة
٢٧٧	إسلام أبي بكر	١٧٢	شق الصدر
٢٧٩	الجهنم بالدعوة	١٧٦	وفاة أمة وكفالة جده له
٢٨١	بين قريش وأبي طالب	١٧٨	بشارة سيف بن ذي يزن بالنبي
٢٨٣	إيذاء النبي والمسلمين	١٨٢	وفاة جده
٢٨٥	الوليد بن المغيرة	١٨٨	العباس يلي زمزم
	قصيدة أبي طالب في الدفاع	١٨٩	كفالة عمه أبي طالب
٢٨٦	عن الرسول	١٩٠	رحلته إلى الشام
٢٩٨	قصيدة أبي قيس بن الأسلت	١٩٣	حفظ الله له
٢٩٨	من أذى قريش للرسول	١٩٥	زواجه بخديجة
٣٠١	إسلام حمزة بن عبد المطلب	٢٠٥	بديان قريش للكعبة
٣٠٢	عتبة بن ربيعة يفاوض الرسول	٢٠٨	وضع الحجر الأسود
٣٠٤	وقريش تفاوضه	٢٠٩	كسوة الكعبة
٣١٠	وفد قريش إلى أحبار اليهود	٢١٠	أمر الجلس
٣١٣	أول من جهر بالقرآن		ذكر ما حفظ عن الأحبار والرهبان
		٢١٣	والكهان من أمر رسول الله

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤١٣	بدء إسلام الأنصار والعقبة الأولى	٣١٣	قريش تستمع إلى قراءة النبي
	إسلام مسعود بن معاذ وأسيد	٣١٦	عدوان قريش
٤١٦	ابن حضير	٣٢٠	الهجرة إلى أرض الحبشة
٤١٩	ذكر العقبة الثانية	٣٢١	ما قيل من الشعر في الحبشة
٤٢٨	الإذن بالقتال	٣٢٤	وفد قريش إلى النجاشي
٤٣٠	بدء الهجرة إلى المدينة	٣٣٤	إسلام عمر بن الخطاب
٤٣٨	مؤامرة قريش	٣٤١	كتابة الصحيفة
٤٤٢	هجرة رسول الله وأبي بكر الصديق	٣٤٣	من إيذاء قريش للرسول
٤٤٦	قصة أم معبد	٣٥١	رجوع المهاجرين من الحبشة
٤٥٢	حديث سراقه	٣٥٧	ابن الدغنة يجير أبا بكر
٤٥٨	دخول النبي المدينة	٣٥٨	نقض الصحيفة
٤٦٤	الإخاء وموادعة اليهود	٣٦٣	حديث الطفيل بن عمرو الدوسي
٤٦٥	وفاة أسعد بن زرارة	٣٦٧	خبر أعشى قيس
٤٦٥	الأذان	٣٧٠	مع أبي جهل وركانة
٤٧١	إسلام عبد الله بن سلام	٣٧٧	إسراء رسول الله
٤٧٢	إسلام مخيريق	٣٨٤	المعراج
٤٧٣	العداوة	٣٨٨	عاقبة المستهزئين
٤٧٨	المنافقون	٣٩٠	وفاة خديجة وأبي طالب
٤٨٥	وفد نصارى نجران	٣٩٥	خروج النبي إلى الطائف
٤٩٣	مرض المهاجرين بالمدينة	٤٠٠	عرض رسول الله نفسه على قبائل العرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْدِمَةُ الْكِتَابِ

الحمد لله الذي منّ علينا بالإسلام ، وأكرمنا بنبيينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وجعل آثاره السكرية ضالّتنا المنشودة ، والافتداء بهديّه الأهدى ، ونوره الأوضح الأبدي ، غايةنا المقصودة وأميّتنا المودودة ، وأنعم على قلوبنا بالارتياح لذكره والاهتزاز عند سماع خبره عنه مَصْدَرَهُ أو إليه مُنْتَمَاه .

ولأنه لأثر رجاء في هذه القلوب البطالة وأثارة خير يُرْحَى ، أن يذودها عن مشارع الجهالة ومنازع الضلالة^(١) ، فإن الارتياح للذكر^(٢) شهادة الحب وأمانة المحب .

وقد روى عنه صلوات الله عليه نَقْلُهُ الشُّفَّةُ أن من أحبه كان معه في الجنة .

فدسأل الله أن يكتبنا في محبيه حقيقة ، ويسلك بنا من الوقوف عند مقتضى^(٣) أوامره ونواهيه طريقة بالسعادة خليقة .

فما نزال طالبين ذلك من أكرم مطلوب لديه ، راغبين فيه إلى خير مرغوب إليه . وإن لم نكن أهلا للإسعاف بتقصيرنا في الأعمال ، فإنه جل جلاله أهل الجود والإفضال .

(١) المطبوعة : أن يوردها من مشارع الجهالة الضالة ، وهو تحريف شنيع .

(٢) المطبوعة : الدنو ، وهو خطأ .

(٣) ط : مقتضيات .

ونصلي قبلُ وبعدُ على هذا النبي المبارك الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى آله
الطاهرين وصحبه المقربين^(١) ، خير محب وخير آل .

وهذا كتاب ذهب فيه إلى إيقاع الإقناع ، وإمتاع النفوس والأسماع ،
بأساق الخبر عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر نسبه ومولده
وصفته ومبعثه ، وكثير من خصائصه ، وأعلام نبوته ومغازيه ، وأيامه من
لدى^(٢) مولده إلى أن استأثر الله به وقبض روحه الطيبة إليه ، صلوات الله
وسلامه وبركاته عليه .

مقدمًا لذلك ما يجب تقديمه ، ومتممًا^(٣) من ذكر أوليائه المباركة بلداً
وتحتيداً ، بما يحسن علمه وتعليمه ، ملخصاً جميعه من كتب أئمة هذا الشأن الذين
صرفوا إليه اعتنائهم ، واستنفذوا فيه آنائهم ، ككتاب محمد بن إسحاق ، الذي
تولى عبدُ الملك بن هشام تقريبه^(٤) واختصاره ، وكتاب موسى بن عُقبة ، الذي
استحسن الأئمة اقتصاده واقتصاره ، وغيرها من المجموعات التي لا يزيد الإنصافُ
فضل^(٥) جامعها ولا يذمُّ الاختبارُ اختصاره .

واسكن عظيمَ المعول بحكم الخاطر الأول على كتاب ابن إسحاق ، إياه أردتُ ،
وتجريدَه من اللغات وكثيرٍ من الأنساب والأشعار قصدتُ ، وعلى ترتيبه غالباً
جرّيتُ ، ومنزَعَه في أكثر ما يخص المغازي تحرّيتُ .

(١) ط : المنتخبين .

(٢) المطبوعة : يوم .

(٣) اب ت : ومنهيا .

(٤) ط : تهذيبه .

(٥) ا ت ط : لا يديم الإنصاف قصد جامعها ، والمطبوعة : لا يذم .

فإنه الذى شرب ماء هذا الشأن فأنقَعَ ، وحلَّ كتابه من نفوس الخالص
والعام أجلّ موقع .

إلا أنه تخلّاه ، كما أشرنا إليه قبلُ ، أشياء من غير المنافزى تقدّح عند
الجمهور في إمتائه ، وتقطع بالخواطر المستجمعة لسماعه .

وإن كانت تلك القواطع عريقة في نسب العلم ، وحقيقة بالتهديد والنظم .
فعسى أن يكون لها مكانٌ هو بإيرادها أخصّ ، إذ لكل مقام مقال لا يحسن
في غيره الإيراد له والنقص .

ولذلك نويت فيه أن أحذف ما تخلّاه من مُشَبَّع الأنساب التى ليس احتياجُ
كلِّ الناس إليها بالضرورى الحديث ، ونفيس اللغات المعوّق اعتراضها اتصال
الأحاديث ، حتى لا يبقى إلا الأخبار الجردّة ، وخلاصة المنافزى التى هى في هذا
الجموع المقصودة الممتدة .

فلنأمنى أنه إن أذن الله في تمامه ، وتكفل تعالى بتيسير محاولته وفق المأمول
وتقريب مرّاه ، استأنفت النفوس له قبولا وعليه إقبالا ، ولم يزدّه هذا^(١)
النقص لدى جمهورهم إلا كمالا .

ثم بدّألى أن أزيد على هذا المقدار ما يحسُن في هذا المضمار ، وأعوّض
ما حذفتُ منه من اللغات والأنساب والأشعار ، بما يكون له إن شاء الله منزلة
الاختيار^(٢) ، ويروق عليه رونق الإيثار^(٣) ، مُنتقيا ذلك من الدواوين التى

(١) اب ت : ولم يزد له .

(٢) المطبوعة : الأخبار .

(٣) المطبوعة : الآثار .

طار لها^(١) في الناس طائرُ الاشتهار ، ومتخيراً له من الأماكن التي لا يستقلُّ بمحصّر فوائدها وانتقاء فرائدها كلُّ مختار .

ككتاب ابن عُقبة ، وقد سمعته ، فإنه وإن اختصره^(٢) جداً فإنه أيضاً أحسن العبارة ، وأتى بمواضع من المغازي حذاها بسطه وحماها اختصاره . وسأضع على كثير منها ميسمه وأرسمها في هذا المختصر على نحو ما رسمه .

وقد وقفتُ على كتاب محمد بن عمر الواقدي ، ولم يحضرني الآن ، ولكن رأيتُه كثيراً ما يجري مع ابن إسحاق ، فاستفليت عنه به لفضل فصاحة ابن إسحاق في الإيراد ، وحسن بيانه الذي لا يُغفل معه استحسان الحديث المعاد .

وللواقدي أيضاً كتاب المبعث^(٣) ، وهو مُشبع في بابه ، مُتمتع باستيفائه واستيعابه ، قد نقلت هذا منه جُملاً ، تناسب الفرض المسطور ، وتصدُّ المعارض أن يحور .

وكذلك كتاب الزبير بن أبي بكر القاضي^(٤) رحمه الله في أنساب قريش ، وهو كما سمعت شيخنا الخطيب أبا القاسم بن حُبَيْش رحمه الله ، يحكي عن شيخه أبي الحسن بن مَنِيث أنه كان يقول فيه : هو كتابٌ عَجَبٌ لا كتابٌ نَسَب .

التقطتُ أيضاً من دُرره نفائسٌ مُعجبة ، وتخيرت من فوائده نُخباً لِإِتْخِيَارِهَا مُوجِبَةً .

(١) ط : بها .

(٢) ا ب ت : اقتصره .

(٣) ذكره ابن النديم في الفهرست ١٥٠

(٤) أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن

الزبير بن العوام ، من أهل المدينة ، نوبه بجمه وهو قاض عليها سنة ١٥٦

ومثله التاريخ الكبير لأبي بكر بن أبي خيثمة ، وناهيك به من بحر لا تُكدره
الدَّلاء ، وغرر لا يُنفِده الأخذُ الدَّرَك^(١) ، ولا يستنزفه الوردُ الولاء .

وكم شيء أُستَحْسِنه من غير هذه الكتب المسماة فأنظمه في هذا النظام ،
وأضطر إلى الإفادة به مساق الكلام . إما مُتَمِّمًا لحديث سابق ، وإما مفيداً
بفرض لما تقدمه مطابق .

فإن لم يكن بينهم في الأحاديث اختلاف يُشعر بنقص ، فكثيراً ما أُدخل
حديث بعضهم في حديث بعض ، ليكون المساقُ أبين والاتساق أحسن .
وإن عرض عارضُ خلافٍ فالفصل حينئذٍ أرفعُ للإشكال وأدفعُ للمقال .

وربما فصلتُ بين بعض أحاديثهم وإن اشبهت معانيها ، بحسب ما تدعو إليه
ضرورة الموضوع ، أو تحمل على إعادته حلاوة الموقع .

وكل ذلك يشهد الله أن المرادَ فيه بالقصد الأول وجهه الكريم ، وإحسانه
العميم ، ورحمته التي منها شقُّ لنفسه أنه الرحمن الرحيم .

ثم القصد الثاني متوفرٌ على إثارة الرغبة في إيناس الناس بأخبار نبيهم صلى الله
عليه وسلم ، وعمارته خواطرم بما يكون لهم في العاجل والآجل أنفعَ وأسلم .

وقد عمَّ عليه الصلاة والسلام ببركة دعائه سامعَ حديثه ومُبلِّغه ، وقال
صلى الله عليه وسلم : « ما أفاد المسلم أخاه المسلم أفضَلَ من حديث حسن
بَلَّغَهُ قَبْلَهُ » .

(١) الغرر يفتح الغين وسكون الميم : المساء الكبير ، والأخذ الدراك المتتابع .

ولا أَحْسَنَ بعد كتاب الله الذى هو أَحْسَنُ القصص وأَصْدَقُ القصص ،
وأَفْضَلُ الحِصَصِ ، وأَجَلَى الأشياءِ للقصص ، من أخبار رسول الله صلى الله
عليه وسلم التى بالوقوف عليها تُوجَدُ حلاوةُ الإسلام ، ويُعرَفُ كيف تمهدت
الشُّبُلُ إلى دار السلام .

فإنه لا يخلو الحاضرون لهذا الكتاب^(١) من أن يَسمِعُوا ما صنع الله لرسوله
فى أعداء^(٢) تنزيله ، فيَسْتَجِزِلُوا ثوابَ الفرح بنصر الله ، أو يَستمِعُوا ما امتحنه
الله به من المحن التى لا يطيق احتمالها إلا نفوسُ أنبياء الله بتأييد الله ، فيمتدحوا
بعضهم ما لقيه من شدائد الخطوب ، ويصطبخوا لعوارض الكروب ، تأدبوا
بآدابه ، وجَرياً فى الصبر على ما يصيبهم والاحتساب لما ينفوهم على طريقة
صبره واحتسابه .

وتلك غايات لن تَبْلُغَ عَفْوها بمجهودنا ، ولن نَصِلَ أدانيها^(٣) بنهاية رَكْعَتِنَا
وَشَدْنَا ، وإنما علينا بذلُ الجهد فى قصد الاهتداء ، وعلى الله سبحانه وتعالى
المعونة فى الغاية والابتداء .

وإذا استوفيتُ بفضل الله طاقَ هذا المعنى كما نويت ، وَبَلَّغْتُ حاجةَ نفسى
منه وقَصَيْتُ ، فلى نيةٌ ، إن سَاعَدَتِ المشيئةُ عليها ، فى أن أُصِلَ هذا الغرض
المُتَقَدِّم ، من ذكر مغارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بذكر مغازى الخلفاء
الثلاثة الأول ، رضى الله عنهم ، مُنْتَحِلاً عل رجاء معونة الله أسبابها ، وَمُتَخِلاً
من كتاب شيخنا الخطيب أبى القاسم رحمه الله تعالى ، ومن غيره مما هو فى نحو
معناه ، صَفَّوْها ولبَّاهُها ، لتُنْتَظَمَ القائدتان معا ، ويكون الخبر عن مغازى

(١) المطبوعة . المطبوعون و هذا الكتاب

(٢) المطبوعة : إعداد ، وهو خطأ

(٣) المطبوعة : أدائها

رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازى خلفائه ، الذين يَهْدِيهِمُ الْإِثْمَامُ ، فِي مَكَانٍ
وَاحِدٍ مُجْتَمِعًا .

وَأَرْجُو بِحَوْلِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ الطَّوْلُ وَبِيَدِهِ الْقُوَّةُ وَالْحَوْلُ ، أَنْ يَكُونَ هَذَا
الْمَجْمُوعُ كَافِيًا فِي الْبَابَيْنِ ، وَافِيًا بِالْفَرْضَيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ ^(١) ، وَلِذَلِكَ تَرَجَّحْتُ بِكِتَابِ :
« الْاِكْتِفَاءُ بِمَا تَضُمُّنَهُ مِنْ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَغَازِي
الثَّلَاثَةِ الْخُلَفَاءِ » .

وَفَضَّلْتُ جَلَّ جَلَالُهُ نِعْمَ الْكَفِيلُ أَنْ يَجْزِيَ بِهِ خَيْرَ الْجُزَاءِ ، وَيَجْعَلَهُ مِنْ
عُدَدِنَا الْفَاعِلَةِ يَوْمَ الْلِقَاءِ ، فَهُوَ عَزَّ وَجْهَهُ الْمُلْجَأُ وَالْمَعْوَلُ ، وَبِهِ أَسْتَعِينُ وَعَلَيْهِ
أَتَوَكَّلُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ ، هُوَ حَسْبِي وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

ذِكْرُ نَسَبِ رَسُولِ اللَّهِ

صلى الله عليه وعلى وآله وسلم تسليما
وكيف طهره الله نفساً وخيماً^(١) وشرّفه حديثاً وقديماً ، وألقى
إلى آبائه الأقدمين من الدلائل على اصطفائه إياه في الآخرين ،
وابتعمانه له رحمة للعالمين ، ما صيّره لديهم قبلي وجوده
بطوائل السنين معلوماً

في الصحيح من حديث واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اصطفي من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفي من ولد إسماعيل بنى كندانة ، واصطفي من بنى كندانة قريشاً ، واصطفي من قريش بنى هاشم ، واصطفاى من بنى هاشم » .

وفي حديث عن عبد الله بن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم يزل الله عز وجل ينقلني من الأصلاّب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة ، صَفِيّاً مُهَذَّباً ، لا تنشعبُ شُعْبَتَانِ إِلَّا كُتِبَ فِي خَيْرِهِمَا » .

وخَرَجَ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، من حديث المطلب بن أبى وداعة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على المنبر فقال : « من أنا ؟ » فقالوا : « أنت رسول الله عليك السلام » قال : « أنا محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم فرقة ، ثم جعلهم فرقتين ، فجعلنى فى خيرهم

(١) الحيم بالكسر : السجبة والطبيعة

فِرْقَة ، ثم جعلهم قبائل ، فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً ، فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً .

وفي رواية : « فأنا خيرهم نفساً ، وخيرهم بيتاً ^(١) » .

وصدق صلى الله عليه وسلم ، والصدق شيمته ، وفوق العالمين طراً قدره الرفيعُ وقيمتُه ، هو أشرفهم حسَباً وأفضلهم نسباً وأكرمهم أمّاً وأباً .

هو محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، واسمه عمرو ، بن عبد مناف ، واسمه المغيرة ، بن قصي ، واسمه زيد بن كِلَاب ، بن مُرَّة ، بن كعب ، بن لُؤي ، ابن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مُدركة ، ابن ألياس ^(٢) ، بن مُنْصَر ، بن نِزَار ، بن مَعَد ، بن عَدنان .

هذا الصحيح المُجْمَع عليه في نسبه ، وما فوق ذلك مختلف فيه .

ولاحلاف في أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله ، بن إبراهيم خليل الله ، عليهما السلام ، وإنما الاختلاف في عدد من بين عدنان وإسماعيل من الآباء . فمُقلِّلٌ ومُكثِّرٌ .

وكذلك من إبراهيم إلى آدم عليهما السلام ، لا يعلم ذلك على حقيقته إلا الله .

رَوَى عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انتهى إلى عدنان

(١) ط : من خيرهم بيتاً

(٢) الألف واللام فيه زائدتان وهما داخلتان على المصدر الذي هو اليأس وقد تسهل همزه الثانية فيقال فيه اليأس ، ويجوز أن تكون همزه قطعاً كما ذكر ابن دريد في الاشتقاق ، من قولهم : رجل ألياس من قوم ليس .

أَمْسَكَ ثُمَّ يَقُولُ : « كَذَبَ النَّسَّابُونَ » قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَقُرُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا » (١) .

وَمِنْ عَدْنَانَ تَفَرَّقَتِ الْقَبَائِلُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ .

[أولاد عدنان]

فَوَلَدَ عَدْنَانُ رَجُلَيْنِ : مَعْدَدُ بْنُ عَدْنَانَ ، وَعَلَكُ بْنُ عَدْنَانَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمَا .
فَصَارَتْ عَلَكُ فِي دَارِ الْيَمَنِ ، لِأَنَّ عَاكِتًا تَزَوَّجَ فِي الْأَشْعَرِيِّينَ مِنْهُمْ وَأَقَامَ فِيهِمْ ،
فَصَارَتْ الدَّارُ وَاللُّغَةُ وَاحِدَةً .

وَالْأَشْعَرِيُّونَ هُمْ بَنُو أَشْعَرَ بْنِ نَابِتَ ، بْنِ أَدَدَ ، بْنِ زَيْدِ بْنِ الْهَمَيْسُغِ ، بْنِ عَمْرٍو ،
ابْنِ عَرِيْبَ ، بْنِ بَشَّجُبَ ، بْنِ زَيْدَ ، بْنِ كَهْلَانَ ، بْنِ سَبَأَ ، بْنِ يَشْجُبَ بْنِ يَغْرِبَ ،
ابْنِ قَحْطَانَ .

وَقَحْطَانَ هُوَ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ بِالنِّسْبِ أَبُو الْيَمَنِ كُلِّهَا ، وَإِلَيْهِ يَجْتَمِعُ نَسَبُهَا ،
وَالْعَرَبُ كُلُّهَا عِنْدَهُمْ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَقَحْطَانَ .

وَبَعْضُ الْيَمَنِ يَقُولُ : قَحْطَانَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَإِسْمَاعِيلُ أَبُو الْعَرَبِ كُلِّهَا .
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا مَعْدَدُ ، فَذَكَرَ الزُّبَيْرُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ، أَنَّ بُحْتَنَصَرَ لَمَّا أَمَرَ بِغَزْوِ
بِلَادِ الْعَرَبِ وَإِدْخَالِ الْجُنُودِ عَلَيْهِمْ فِيهَا ، وَقَتْلِ مَقَاتِلِهِمْ لَأَنَّهُمَا كَانُوا مَعَاصِيَ اللَّهِ ،
وَاسْتِحْلَالِهِمْ مُحَارِمَهُ وَقَتْلِهِمْ أَنْبِيََاءَهُ ، وَرَدَّهُمْ رِسَالَاتِهِ ، أَمَرَ أَرْمِيَا بْنَ حَلَقِيَا ، وَكَانَ
فِيمَا ذُكِرَ نَبِيًّا بَنَى إِسْرَائِيلَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ : أَنَّ ابْنَ مَعْدَدُ بْنُ عَدْنَانَ الَّذِي مِنْ
وَلَدِهِ مُحَمَّدٌ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، فَأَخْرَجَهُ عَنْ بِلَادِهِ وَاحْمَلَهُ إِلَى الشَّامِ ، وَتَوَلَّى أَمْرَهُ قَبْلَكَ .

ويقال : بل المحمولُ عدنان ، والأول أكثر .
وفي حديث عن ابن عباس ، أن الله بعث مَلَكَين ، فاحتملا مَعَدًّا ، فلما
أَذْبَرَ الأمرُ رَدَّاهُ فرجع إلى موضعه من تِهامة ، بعدما دفع اللهُ بأسه عن العرب ،
فكان بمكة ونواحيها مع أخواله من جُرهم ، وبها منهم بقية هم ولادة البيت
يومئذ ، فاختلف بهم وناكحهم ^(١) .

[أولاد معد بن عدنان]

فولَدَ مَعَدُّ بن عدنان نفرًا ، منهم قُضَاعَة ، وكان بِكْرَهُ الذي به يُكْنَى
فيما يزعمون ، وقَنْص ، ونزارٌ ، وإياد .
فأما قُضَاعَة فتعياكنت إلى خَيْرِ بن سبأ وانتقلت إلى ابنه مالك بن خَيْر ، حتى
قال قائل منهم يفخر بذلك :

نحنُ بنو الشَّيْخِ المِجَانِ الأزْهَرِ ^(٢)
قُضَاعَة بن مالك بن خَيْرِ
النَّسَبُ المعروفُ غيرُ المنكَّرِ

وأكثر كثير من الناس منتقام ^(٣) هذا ، وجرت بينهم وبين من قال به من
القضاعيين في ذلك أقاويل معروفة وأشعار محفوظة .

قال الزُّبَيْر : ولم يُجْمِع رَأْيُ قُضَاعَة على الانتساب في اليمن ، بل أهلُ العلم منهم
والدِّينُ مقيمون على نسبهم في مَعَدٍّ .

وأما قَنْصُ بن معد ، فهلكت بقيتهم فيما زعموا ، وكان منهم النعمان بن المنذر
ملك الحيرة .

(١) الطبري وتاريخ ابن خلدون ٢/٢٩٩

(٢) الهجان : الرجل الحسيب . والأزهر : المشرق الوجه

(٣) ت : منتقام

واحتج من قال ذلك بأن عمر رضى الله عنه حين أتى بسيف النعمان بن المنذر ،
دعا جُبَيْرَ بنِ مُطْعَمِ بنِ عَدِي بنِ نَوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنْفَى بنِ قُصَيٍّ ، فسأله إياه ،
ثم قال : ممن كان يا جُبَيْرُ النعمانُ بنِ المنذر ؟

فقال : كان من أشلاء^(١) ، فَنَصَّ بنِ معد .

وكان جُبَيْرُ أنْسَبَ قُرَيْشٍ لِقُرَيْشٍ والعربِ قاطبةً ، وكان يقول : إنما أخذنا
النَّسَبَ من أَبِي بكرِ الصديق .

وكان أبو بكر رضى الله عنه أنْسَبَ العرب .

وقد قيل فى نسب النعمان غير ذلك ، مما سيأتى ذكره عند تأدية الحديث إليه .
إن شاء الله تعالى .

* * *

وقد ذُكر أيضاً فى بنى معد الضحَّاكُ بنِ معد .

ذكر الزبير بإسناد له إلى مكحول قال : أغار الضحَّاكُ بنِ معد على بنى إسرائيل
فى أربعين رجلاً من بنى معد ، عليهم دَرَارِيْعُ الصوفِ خاضعى خيلهم بحبال
الليف ، فقتلوا وسَبَّوْا وظفروا ، فقالت بنو إسرائيل : يا موسى ، إن بنى معد أغاروا
علينا ، وهم قليل ، فكيف لو كانوا كثيراً وأغاروا علينا وأنت بيننا ؟ ! فادْعُ
الله عليهم .

فنهضاً موسى وصلى ، وكان إذا أراد حاجة من الله صلى ، ثم قال : يارب إن
بنى معد أغاروا على بنى إسرائيل فقتلوا وسَبَّوْا وظفروا ، وسألونى أن
أدعوك عليهم .

(١) الأشلاء : البقايا .

فقال الله : يا موسى لا تدعُ عليهم ، فإنهم عبادى وإنهم ينتهون عند أمرى ، وإن فيهم نبياً أحبه وأحب أمته .

فقال : يارب ، ما بلغ من محبتك له ؟

فقال : أغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال : يارب ما بلغ من محبتك لأمته ؟

قال : يستغفرنى مستغفرهم فأغفر له ، ويدعونى داعيهم فاستجيب له .

قال : يارب فاجعلهم من أمتى

قال : نبينهم منهم .

قال : يارب فاجعلنى منهم .

قال : تقدمتَ واستأخروا .

قال الزبير : وحدثنى على بن المغيرة قال : لما بلغ بدو معدّ عشرين رجلاً أغاروا على عسكر موسى عليه السلام ، فدعا عليهم فلم يُجِبْ فيهم ، ثم أغاروا ، فدعا عليهم فلم يُجِبْ فيهم ، ثلاث مرات .

فقال : يارب ، دعوتك على قومٍ فلم تجبني فيهم بشيء .

فقال : يا موسى ، دعوتنى على قومٍ منهم خيرتى فى آخر الزمان^(١) .

* * *

وأما نزار بن معد ، واسمه مشتق من النزر وهو القليل ، فيقال : إن أباه معداً

(١) خيال خصب وضع هذه الأسطورة ، والله لا يمانى قوماً على قوم ، وقد كان موسى عاينه السلام مبشراً بمحمد صلى الله عليه وسلم وعارفاً به ، فكيف يسأل هذا السؤال وكيف يجاب بهذا الجواب !!

لما وُلد له نظر إلى نور بين عينيه ، ففرح لذلك فرحاً شديداً ، ونحر وأطعم ، وقال : إن هذا كله أنزَرُ في حق هذا المولود .

وما كان الذي رآه إلا نور النبوة ، الذي لم يَزَلْ ينتقل في الأصلاب ، حتى انتهى إلى نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فطبّق الأرض نوراً ، وهدى الله به من أراد سعاده من عباده ، صراطاً مستقيماً .

وكل هذه الأنوار والآثار شاهدة له ، عليه السلام ، بعظيم عناية الله ، وكرم المكانة عنده ، فلم تَزَلْ بركته ، صلى الله عليه وسلم ، معترفة في آباءه الماضين ، وظاهرة على أسلافه الأكرمين ، تشير الخبايل اللائحة فيهم إليه ، وتدل الدلائل الواضحة في أوليائهم عليه ، صلوات الله وبركاته عليه .

[أولاد نزار بن معد]

فولَد نِزارُ بنُ مَمْدٍ مَضَرَ وربيعه وأنماراً وإباداً ، وإليه دفع أبوه حِجَابَةَ السَّكْبَةِ فيما ذكر .

وأُمهم سَوْدَة بنت عَلَكَّ بنِ عدنان .

وقيل هي أم مَضَرَ خاصة ، وأم إخوانه الثلاثة أختها شقيقة ابنة عَلَكَّ بنِ عدنان .

وقد قيل : إن إباداً شقيق ماضر ، أمهما معاً سَوْدَة .

فأنمار هو أبو بَجِيلَةَ وخَنَمَم ، وقد تَيَكَّمَتْ بِبَجِيلَةَ إلا من كان منهم بالشام والمغرب فإنهم على نسبهم إلى أنمار بن نزار .

وجريز بن عبد الله صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم من سادات بَجِيلَةَ وله يقول القائل :

: لولا جريزٌ هَلَكْتُ بِبَجِيلَةَ نعم الفتى وبُئِست القبيلة

وكذلك تيامنت الدارُ أيضاً بخشمهم ، وهم بنو أفتل بن أنمار ، وإنما خشمهم
جَبَلٌ تحالفوا عنده فُسُّوا به ، وهم بالسراة على نسبهم إلى أنمار .
وإذا كان بين مضر واليمن فيما هنالك حربٌ ، كانت خشمهم مع اليمن
على مضر .

* * *

ويروى أن نزاراً لما حضرته الوفاة ، قَسَمَ ماله بين بنفيه الأربع ، مُقَرَّ وربيعة
وإياد وأنمار .

فقال : هذه القبة — لقبة كانت له حراء من آدم — وما أشبهها من المال لمُضر ،
وهذا النخلة الأسود وما أشبهه لربيعة . وهذه الخادم — وكانت شمطاء — وما أشبهها
لإياد . وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه .

وقال لهم : إن أشكل عليكم الأمرُ في ذلك واختلقتُم في القسمة ، فعليكم
بالأفعى الجرهمي . وكان بنجران .

فاختلفوا بعده وأشكل أمرُ القسمة عليهم ، فتوجهوا إلى الأذى . فبينما هم في
مسيرهم إليه إذ رأى مُضرٌ كلاً قَدْرُعي ، فقال : إن البعير الذي رعى هذا لأعور .

فقال ربيعة : وهو أزور . وقال إياد : وهو أبتَر . وقال أنمار : وهو شرود .

فلم يسيروا إلا قليلاً ، حتى لقيهم رجلٌ توضع به راحلته ، فسألهم عن البعير ،
فقال مضر : أهو أعور ؟ قال نعم . قال ربيعة : أهو أزور ؟ قال : نعم . قال إياد :
أهو أبتَر ؟ قال نعم . قال أنمار : وهو شرود ؟ قال : نعم ، هذه والله صفة بعيري ،
دلوني عليه .

فلحقوا له ما رأوه . فلزمهم وقال : كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته ؟ !

فساروا حتى قدموا تجران ، فنزلوا بالأفعى الجرهمى فنادى صاحب البهير يقول :
بعيرى ، وصفوا لى صفته ، ثم قالوا : لم نره !

فقال لهم الأفعى : كيف وصفتموه ، ولم تروه ؟

فقال له مضر : رأيته يرعى جانبها ويدع جانبها فعرفت أنه أغور .

وقال ربيعة : رأيته إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر ، فعلت أنه
أفسدها لشدة وطئه لازوراره .

وقال إباد : عرفت بقره باجتماع بقره ، ولو كان ذنباً لاصع^(١) به .

وقال أنمار : عرفت أنه شرود ، أنه كان يرعى فى المكان الملتف نبتته ، ثم
يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبث .

قال الشيخ : ليسوا بأصحاب بعيرك ، فاطلبه .

ثم سأله من هم ؟

فأخبروه ، فرحب بهم وقال : تحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى !

فدعاهم بطعام ، فأكلوا وشربوا وشربوا .

فقال مضر : لم أرَ كالיום خيراً أجود لولا أنها نبتت على قبر .

وقال ربيعة : لما أرَ كالיום لحماً طيب لولا أنه رُبى باین كلبه .

وقال إباد : لم أرَ كالיום رجلاً سَرَنى^(٢) لولا أنه ليس لأبيه الذى يدعى له .

وقال أنمار : لم أرَ كالיום كلاماً أنفع فى حاجتنا .

وسمع صاحبهم كلامهم ، فقال : ما هؤلاء ؟ ! إنهم لشياطين .

(١) مصعت الدابة بذنبها حركته وضربت به .

(٢) ط : أسرى .

. ثم أنى أمه ، فسألها ، فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا يولد له ،
فكرهت أن يذهب الملك ، فأمكنّت رجلاً نزل بهم من نفسها ، فوطئها ،
فجاءت به .

وقال للقهرمان : الخمر التي ^(١) شر بها ما أمرها ؟

قال : من حُبلة ^(٢) غرستها على قبر أبيك .

وسأل الراعى عن اللحم ، فقال : شاة أرضعناها من ابن كلبة ، ولم يكن
وُلد في الغنم غيرها .

فأتاهم ، فقال : قُصُّوا على قصصكم .

فقصُّوا عليه ما أوصى به أبوم ، وما كان من اختلافهم .

فقال : ما أشبه القبة الجراء من مال فهو لمضر .

فصارت إليه الدنانير والإبل ، وهى مُخر ، فسميت مُخرُ الخمرَاء .

قال : وما أشبه الخباء الأسود من دابة ومال فهو لربيعة .

فصارت له الخيل ، وهى دُهم ، فسمى ربيعة القَرَس .

قال : وما أشبه الخادم ، وكانت شمطاء ، من مال فيه بَاقى ، فهو لإياد .

فصارت له المشاية البُلُق .

وقضى لأثمار بالدرهم والأرض .

فساروا من عنده على ذلك .

وكان يقال : مضر وربيمة هما العريمان من ولد إسماعيل .

(١) الأصول : الذى

(٢) الحبلّة : السكرمة

وروى ميمون بن مهران ، عن عبد الله بن العباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تَسُبُّوا مُضَرَ وَرَبِيعَةَ فَإِنَّهُمَا كَانَا مَسْلُومَيْنِ .
وقال صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه : « إذا اختلف الناس فالحق مع مُضَرَ » .

وسمع عليه الصلاة والسلام قائلًا يقول :
إِنِّي أَمْرُؤٌ حَيِّرٌ حِينَ تَنْسُبُنِي لَا مِنْ رَبِيعَةَ آبَائِي وَلَا مُضَرَ
فقال صلى الله عليه وسلم : ذَلِكَ أَبَعَدُ لَكَ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ رَسُولِهِ .

وبما يؤثر من حكم مُضَرَ بن نِزَار ووصاليه : من يزرع شراً يحصد ندامة ،
وخير الخير أعجله ، فاحملوا أنفسكم على مكروهاها فيما أصلحكم ، واصرفوها
عن هواها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فَوَاقٍ^(١) .

[أولاد مضر]

فولَدَ مُضَرُّ بن نِزَار رجلين : ألياس بن مضر ، وعَمِيلَان^(٢) بن مضر .
قال الزبير : وأمهما الخنفاء بنت إيلاد بن معد .
وقال ابن هشام : أمهما جُرْهمية .

ولما أدرك ألياس بن مضر ، أنكر على بني إسماعيل ما غيروا من سنن
آبائهم وسيرتهم^(٣) ، وبأن فضله عليهم ولأن جانيبه لهم ، حتى جمعهم رأيه ،
ورضوا به رِضًا لم يرضوه بأحد من ولد إسماعيل بعد أدد^(٤) .

(١) الفواق : هو الوقت بين الحلبتين .

(٢) هامش ١ : قال بعضهم : ليس في كلام العرب عيلان بالمهملة إلا هذا .

(٣) ط : وسيرهم .

(٤) كذا في ط . وبقيّة الأصول : بعده . وأدد من أولاد إسماعيل .

فردُّهم إلى سُنين آبائهم ، حتى رجعت سُنتهم قائمة على أولها .
وهو أول من أهدى البُذُن إلى البيت ، أو في زمانه .
وأول من وضع الركن للناس بعد هلاكه ، حين غرق البيت وانهدم زمنَ
نوح عليه السلام .
فكان أول من سقط عليه ألياس ، أو في زمانه ، فوضعه في زاوية
البيت للناس .
ومن الناس من يقول : إنما هلك الركنُ بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما
السلام ، وهو الأشبه ، إن شاء الله .
ولم تهرج العرب تعظُم ألياس بن مضر تعظيمَ أهل الحسكة ، كلقمان وأشباهه .

[أولاد ألياس بن مضر]

فولد ألياس بن مضر ثلاثة نفر : مُدْرِكَة ، وطابخة ، وقمعة .
وأُمهم خِنْدِف بنت حُلوان بن عمران بن الحاف بن قُضاعة ، واسمها إيلي ،
واسم مدركة عامر ، واسم طابخة عمرو ، واسم قمعة عمير .
وإنما حالت أسماؤهم إلى الذي ذكرنا أولاً عنهم ، فيما ذكروا ، أن أرنبا
أنفرت إبلَ ألياس بن مُضَر ، فصاح ببنيه هؤلاء أن يطلبوا الإبل والأرنب .
فأما عمير فاطلع من المظلة ثم قمع . فسمى قَمْعَة .
وخرج عامر وعمرو في آثار الإبل ، وخرجت أمهم إيلي تسمى خلفهم .
فقال لها زوجها ألياس : أين تخندفين ؟ أي أين تسعين . فسميت خِنْدِف .
ومرَّ عامر وعمرو بظبي ، فرماه عمرو فقتله ، ويقال : بل رمى الأرنب التي

أنفرت الإبل ، فقال له عامر : اطبخ صبيدك ، وأنا أكفيك الإبل . فطبخ عمرو ، فسمى طائخة .

وأدرك الإبل عامر ، فسمى مُدْرِكة .

واشتهر بدوخندف هؤلاء بأهمهم خندف للذى سار من فعلها في الناس .
وذلك أنه لما مرض زوجها ألياس وجدت لذلك وجداً شديداً ، ونذرت إن هلك ألاّ تقيم في بلد مات فيه ، ولا يُظاها بيت بمده ، وأن تسيح في الأرض . وحركمت الرجال والطبيب .

فلما هلك ألياس خرجت سائحة في الأرض حتى هلكت حزناً .

وكانت وفاته يوم الخميس ، فكانت كلما طلعت الشمس من ذلك اليوم تبكيه حتى تغيب ، فصارت خندف وما صنعت عجباً في الناس ، يتحدثون به ويذكرونه في أشعارهم .

فقبل لرجل من إباد ، أو همدان ، وقد هلك امرأته : ألا تبكي عليها ؟

فقال : لو كان ذلك يردها لفعلت كما فعلت خندف على ألياس .

ثم اندفع يقول :

فلو أنه يُغنى بكيتُ كخندفِ على ألياس حتى ملها الشرُّ تندبُ
إذا مؤنسٌ لاحت خراطيمُ شمسهِ بكيتُ غدوةً حتى ترى الشمس تغربُ
ولم تر عينها سوى الدفنِ قبرهِ فساحت وما تدرى إلى أين تذهبُ
فلم يُغنِ شيئاً طولُ ما بلفتُ به وما ظلتُ دهرتُ وعيشُ معذبُ

وفقدت امرأة من غسان أخاها ثم أباه ، فمكثت دهرأ تبكي عليهما ، فهاها

قوئها ، فقالت :

تَلْحُونُ سَلَمَى أَنْ بَكَّتْ أَبَاهَا
وَقَبْلُ مَا قَدْ تَسَكَّلَتْ أَخَاهَا
فَوَلُّوا الْعَذْلَ إِلَى سَوَاهَا
عَصَمَكُمْ سَلَمَى إِلَى هَوَاهَا
كَمَا عَصَتْ خِنْدَفُ مَنْ نَهَاها
خَلَّتْ بَيْنَهَا أَسْفًا وَرَاهَا
تَهْكِي عَلَى أَلْيَاسَ فَا أَتَاهَا

[أولاد مُدْرَكَة]

فولَد مُدْرَكَة بن أَلْيَاس نَفَرًا^(١) ، مِنْهُمْ خُزَيْمَة بن مُدْرَكَة ، وَهَذِيل بن مُدْرَكَة .

وَأُمُّهَا امْرَأَة مِنْ قُضَاعَة ، قِيلَ هِيَ سَلَمَى بِنْتُ سُؤَيْد^(٢) بنِ أَسْلَمَ بنِ الْحَافِ بنِ قُضَاعَة . وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ .

[أولاد خُزَيْمَة]

فولَد خُزَيْمَة بن مُدْرَكَة كِنَانَة وَأَسَدًا وَأَسَدَة وَالْهَوْن .

وَأُمُّ كِنَانَة اسْمُهَا^(٣) عَوَانَة بِنْتُ سَعْدِ بنِ قَيْسِ بنِ عَيْلَانَ بنِ مُضَرَ . وَقِيلَ هُنْدُ بِنْتُ عَمْرِو بنِ قَيْسِ بنِ عَيْلَانَ . قَرَأَتْهُ بِحُطِّ أَحْمَدَ بنِ يَحْيَى بنِ جَابِر .

(١) ابن هشام : رجلين خزيمية ...

(٢) ط : بنت سود .

(٣) ط : وأم كنانة منهم عوانة .

وأم سائر بنيه برّة بنت مُرّ أخت تميم بن مُرّ بن طابخة .

[أولاد كِنانة]

فولد كِنانة بن خُزَيْمة جماعة منهم : النَّضْر ، وبه كان يُسكني ، ونُضَيْر ، ومالك ، ومِلْكان ، وعُمرُو ، وعامر . وأمهم برّة بنت مُرّ ، خالف عليها كِنانة بعد أبيه خُزَيْمة ، على ما كانت الجاهلية تفعله ، إذا مات الرجل خالف على زوجته بعده أكبرُ بنيه من غيرها . فنهى الله عن ذلك بقوله : « ولا تفسكحُوا ما منكم بحجّ أبائكم من النساء إلا ما قد سلف ^(١) » .

ويقال إن برّة هذه ، لما أهديت أولاً إلى خزيمة بن مدركة ، قالت له : إني رأيت في المنام كأنني ولدت غلامين من خلاف بينهما ساكبياء ^(٢) ، فبينما أنا أتأملهما إذا أحدهما أسد يزأر وإذا الآخر قمر يدير .

فأتى خزيمة كاهنةً بتهامة ، فقص عليها الرؤيا ، فقالت لئن صدقت رؤياها لتلدن منك غلاماً يكون لولده قلوبٌ بأسلةٌ ، ثم لتموتن عنها فيخاف عليها ابنٌ لك ، فتلد منه غلاماً يكون لولده عزٌّ وعددٌ وقرومٌ تجدد وعز إلى آخر الأبد .

ثم توفي خزيمة ، فخلف عليها كِنانة بعد أبيه ، فولدت له النضر وإخوته . وإنما سمي النَّضْر ، لنضارة وجهه وجماله .

وأُتي أبوه كِنانة بن خزيمة وهو نائم في الحِجْر ، فقيل له : تخير يا أبا النضر بين الصهيل والهدر وعِمارة الجُدُر وعزّ الدهر .

فقال : كلُّي يارب .

(٢) السائباء : المشيمة التي تخرج مع الولد .

(١) سورة النساء ٢٢ .

فصار هذا كله في قريش .

والنضر هو جماع قريش في قول طائفة من أهل العلم بالنسب ، والأكثر على أن فهر بن مالك بن النضر هو قريش .

من كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي .
وذكر الزبير أن هذا هو رأي كل من أدرك من نُسَاب قريش .

[أولاد النضر بن كنفانة]

فولد النضر بن كنفانة مالكا ، ويخلد ، والصلت^(١) .

فولد مالك فهر بن مالك . وأمه جندلة بنت الحارث بن جندل بن عامر بن سميد بن الحارث بن مضاض الجرهمي . وهو جماع قريش عند الأكثر .

قال الزبير : قد اجتمع النُسَاب من قريش وغيرهم أن قريشا إنما تفرقت عن فهر . ويقال : إن قريشا هو اسمه الذي سمته به أمه ، ولقبه فهِرًا .

[أولاد فهر بن مالك]

فولد فهِر بن مالك غالبًا ومحاربًا والحارث وأسدًا ، وأختهم جندلة . وأم جميعهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة .

ولما حضرت الوفاة فهِر بن مالك ، قال لابنه غالب : يا بني ، إن في الحزن^(٢) إقلاق النفوس قبل المصائب ، فإذا وقعت المصيبة برُدَّ حرُّها ، وإنما القلق في غَلَيانها ، فإذا أنا ميتٌ فبرُدَّ حرُّ مصيبتك بما ترى من وقع المنيعة أسامتك وخلفك ،

(١) لم يذكره ابن هشام واقتصر على الأولين .

(٢) ط : الحذر .

وعن يمينك وعن شمالك ، وبما ترى من آثارها في مِحْيِ الحياة ، ثم اقتصر على قليلك ، وإن قلت منفعة ، فقليل ما في يدك أغنى لك من كثير ما أخلق وجهك وإن صار إليك .

[أولاد غالب بن فهر]

فولد غالب بن فهر لُوَيْيَا وَتَيْمًا^(١) ، وهو الأذرم ، كان منقوص الذن .
ويقال لقومه بنو الأذرم .

وأما ما في قول ابن اسحق ، سلمى بنت عمرو الخزاعي .
وفي قول الزبير عاتكة بنت يَحْمَد بن النضر .

وروي أن لُوَيْيَ بن غالب قال لأبيه ، وهو غلام حديث : يا أبت ، من رب معروفه قل إخلاقه ، ونضر ماؤه . ومن أخلقه أخله ، وإذا أخيل^(٢) الشيء لم يذكّر ، وعلى المولى تكبير صغيره ونشره ، وعلى المولى تصغير كبيره وسنّره .

فقال له أبوه غالب : إني لأستدل بما أسمع من قولك على فضلك ، وأستدعي لك به الطول على قومك ، فإن ظفرت بطول فعدّ على قومك بفضلك ، وكفّ غريب جهلهم بجهلك ، وأتمّ شعثهم برفقك ، فإنما تفضل الرجال الرجال بأفعالها ، ومن قايسها على أوزانها أسقط الفضل ولم تغلّ به درجة على أحد ، وللعلميا فضل أبدأ على الشفلي .

[أولاد لُوَيْي بن غالب]

فولد لُوَيْي بن غالب كعباً ، وعامراً ، وسامة ، وعوفاً ، وسعداً ، وخزيمة^(٣) .

(١) زاد ابن هشام : وقيس بن غالب وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعي .

(٢) ط : وإذا أخلق .

(٣) قال ابن هشام : ويقال : والحارث بن لؤي .

فدخل بنو خزيمة في شيبان ، ويسمون فيهم بمائدة ، وهى امرأة من الين ، كانت أم بنى عبيد بن خزيمة فنُسبوا إليها .

وكذلك دخل بنو سعد أيضاً في شيبان ، ويسمون فيهم ببئانة حاضنة كانت لهم من قضاة ، وقيل من النمر بن قاسط ، فنُسبوا إليها .

وأما سامة بن لؤى ، فخرج إلى عُمان ، ويزعمون أن عامر بن أوى أخرجه . وذلك أنه كان بينهما شيء ، ففقد سامة حين عامر ، فأخافه عامر ، فخرج إلى عُمان .

فيزعمون أن سامة بن لؤى بينما هو يسير على ناقته ، إذ وضعت رأسها ترتع ، فأخذت حية بمشقرها ، فهصرتها حتى وقعت الناقة لشقتها ، ثم نهشت ساقه^(١) فقتلته . فقال سامة حين أحس بالموت ، فيما يزعمون :

عين فابكى لسامة بن لؤى علق ما بسامة^(٢) العلاقة
لا أرى مثل سامة بن لؤى يوم حلوا به قتيلاً لناقة
بلغا عامراً وكعباً رسولاً أن نفسى إليهما مشقاة
إن تكن في عُمان دارى فلانى غالى خرجت من غير فاقه^(٣)
رُبَّ كأس هرق يابن لؤى حذر الموت لم تكن مُهراقه
رُمّت دَفْعَ الخوف يابن لؤى ما لمن رام ذلك بالخلف طاقه
وخروس السرى^(٤) تركت ردياً بمد جدّة وحِدّة ورشاقه

(١) ابن هشام : سامة .

(٢) الأغاني : علق ساق سامة .

(٣) ابن هشام : من غير ناقة ، وما هنا أصح .

(٤) خروس السرى : ناقة صوبت صابرة .

قال ابن هشام : وبلغني أن بعض ولده أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتسب إلى سامة بن لؤي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشاعر ؟ فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله :

رُبَّ كَأْسٍ هَرَقْتَ يَا بَنَ لُؤَيٍّ حَذَرَ الْمَوْتِ لَمْ تَكُنْ مَهْرَاقَهُ
قال : أجل .

* * *

قال ابن إسحاق : وأما عوف بن لؤي ، فإنه خرج فيما يزعمون في ركب من قريش ، حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أبطىء به ، فانطلق من كان معه من قومه ، فأتاه ثعلبة بن سعد^(١) بن ذُبْيَان بن بغيض ابن رَيْث بن غطفان ، فخبسه والقاطه وآخاه وزوجه ، فانتسب بتلك المؤاخاة إلى سعد بن ذُبْيَان أبي ثعلبة .

وثعلبة ، يزعمون ، هو القائل له :

احبسْ عليَّ ابنَ لُؤَيٍّ جَهْلَكَ
تَرَكَكَ الْقَوْمُ وَلَا مَثْرَكَ لَكَ^(٢)

ويروى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، قال : لو كنت مُدْعِيًا حَيًّا من العرب أو مُلْحِقَهُمْ بنا لا دَعَيْتُ بَنِي مُرَّة بن عوف ، إنا لنعرف منهم الأشباه مع ما نعرف من مَوْقِعِ ذلك الرجل حيث وقع . يعنى عوف بن لؤي .

(١) ابن هشام ، وهو أخوه في نسب بني دبيان .

(٢) ابن هشام ولا منزل .

وهو في نسب غطفان مرة بن عوف بن سعد بن ذُبْيَان ، وهم يقولون إذا ذكر لهم هذا النسب : ما نذكره ولا نبحده ، وإنه لأحبُّ النسب إلينا .

وقيل : إن همر بن الخطاب قال لرجال من بني مرة : إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجموا إليه . وكان القوم أشرافا في غطفان هم ساداتهم وقادتهم ، منهم هَرَم بن سِفان بن أبي حارثة ، وأخوه خارجة بن سِفان ، والحارث بن عوف ، والحَصين بن الحُمَام ، وهشام بن حرملة ، قوم لهم صيت وذكور في غطفان وقيس كلها ، فأقاموا على نسبهم .

على أن الحَصين بن الحُمَام قد تحوّر في هذا واختلف رأيه ، فلما سمع قول الحارث بن ظالم ، أحد بني مُرّة بن عوف ، حين هرب من النعمان بن المنذر ولحق بقريش :

وما ^(١) قومي بشعلبة بن سعد ولا بفزارة الشعر ^(٢) الرقابا
فقومي ^(٣) إن سألت بنو لؤي بمكة علموا مضرّ الضرابا
سفينما باتباع بني بغيض وترك الأفريين لنا انتسابا
سفاهة تخاف لما تروى هراق الماء واتبع السرابا
فلوطوت عمرك كدت منهم وما ألفت أنتجع السحابا

قال الحَصين بن الحُمَام يردُّ عليه وينتمى إلى غطفان :

ألا لستم مفا ولسنا إايكم برثنا إايكم من لؤي بن غالب

(١) ابن هشام : فا .

(٢) الشعر : جمع أشعر ، وهو الكثير الشعر .

(٣) ابن هشام : وقوي .

أَقَمْنَا عَلَى عِزِّ الْحِجَازِ^(١) وَأَتَمُّ بِمُعْتَلَجِ الْبَطْحَاءِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ

يعنى قريشاً

نَمِ نَدِيمُ الْحُصَيْنِ عَلَى مَا قَالَ ، وَعَرَفَ صَدَقَ الْحَارِثُ^(٢) ، فَأَكْذَبَ
نَفْسَهُ وَقَالَ :

نَدِمْتُ عَلَى قَوْلٍ مَضَى كُنْتُ قُلْتُهُ تَبَيَّنْتُ فِيهِ أَنَّهُ قَوْلُ كَاذِبٍ^(٣)

فَلَيْتَ لَسْتُ أَنِي كَانَ نَصِيفَيْنِ مِنْهُمَا

بَيْكِيمٍ وَنِصْفٍ عِنْدَ مَجْرَى الْكَوَاكِبِ

أَبُونَا كَيْفَانِي بَكَّةَ قَبْرُهُ بِمُعْتَلَجِ الْبَطْحَاءِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ

لَنَا الرُّبْعُ مِنْ بَيْتِ الْحَرَامِ وَرِثَاةٌ وَرُبْعُ الْبِطَاحِ عِنْدَ دَارِ ابْنِ حَاطِبٍ

يعنى أن بنى لؤى كانوا أربعة ، كعباً ، وعامراً ، وسامة ، وعوفاً .

[الْبَسْل]

وَفِي بَنِي مُرَّةِ بْنِ عَوْفٍ كَانَ الْبَسْلُ^(٤) ، وَذَلِكَ ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ حُرُمٍ لَهُمْ مِنْ كُلِّ
سَنَةٍ مِنْ بَيْنِ الْعَرَبِ ، يَسِيرُونَ بِهِ إِلَى أَى بِلَادِ الْعَرَبِ شَاءُوا ، وَلَا يَخَافُونَ مِنْهُمْ
شَيْئاً ، قَدْ عَرَفُوا ذَلِكَ لَهُمْ لَا يَدْفَعُونَهُ وَلَا يُفَكِّرُونَهُ .

وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ إِذَا يَأْمَنُونَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ الْأَرْبَعَةِ فَقَطْ .

(١) ط : غر الحجاز .

(٢) ابن هشام : وعرف ما قال الحارث بن ظالم فأتى إلى قريش وأكذب نفسه .

(٣) ط : أنه جد كاذب .

(٤) البسل : الحرام والحلال ، ضد للواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

— ٣٤ —

وذكر الزبير عن أبي عبيد ، أنه كانت لقريش في هذا مزية على سائر العرب قاطبة ، وذلك أن العربي لم يكن ليخرج من داره في غير الأشهر الحرم إلا في جماعة ، وكان القرشي يخرج حيث شاء أني شاء ، فيقال : رجل من أهل الله فلا يعرض له عارض ، ولا يرميه أحد بمكروه ، ويعظمه من لقيه أو ورد عليه ، ولذلك قال من قال منهم : القرشي بكل بلد حرام .

* * *

وأما كعب بن لؤي ، وعامر بن لؤي ، فهما أهل الحرم وصريح ولد لؤي .
وكان كعب منهما عظيم القدر في العرب ، وأرخوا بموته إعظاما له ، إلى أن كان عام الفيل فأرخوا به .

وكان بين موته والفيل ، فيما ذكروا ، خمسمائة وعشرون سنة . وكان يوم الجمعة يسمى العروبة ، فسماه كعب الجمعة لاجتماع قومه فيه يخطبهم ويذكّرهم .

فيقول فيما يقول :

أيها الناس اسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ونهار ضاح ، والسماء بقاء ، والأرض مهاد ، والنجوم أهلام ، لم تخلق عبثا فتضربوا عن أمرها صفحا ، الآخرون كالأولين ، والدار أمامكم ، واليقين غير ظلمكم ، صلبوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وأوفوا بعهدكم ، وثمروا أموالكم ، فإنها قوام مروءاتكم ، ولا تصونوها عما يجب عليكم ، وعظموا هذا الحرم وتمسكوا به فسيكون له نبي عظيم ، وسيخرج نبي كريم .

ثم ينشد أبياتا منها :

صُروفٌ وأنباءٌ تقلبُ أهلها لها عُقدةٌ ما يستحيل مريها

على غفلة يأتى النبي محمد فُيُخْبَرُ أَخْبَاراً صَدْرُقُ خَيْرُهَا

ثم يقول :

يا ليتنى شاهدُ فُخْوَءِ دَعْوَتِهِ حِينَ الْعَشِيرَةِ تَبْغِي الْحَقَّ خُذْلَانَا
أما والله لو كدتُ ذا سَمْعٍ وبَصَرٍ ويدُ ورجلٍ لَتَنَصَّبْتُ فيها تَنْصِبَ الْفَحْلِ ،
وَلَأَرْقَلْتُ فيها إِرْقَالَ الْجَمَلِ ، فَرِحَا بِدَعْوَتِهِ جَذَلًا بِصَرَخَتِهِ .

[أولاد كعب بن لؤى]

فولَدَ كَعْبُ بْنُ لُؤْيٍ مُرَّةً ، وَهَضَيْصًا ، وَعَدِيًّا .

وَأُمُّهُمْ وَحْشِيَّةُ بِنْتُ شَيْبَانَ بْنِ مَخَارِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكٍ .
وَقِيلَ إِنَّ أُمَّ عَدِيٍّ وَحْدَهُ امْرَأَةٌ مِنْ فِهْرِ ، وَهِيَ حَبِيبَةُ بِنْتُ بَجَالَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ
قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارٍ .

فولَدَ مُرَّةُ بْنُ كَعْبٍ كِلَابًا ، وَتَيْمًا ، وَيَقْظَةَ .

فولَدَ كِلَابُ بْنُ رَجَلَيْنِ : قُصَيًّا وَزُهْرَةَ . وَأُمُّهُمَا فَاطِمَةُ بِنْتُ سَعْدِ بْنِ سَيْلٍ ، أَحَدُ
الْجَذَرَةِ مِنْ جُعْثَمَةَ^(١) الْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ ، حَلَفَاءُ فِي بَنِي الدَّيْلِ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَهْدِ مَنَاةَ
ابْنِ كِنَانَةَ ، وَيُقَالُ جُعْثَمَةُ^(١) الْأَسَدِ .

وَأَسْمُ سَيْلٍ خَيْرٌ ، وَإِنَّمَا أُسْمِي سَيْلًا لِطَوْلِهِ . وَسَيْلٌ أَسْمُ جَبَلٍ .

وَهُوَ خَيْرُ بْنُ حِمَالَةَ بْنِ عَوْفِ بْنِ غَنَمِ بْنِ هَامِرِ الْجَادِرِ ، بْنِ عَمْرِو بْنِ جُعْثَمَةَ^(١)
ابْنِ يَشْكُرٍ ، بْنِ مُبَشَّرٍ ، بْنِ صَدْبِ بْنِ دَهْمَانَ ، بْنِ نَهْرٍ ، بْنِ الْأَزْدِ .

(١) الأصول : من خُثَمَةِ الْأَسَدِ وَالتَّصْوِيبِ مِنْ ابْنِ هِشَامٍ وَالسَّمِيلِ .

وُسَمِيَ عَامِرُ الْجَادِرِ لِأَنَّهُ بَنَى جِدَاراً لِلْكَعْبَةِ ، كَانَ وَهَى مِنْ سَيْلِ أُنَى أَيْلَمَ
وِلَايَةِ جَزْمِهِمُ الْبَيْتَ .

وَكَانَ عَامِرٌ تَزَوَّجَ مِنْهُمْ بِنْتَ الْحَارِثِ بْنِ مُضَاضٍ ، وَقِيلَ لَوْلَاهُ الْجَدْرَةُ لَذَلِكَ .
وَذَكَرَ الشَّرْقِيُّ بْنُ الْقَطَامِيِّ ، أَنَّ الْحَاجَّ كَانُوا يَتَمَسَّحُونَ بِالسَّكْبَةِ وَيَأْخُذُونَ
مِنْ طِينِهَا وَحِجَارَتِهَا تَبْرُكاً بِذَلِكَ ، وَأَنَّ عَامِراً هَذَا كَانَ مُوَكَّلَاً بِإِصْلَاحِ مَا شَعَثَ مِنْ
جُدُرِهَا ، فَسَمَّى الْجَادِرَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَسَعْدُ بْنُ سَيْلِ جَدُّ قُصَيٍّ بْنِ كِلَابٍ ، هُوَ أَوَّلُ مَنْ حَلَّى السُّيُوفَ بِالْفِضَّةِ
وَالذَّهَبِ ، وَأَهْدَى إِلَى كِلَابِ بْنِ مُرَّةٍ مَعَ ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ سَيْفَيْنِ مُخَلَّيْنِ ، فَجَعَلَ فِي
خِرَازَةِ السَّكْبَةِ .

وَقُصِيَ هُوَ الَّذِي جَمَعَ اللَّهُ بِهِ قُرَيْشًا ، وَكَانَ اسْمُهُ زَيْدًا ، فَسَمَّى مُجْمَعًا لِمَا جَمَعَ
مِنْ أَمْرِهَا . وَسَمَّى قُصَيًّا لِتَقْصِيهِ عَنْ بِلَادِ قَوْمِهِ مَعَ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ
كِلَابِ بْنِ مُرَّةٍ .

وَحَدِيثُهُ فِي ذَلِكَ طَوِيلٌ ، وَسَفْذَكَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عِنْدَ ذِكْرِ وِلَايَتِهِ الْبَيْتَ ،
وَهُنَاكَ نَذَرَ مَآثِرَهُ وَعِظَمَ غَنَائِهِ فِي إِقَامَةِ أَمْرِ قَوْمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَإِنْ
الْقَصْدُ هَذَا الْإِيجَازُ مَا أَمَكَّنَ فِي إِيْرَادِ هَذَا النَّسَبِ الْمُبَارَكِ ، لِتَحْصُلِ لِسَامِعِهِ
الْفَائِدَةُ بِانْتِظَامِهِ وَاتِّصَالِهِ ، وَلَا يَعْضِلُ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِمَا تَحُلُّلُ أُنْمَادِهِ مِنَ الْقَوَاطِعِ
الَّتِي تُبَاعَدُ بَيْنَ أَطْرَافِهِ .

فَوَلَدَ قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ .

عَبْدَ مَنَافٍ ، وَعَبْدَ الدَّارِ ، وَعَبْدَ الْمُزَيِّ ، وَعَبْدُأَ ، وَتَخْمُرَ ، وَبَرَّةَ .

— ٣٣ —

وَأَسْمَهُمْ جَمِيعًا حُجْبَى بِنْتُ حُلَيْلِ بْنِ حَبْشِيَّةَ^(١) بْنِ سَلُولِ بْنِ كَعْبِ بْنِ
عَمْرِو بْنِ لُحَايَ .

وَسَادُ عَبْدِ مَنَافٍ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ ، وَكَانَ مَطَاعًا فِي قُرَيْشٍ ، وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى
الْقَمَرَ لِحَالِهِ ، وَاسْمُهُ الْمَذْيَرَةُ .

ذَكَرَ الزَّيْزُرِيُّ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقَيْبَةَ ، أَنَّهُ وَجَدَ كِتَابًا فِي حَجَرٍ ، فِيهِ : أَنَا الْمَذْيَرَةُ
ابْنُ قَصِي ، أَمَرُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَصَلَةِ الرَّحِمِ .

وَأَيَّاهُ عَنَى الْقَائِلُ بِقَوْلِهِ :

كَانَتْ قُرَيْشٌ بَنِيضَةً فَتَفَلَّقَتْ فَالْمَحُ خَالِصُهُ لِعَبْدِ مَنَافٍ

[أَوْلَادُ عَبْدِ مَنَافٍ]

فَوُلَدُ عَبْدِ مَنَافٍ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ : هَاشِمًا ، وَعَبْدَ شَمْسٍ ، وَالطَّلَابَ ، وَنَوْفَلًا .

وَكُلُّهُمْ لِعَاتِكَةُ بِنْتُ مَرَّةَ بْنِ هَلَالِ بْنِ فَالِجٍ ، بِنْتُ ذَكْوَانَ ، بِنْتُ ثَمَلِيَّةَ ،
ابْنُ بُهَيْشَةَ ، بِنْتُ سُلَيْمٍ ، بِنْتُ مَنصُورٍ ، بِنْتُ عِكْرِمَةَ ، بِنْتُ خَصْفَةَ بِنْتُ قَيْسِ بْنِ
عَيْلَانَ ، بِنْتُ مُضَرَ .

إِلَّا نَوْفَلًا مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُ لَوَاقِدَةُ بِنْتُ عَمْرِو الْمَسَازِينَةِ . مَازَنُ بْنُ مَنصُورٍ
ابْنُ عِكْرِمَةَ .

فَوُلَدُ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ وَخَمْسُ نِسَاءٍ .

(١) وَتَضَبُّطٌ أَيْضًا — كَمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ — بَضْمُ الْحَاءِ وَتَسْكِينُ الْهَاءِ .
(٣ — الْاِكْتِفَاءُ)

عبد المطلب ، وأسدًا ، وأبا صيفي ، ونضلة ، والشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ،
ورقية ، وحية .

وأم عبد المطلب منهم سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خديش ، بن
عامر بن غنم بن عدى ، بن النجار .

[أولاد عبد المطلب]

فولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة .

المباس ، وحمة ، وعبد الله ، وأبا طالب ، واسمه عبد مناف ، والزبير ،
والحارث وهو أكبرهم ، والحجل ، والمقوم ، وضرارا ، وعبد النزي أبا هلب ،
وصفية ، وأم حكيم البيضاء ، وعانكة ، وأميمة ، وأزوى ، وبرّة .

فأم عبد الله وأبي طالب وجميع النساء غير صفية ، فاطمة بنت عمرو ، بن عائذ ،
ابن عمران ، بن مخزوم ، بن يقظة ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤى .

[محمد بن عبد الله]

فولد عبد الله بن عبد المطلب ، محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين
وسيد الأولين والآخرين ، ونخبة الخلق أجمعين ، فنسبه صلى الله عليه وسلم
أشرف الأنساب ، وسببه إلى الله سبحانه باسمطائه إياه واختياره له أفضل
الأسباب ، وبيته في قريش أوسط بيوتها الحرمية ، وأعرق معادنها السكرمية ،
لم تخل قط مكة من سيد منهم أو سادات ، يكونون خير جيلهم ورؤساء قبيلهم ،
حتى إذا درجوا سما قسّموا في المجد الصميم ، وشركاؤهم في النسب الكريم
إلى ذلك المقام ، فمرّجوا فصحبوا على ذلك الزمان .

لواؤم على من ناوأم منصور ، وشؤدؤ البطلحاء عليهم منصور ، والعيون
إليهم أية سلكوا صور^(١) .

ثم أتى الوادى فعلم على القرى ، وشد الله أركان مجدهم العريق العتيق
بهذا النبي الأسمى ، فاحتازوا الجدة عن آخره ، وفازوا من شرف الدين والدنيا
بما تعجز ألسنة الباطاء عن أدنى مفاخره .

وأمه صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ،
ابن كلاب ، قسيمة أبيه من هذا الأب ، وكريمة قومها أولى المسكان
النبية والحسب .

وحسبها من الشرف المتين والكرم المبين والفخر المسكن غاية التمكن ،
أن كانت أمًا لخاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين .
فكيف ولها من نصاعة الحسب الحسب ، وعتاقة النسب والنسب ،
ما يقف عند التطلع ، وتعترف له قريش البطاح .

فرسول الله صلوات الله وبركاته عليه ، خيرة الخيرة من كلاً طرفيه .
وقد اهتفى الناس بنسبه الكريم نثرًا ونظمًا ، ونظموا عن آبائه الأجداد ،
وأسمائه الطاهرات الميلاذ أبًا فأبًا وأمًا فأمًا .

فرادوا من ذلك الفخار حسدائق غلبًا ، وسادوا من شرف تلك الآثار
مراتي ضميًا .

(١) أى مثله . قبله سور كبريخ مال ، وهو أسور .

وقد تقدمت من ذلك نُبْذَ منثورة أثناء الكلام ، وسقأتى إن شاء الله منظومة مع أشكالها ، تفوق المَقْد في النظام ، في قصيدة فريدة مفيدة ، لأبي محمد الله بن أبي الخصال ، خاتمة رؤساء الآداب ، والعلماء المبرزين في هذا الباب ، تَمَّها معراج المناقب ، ومنهاج الحَسَب الثاقب ، في ذكر نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ومناقب أصحابه ، قرأتها على شيخنا الخطيب أبي القاسم بن حُبَيْش ، وقد رأيت أن أُورِدَ منها هنا ما يختص بهذا النسب الكريم على اختصار ، يفي إن شاء الله بالغرض المُرُوم ، إذ الكلام المنظوم أغْذَبُ جَرِيًّا على الألسن وأهْذَبُ رَأْيًا في الإفادة بالمستحسن .

وأولها :

إليكَ فَهْمِي والنَّوَادُ بِمُتَرَبِّ وإن عاتقني عن مَطْلَعِ الوحي مَعْرِبِي
أَعْلَلُ بِالْأَمَالِ نَفْسًا أَغْرُهَا بتقديم غاياتي وتأخير مَذْهَبِي
وَدَيْنِي عَلَى الْأَيَّامِ زُورَةً أَحْمَدِي فهل ينقضي دَيْنِي وَيَقْرُبُ مَطْلَبِي
وَهَلْ أُرِدَنْ فَضْلَ الرَّسُولِ بِطَيْبَةٍ فَيَا بَرْدَ أَحْشَائِي وَيَا طَيْبَ مَشْرِبِي
وَهَلْ فَضَّلْتُ مِنْ مَرَكَبِ الْعَمْرِ فَضْلَةً

تُهْلِكُنِي أَمْ لَا بِلَاغَ لِمَرْكَبِي ؟
أَلَا لَيْتَ زَادِي شَرِبَةً مِنْ مِيَاهِهَا وهل مثلها رِيًّا لِنُفْلَةٍ مُذْنَبِي
وَيَا لَيْتَنِي فِيهَا إِلَى اللَّهِ صَائِرٌ وقابلي عن ^(١) الْإِيمَانِ غَيْرُ مُقَلَّبِي
وَلَيْتَ أَمْرًا وَارَى الْبَقِيْعُ عِظَامَهُ لَفِي زُورَةٍ تُتَّقَى بِسَهْلٍ وَمَرْحَبِي
وَفِي ذِمَّةٍ مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ التُّرَى وَمَنْ يَمْتَلِقُهُ حَبْلُهُ لَا يُمَذَّبِي

وما لي لا أشري الجنان بزمّة
وماذا الذي يثني عفاي وإني
أفقر؟ فني كفى لله نعمّة
وقد مرّنت نفسي على البند وانطوت
وكم غربة في غير حق قطعها
وكم فاز دوني بالذي رمت فائز
أراه وأهوى فملة البرّ قاعدا
أمانى قد أفنى الشباب انتظارها
وقد كنت أشري في الظلام بأدم
فن لي وأنّى لي بريح تحطى
إلى الهاشمي الأبطحى عميد
إلى صفوة الله الأمين لوحيه
إلى ابن الذبيحين الذي صبغ بجمده
إلى المنتقى من عهد آدم في الذرى
إلى من تولى الله تطهير بيته
فجاء برىء العرض من كل وضمة
فما شئت من أمّ حصّان ومن أب
كرّوض الرّبا كالشمس في رواق الضحى
كنائىء ماء المزن^(١) قبل التصويب

(١) السبب : المفاضة أو الأرض المستوية البعيدة .

(٢) تلب : أشمر .

(٣) العيس - بكسر العين : الأصل ، والمؤشب : المختلط .

(٤) ب : السحب .

عليه من الرحمن عين كلابه
إذا أعرضت أعرافه عن قبيلة
وما عبرت إلا على مسلك الهدى
فمن مثل هدير الله خير لدائه
إذا اتصلت بجاءتك أولاد زهرة
ولا خال إلا دون سمير بن مالك
ومن ذل له جد كشيبة ذى الندى
له سؤدد البطحاء غير مدافع
أبو الحارث السامي إلى كل ذروة
به وبها في برده من أمانة
وأهلك بالطير الأبايل جهمهم
وفيما رآه شيبه الحمد آية
وفي ضربه عند القيد أح مروءة
وما زال يرمي والسهام تصيبه
وكانوا أناسا كلما أمهم أذى
وعاش بنو الحاجات منهم وأخصبوا
وصرو المبالى هاشم وثرثها
بمخفى جفان كالجواب مديخة
هو السيد المتبوع والقمر الذى
بني الله للإسلام عزاً بهمه

تجنيبه للمسام كل مجنب
فما أهرضت إلا لأمر منجب
ولا عثرت إلا على كل طيب
وآمنة في خير صنه^(١) ومنصب
كأنشد الشرى من كل أشوس أغلب
ولو كان في علياً معدة ويمررب
وساق الحبيج بين شرق ومغرب
وحومة ما بين^(٢) الصفا والمحصب
يقصر عن إدراكها كل كوكب
حتى الله ذاك البيت من كل رهب
فيا لهم من عارض غير خلج^(٣)
تلوح لعين الناظر المتعجب
ومن يرم بين العين والأنف يرهب
إلى أن وقته الكوم^(٤) من نسل أرحب
تكشف عن صنعه من الله معجب
وإن أصبحوا في منزل غير مخصب
بمكة يدعو كل أغبر مجذب
ملئ عبيطات السقام المرهب
على صفحته في الرضا ماء مذهب
إلى مفتحي الأحياء من آل يثرب

(١) الضن: الأصل.

(٢) ت: حرمة.

(٣) الحلب. الطمع الخلف. (٤) الكوم: جمع كوما وهى النافذة العظيمة السنام

وعهدُ منافٍ دوحةُ الشرف التي
مُطاعُ قريش والسكفيلُ بعزمها^(٢)
وزيدٌ ومن زيدٌ؟ قصيُّ بنِ مجشم
به اجتمعت أحياءُ فُهر وأحرزتُ
وأصبح حكمُ الله في آل بيته
وما أسلمته عن تراخي^(٣) خزاعةُ
ولا ذتُ قريش من كلاب بن مُرة
ومرة ذو نفس لدى الحرب مُرة
وكعبٌ عقيدُ الجود والحلم والنهي
خطيبُ لؤيٍّ واللواء بكفه
وأول من سمي العروبةُ جُمعة
وأرخ آلُ الله دهرًا بموته
وأضحى لؤيٌّ غالبًا كلَّ ماجدٍ
وفهرُ أبو الأحياء جامعُ شملها

تفرع منها كلُّ أروغٍ مخرب^(١)
ومانعها من كل ضيمٍ ومتهيب
سمعتُ وبلغنا وحسبك فاذهب
تراثَ أبيها دون كلِّ مذذب
فهم حوله من سادين وحجيب
ولسكن كما عَضَّ الهناء بأجرب
بجذلٍ حِكاكٍ أو بعذقٍ مُرجب^(٤)
وفي السلم نفسُ الصرخديِّ المذوب^(٥)
وذو الحكمِ الغرُّ المبشرُ بالنبي
لُطبةُ نادرٍ أو لُطبةُ متنب^(٦)
وصدراُما بعدُ، يلحى ويعطي^(٧)
سدين سُدَيُّ يَتَمَعْنِ كَفَّ الحُسب
ومن غالبٌ يَنُمِيهِ للمجد يغلب
وكاسبها من نخره خيرَ مكسب

(١) الحرب : المنمَس في المروب .

(٢) ط ب : بهزها .

(٣) ط : تراش .

(٤) الجذل المحسك ، كعظم ، الذي ينصب في العطن لتحتك به الجري . والمقصود أنه يشتق برأيه ، والعذق بفتح الهمزة النخلة بجميعها ، والترجيب : ضم أعذاقها إلى سماتها وشدها بالحنوس لثلاثتها الريخ أو وضع الشوك حولها لئلا يصل إليها آكل ، وفي المثل : أنا جذيلها المحسك وعذيقها المرجب .

(٥) الصرخدي : الشراب .

(٦) ١ : معاقب . والمقنب : الجماعة من الجيش .

(٧) يلحى : يلوم . ويعطي : يستميل .

تقرش فامتازت قریش^(١) بفضلہ
وغادرہ اسمًا فی السکتاب منزلاً
ومالک^(٢) المرزبي^(٢) علی کل مالک
هو الیث فی المیجاء والغیث فی الندی
تردی بفضلہ فاض علی الجد^(٣) نسجه
وللنضر یا للنضر^(٤) من کل مشہد
وأغرض^(٥) ببحر من کفاة زاخر
وخیر حکما فی الصہیل أو الرضا
فلم یقتصر واختار کلاً لحازہ
له البیت محجوجاً وعراً مخالد
وخازم أناف المتساء خزیمہ
عظیم استلمی بذت سود بن أسلم
ومذرکة ذو الیمن والتنجیح عامر
ترامی مطلاً إذ تمع صنفوه
لأم الجبال الشم والقطر والحصى
والیاس مأوی الناس فی کل أزمة
وزاجرهم إذ بدلوا الدین ضلّة

وسدّ فسدوا خلة المتأوب^(١)
یمرّ به فی آیه کل مغرب
فتی النضر حابته السیادة بل حی
وبذر الدیاجی حین یسری ویحتی
ولیس علیہ ، فلیجرّ ویسحب
هو الشمس صعد فی سناها وصوب
یساق إلى أمواجه کل مذنب
أو البیت أوعز علی الدهر مضعب
إلى غایة العزّ السدید الملقب
وأجرد یعوب^(٢) إلى جنب أصهب^(٢)
فلاذوا بأخلاق الدلول المغرب
لکل قضای کریم معصب
وخیر مسمی فی العلاء وملقب
ففاز بقدر ظافر لم یحیی
لخندف إن تسترکب الأرض ترکب
ومزربهم فی کل خوف ومزهب
وأضحوا بلا هاد ولا متحوب^(٧)

(١) مأویہ : أمّ لیل .

(٢) ت : المدلی .

(٣) ١ : الحمد .

(٤) غیر ط : ما للنضر وقد سقط هذا البیت من ١ .

(٥) ١ : وأغوس .

(٦) الیسوب : الفرس السریع العاقل . والأصهب : بعیر لیل ، شدید البیاض .

(٧) المتحوب : المتأثم الذی یترك الحوب ، وهو الإثم .

وجاءهم بالركن بعد هلاكه

وقد كان في صدع من الأرض أنكسب
وما هو إلا معجز للنبوة
وحس وأهدى البذن أول مشعر
لبشرى وعقبى للبشير المعقب
وكم حكمة لم نسمع الأذن مثلها
له إن تلح في ناظر العين تكتسب
إلى قنص تنميه سوداء ، نبتة^(١)
كلا طرفيه من معدن المنسب
وفي مضر تاه الكلام وأقبلت
مأثر شدت كل وجه ومذهب
وحينا^(٢) وكأثرنا النجوم بجمعها
بأ كبر منها في العبد وأثقب
هنالك آتى الله من شاء فضله
وقيل لهذا سير وللآخر اركب
وكانا شقي حتى نبذة فتنازتا
لعلم وحكم ماله من معقب
وما منها إلا حنيف وهسلم
على نهج إسماعيل غير منكب
وقد سلم الأفق بنجران حكمه
إليهم ولم ينظر إلى متعقب
رأى فطنا أبدت له عن نبحاره
وكان لنفع فاستحال لأثاب^(٣)
وتلك علامات النبوة كلها
تشير إلى منظورها المترقب
وقال رسول الله مهما اختلفتم
ولم تعرفوا قصدا السبيل الملحّب
ففي مضر جرثومة الحق فاعبدوا
إلى مضر تلقوه لم ينقب
وما سيد إلا زار بفوته
ومن فاته بدر الدجى لم يؤنب
قريب معدن والذى سد نقه
مق يأتهم شعب من الدهر يرأب
أبو أنحر الدنيا وأطواها التي
بها ثبت طرا فلم تتقلب

(١) ت : أمه .

(٢) وحيا : أسرنا

(٣) الأناب : شجر ، واحدته بهاء .

ولم يكن فيه حتى أعانت معانته
وجاء مَعْدُ السَّما والسماء شموها
وبين يديه الأنجمُ الزُّهُرُ بَها
وقدما تحفى الله من بختهم
وجذبته أرض التَّوَارِ وحازته
وحلَّ بأرمينية تحت حفظه
فلما تجلَّى الرَّوعُ أُسْرَى بعبده
وقد كان ردَّ الله عنهم كليلته
وجاء بدو يعقوب يشكون منهم
فقال له : لا تدع موسى عليهم
أحبتهم فيهِ رِضا وأحبته
وأغفر إن يستغفروني ذنوبهم
فقال إذن فاجعلهم رب أمي
فقال هم في آخر الدهر صفوتي
دعائم إيمان وأركان سودد
ومصعدُ عدنان إلى جندم آدم
ونهى رسول الله صدد وجوهها
ولمّا فادُّ بن الهَمَيْسَعِ مائلٌ
وواجه أعراقُ الثرى كل من ترى

بكل عتيق جرهمي مَهْدَبِ
وأقارها في ذيله المتسحبِ
على الأرض حتى لا مساغ لأجنبي
به والورى من هالك ومعدبِ
إلى مَعْقِلٍ من حِرْزه متأشبِ^(١)
لدى ملك عن جانبيه مُدَبِّ^(٢)
إلى حرم أمن لأبنائه اجتبي
ليالى يدعو دعوة المتغضبِ
يدادونه هذا قتيلٌ وذا سبي
فمنهم نبيُّ أصطفيه واجتبي
كذلك من أحببته يُكرّم ويُحببِ
ومهما دعا داعٍ أُجِبَ وأقربِ
فن ترضه يارب يُرضَ ويُزغِبِ
يعضون أعدائى ويستنصرون بى
مضت بعلاها مَهْدَدُ بنت جُلَحَبِ
بأبْنَيْنِ من قصد الصباح وألحبِ^(٣)
وكان لما في نظمها شدُّ ملهيبِ
ونبتُ بن قيدارٍ سلاله أشجَبِ^(٤)
وأسمع إسماعيل دعوة مُكْتَبِ

(١) أشب الشجر وتأشب : التفت . (٢) مذهب : مدافع .

(٣) ألحب : أوضح .

(٤) الأسماء من هنا إلى آخر القصيدة تذكر لدى المؤرخين مختلفا مضطربة ، قال ابن خلدون : ولعل الخلاف جاء من قبل اللغة لأن الأسماء ترجعت من العبرانية .

وقام خليلُ الله يـسـلـوه آزرُ
 إلى الناحر بن الشارع الغمر يرتقى
 ويـمـبر ينميه إلى الجسد شالغ
 لسام أبي السامين طراً سما بهم
 لإدريس ثم الرائد بن مهمل
 إلى هبة الرحمن شيث بن آدم
 فـهـه خـلـقنا ثم فيه مـقـادنا
 أغـرـه صـبـاحي لأذم غنـب
 وللداع ثم القاسم الشامخ الأب
 إلى الرافد الوهاب برك وطيب
 لنوح لـلـسـكان العلى لثوب
 إقـيـنـن ثم الطاهر المتطـيـب
 أبي البشر الأعلى لطـيـن لـأـثـمـب^(١)
 ومنه إلى عـذـن فـسـد وقارب^(٢)

* * *

وهنا انتهى ما يخص الملقى العلى من هذه الكلمة ، التي فرى ناظمها في
 الإحسان الفرى المحمود ، فاقتصر منها على ما وفى بالغرض المقصود ، واستوفى
 رجال النسب المجيد والحسب القليل ، تعجيلاً لقرى المستفيد ، واكتفاء من القلادة
 بالقدر المحيط بالجيد ، وإنها إن شاء الله لكافية في الباب ، ومقدمة في الكلام
 الباب ، وتحفة إنما يعرف قدرها أولو الألباب .
 والله يجزى قائلها الحسنى ، وينفعه بمقصده الأسمى .

* * *

وإذا قد انتهينا إلى ما حسن لدينا لإيراده في هذا المعنى وصفاً وذكرًا ، وخدمنا
 النسب الأشراف نظماً ونثراً ، فلندرج على ذكر البقعة التي اختارها الله لرسوله
 الكريم منشأً ، وجعلها لقومه قراراً ومتبهاً ، وأولية البيت العتيق الذي جعله
 الله مثابةً وأمناً للناس ، ورفعنا على أفضل القواعد وأكرم الأساس ، ثم دحا
 الأرض من تحتها رفعاً للشبهة في شرفه والالتباس .

(٢) الأصل : قرب .

(١) الأثـمـب : الرباب .

نم نذكر مَنْ وَلِيَّه من آبائه السكرام ، إذ هم أهلُ الأعلون وأولياؤه الأحقاد به
الأولون ، وهو مأثرتهم التي لم يزالوا إياها يُرَاعُونَ ، ومن جرأتها يُرَاعُونَ ،
وتراث الجسد الذي إليهم يُعَزَى وإليه يُعْزَوْنَ ، وبسما شرفه يُعرفون
وباسمه يُدْعَوْنَ .

ونشير إلى حرمة العظيمة في الحرمات ، وما أنزل الله تعالى بمن بناه بسوء
أو أتى فيه بأمر مذموم مشثوم من أليم العقوبات وعظيم النقمات .
لندخدم البلد كما خدمنا المحتد ، ونقضى حق السكان الشريف كما قضينا حق
الحسب التقليد والطريف .

خفى نخلص إلى ذكر المولد المبارك الذي منه نتدرج إلى المقصود ، الذي نحن
عليه عاملون ، وإلتامه آمِلون ، رجاء أن نجد ذلك مذكوراً عند المولى الذي
يضاعف لمبيده الحسنات ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

ذكر أولية بيت الله المحرم

وركنه المستلم ، ومن تولّى بناءه من ملائكته وأنبيائه

صلى الله على جميعهم وسلم

قال الله العظيم : « إِنَّ أَوْلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَيْنَكَ مَبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ^(١) » .

وفي الصحيح من حديث أبي ذرٍّ الغفاري ، أنه سأل رسول الله صلى الله
عليه وسلم : أيُّ مسجد وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلَ ؟ فقال له : « الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ »
قال : قلت : ثم أي ؟ قال : « ثُمَّ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى » قلت : كم بَيْنَهُمَا ؟ قال :
« أَرْبَعُونَ عَامًا » .

وذكر الزبير بن أبي بكر بإسناده إلى جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه قال :
كنت مع أبي محمد بن علي بمكة في ليالي العشر قبل التَّروِيَةِ بيوم أو يومين ، وأبى
قائم يصلى في الحِجْر ، وأنا جالس وراءه ، فجاء رجل أبيض الرأس والحية ، جميل
المقام بعيد ما بين المنكبين عريض الصدر ، عليه ثوبان غليظان في هيئة مُحَرَّم ،
فجلس إلى جنبه ، تخفَّفَ أبى الصلاة ، فسلم ثم أقبل عليه ، فقال له الرجل :
يا أبا جعفر ، أخبرني عن بدء خلق هذا البيت كيف كان ؟

فقال له أبو جعفر محمد بن علي : بمن أنت يرحمك الله ؟ قال : رجل من أهل
الشَّام . فقال له محمد بن علي : إن أحاديثنا إذا سقطتْ إلى الشَّام جاءتْنا صِحَاحًا ،
وإذا سقطتْ إلى العراق جاءتْنا وقد زيدَ فيها ونقص .

— ٤٦ —

ثم قال : بَدَّه خلقَ هذا البيت أن الله تبارك وتعالى قال للملائكة : إني جاعِلٌ في الأرض خليفة ، فرَدُّوا عليه : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » .

فغضب عليهم ، فعادوا بالعرش ، فطافوا حوله سبعة أطواف يسترضون ربهم ، فرضى عنهم وقال لهم : ابنوا لي في الأرض بيتا فيعوز به من سخطتُ عليه من بني آدم ويعطوفون حوله ، كما فعلتم بعرشي ، فأَرْضَى عنهم .

فبنوا له هذا البيت .

فهذا يا عبد الله بَدَّه خلقَ هذا البيت .

فقال الرجل : يا أبا جعفر ، فما بَدَّه خلقَ هذا الركن ؟

فقال : إن الله تبارك وتعالى لما خلق الخلق ، قال لبني آدم : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قالوا : بلى . وأَقْرَوا . وأَجْرَى نَهْرًا أحلى من العسل وألذ من الزبد ، ثم أمر القلم فاستمد من ذلك النهر فسكتب إقرارهم وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم أَلْقِمَ ذلك الكتابَ هذا الحجرُ ، فهذا الاستلام الذي ترى إنما هو بَيِّنَةٌ على إقرارهم بالذي كانوا أَقْرَوا به .

وقال جعفر بن محمد : كان أبي إذا استلم الركنَ قال : اللهم أمانتي أَدَيْتُهَا ، وميثاقي وَفَيْتُ بِهِ ، ليشهد لي عندك بالوفاء .

قال : وقام الرجل فذهب .

قال جعفر بن محمد : فأمرني أبي أن أَرُدَّه عليه ، فخرجت في أثره وأنا أراه ، يَحُولُ بيني وبينه الزحام ، حتى دخل نحو الصفا ، فتبعته على الصفا فلم أَرَهُ ، ثم ذهبت إلى المروة فلم أَرَهُ عليها ، فحُفَّتْ إلى أبي فأخبرته فقال لي أبي : لم تكن لتجده ، وذلك الخضر عليه السلام .

وخرّج الترمذى من حديث عهد الله بن عباس وصححه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشدّ بياضاً من اللبن فسوّدته خطايا بني آدم » .

ومن حديث عهد الله بن عمرو ، مرفوعاً وموقوفاً ، قال : إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة ، طمس الله نورهما ، ولو لم يطمس نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب » .

وفى حديث ابن عباس أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحجر : « والله ليعيثن الله يوم القيامة ، له عيمان يُبهر بهما لسان يطق به ، يشهد على من استلمه بحق » .

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى من حديث عبد الصمد بن مهزّل ، أنه سمع وهب بن منبه^(١) يقول : إن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض فرأى سعتها ولم يرفها أحداً غيره ، قال : يارب أمتاً لأرضك هذه عامرٌ يسبح بحمدي ويقدسك غيرى ؟

قال الله تعالى : إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدي ويقدسنى ، وسأجعل فيها نبوتاً تُرفع لذكركى ويسبح فيها خلقي ويدكرون فيها اسمى ، وسأجعل من تلك النبوت بيتاً أخصه بكرامتى وأؤثره باسمى ، فأسميه بى ، وعاليه وضمت جلالى ، ثم أنا مع ذلك فى كل شىء ومع كل شىء ، أجعل ذلك البيت حرمًا آمناً ، يتحرّم بحرمة من حوله ومن تحته ومن فوقه ، فمن

(١) أخبار وهب بن منبه وأمثاله عن هذه القرون المتطاولة والأخبار المديدة لا يندى لها أحد صفة أو نبوتاً ، وربما تبرعوا بها أو رويت لهم وصلات الخلفاء الدارج وإرساء للخيال الحبيب والاستطلاع البعيد ، فلفهم على هذا النحو . شأنها يسير .

حرّمه بحرمتي استوجب بذلك كرامتي ومن أخاف أهله فقد أخفّر ذمتي وأباح حرمتي .

أجعله أول بيت وُضع للناس ببطن مكة مباركاً ، يأتونه شُعفاً غبراً على كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍّ عميق ، يزجون بالقلبية زجيجاً ويشجون بنجيجاً ، ويمججون بالتكبير مجيجاً .

فن اعتمده لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارني وضافني ، وحقّ على الكريم أن يُكرم وفده وأضيافه ، وأن يُسعف كلاً بحاجته .

تعمّره يا آدم ما كنت حياً ، ثم تعمّره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك ، أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن .

وفي حديث غير هذا عن عطاء وقتادة ، أن آدم عليه السلام ، لما أهبطه الله من الجنة وفقد ما كان يسمعه ويأنس إليه من أصوات الملائكة وتسبيحهم ، استوحش حتى شكا ذلك إلى الله تعالى في دعائه وصلواته ، فوجهه إلى مكة ، وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة على موضع البيت الآن .

وقال الله : يا آدم ، قد أهبطت لك بيتاً تطوف به ، كما يطاف حول عرشي وتصلّي عنده كما يصلّي عند عرشي .

فانطلق إليه آدم ، فطاف به هو ومن بعده من الأنبياء ، إلى أن كان الطوفان ، فرفعت تلك الياقوتة ، حتى أمر الله إبراهيم عليه السلام ببناء البيت ، فبناه ، فذلك قوله تعالى : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ الْأَلَّا تَشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ^(١) » .

وعن ابن عباس ، أن الله أوحى إلى آدم : أن لي حَرَمًا بِحِثِّ عَرْشِي ، فَانْطَلِقْ
فَإِنِّي لِي بَيْتًا فِيهِ ، ثُمَّ حُفَّ بِهِ كَمَا رَأَيْتَ مَلَائِكَتِي يَحْفُفُونَ بِعَرْشِي ، فَهَذَا
أَسْتَجِيبُ لَكَ وَلَوْلَاكَ مِنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي طَاعَتِي .

فَقَالَ آدَمُ : أَيُّ رَبِّ ، وَكَيْفَ لِي بِذَلِكَ ؟ لَسْتُ أَقْوَى عَلَيْهِ وَلَا أَهْتَدِي
لِمَكَانِهِ .

فَقَبِضَ اللَّهُ لَهُ مَلَكًا فَانْطَلَقَ بِهِ نَحْوَ مَكَّةَ ، فَسَكَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا
مَرَّ بِرَوْضَةٍ وَمَكَانٍ يُعْجِبُهُ قَالَ لِلْمَلَكِ : انْزِلْ بِنَا هَاهُنَا . فَيَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ : أَمَّا مَكَ .

حَتَّى قَدِيمَ مَكَّةَ ، فَبَنَى الْبَيْتَ مِنْ خَمْسَةِ أَجْبُلٍ ، مِنْ طُورِ سَيْدَاءَ ، وَطُورِ زَيْنَا ،
وَمِنْ لُبْنَانَ ، وَالْجُودِيِّ ، وَبَنَى قَوَاعِدَهُ مِنْ حِجْرَاءَ .

فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ بَنَائِهِ خَرَجَ بِهِ الْمَلَكُ إِلَى عَرَفَاتٍ ، فَأَرَاهُ الْمَلَائِكَةَ كُلَّهَا ، الَّتِي
يَفْعَلُهَا النَّاسُ الْيَوْمَ ، ثُمَّ قَدِمَ بِهِ مَكَّةَ ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ أَسْبُوعًا ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَرْضِ
الْهُدَفَاتِ بِهَا .

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ حَبَّجٌ مِنَ الْهُدَدِ أَرْبَعِينَ حَبَّةً عَلَى رِجْلَيْهِ .

وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ الْعَدَوِيِّ قَالَ : قَالَتْ
لِأَبِي جَهْمٍ بْنُ حَذِيفَةَ : يَا عَمُّ ، حَدِّثْنِي عَنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ وَنَزُولِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ الْحَرَمَ .

قَالَ : يَا بَنُ أَخِي سَتَلْنِي عَنْهُ عَلَى نَشَاطٍ مَنَى فَإِنِّي أَعْلَمُ فِي ذَلِكَ مَا لَا يَعْلَمُهُ غَيْرِي .

قَالَ : فَسَكَنْتُ شَهْرًا أَذْكَرُهُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ، فَيَقُولُ مِثْلَ قَوْلِهِ الْأَوَّلِ ، وَكَانَ
قَدْ كَبُرَ وَرَقٌ وَضُمُّفٌ ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ مُسَرَّرٌ ، فَقَالَ لِي : اسْمِعْ حَدِيثَكَ
الَّذِي سَأَلْتَنِي عَنْهُ .

إن البيت بناؤه حَرَمٌ في السماء السابعة وفي الأرض السابعة . يعنى أن ما يقابله حَرَمٌ .

وإن آدم عليه السلام أمر بأساسه فبناه هو وحواء ، أسَّسَاهُ بصخر أمثال الخَلِيفَات ، يعنى العوق التى فى بطونها أجنةٌ ، واحدتها خَلِيفَةٌ . أذن الله عز وجل للصخر أن يطيعهما .

ثم نزل البيتُ من السماء من ذهبٍ أحمر ، وكُلُّ به من الملائكة سبعون ألف ملك ، فوضعه على أُسٍّ آدم عليه السلام ، ونزل الركن ، وهو يومئذ دُرَّةٌ بيضاء ، فوضع موضعه اليوم من البيت ، وطاف به آدم وصلى فيه .

فلما مات آدم عليه السلام وَلِيَهُ بعده ابنه شيث ، فكان كذلك حتى حجه نوح عليه السلام .

فلما كان الفَرَقُ ، يعنى الطوفان ، بعث الله جل ثناؤه سبعين ألف ملك فرفعوه إلى السماء ، كي لا يصيبه الماء النجس ، وبقيت قواعده ، وجاءت السفينة فدارت به سبعا ثم دَنَر البيت ، فلم يحجه من بين نوح وبين إبراهيم أحدٌ من الأنبياء على جميعهم السلام .

وعن غير الواقدى فى غير حديث أبى الجَهم ، أن شيث بن آدم عليهما السلام ، هو أول مَنْ بَنَى السكينة ، وأنها كانت قبل أن يبنها خيمة من ياقوتة حمراء يطوف بها آدم ويأنس بها لأنها أنزلت إليه من الجنة ، وكان قد حَجَّ إلى موضعها من الهند .

وفى الخبر أن موضعها كان غشاء على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض ، فلما بدأ الله خلق الأشياء ، خلق التربة قبل السماء ، فلما خلق السماء وقضاهن سبع سموات ، دحا الأرض ، أى بَسَطَهَا ، وإنما دحاها من تحت السكينة ، فلذلك سُمِّيَتْ مكة أم القرى .

وذكر ابن هشام أن المَاء لم يصل السكبة حين الطوفان ، ولكنه قام حولها ، وبقيت هي في هواء إلى السماء ، وأن نوحاً قال لأهل السفينة ، وهي تطوف بالبيت : إنكم في حرم الله عز وجل وحول بيته ، فأحرموا الله ولا يمس أحدٌ امرأة . وجعل بينهم وبين النساء حاجزاً ، فتمدى حام ، فدعا عليه نوح بأن يسود لونُ بنيهِ ، فأجابه الله على وفق مادعاه ، واسودَّ كوشُ بن حام وولده إلى يوم القيامة .

وقد قيل في سبب دعوته غير هذا ، فالله أعلم .

ويروى أنه لما نَضَب ماء الطوفان ، بقي مكان البيت ربوةٌ من مَدَرَةٍ ، فحجَّ إليه بعد ذلك هودٌ وصالح ومن آمن معهم ، وأنَّ يَمْرُب قال لهُود عليه السلام : ألا تبنيه ؟ قال : إنما يبنيه نبي كريم يأتي من بعدى ، يتخذهُ الرحمن خليلاً .

[إبراهيم وإسماعيل في موضع البيت]

قال أبو الجهم ، من حديث الواقدي : حتى أراد الله بإبراهيم ما أراد ، فولد له إسماعيل وهو ابن تسعين سنة ، فكان يَكْرَأُ أبيه ، فلما أراد الله عز وجل أن يُبَوِّئَ لإبراهيم مكان البيت وأعلامه ، أوحى الله إليه يأمره بالمسير إلى بلدة الحرام ، فركب إبراهيم البراق ، وحمل إسماعيل أمامه وهو ابن سنتين ، وهاجرُ خَلْفَهُ ، ومعه جبريل يدلُّه على موضع البيت ومَعَالِمِ الحرم ، فكان لا يمرُّ بقرية إلا قال له إبراهيم : بهذه أمرتُ يا جبريل ؟ فيقول جبريل : لا . حتى قَدِمَ به مكة ، وهي إذ ذاك عِصَاهُ وَسَلَمٌ ، وسَمَرٌ^(١) ، والماليقُ يومئذ حول الحرم ، وهم أول من نزل مكة ويكنون بعرفة ، وكانت المياه يومئذ

(١) العِصَاهُ : شجر الخُطُّ أو كل ذى شوك ، والسلم والسمَر : شجر أيضاً .

قليلة ، وكان موضع البيت قد دثر وهو رُبوة حراء مَدَرَة ، وهو يُشرف على ما حوله ، فقال جبريل حين دخل من كدء ، وهو الجبل الذى يطلمك على الحِجُونَ والمقبرة : بهذا أمرت . قال إبراهيم : بهذا أمرت ؟ قال : نعم .

فانتهى إلى موضع البيت ، فَعَمِدَ إبراهيمُ إلى موضع الحِجْرِ فَأَوَى فيه هاجرَ وإسماعيلَ ، وأمر هاجرَ أن تتخذ فيه عَرِيشًا ، فلما أراد إبراهيم أن يخرج ، ورأت أم إسماعيل أنه ليس بحضرتها أحد من الناس ولا ملاء ظاهر ، تركت ابنها في مكانه وتبعته إبراهيم ، فقالت : يا إبراهيم إلى مَن تَدْعُنَا ؟ فسكت عنها ، حتى إذا دنا من كدء قال : إلى الله عز وجل أدعكم . فقالت : فالله عز وجل أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : لحسبي تركتُنا إلى كافٍ .

وانصرفت هاجر إلى ابنها ، وخرج إبراهيم حتى وقف على كدء ، ولا بداء ولا ظِلٍّ ولا شيء يحُول دون ابنه ، فنظر إليه ، فأدركه ما يدرك الوالد من الرحمة لولده ، فقال : « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَامِ ، رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » (١) .

ثم انصرف إبراهيم راجعًا إلى الشام ، وعَمِدَتْ هاجر فجعلت عريشًا في موضع الحِجْرِ مِنْ سَمَرٍ وَثَمَامٍ أَلْقَتْهُ عَلَيْهِ وَمَعَهَا شَنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَاءِ ، فلما نفذ الماء عطش إسماعيل وعطشت أمه ، فانقطع لبنها ، فأخذ إسماعيلَ كهيئة الموت ، فظننت أنه ميت ، فجزعت وخرجت جزعًا أن تراه على تلك الحال ، وقالت : يموت وأنا غائبة عنه أهونُ عليّ ، وعسى الله أن يعمل لى فى تَمْشَاىَ خيرًا .

فانطلقت فنظرت إلى جبل الصفا ، فأشرفت عليه تستغيث ربها عز وجل
وتدعوه ، ثم انحدرت إلى المروة ، فلما كانت في الوادي خَبَّتْ^(١) حتى انتهت
إلى المروة ، فعلت ذلك سبع مرار ، كلما أشرفت على الصفا نظرت إلى ابنها ،
هتراء على حاله ، وإذا أشرفت على المروة فثقل ذلك .

فكان ذلك أول ما سعى بين الصفا والمروة . وكان من قبلها يطوفون بالبيت
ولا يسمعون بين الصفا والمروة ، ولا يقفون المواقف ، حتى كان إبراهيم .
فلما كان الشوط السابع ويئست سمعت صوتاً ، فاستمعت فلم تسمع إلا الأول ،
فظننت أنه شيء عرّض لسمعها من الظمأ والجهد .

فنظرت إلى ابنها فإذا هو يتحرك ، فأقامت على المروة ملياً ، ثم سمعت الصوت
الأول ، فقالت : إني سمعت صوتك فأعجبني ، فإن كان عندك خير فأغثنى ،
فإني قد هلكت وهلك ما عندي .

نفرج الصوت يصوت بين يديها ، وخرجت تقلوه قد قويّت له نفسها ،
حتى انتهى الصوت عند رأس إسماعيل ، ثم بدا لها جبريل ، فانطلق بها حتى
وقف على موضع زمزم ، فضرب بعقبه مكان البئر ، فظهر الماء فوق الأرض
حين فخص بعقبه ، وفارت بالرواء ، وجعلت أم إسماعيل تحظر الماء بالتراب
خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بشئتها^(٢) ، فاستقمت وبادرت إلى ابنها فسقته
وشربت ، فجعل يداها يتقطران لبناً ، فكان ذلك اللبن طاماً وشراباً
لإسماعيل ، وكانت تجتري بماء زمزم ، فقال لها الملك : لا تخاف أن ينفد هذا
الماء ، وأبشري ، فإن ابنك سيشب ويأتي أبوه من الشام ، فتبدون هاهنا بيتاً
يأتيه عباد الله من أقطار الأرضين ملتبين لله جل ثناؤه شعثاً غبراً ، فيطوفون به
ويكون هذا الماء شراباً لضيغان الله عز وجل الذين يزورون بيته .

(١) خبت : جرت .

(٢) الشنة : القرية الخلق .

فَقَالَتْ : بِشْرِكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ . وَطَابَتْ نَفْسُهَا وَحَمَدَتْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ .

وَيَقْبَلُ غُلَامَانِ مِنَ الْعَمَالِيقِ يَرِيدَانِ بَعِيرًا لَهَا أَخْطَأَهَا ، فَقَدْ عَطَشَا وَأَهْلُمَا بِمَعْرِفَةٍ ، فَنَظَرَا إِلَى طَيْرٍ تَهْوَى قَبْلَ الْكَعْبَةِ فَاسْتَذَكَّرَا ذَلِكَ ، وَقَالَا : أَنَّى يَكُونُ الطَّيْرُ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِمَصَاحِبِهِ : أَمَهْلُ حَتَّى نَبْزُدَ ، ثُمَّ نَسْلُكُ فِي مَهْوَى الطَّيْرِ .

فَأَبْرَدَا نِمْ تَرَوْحَا ، فَإِذَا الطَّيْرُ تَرَدُّ وَتَصْدُرُ ، فَاتَّبَعَا الْوَارِدَةَ مِنْهَا حَتَّى وَقَفَا عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ ، فَنَظَرَا إِلَى الْمَاءِ وَإِلَى الْعَرِيشِ ، فَتَزَلَّا وَكَلَّمَا هَاجِرًا وَسَلَّاهَا مَتَى نَزَلَتْ ؟ فَأَخْبَرَتْهُمَا ، وَقَالَا : لِمَنْ هَذَا الْمَاءُ ؟ فَقَالَتْ : لِي وَلِابْنِي . فَقَالَا : مَنْ حَفَرَهُ ؟ فَقَالَتْ : سَقَى اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ .

فَعَرَفَا أَنَّ أَحَدًا لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ^(١) يَحْفَرَ هُنَاكَ مَاءً ، وَعَهَّدَهَا بِمَا هُنَاكَ قَرِيبٌ وَلَيْسَ بِهِ مَاءٌ .

فَرَجَعَا إِلَى أَهْلِهِمَا مِنْ لَيْلَتِهِمَا ، فَأَخْبَرَاهُمَا ، فَتَحَوَّلُوا حَتَّى نَزَلُوا مَعَهَا عَلَى الْمَاءِ فَأَنْسَتْ بِهِمْ ، وَمَعَهُمُ الذَّرِيَّةُ ، فَنَشَأَ إِسْمَاعِيلُ مَعَ وَلَدَانِهِمَا .

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَزُورُ هَاجِرَ فِي كُلِّ شَهْرٍ عَلَى الْبَرَّاقِ يَغْدُو غَدُوَّةً فَيَأْتِي مَكَّةَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَقْبِلُ فِي مَنْزِلِهِ بِالشَّامِ .

فَزَارَهَا بَعْدُ ، وَنَظَرَ إِلَى مَنْ هُنَاكَ مِنَ الْعَمَالِيقِ وَإِلَى كَثَرَتِهِمْ وَتَعَمَّرَ الْمَاءَ ، فَسُرَّ بِذَلِكَ .

وَلَمَّا بَلَغَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنَ الْعَمَالِيقِ ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ زَائِرًا لِإِسْمَاعِيلِ ، وَإِسْمَاعِيلُ فِي مَاشِيَةٍ يَرْعَاهَا وَيَخْرِجُ مَتَدَكِّبَهَا قَوْسَهُ ، فَيَرْمِي الصَّيْدَ

(١) ت : أَنْ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَحْفَرَ .

مع رِغْبَتِهِ ، فجاء إبراهيم عليه السلام إلى منزله ، فقال : السلام عليكم يا أهل البيت .

قال : فسكنت فلم تردّ ، إلا أن تكون ردّت في نفسها ، فقال : هل من منزل ؟ فقالت لا هَيْمٌ الله إذن ، قال : فكيف طعامكم وشرابكم وشاؤكم ؟ فذكرت جهنم ، فقالت : أمّا الطعام فلا طعم ، وأمّا الشاء فإنما نحبّ الشاة بعد الشاة المصّر^(١) ، وأمّا الماء فعلى ما ترى من الغلظ ، قال : فأين رب البيت ؟ قالت في حاجته .

قال : فإذا جاء فأقرئيه السلام ، وقولى له غير عتبة بيتك .

ورجع إبراهيم إلى منزله ، وأقبل إسماعيل راجعاً إلى منزله بعد ذلك بما شاء الله عز وجل ، فلما انتهى إلى منزله سأل امرأته هل جاءك أحد ؟ فأخبرته بإبراهيم وقوله وما قالت له ، ففارقها وأقام ما شاء الله أن يقيم .

وكانت العاليق هم ولادة الحُكَم بِمَكَّة فضيّعوا حرمة الحرّم واستحلّوا منه أموراً عظيماً ونالوا ما لم يكونوا يبالون ، فقام فيهم رجل منهم يقال له عَمُوق^(٢) ، فقال يا قوم أبقوا على أنفسكم ، فقد رأيتم وسمعت من أهلك من هذه الأمم ، فلا تفعلوا ، تواصلوا ولا تستخفوا بحرم الله عز وجل وموضع بيته .

فلم يقبلوا ذلك منه ، وتمادوا في هلكة أنفسهم .

ثم إن جرهما وقطوراء ، وهما أبناء عم خرجوا سيّارة من اليمن ، أجدبت البلاد عليهم ، فساروا بذرايرهم وأموالهم ، فلما قدموا مكّة رأوا فيها ماء مميهاً وشجراً ملتقىً ، ونباتاً كثيراً ، وسعة من البلاد ، ودفتاً في الشتاء .

(١) المصّر : الملبّ بأطراف الأصابع ، وناقة مصور بطيئة خروج الدر لا تحلب إلا مصراً

(٢) ت : عملاق .

فقالوا إن هذا الموضوع يجمع لنا ما نريد .

فأعجبهم ونزلوا به ، وكان لا يخرج من الين قوم إلا ولهم ملك يقيم أمرهم ،
سنة فيهم جرّوا عليها واعتادوها ولو كانوا نفراً يسيراً .

فكان مضاض بن عمرو على قومه من جرّهم ، وكان على قطوراء السّميدع ،
رجل منهم .

فنزل مضاض بمن معه من جرّهم أعلى مكة بمقيمتين^(١) فما حاز .

ونزل السّميدع بقطوراء أسفل مكة بأجياد^(٢) ، فما حاز .

وذهبت العماليق إلى أن ينازعهم أمرهم فعمّلت أيديهم على العماليق وأخرجهم
من الحرم كله ، فصاروا في أطرافه لا يدخلونه .

وجعل مضاض والسّميدع يقطعان المنازل لمن ورد عليهما من قومهما فكثرُوا
وأثروا ، فكان مضاض يمشُر^(٣) ، كل من دخل مكة من أعلاها ، وكان
السّميدع يمشُر كل من دخل من أسفلها ، وكل على^(٤) قومه لا يدخل أحدهما
على صاحبه ، وكانوا قوماً عرباً وكان اللسان عربياً .

وكان إبراهيم يزور إسماعيل ، فلما نظر إلى جرّهم نظر إلى لسان عجيب
وسمع كلاماً حسناً ، ونظر إسماعيل إلى رَعْلَة بنت مضاض بن عمرو ، فأعجبته
نخطبها إلى أبيها فتزوجها .

فجاء إبراهيم زائراً لإسماعيل ، فجاء إلى بيت إسماعيل ، فقال : السلام عليكم

(١) قيعان جبل بمكة .

(٢) جبل بمكة .

(٣) عشرهم يعشرهم عشرا وعشورا أخذ عشر أموالهم .

(٤) ابن هشام : في قومه .

ورحمة الله وبركاته ، فقامت إليه المرأة فردّت عليه ورحبت به ، فقال كيف عيشكم ولهيبكم وما شيتكم ؟ فقالت خير عيش بحمد الله عز وجل ، نحن في لبن كثير ولحم كثير وماؤنا طيّب ، قال هل من حَبٍّ ؟ قالت : يكون إن شاء الله ونحن في نِعَم . قال : بارك الله لكم .

قال أبو جهنم : فسكان أبي يقول : ليس أحد ينجلي عن اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه ، ولعمري لو وجد عددا حبا لدعا فيه بالبركة فسكان أرض زرع .

ويقال إن إبراهيم قال لما : ما طعامكم ؟ فقالت : اللحم واللبن . قال فما شربكم ؟ قالت اللبن والماء . قال : بارك الله لكم في طعامكم وشربكم ، فاللبن طعام وشرب .

قالت : فانزل رحمتك الله فاطعم واشرب . قال : إني لا أستطيع النزول . قالت فلإني أراك شعثاً أفلا أغسل رأسك وأذهنه ؟ قال بلى إن شئت . فجاءته بالمقام وهو يومئذ حَجَر رَطْب أبيض مثل المهة^(١) ، مُلْتَقَى في بيت إسماعيل ، فوضع عليه قدمه اليمنى وقدم إليها رأسه وهو على دابته ففسلت شِقَّ رأسه الأيمن ، فلما فرغت حولت له المقام حتى وضع قدمه اليسرى ، وقدم إليها رأسه ففسلت شِقَّ رأسه الأيسر ، فالأثر الذي في المقام من ذلك . قال أبو جهنم : فقد رأيت موضع العقب والإصبع .

وعن الواقدي من غير حديث أبي جهنم أن أبا سعيد الخدري سأل عبد الله ابن سلام عن الأثر الذي في المقام ، فقال : كانت الحجارة على ما هي عليه اليوم إلا أن الله جل ثناؤه أراد أن يجعل المقام آية من آياته .

(١) المهة : الشمس

قال أبو الجهم : فلما فرغت يعنى المرأة ، من غسل رأس إبراهيم عليه السلام قال لها : إذا جاء إسماعيل فقولى له : أثبت عتبة بابك فإن صلاح المنزل العتبة .

فلما جاء إسماعيل قال : هل جاءك أحد بعدى ؟ فأخبرته إبراهيم وما صنعت به ، ثم قال لها : هل قال لك أن تقولى شيئاً ؟ قالت : قال لى أثبت عتبة بابك فإن صلاح المنزل العتبة .

ففرح إسماعيل وقال لها : أندرين من هو ؟ قالت : لا . قال : هذا خليل الله إبراهيم أبى ، وأما قوله «أثبت عتبة بابك» فقد أمرنى أن أقرك وقد كنت على كريمة وقد ازددت على كرامة . فصاحت وبكت ، فقال : مالك ؟ قالت : ألا أكون علمت بمن هو فأكرمه وأصنع به غير الذى صنعت ؟ فقال لها إسماعيل : لا تبكى ولا تجزعى فقد أحسنت ولم تسكونى تقدرين أن تفعلى فوق الذى فعلت ، ولم يكن يزيدك على الذى صنع بك .

فولدت لإسماعيل عشرة ذكور أحدهم نابت .

[بناء إبراهيم للبيت]

فلما بلغ إسماعيل ثلاثين سنة وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة ، أوحى الله جل ثناؤه إلى إبراهيم أن ابن لى بيتا . قال إبراهيم : أى رب أين أبنيه ؟

فأوحى الله إليه : أن اتبع السكينة ، وهى ريح لها وجه وجناحان ومع إبراهيم الملك والعُرد^(١) .

فاتموا إبراهيم إلى مكة ، فنزل إسماعيل إلى الموضع الذى بؤاه الله جل وعز لإبراهيم ، وموضع البيت ربوة حمراء مدرة مشرفة على ما حولها .

(١) الصرد : طائر ضخم الرأس .

خفر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وليس معهما غيرها ، أساس البيت ،
يريدان أساس آدم الأول .

خفرا عن ربّ البيت ، بمعنى حوله ، فوجدوا صخرة لا يطبقها إلا ثلاثون
رجلا ، وحفرا حتى بلغوا أساس آدم ثم بنى عليه ، وحائط السكينة كأنها سمحابة ،
على موضع البيت ، فقالت : ابنى على .

فذلك لا يطوف بالبيت أحد أبدا ، كافر ولا جبار ، إلا رأيت عليه السكينة .

فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت ، فجعل طوله في السماء تسع أذرع ، وعرضه
ثلاثين ذراعا ، وطوله في الأرض اثنين وعشرين ذراعا ، وأدخل الحجر وهو
سبعة أذرع في البيت ، وكان قبل ذلك زربا لعم إسماعيل .

وعما بناه بمجارتهم بعضها على بعض ، ولم يجعل له سقفا ، وجعل له بابا وحفر له
بئرا عند بابها خزانة للبيت ، يلقى فيها ما أهدي للبيت وجعل الركن
هنا للناس .

فذهب إسماعيل إلى الوادي يطلب حَبْرًا ، ونزل جبريل بالحجر الأسود ،
وكان قد رفع إلى السماء حين غرقت الأرض ، كما رُفِعَ البيت ، فنزل به جبريل
فوضعه إبراهيم موضع الركن ، وجاء إسماعيل بالحجر من الوادي فوجد إبراهيم
قد وضع الحجر ، فقال : من أين هذا ؟ من جاءك به ؟ قال إبراهيم : من لم يكن
إليك ولا إلى حَبْرِكَ .

وعن الواقدي أيضا ، من غير حديث أبي الجهم ، أن يزيد بن رومان ، قال :
سمعت ابن الزبير يقول : إن إبراهيم عليه السلام ابتنى الحجر ، فذاده من فوق
أبي قبيس : ألا أنا هذا . فرقى إليه إبراهيم فأخذه ، فوضعه موضعه الذي هو
فيه اليوم .

وكان الله جل ثناؤه لما غرقت الأرض استودع أبا قبيس الركن ، وقال :
إذا رأيت خليلي يبنى لى بيتا فأعطه الركن . فأعطاه الركن .

وعن غير ابن الزبير أن أبا قبيس لذلك كان يسمى فى الجاهلية الأمين ، لوفائه
بما استودعه الله إياه .

قال أبو جهم : ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت وأدخل الحجر فى البيت ،
جمل المقام لاصفاً بالبيت عن يمين الداخل ، فلما كانت قرش قصر الخشب
عليهم ، فأخرجوا الحجر ، وكان ما أخرجوا منه سبعة أذرع .

[إبراهيم يؤذن بالحج]

وأمر إبراهيم بعد فراغه من البناء أن يؤذن فى الناس بالحج ، فقال : يا رب ،
وما يبلغ صوتى ؟

فقال الله جل ثناؤه : أذن وعلى البلاغ .

فارتفع على المقام وهو يومئذ ملصق بالبيت ، فارتفع به المقام حتى كان
أطول الجبال ، فنادى وأدخل أصبعيه فى أذنيه ، وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً ،
يقول : أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق ، فأجيئوا ربكم
عز وجل .

فأجابه من تحت البحور السبعة ، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع القرب
من أطراف الأرض كلها : كَتَبْتُكَ اللَّهُمَّ لِيهِكَ .

أفلا تراهم يأتون يُلبّون ؟

فمن حج من يومئذ إلى يوم القيامة فهو ممن استجاب لله عز وجل .

وذلك قول الله جل ثناؤه : « فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ ، مقامُ إبراهيمَ ^(١) » يعنى نداء إبراهيم على المقام بالحج فهمى الآية .

قال الواقدي : وقد رُوى أن الآية هى أثرُ إبراهيم على المقام .

[إبراهيم يتعلم مناسك الحج]

قال أبو الجهم : فلما فرغ إبراهيم من الأذان ذهب به جبريل فأراه الصفا والمروة ، وأقامه على حدود الحرم ، وأمره أن ينصب عليها الحجارة ، ففعل إبراهيم ذلك ، وكان أول من أقام أنصابَ الحرم ، ويريه إياها جبريل .

فلما كان اليوم السابع من ذى الحجة ، خطب إبراهيم عليه السلام بكعة ، حين زاغت ^(٢) الشمس قائما ، وإسماعيل جالس ، ثم خرجا من الغد يشوان على أقدامهما يُلبيان مُحْرَمَيْن ، مع كل واحد منهما إدارة يحملها وهما يتوكأ عليهما ، فسئى ذلك اليوم يومَ التروية .

فأتيا ميثى فصليا بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح ، وكانا نزلا في الجانب الأيمن ، ثم أقام حتى طلعت الشمس على تبير ، ثم خرج يمشى هو وإسماعيل حتى أتيا عرفة ، وجبريل معهما يريهما الأعلام ، حتى نزلا بتيمة ، وجعل يريه أعلامَ عرفات ، وكان إبراهيم قد عرفها قبل ذلك ، فقال إبراهيم : قد عرفت . فسئيت عرفات .

فلما زاغت الشمس خرج بهما جبريل عليه السلام ، حتى انتهى بهما إلى موضع المسجد اليوم ، فقام إبراهيم فتسكلم بكلمات ، وإسماعيل جالس ، ثم جمع بين

(١) سورة آل عمران ٩٧

(٢) زاغت الشمس : مالت ، وذلك إذا ماها الشمس .

الظهر والمصر ، ثم ارتفع بهما إلى الهضاب ، فقاما على أرجلهما يدعوان ، إلى أن غابت الشمس وذهب الشّماع ، ثم دَفَعَا من عرفة على أقدامهما ، حتى انتهيا إلى جَمْع فنزلا ، فصلى إبراهيمُ المغربَ والعشاءَ في ذلك الموضع الذي يصلى فيه اليوم ، ثم باتا حتى إذا طلع الفجر وقفا على قُزَح^(١) ، فلما أسفرا قبل طلوع الشمس دفعا على أرجلهما حتى انتهيا إلى مُحَسَّر^(٢) ، فأسرعوا حتى قطعاه ثم عادا إلى مشيهما الأول ، ثم رميا بحجرة المقبة بسبع حصيات حملاها مِن جَمْع ، ثم نزلا من وى في الجانب الأيمن ، ثم ذَبَحَا في المَنَحَر اليوم ، وحلقا رؤوسهما ، ثم أقاما أيامَ مِئَةٍ يرميان الجمار حين تزيغ الشمس ماشيين ذاهبين وراجعين ، وصَدَرَا يومَ الصَّدَر فصليا الظهر بالأبطح ، وكل هذا يريه جبريلُ عليه السلام .

قال أبو الجهم : فلما فرغ إبراهيمُ من الحج انطلق إلى منزله بالشام ، فكان يهيج البيتَ كلَّ عام ، وحجَّته سارَّةٌ ، وحجَّته إسحقُ ويعقوبُ والأسباط ، والأنبياء ، هلم جرا .

وحجَّته موسى بن عمران عليه السلام .

روى الواقدي بإسناده عن ابن عباس قال : مرَّ موسى عليه السلام بِصِفَاحِ الرُّوحَاءِ يلي ، تجاوبه الجبالُ ، عليه عباءتان قطوانيتان من عباء الشام .

وعن جابر بن عبد الله قال : حجج هارون نبيُّ الله البيتَ ، فرَّ بالمدينة يريد الشام ، ففرض بالمدينة فأوصى أن يُدْفَنَ بأصل أحد ، ولا تُعَلَّمْ به يهودُ ، مخافة أن يَنْهَشُوهُ ، فدَفَنُوهُ فَقَبْرُهُ هُنَاكَ .

(١) قُزَح : جبل بالزدلفة .

(٢) مُحَسَّر : موضع بمكة .

وعن ابن عباس ، أن الحواريين كانوا إذا بلغوا الحرم نزلوا يمشون حتى يأتوا البيت .

وعن ابن الزبير : أن الحواريين دخلوا نعالهم حين دخلوا الحرم ، إعظاما أن يفتعلوا فيه .

[وفاة إبراهيم]

ثم توفي الله خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وجه إليه ملك الموت ، فاستنظره إبراهيم ، ثم أعاده إليه ملكا أراد الله قبضه ، فأخبره بما أمر به ، فسلم إبراهيم لأمر ربه عز وجل ، فقال له ملك الموت : يا خليل الله ، على أى حال تحب أن أقبضك ؟

قال : تقبضنى وأنا ساجد . فقبضه وهو ساجد ، وصعد بروحه إلى الله عز وجل . ودفن إبراهيم عليه السلام بالشام .

وعاش إسماعيل عليه السلام بعد أبيه ما عاش ، وتوفي بمكة ، فدفن داخل الحجر ، مما إلى باب السكينة ، وهناك قبر أمه هاجر ، دفن معها وكانت توفيت قبله .

[ولادة البيت بعد إسماعيل]

ولما توفي إسماعيل عليه السلام ولي البيت بعده ابنه نابت ، ولم يلبه أحد من ولده غيره .

ثم مات فدفن في الحجر مع أمه رَحْلَة بنت مُضَاض . فولى البيت بعده جدّه مُضَاض بن عمرو ، ثم أخواله من جُرهم ، وقاموا عليه ، فسكانواهم ولاتّه وحُجَّابَه وولادة الأحكام بمكة .

وكان البيت قد دخله السيلُ من أعلى مكة فانهدم ، فأعادته جُرُهم على بناء إبراهيم ، وجعلت له مصراعين وقُفلا .

[بين جُرُهم وقطوراء]

قال ابن إسحق : ثم إن جُرُهما وقطوراء بنى بعضهم على بعض وتنازسا الملكَ بها ، ومع مُضاض يومئذ بنو إسماعيل وبنو نابت وإليه ولاية البيت دون السَّمِيدَع .

فسار بعضهم إلى بعض ، فخرج مُضاض من قَعِيقَمَان في كتيبته سائرا إلى السَّمِيدَع ، ومع كتيبة عُدَّتْها من الرماح والدَّرَق والسيوف والجِجَاب يُقَمِّع بذلك معه .

فيقال : ما سَمَّى قَعِيقَمَان قَعِيقَمَان إلا لذلك .

وخرج السَّمِيدَع من أجياد ومعه الخيل والرجال .

فيقال : ما سَمَّى أجياد أجياد إلا لخروج الجياد من الخيل مع السَّمِيدَع منه .

وغيرُ ابن إسحق يقول : إنما سَمَّى أجياداً لأن مُضاضاً ضرب في ذلك الموضع أجياداً مائة رجل من العالقة . وقيل : بل أمر بعض الملوك ، غيرُ مسمًى ، بضرب رقابٍ فيه ، فكان يقول لسيّافه : توسّط الأجياد . وهذا ونحوه أصبح في تسمية الموضع بأجياد ، مما قال ابن إسحق .

قال : فالتقوا بفاضح ، فاقتلوا قتالا شديداً ، فقتل السَّمِيدَعُ وفُضحت قَطُوراء . فيقال ما سَمَّى فاضحاً فاضحاً إلا لذلك .

ثم إن القوم تداخوا إلى الصلح ، فساروا حتى نزلوا المطابخَ شِعْباً بأعلى مكة ، فاصطلحوا به وأسلموا الأمر إلى مُضاض .

فلما رجع إليه أمرُ مكة فصار مُلكها له ، نحر للناس وأطعمهم ، فأطبخَ
الغاسُ وأكلوا . فيقال : ما سميت المطابخُ المطابخَ إلا لذلك . وبعض أهل العلم
يزعم أنها إنما سميت بذلك ^(١) لِمَا كَانَ تُبْعُ نَحَرَ بِهَا وَأُطْعِمَ ، وكانت منزله .

فكان الذي كان بين مُضَاضٍ والسَّمِيدِجِ أَوْلَى بَنِي كَانَ بِمَكَّةَ ، فيما
يزعمون .

ثم نشر الله ولدَ إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جُرهم ولاية البيت والحكام
بمكة ، لا ينافيهم ولدُ إسماعيل في ذلك ، لظهورهم وقرابتهم ، وإعظاما للحُرمة
أن يكون بها بنى أو قتال .

فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل ، انتشروا في البلاد ، فلا يداوئون قوما
إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم فوطئوهم .

[ولاية كنانة وخزاعة]

ثم إن جُرهم بغوا بمكة ، واستحلوا خلافا من الحرمة ، فظلموا من دخلها من
غير أهلها ، وأكلوا مال السكبة الذي يهدى لها ، فرق أمرهم .

فلما رأت ذلك بدو بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وغُبْشَان من خَزَاعَةَ ، أجمعوا
لحربهم وإخراجهم من مكة ، فأذنوهم بالحرب .

فاقتتلوا فمات منهم بدو بكر وغُبْشَان ، فنفوهم من مكة .

وكانت مكة في الجاهلية لا تُقرُّ فيها ظلما ولا بغيًا ، ولا يبنى فيها أحد إلا
أخرجته ، فكانت تسمى الدائِة ، ولا يريد لها ملك يستعمل حرمتها إلا هلك

(١) ابن هشام : سميت المطابخ .

مكانه . فيقال : ما سميت بِبَسَكَّةَ ، إلا أنها كانت تُبَكُّ^(١) أعناقَ الجبابرة إذا أخذوا فيها شيئاً .

[تعظيم العرب للحرم]

فلم يزل أهلها على وجه الدهر يصنونون جفائبها ويحافظون على حُرْمَتِها .

يقال : لأنه اجتمع رأى بنى إسماعيل وخيارهم على أن لا يدعوا أحداً أخذت في حرَمِ الله حدثاً إلا غرَّبوه منه ، ثم لم يرجع فيه . ويقال : بل كان ذلك مما سَنَ لهم أولوهم ، فصارت سُنَّةً فيهم يديّون بها ، ثم خاف من خلف بعدهم على ذلك ، يرون فيه رأيهم ، وتكبرُ مَوَاقِمُ الظلم في حرَمِ الله والتعدي به في نفوسهم ، ويمتقدون أن الباغي فيه معاقبٌ في دنياه في نفسه وماله ، وأن الخالف عند البيت حائقاً تخوفٌ عليه مما أصاب قبله من فعل فعله ، وأن دعاء المظلوم عنده وخصوصاً في الشهر الحرام مُجَابٌ في ظالمه ، ويؤثرون في ذلك أشياء أراها الله إياهم ، صَوْنًا لحرَمِهِ الكريم ، وتنزيهاً لبيت خليله إبراهيم .

ذكر الواقدي من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث ، قال : عدا رجل من بنى كندانة بن هذيل على ابن عم له وظلمه واضطهده فناشده بالرحم وعظم عليه ، فأبى إلا ظلمه ، فقال : والله لألحقن بحرم الله في هذا الشهر ، ولأدعون الله عليك . فقال له ابن عمه مستهزئاً به : هذه ناقتي فلانة ، فأنا أفقرُك ظمَرها فاذهب فاجتهد .

فأعطاه ناقة ، وخرج حتى جاء الحرم في الشهر الحرام ، فقال : اللهم إني أدعوك جاهداً مضطراً على ابن عمي فلان ، ترميه بداء لا دواء له .

(١) ت ط: سقطت منها كلمة كانت . ومعنى تبك: تكسر .

ثم انصرف ، فيجد ابن عمه قد رُمى في بطنه فصار مثل الزق ، فما زال ينتفخ حتى انشق .

قال عبد المطلب : لخذت بهذا الحديث ابن عباس ، فقال : أنا رأيت رجلاً دعا على ابن عم له بالعمى ، يعنى فى الحرم ، فرأيتة يقاد أكمة العميان .

وعن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب يسأل رجلاً من بنى سليم عن ذهاب بعيره . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، كنا فى بنى ضبعاء عشرة ، وكان لنا ابن عم ، فكنا نظلمه ونضطهده ، فكان يذكرنا بالله والرحم ، وكنا أهل بيت نرتكب كل الأمور ، فلما رأى ابن عمنا أننا لا نسكت عنه ولا نرُدُّ إليه ظلامته ، أمهل حتى دخلت الأشهر الحرم ، انتهى إلى الحرم فجعل يرفع يديه إلى الله جل ثناؤه ويقول :

لا هم أدعوك دعاء جاهداً أقبل بنى الضبماء إلا واحداً
ثم اضرب الرجل ودعه قاعدا أعمى إذا قيد يُعفى القائداً

قال : فأت إخوتى تسعة فى تسعة أشهر ، فى كل شهر واحد ، وبقيت أنا ، فعميت ورماني الله عز وجل فى رجلى ، وكسيت فليس يلائمى قائد .

قال ابن عباس : فسمعت عمر يقول : سبحان الله إن هذا هو العجب !

وسمعت عمر يسأل ابن عمهم الذى دعا عليهم ، فقال : دعوت عليهم كل ليلة فى ليالى رجب الشهر كله بهذا الدعاء ، فأهلِكوا فى تسعة أشهر وأصاب الباقى ما أصابه .

قال ابن عباس : وعدا رجل على ابن عم له فاستاق ذوداً له ، ففرج يطلبه حتى أصابه فى الحرم ، فقال ذودى فقال اللص : كذبت ليس لك . قال :

فأحلف . قال : إن ذأحلف . خلف عند المقام بالله الخالق ربُّ هذا البيت ما هُنَّ لك .

فقبل له : لا سبيل لك عليه .

فقام ربُّ الدَّود بين الركن والمقام باسطة يديه يدعو على صاحبه ، فما برح مقامه يدعو عليه حتى دَلَّه فذهب عقله ، فجعل يصيح بمكة : مالى وللدَّودِ ، مالى وللفلان ربُّ الدَّودِ .

فبلغ ذلك عبدَ المطلب ، فجمع الدَّودَ فدفعها إلى المظلوم نفرج بها ، وبقي الآخر مُدَلَّها حتى تردى من جبل فأت فأكَلته السباع .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لو وجدتُ قاتل الخطاب في الحرم ما هِجَّته .

وكان يقول : لأن أذنب برُكبة سبعين ذنباً أحبُّ إلى من أن أذنب ذنباً واحداً في الحرم .

ورُكبة خارج الحرم ، محاذية لذات عِرْق .

وذكر رضى الله عنه يوماً وهو خليفة ما كان يعاقب به مَنْ حَلَفَ ظُلماً ، يعنى في الحرم ، زمن الجاهلية ، فقال : إن الناس ليرتكبون ما هو أعظم منها ثم لا يعجل لهم من العقوبة مثل ما كان يعجل لأولئك ، فأترون ذلك ؟

فقالوا : أنت أعلم يا أمير المؤمنين .

قال : إن الله جل ثناؤه جعل في الجاهلية ، إذ لادين ، حُرمة حرِّمها وعظمها وشرِّفها ، وجعل العقوبة لمن استحل شيئاً مما حرِّم ، ليتنكب عن انتهاك ما حرِّم مخافة تمجيل العقوبة ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أَوْعَدَهم فيما

اتهمكوا مما حرم الساعة ، فقال : « والساعةُ أدّتهى وأمره »^(١) .

فأخّر العقابَ إلى يوم القيامة ، وأراهم الله الاستجابة بعضهم لبعض ليقنّاهوا عن الظلم ، وأخّر أهل الإسلام ليوم الجمع ، ويستجيب الله لمن يشاء ، فانقوا الله وكونوا مع الصادقين .

ومن المشهور في هذا الباب أمرُ إساف ونائلة ، وهما صَنَمَا قريش اللذان أقاموا على زمزم ينتصرون عندهما . ذكروا أنهما كانا رجلا وامرأة من جُرم ، إساف بن بَنِيّ ، ونائلة بنت ديك ، فوقع إساف على نائلة في الكعبة ، فسخرهما الله حجرين . ويقال : أحَدَثَا فيها فسخرهما الله . فالله أعلم .

وأمرهما معدودٌ فيما بلغت إليه جُرم من الاستخفاف بحرمة الحرم^(٢) وقلّة مبالاتهم بالتبني فيه ، مع ما أراهم الله من عظيم الآيّة بمسّخهما حَجَرَيْن ، فأنهّاهم ذلك عن قبيح ما كانوا عليه ، حتى أخرجهم الله عن جواريته بأيدي آخرين من عباده ، فكان من أمرهم مع خُرَاعة ما كان .

[خروج جرم من مكة] .

نفرج عمرو بن الحارث بن مُضاض الجُرهمي بقرآلى الكعبة وبمحجر الركن فدفنها في زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جُرم إلى اليمن ، وحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة ومملكتها حزناً شديداً .

فقال عمرو بن الحارث بن مُضاض في ذلك ، وليس بمضاض الأكبر :

كأن لم يكن بين الحَجُوج إلى الصفا^(٣) أنيسٌ ولم يسْمُرْ بمكة سامرٌ

(١) سورة القمر ٤٦ .

(٢) غيوط : حرمة الله .

(٣) الحجون : جبل بمكة .

بلى نحن كئنا أهلها فأزالنا^(١) صروفُ الليالى والجدودُ العواثرُ
وكئنا ولادة البيتِ مِنْ بعدِ نابتِ نطوفِ بذاك البيتِ والخيرُ ظاهرُ
ونحنَ ولينا البيتَ من بعدِ نابتِ بعزّةٍ فما يَمْخِطُ لدينا المكائِرُ
مَلَكَنا فَعَزَّزَنا فَأَعْظَمَ بِمَلَكَنا فليسَ لِحَى غَيْرِنا قَمٌّ فاخِرُ
ألم تُنْكَحُوا^(٢) من خيرِ شَخْصٍ عَلمَته

فأبناؤهُ مِنْنا ونحنُ الأصاھرُ
فإن تَنَسَّيَ الدنيا علينا بحالها فإنَّ لها حالا وفيها التشاجرُ
فأخرجنا مِنْها المليكُ بِقدرةٍ كذلك يالْناسَ تجرى المقادرُ
أقول إذا نامَ الخَلِيٌّ ولم أتمْ أذا العَرْشُ لا يَبْعُدُ سُهَيْلٌ وعامرُ
وبُدِّلَتْ مِنْها أوجهُها لا أحِبُّها قَبائلَ مِنْها خَيْرٌ ويحابرُ^(٣)
ومِرْنا أحاديثنا وكئنا بِغَبْطَةٍ كذلك عَضُّنَا السُّنُونُ الفوابرُ
فَسَحَّتْ دموعُ العَيْنِ تَبْكِي لِبَلَدَةٍ بها حَرَمٌ أَمْنٌ وفيها المشاعرُ
وتَبْكِي لِبَيْتٍ ليسَ يُؤَدِّي حِمامَهُ يَظَلُّ بِهِ أَمْنًا وفيهِ العِصافِرُ
وفيه وحوشٌ لا تُرامُ أُنَيْسَةٌ إذا خَرَجْتَ مِنْهُ فَلَيْسَتْ تُفَادِرُ
وقال عمرو بن الحارث أيضا يُذَكِّرُ بِكَرٍّ وَغُبْشَانَ وَسَاكِنِي مَكَّةَ الَّذِينَ
خَلَقُوا فِيمَا بَعْدَهُمْ :

يا أيها الناسَ سِيرُوا لِمَنْ قَصَرَ كَمُّ^(٤) أن تُصْبِحُوا ذاتَ يومٍ لا تَسِيرُونَا
حُثُّوا لَطِيطٍ وَأَرْخُوا مِنْ أَرْمَتِهَا قَبْلَ الماتِ وَقَصُّوا ما تُقَضُّونَا
كُنَّا أَناسًا كما كُنْتُمْ فَذَيِّرُنَا دهرُ ، فأنتم كما كُنَّا تَكُونُونَا

(١) ت ط : فأبادنا ؟ وهى رواية ابن هشام .

(٢) ط : ينكحوا .

(٣) ت : ويخامر وهو خطأ . وخير ويحابر من قبائل اليمن .

(٤) قصركم : نهايتكم وغايتكم .

قال ابن هشام [هذا ما صح له منها]^(١) وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب ، وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن ولم يُسمَّ لنا^(٢) قائلها .

[ولاية خزاعة البيت]

ثم إن غُبُشان من خُزاعة وليت البيت دون بنى بكر بن عهد مائة .

وغُبُشان لقب ، واسمه الحارث ، وخزاعة يقال إنهم من ولد قَمْعَة بن ألياس ابن مُضَر ، وأن أباهم عمرو بن لُحَيّ هو عمرو بن لُحَيّ بن قَمْعَة [بن خِنْدَف^(٣)] وخزاعة يَأْبُون هذا النسب ، ويقولون إنهم من ولد كعب بن عمرو بن ربيعة ابن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن غَسَّان .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُرِيتُ عمرو بن لُحَيّ بن قَمْعَة بن خِنْدَف يَجْرُ قُصْبُهُ^(٤) في النار ، فسألتُه عن بَيْتِي وبينه من الأمم ، فقال : هلكوا » .

فقيل له : ومن عمرو بن لُحَيّ ؟ قال : أبو هؤلاء الحَيّ من خُزاعة ، وهو أول من غيّر الحنيفية دين إبراهيم ، وأول من نصّب الأوثان حول الكعبة^(٥) .

فإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا ، فرسول الله أعلم وما قال فهو الحق .

(١) من ابن هشام .

(٢) ابن هشام : لى .

(٣) من ث ط .

(٤) القصب : الأمعاء .

(٥) الذى رواه البخارى الى قوله : « هلكوا » .

وعمر بن ربيعة الذي تنتسب إليه خزاعة يقال : هو عمرو بن لُحَيٍّ ، وإن حارثة بن ثعلبة بن عمرو خلف على أم لُحَيٍّ ، ولُحَيٍّ هو ربيعة بعد أن تأيَّمت^(١) من قَمة ، ولُحَيٍّ صغير ، فبناء حارثة وانتسب إليه .

فيسكون النسب على هذا صحيحاً بالوجهين ، إلى قَمة بالولادة وفق ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله ، وإلى حارثة بن ثعلبة بالتبني ، والانتساب به موجود كثيراً في العرب .

فلما وليت خزاعة البيت حفظوه مما كانت جرهم استباحته ، وتوافروا على تعظيمه والدِّبُّ عنه ، وكان الذي يليه منهم عمرو بن الحارث الغُبشاني ، ثم قومه من بعده ، وقريش إذ ذاك حُلُولٌ وصِرْمٌ^(٢) متقطعون وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة .

فأقامت خزاعة على ولاية البيت ، يتوارثون ذلك كإبراهيم كابر ، حتى كان آخرهم حُكَيْلُ بْنُ حَبْشَةَ بْنِ سُلُولِ بْنِ كَعْبِ بْنِ عمرو الخزاعي .
وبعدده انتقلت ولاية البيت إلى قُصَيِّ بْنِ كِلَاب .

[حديث قصي]

وكان من حديث قصي أنه لما هلك أبوه كِلَابُ بْنُ مُرَّة ، خلف ولديه زُهرَةُ وقُصَيًّا ، وأما فاطمة بنت سعد بن سَيْلٍ من عُدْرة ، وزُهرَةُ يومئذ رجل ،

(١) ت ط : آمت . والمعنى واحد وهو موت الزوج عن المرأة .

(٢) الحُلُولُ جمع الحَالِ بهشديد اللام والصرم بكسر الصاد وسكون الراء هو الطائفة من القوم يدرلون بإيلهم ناحية من الماء والجمع أصرام .

وقُصِيَ فطيم ، فقدم مكة بعد مهلاك كلاب حاجاً من قضاة فيهم ربيعة بن حرام بن ضئمة بن عهد كبير بن عذرة ، فتزوج فاطمة بنت سمد فاحتملها إلى بلاده ، فاحتملت ابنها قصباً صغيره ، وأقام زهرة في قومه .

فولدت فاطمة أربعة رزاحاً ، فكان أخا قصي لأمه ، وكان لربيعة بنون ثلاثة من امرأة أخرى ، وهم حُنَّ ومحمود وجُلمة ، بنو ربيعة .

وأقام قصي بأرض قضاة لا ينسب إلا إلى ربيعة بن حرام .

فناضل يوماً رجلاً من قضاة يُدعى رفيما ، فنزله قصي ، وهو يومئذ شاب ، فغضب المنضول ، فوقع بينهما حتى تقاولا وتنازعا ، فقال ربيع : ألا تلتحقُ ببلدك وبقومك ، فإنك لست منا !

فرجع قصي إلى أمه ، وقد وجد في نفسه مما قال ، فسألها عن ذلك فقالت : أو قد قال هذا ؟ أنت والله يا بُنى أكرم منه نفساً ووالداً ونسباً وأشرفُ منزلاً ، أنت ابنُ كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كندانة القرشي ، وقومك بمكة عند البيت الحرام وفيما حوله ، تفيدُ العرب إلى ذلك البيت ، وقد قالت لى كاهنة رأيتك : هذا يلي أمرا جليلاً ، فطِبْ نفسك .

فأجمع قصي الخروجَ إلى قومه والاحقوق بهم ، وكره الغربة بأرض قضاة ، وضاق ذرعاً بالمقام فيهم ، فقالت له أمه : لا تمجّل حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاج العرب ، فإنني أخشى عليك أن يصيبك بعضُ الناس .

فأقام قصي حتى إذا دخل الشهر الحرام وخرج حاجٌ قضاة خرج معهم ،

وهم يظنون أنه إنما يريد الحج ثم يرجع إلى بلاده ، حتى قدم مكة ، فلما فرغ من الحج أقام بها ، وعالجه القضاة على الخروج معهم فأبى .

وكان رجلاً جليلاً نَهْدًا نَسِيبًا ، فلم ينشب أن يخطب إلى حُلَيْل بن حُبْشِية ابنته حُجِّي ، فعرف حُلَيْل النَّسَبَ ورغب في الرجل فزوج به ، وحُلَيْل يومئذ يلى أمر مكة والحكم فيها وحِجَابَةُ البيت .

فأقام قصى معه بمكة ، وولدت له حُجِّي بنيه عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدًا .

فلما انتشر ولد قصى وكثر ماله وعظم شرفه هلك حُلَيْل ، فرأى قصى أنه أنه أولى بالسكبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر ، وأن قريشا قرعة^(١) إسماعيل ابن إبراهيم عليها السلام وصريح ولده .

فكلم رجلاً من قريش وبنى كفانة ، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة ، فأجابوه إلى ذلك ، فكتب عند ذلك قصى إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة ، يدعوهم إلى نصرته والقيام معه ، فخرج رزاح ومعه إخوته لأبيه ، حُنَّ ومحمود وجلمة ، فيمن تبعهم من قضاة في حاج العرب ، وهم مجتمعون لنصر قصى والقيام معه .

فلما اجتمع الناس بمكة وفرغوا من الحج ولم يبق إلا أن يصدر الناس ، كان أول ما تعرض له قصى من المناسك أمر الإجازة للناس بالحج .

(١) القرعة : النخبة والخيار

[صوفة تجيز للناس بالحج]

وكان صُوفَة هي التي تلى ذلك مع الدفع بهم من عرفة ورَمَى الجِمَار ، وهم ولد الفوث بن مُرَّ بن أَدَّ بن طابخة بن ألياس بن مُضَر .

والفوث هو أول من وَلِيَ ذلك منهم .

وذلك أن أمه كانت امرأة من جُرُم ، وكانت لا تلد ، فنذرت لله إن هي ولدت ولداً أن تصدق به على السكبة عبداً لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت الفوث في مكان يقوم على السكبة في الدهر الأول مع أخواله من جُرُم ، فوَلِيَ الإجازة بالناس من عرفة لمكانه الذي كان به من السكبة ، وولده من بعده حتى انقرضوا .

فقال مُرَّ بن أَدَّ أبو الفوث^(١) لوفاء نذر أمه :

إني جعلتُ رَبًّا مِنْ بَيْتِيهِ رَبِيعَةً بِمَكَّةَ الْمَلَكِيَّةِ
فباركني لي بها أَلِيَّةٌ^(٢) واجعله لي مِنْ صَالِحِ الْبَرِيَّةِ

وكان الفوث بن مُرَّ ، زعموا ، إذا دَفَعَ بالناس قال :

لَاهُمْ إني تابعٌ تِبَاعَهُ إِنْ كَانَ لَاهُمْ فَقَلَى قَضَاعُهُ

وذلك أن قضاة كان منهم أحياء يستحلون الحُرْمَةَ في الجاهلية ، فكانت صُوفَة تدفع بالناس من عرفة ، وتجيز^(٣) بهم إذا نفروا من مِنًى ، فإذا^(٤) كان يوم النفر أتوا لِرَمَى الجِمَار ، ورجل من صوفة يرمى للناس ، لا يرمون حتى يرمى ، فكان

(١) فخرط : ابن الفوث .

(٢) الألية : القسم . ويريد بها هنا النذر .

(٣) الأصول : وتحين . وما أثبتته عن ابن هشام . (٤) ط : إذا

ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له : قم فإزِم حتى نرى . . . لك . فيقول : لا والله حتى تميل الشمس . فيظل ذوو الحاجات الذين يحمون التعجيل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ، ويقولون له : ويلك قم فإزِم بنا^(١) . فيأبى عليهم ، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورعى الناس معه .

فإذا فرغوا من رمى الحجار وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانب العقبة فخبسوا الناس وقالوا : أحيِزى صوفة . فلم يجز أحد من الناس حتى يمرؤا ، فإذا نفذت صوفة ومضت خلى سبيل الناس فانطلقوا بعدهم ، فكانوا كذلك حتى انقرضوا .

فورثهم ذلك من بعدهم بالقعد^(٢) بنو سعد بن زيد مناة بن تميم ، وكانت من بنى سعد فى آل صفوان بن الحارث بن شجبة بن عطار بن عوف بن كعب ابن سعد .

فكان صفوان هو الذى يجيز للناس بالحج من عرفة ، ثم بنوه من بعده ، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام كريب بن صفوان .

وفى ذلك يقول ابن مَنَراء السَّعْدِي :

لَا يَبْرَحُ النَّاسُ مَا حَجُّوا مُعْرِفَهُمْ حَتَّى يُقَالَ أُجِيزُوا آلَ صَفْوَانَا

فأما قول ذى الإصبع العدواني ، واسمه حُرثان بن عمرو ، وقيل له ذو الإصبع الحية لدعته فى إصبعه فقطعها :

عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَـذْوَا نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ

(١) ليست فى ابن هشام .

(٢) أى بقرب النسب . قال الزعفراني : ورثته بالقعد : صفة للنسب .

بَقِيَ بَعْضُهُمْ ظُلْمًا فَلَمْ يُرْعَ عَلَى بَعْضٍ^(١)
وَمِنْهُمْ كَانَتِ السَّادَاتُ وَالْمُؤَفُّونَ بِالْقَرْضِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُ النَّاسَ بِالشُّكْرِ وَالْقَرْضِ
وَمِنْهُمْ حَكَمٌ يَقْضِي فَلَا يُنْقَضُ مَا يَقْضِي

فإنما قال ذلك لأن الإفاضة من المزدلفة كانت في عذوان ، وهو عذوان بن عمرو بن قيس بن عيلان ، يتوارثون ذلك كإبراهيم عن كابر ، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام أبو سَيَّارة عُمَيْلَةَ بن الأعزل .

قال حُوَيْطِب بن عبد المُرِّي : رأيت أبا سَيَّارة يَدْفَعُ بالناسِ مِنْ جَمْعٍ عَلَى أَنْ تَنْ لَه عَمُوقُ^(٢) . وَذَكَرُوا أَنَّهُ أَجَازَ عَلَيْهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً .

قالوا : وَكَانَ إِذَا وَقَفَ لِلنَّاسِ قَالَ : اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، وَأَصْلَحُوا أَمْوَالَكُمْ ، وَاحْفَظُوا جِيرَانَكُمْ ، وَقَاتِلُوا أَعْدَاءَكُمْ ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ بَيْنَ نَسَائِنَا ، وَبَقِّضْ بَيْنَ رِعَائِنَا ، وَاجْعَلْ أَمْرَ النَّاسِ بِأَيْدِي صِلِحَائِنَا . ثُمَّ يَقُولُ : أَفِيضُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ .

وفيه يقول شاعر من العرب :

نَحْنُ دَفَعْنَا عَنْ أَبِي سَيَّارِهِ وَهْنُ مَوَالِيهِ بَنَى فَرَازَهُ
حَتَّى أَجَازَ سَالِمًا حِمَارَهُ مَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ يَدْعُو جَارَهُ

قوله : «حَكَمٌ يَقْضِي» يعنى عامر بن ظَرَبِ العَدَوَانِي ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ لَا يَكُونُ بَيْنَهَا نَائِرَةٌ^(٣) وَلَا عُضْلَةٌ فِي قَضَاءٍ إِلَّا أَسْنَدُوا ذَلِكَ إِلَيْهِ ثُمَّ رَضُوا بِمَا قَضَى فِيهِ .

(١) أُرْعِيتَ عَلَيْهِ : أَبْقِيتَ وَتَرَجَعْتَ .

(٢) الْعَمُوقُ كَصَبُورٍ : الْحَامِلُ أَوْ الْحَاتِلُ ، ضِدُّهُ ، أَوْ هُوَ عَلَى التَّفَاوُلِ .

(٣) النَّائِرَةُ : الْمِدَاوَةُ وَالشَّخَاءُ .

فاختُصِمَ إليه ، في بعض ما كانوا يختلفون فيه ، في رجل خُنْثى له ما للرجل وله ما للمرأة ، أيجعله رجلاً أو امرأة ؟ ولم يأتوه بأمرٍ كان أعضل .

فقال : حتى أنظرَ في أمركم ، فوالله ما نزل بي مثلُ هذه مدسكم يا معشر العرب .

فاستأخروا عنه ، فبات ليلته ساهراً يقلب أسره وينظر في شأنه فلا يتوجه له منه وجه ، وكانت له جارية يقال لها سُخَيْلَة تَرعى عليه غنمه ، فسكان يعاتبها إذا سَرَحَتْ فيقول : صَبَّحْتَ والله يا سُخَيْل . وإذا راحت عليه يقول ^(١) مَسَّيْتَ والله يا سُخَيْل . وذلك أنها كانت تؤخر السَّرح حتى يسبقها بعض الناس ، وتؤخر الإراحة حتى يسبقها بعض الناس .

فلما رأت سهره وقلة قراره على فراشه قالت : مالك لا أبالك ! ما عراك في ليلتك هذه ؟ قال : ويلك دَعِينِي ، أمرٌ ليس من شأنك . ثم عادت له بمثل قولها ، فقال في نفسه : عسى أن تأتي مما أنا فيه بقرَج . فقال : ويحك ، اختصم إلى في ميراث خُنْثى ، أاجعله رجلاً أو امرأة ؟ فوالله ما أدرى ما أصنع وما يتوجه لي فيه وجه .

فقالت : سبحان الله ! لا أبالك ! أتُبِيعُ ^(٢) القضاء المآل ، أقعِذه ، فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل ، وإن بال من حيث تبول المرأة فهو امرأة .

فقال : مَسَّى سُخَيْل بعدها أو صَبَّحِي ، فَرَجَّتْهَا والله .

ثم خرج على الناس حين أصبح ، فقضى بالذي أشارت عليه .

(١) أب : قال

(٢) ت : وجه .

[عَوْدٌ إِلَى قُصَى]

وهذا كله من الخبر معترض قطع اتصال حديث صُوفَةَ وقُصَى ، فنرجع الآن إليه ونصله بموضع انقطاعه .

حيث ذكر أن صُوفَةَ هي التي كانت تلى الإجازة للناس من مَنَى والدفع بهم من عرفة ، وأن قُصَيًّا عزم على انتزاع ذلك من أيديهم والقوام به دونهم ، واستدعى لمظاهرة على ذلك أخاه رِزَاحًا فوصله مع مَنْ ذَكَرَ وصولهم معه .

فلما كان ذلك العام فعلت صُوفَةَ مثلَ ما كانت تفعل ، قد عرفت ذلك لها العرب ، وهو دين في أنفسهم من ^(١) عهد جُرهم وخزاعة .

فأتاهم قُصَى بن معه من قومه من قريش وكِثْبانة وقضاة عند العَقبة ، فقال : لنحن أولى بهذا الأمر منكم .

فقاتلوه ، فاقْتَتَلَ الناسُ قتالا شديداً ، ثم انهزمت صُوفَةَ وغلبهم قُصَى على ما كان بأيديهم من ذلك .

وانحازت عند ذلك خُزَاعَةُ وبنو بكر عن قُصَى ، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صُوفَةَ ، وأنه سيحول بينهم وبين السكينة وأمر مكة ، فلما انحازوا عنه بادأهم وأجمع لحربهم ، وخرجت له خزاعة وبنو بكر فالتقوا ، فقاتلوا قتالا شديداً بالأبطاح ، حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً ، وفشت الجراح فيهم وأكثرت ذلك في خزاعة .

ثم إنهم تداروا إلى الصلح وإلى أن يحكموا بينهم رجلا من العرب ، فحسبوا يَعْمرُ بن عوف بن كعب بن عامر بن إيث بن بكر بن عهد مفاة بن كِثْبانة بن قُصَى .

فَقَضَى بَيْنَهُمْ أَنْ قُضِيَ أَوَّلَى بِالسَّكْبَةِ وَأَمَرَ مَكَّةَ مِنْ خُرَاعَةٍ ، وَأَنْ كُلَّ دَمٍ أَصَابَهُ قَعَى مِنْ خُرَاعَةٍ وَبَنَى بَكْرَ مَوْضُوعٍ بِشَدَخِهِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، وَأَنْ مَا أَصَابَتْ خُرَاعَةُ وَبَنَى بَكْرَ مِنْ قَرِيشٍ وَكَدْنَانَةٍ وَقَضَاعَةٍ فَفِيهِ الدِّيةُ مُؤَدَّاةٌ ، وَأَنْ يَحْلَى بَيْنَ قَعَى وَبَيْنَ السَّكْبَةِ وَمَكَّةَ .

فَسَمَّى يَعْمَرُ بْنُ عَوْفٍ يَوْمَئِذٍ الشَّدَاخَ ، لِمَا شَدَخَ مِنَ الدَّمَاءِ وَوَضَعَ مِنْهَا ، وَيُقَالُ الشَّدَاخُ^(١) أَيْضًا .

فَوَلَّى قَعَى الْبَيْتَ وَأَمَرَ مَكَّةَ ، وَجَمَعَ قَوْمَهُ مِنْ مَفَازِهِمْ إِلَى مَكَّةَ ، وَتَمَلَّكَ عَلَى قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَكَّةَ فَلَمَّكَوهُ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ أَقْرَأَ لِلْعَرَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَرَاهُ دِينَكَ فِي نَفْسِهِ لَا يَنْبَغِي تَغْيِيرَهُ .

فَأَقْرَأَ آلَ صَفْوَانَ وَعَذَوَانَ وَالنِّسَاءَ وَمُرَّةَ بْنَ عَوْفٍ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ .
حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامَ فَهَدَمَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ كُلَّهُ .

[النِّسَاءُ]

وَبَنُو مُرَّةَ بْنِ عَوْفٍ هُمْ أَهْلُ الْبَسَلِ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ^(٢) .
وَأَمَّا النِّسَاءُ فَهُمْ بَنُو فُقَيْمِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ عَامِرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كَدْنَانَ بْنِ خَزِيمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ أَلْيَاسِ بْنِ مُضَرَ .

(١) ضَبَطَهُ فِي الْقَامُوسِ بِالضَمِّ . قَالَ السَّهْبِيُّ : وَالشَّدَاخُ بِضَمِّهَا - أَيْ الشَّيْءُ - لِأَنَّهُ هُوَ جَمٌّ ، وَجَائِزٌ أَنْ يُسَمَّى هُوَ وَبَنُوهُ بِالشَّدَاخِ ، كَمَا يُقَالُ : الْمَنَادَةُ فِي الْمَنَادِ وَبَنِيهِ ، وَالْأَشْعَرُونَ فِي بَنِي الْأَشْعَرِ .

(٢) تَقَدَّمَ ذَلِكَ ص ٢٩

وهم الذين كانوا يَنْسَأُونَ الشهورَ على العرب في الجاهلية ، فيُحِلُّونَ الشهرَ من أشهر الحُرِّمِ ويحرِّمونَ مكانه الشهرَ من أشهر الحِلِّ ويؤخرون ذلك الشهر ، ففيه أنزل الله سبحانه : « إنما النسيءُ زيادةٌ في الكفرِ يضلُّ به الذين كفروا ، يُحِلُّونَهُ عَمَّا وُحِّىَ وَيُحَرِّمُونَهُ عَمَّا وُحِّىَ لِيُؤْطُوا هِدْيَةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » (١) .

وكان أول مَنْ نَسَأَ الشهورَ منهم على العرب ، فأحلت منها ما أحلَّ وحرَّم ما حرَّم منها ما حرَّم : القَلَسُ ، وهو حذيفة بن عبد بن قُقيم بن عدي ، وتوارث ذلك بدوره من بعده ، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام أبو ثُمالة جُمادة بن عوف ابن أمية بن قلع بن عباد بن حذيفة ، وهو القَلَسُ .

قال الزبير : وكان أبعدهم ذِكْراً وأطولهم أمراً ، يقال إنه نَسَأَ أربعين سنة .

وكانت العرب إذا فرغت من حَجَّجِها اجتمعت إياه ، فحرَّم الأربعة الأربعة : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والحرَّم . فإذا أراد أن يُحِلَّ منها شيئاً أحلَّ الحرَّم فأحلَّوه ، وحرَّم مكانه صَفَرًا فحرَّموه ، ليواطئوا هِدْيَةَ الأربعة الأشهر الحرم .

فإذا أرادوا الصَّدْرَ (٢) قام فيهم فقال : اللهم إني قد أحللتُ أحدَ الصَّغَرَيْنِ ، الصَّغَرِ الأول ، ونَسَأْتُ الآخرَ للعام المقبل .

وفي ذلك يقول حميد بن قيس ، جَذَلُ العُطَّان ، أحد بني فِرَّاس بن غنم بن مالك بن كنانة ، يفخر بالنسأة على العرب :

(١) سورة التوبة ٣٧ .

(٢) أي الرجوع من مكة .

لقد علمت مَعْدَةً أَنْ قَوْمِي
 كَرَامُ النَّاسِ إِنَّ لَهُمْ كِرَامًا
 فَأَيُّ النَّاسِ فَاتُونَا بِوَيْتِ
 وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ تُفْعَلِكْ لِحِجَامًا
 أَنَسْنَا النَّاسِيْنَ عَلَى مَعْدَةٍ
 شَهْوَرَ الْحِلَّ نَجْمَلَهَا حَرَامًا
 فهذا كان شأن النساء في الجاهلية ، فأقره قصي على ما كان عليه ، مع سائر
 ما ذكر لإقراره العرب عليه .
 حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله .

فكان قصي أول بني كعب بن لؤي أصاب مُلْكًا أطاع له به قومه ،
 فسكنت إليه الحجابة والسقاية ، والرغادة ، والنذوة ، واللواء . فحاز شرف مكة
 كله ، وقطع مكة رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة
 التي أصبحوا عليها .
 ويزعم الناس أن قريشاً هابوا قَطَعَ الشجر من الحرم في منازلهم ، فقطعها
 قصي بيده وأعوانه .
 فسمته قريش مُجَمِّعاً ، لِمَا جمع من أمرها ، وتيمنت بأمهه ، فما تُنَكِّح
 امرأة ولا يزوّج رجل من قريش ، ولا يشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يمدقون
 لواء الحرب قوم غيرهم إلا في داره ، يعقده لهم بمض ولده ، ولا يُنذَرُ^(١) غلام إلا في
 داره ، ولا تدّرع جارية من قريش إلا في داره ، يُشَقُّ عليها فيها درعها إذا
 بلغت ذلك ، ثم تدّره ثم يُنطلق بها إلى أهلها .

(١) يعذر : يفتن .

ولا تخرج غير من قريش فيرحلون إلا من داره ، ولا يقدّمون إلا نزلوا في داره .

فكان أسرهم في قريش في حياته ومن بعد موته كالذين المتبعين ، لا يعمل بعده .

واتخذ لنفسه دار الدودة ، وجعل بابها إلى مسجد السكبة ، فيها كانت قريش تقضى أمورها .

ولما فرغ قصى من حربه انصرف أخوه رزاح إلى بلاده بمن معه من قومه ، فلما استقر في بلاده نشره الله ونشر حنّاً ، فهما قبيلاً عذرة اليوم .

فهذا حديث قصى في ولاية البيت بعد حليل بن حبشية وإخراج خزاعة عنه .

وخزاعة تزعم أن حليلاً أوصى بذلك قصى وأسره به حين انتشره من ابنته من الولد ما انتشر ، وقال : أنت أولى بالسكبة والقيام عايتها وبأمر مكة . من خزاعة فعند ذلك طلب قصى ما طلب

قال ابن اسحاق : ولم يسمع ذلك من غيرهم . فافهم .

وقد ذكر الواقدي الأمرين على نحو ما ذكر ابن اسحاق .

قال : وقد سمعنا في ذلك وجهاً آخر ، ذكر أن أبا غُبْشان رجلاً من خزاعة ، كان ولي السكبة فباع حجابتها من قصى بن كلاب بيماء . وذكر غيره أنه باع منه مفتاح السكبة بزيّ خمر . فلذلك قيل : أحسّر صَفْقَةً من أبي غُبْشان .

وذكر الواقدي أيضاً بإسناد له ، أن رجلاً من قضاة يقال له أبو الشحوس

حدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو خليفة حديث قصى بن كلاب ، وكيف استعان بإخوته على خزاعة ، فاستمع له عمر وتمجّب لأول الحديث وقال : ذكرتنا أمرا كان دثر منا ، فالحمد لله رب العالمين ، إن الله عز وجل ليصنع لهذا الحى من قريش ، وهم أولى الناس أن يتقوا الله وتَحْسُنَ سِيرَةُ من وُلّى منهم ، يصنع الله لهم ، جعل فيهم الإمامة وقبيل ذلك النبوة .

[عهد الدار]

قالوا : فلما كبر قصى ورّق ، وكان عهد الدار بكثرة ، وكان عهد مداف قد شَرُفَ في زمان أبيه وذهب كلّ مذهب ، وعهد العزّى وعهد ، قال قصى لعهد الدار : أما والله يا بُنى لآلِ حَقْلِكَ بالقوم وإن كانوا قد شَرُفُوا عليك .

لا يدخل رجل منهم السكبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يَمَقِدُ لقريش لواء إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الحرم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا في دارك .

فأعطاه دار الندوة التي لا تقضى قريش أمرا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرّفاة .

وكانت الرّفاة خَرَجًا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصى بن كلاب ، فيصنع به طعاما للحاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد .

وذلك أن قصىا فَرَضَها على قريش ، فقال لهم [حين أمرهم به] ^(١) يا معشر

(١) من ابن هشام .

قُرَيْش ، لأنكم جبران الله وأهل بيته وأهل الحَرَم ، وإن الحُجَّاج ضَعِيفُ الله
وَزُورُ أَرَبِيَّتِهِ ، وهم أَحقُّ الضَّعِيفِ بالسَّكْرَامَةِ ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج
حتى يَصْدُرُوا عَنْكُمْ .

فَفَعَلُوا ، فَكَانُوا يُخْرِجُونَ لِلذَّكَاءِ كُلِّ عامٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ خَرْجًا فَيَدْفَعُونَهُ إِلَيْهِ ،
فَيَصْنَعُهُ طَعَامًا لِلنَّاسِ أَيَّامَ مَيْتَى ، فَجَرَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى قَوْمِهِ حَتَّى
قَامَ الْإِسْلَامُ ، ثُمَّ جَرَى فِي الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِنَا^(١) هَذَا ، فَهُوَ الطَّعَامُ الَّذِي يَصْنَعُهُ
السُّلْطَانُ كُلُّ عامٍ بِمَنْى لِلنَّاسِ حَتَّى يَنْقُضَى الْحَجُّ .

فَقَضَى أَمْرَ قَعِيٍّ فِي عَهْدِ الدَّارِ ابْنِهِ ، وَجَعَلَ إِلَيْهِ كُلَّ مَا كَانَ بِيَدِهِ مِنْ أَمْرِ
قَوْمِهِ ، وَكَانَ قَعِيٌّ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُرَدُّ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَصْنَعُهُ .

[وفاته قعبي]

ثُمَّ إِنَّ قَعْبِيًّا هَلَكَ ، فَأَقَامَ أَمْرَهُ فِي قَوْمِهِ [وَفِي غَيْرِهِمْ]^(٢) بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ .
فَانْخَطَطُوا مَكَّةَ رِبَاعًا بَعْدَ الَّذِي كَانَ قَعْبِيٌّ قَطَعَ اقْوَمَهُ بِهَا ، فَكَانُوا يَقْطَعُونَهَا فِي
قَوْمِهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ مِنْ حُلَفَائِهِمْ وَيُيَبِّعُونَهَا .

فَأَقَامَتْ قُرَيْشٌ عَلَى ذَلِكَ مَعَهُمْ لَيْسَ بَيْنَهُمْ اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَازُعٌ .

[بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار]

ثُمَّ إِنَّ بَنِي عَبْدِ مَنْفَافِ بْنِ قَعْبِيٍّ : عَبْدِ شَمْسٍ وَهَاشِمًا وَالْمُطَّلِبَ وَنَوْفَلَ أَجْعَلُوا أَنْ
يَأْخُذُوا مَا فِي يَدِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ [بَنِي قَعْبِيٍّ]^(٣) مِمَّا كَانَ قَعْبِيٌّ جَعَلَ إِلَى عَبْدِ الدَّارِ
مِنْ الْحِجَابَةِ وَاللَّوَاءِ وَالسَّقَايَةِ وَالرَّفَادَةِ ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُمْ لِشَرَفِهِمْ عَلَيْهِمْ
وَفَضْلِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ ، فَتَفَرَّقَتْ عِنْدَ ذَلِكَ قُرَيْشٌ ، فَكَانَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَ بَنِي

(١) ابن هشام : يومك .

(٢) (٣ ، ٢) ابن هشام .

عهد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق به من بنى عهد الدار لمكانهم في^(١)
قومهم ، وكانت طائفة مع بنى عهد الدار يرون أن لا يُنزع منهم ما كان قصى
جمل إليهم .

فكان صاحب أمر بنى عهد مناف عبد شمس بن عهد مناف . وذلك أنه
كان أسنهم .

وكان صاحب أمر بنى عهد الدار عامر بن هاشم بن عهد مناف بن
عهد الدار .

وكانت^(٢) بنو أسد بن عهد العزى بن قصى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو
تيم بن مرة بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر . مع بنى عهد مناف .

وكان بنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سثهم بن عمرو بن هصيص بن كعب
و بنو جهم بن عمرو بن هصيص ، وبنو هدي بن كعب ، مع بنى عهد الدار .

وخرجت عامر بن لؤى ومحارب بن فهر ، فلم يكونوا مع واحد من الفريقين .
فمقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا
ما بلى بمر صوفة^(٣) .

فأخرج بنو عهد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند
الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتماقدوا [وتعاقدوا]^(٤) هم وحلفاؤهم ، ثم
مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ، فسئوا المطيبين .

(١) غيوط : من .

(٢) ابن هشام : لكان .

(٣) أى إلى الأبد .

(٤) من ابن هشام .

وتعاقد بنو عبد الدار [وتماهدوا هم]^(١) وحلفواؤهم عند الكعبة حائفاً ، وكذا على أن لا يتخاذلوا ولا يُسلم بعضهم بعضاً ، فسُثموا الأحلاف .

ثم سُوِّد بين القبائل ولزَّ بعضها ببعض ، فُعْبِثَتْ^(٢) عهدُ مناف ابني سهم ، وعُيِّبَتْ بنو أسد ابني عهد الدار ، وعُيِّبَتْ زُهرة ابني بُجَح ، وعُيِّبَتْ تميم ابني مخزوم ، وعُيِّبَتْ بدو الحارث بن فهر ابني عدى ، ثم قالوا : لَتَمُنَّ^(٣) كل قبيلة مَنْ أَسَدَ إليها .

فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تَدَاعَوْا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عهد مناف السَّقَايَةَ والرَّفَادَةَ ، وأن تكون الحِجَابَةُ واللاواء والدُّوَّة لبنى عهد الدار كما كانت ، ففعلوا ، ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع مَنْ حالفوا ، حتى جاء الله بالإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان من حالفٍ في الجاهلية فإن الإسلام لم يَزِدْهُ إلا شدة »^(٤) .

فهذا حلف المطَّيِّبين

(١) من ابن هشام .

(٢) سُوِّد : أى قوبل . ولز : شد بعضها ببعض . وعُبِثَتْ : أعدت وجهزت

(٣) ابن هشام : لَتَمُنَّ .

(٤) أى : أحلاف البر والخير ، مثل حلف الفصول الذى قال عنه الرسول : « ولودعيت إليه في الإسلام لأجبت » وبداية لا يدخل فيه أحلاف العصبية والبقى ، ولعل الرسول أراد هذا النوع في قوله : « لا حلف في الإسلام »

قال ابن الأنبر : « أصل الحلف المفاضة والمعامدة على التعاضد والتسائد والاتفاق ، لما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات فذلك الذى ورد التهم عنده في الإسلام بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا حلف في الإسلام » ، وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام ، كحلف المطَّيِّبين وما جرى مجراه ، فذلك الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأيما حلف كان في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا شدة » يريد من المفاضة على الخير ونصرة الحق . وبذلك يجتمع الحديثان « انظر لسان العرب ٣٩٩/١٠

[حلف الفضول]

وقد كان في قريش حلف آخر بعده ، وهو حلف الفضول ، تداعت إليه قبائل من قريش ، فاجتمعوا إليه في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تميم بن مرة ، لشرفه وسننه ، فتماقذوا وتماهدوا على أن لا يمدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى تردَّ عليه مظلومه ، فسُمِّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول .

واختلف في السبب الذي دعا قريشا إلى هذا الحلف ، وإيم سُمِّي^(١) بهذا الاسم .

فأما ما دعاهم إليه ، فذكر الزبير وغيره أن رجلا من أهل اليمن من بني زُبَيْدٍ قدم مكة مُتَمَرِّداً ومعه بضاعة له ، فاشتراها رجل من بني سَنَمٍ ، ويقال : إنه العاص بن وائل ، فلوى^(٢) الرجل بحقه ، فسأله ماله فأبى عليه ، وسأله مقامه فأبى عليه ، فجاأ إلى بني سَنَمٍ يستعديهم عليه ، فأغلظوا له ، فعرف أن لا سبيل إلى ماله ، فطوَّف في قبائل قريش يستعين بهم ، فتمخاذات القبائل عنه ، فلما رأى ذلك قام على الحجر ، ويقال : بل أشرف على أبي قُبَيْس حين أخذت قريش بحجالتهم ثم نادى بأعلى صوته ثم قال :

يا آلَ فِهْرٍ لِمَ ظَلُمَ بِضَاعَتَهُ يَبْطَنُ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ
وَأَشْمَثِ مُحْرِمٍ لَمْ يَقْضِ حُرْمَتَهُ بَيْنَ الْإِلَهِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ وَالْحَجَرِ
أَقَامْتُمْ مِنْ بَنِي سَنَمٍ بِذَمَّتِهِمْ أَمْ ذَاهَبْتُ فِي ضَلَالٍ مَالُ مُتَمَرِّدٍ

(١) ت : إسمى .

(٢) لواه دينه : مطله .

فلما سمعت ذلك قريش أعظموه وتكلموا فيه ، فقال المطيعون : والله اثن
قدا في هذا لتتضمن الأحلاف ، وقال الأحلاف : والله اثن تكلمنا في هذا
ليرضين المطيعون . فقال ناس من قريش : تعالوا فلنكن حلفاء فضولاً دون
المطيعين ودون الأحلاف .

فلذلك قيل له حلف الفضول .

فاجتمعوا في دار عبد الله بن جُدعان ، وصنع لهم طعاماً كثيراً ، وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ معهم قبل أن يوحى إليه ، فاجتمعت
بنو هاشم وبنو المطلب وزهرة وأسد وتيم ، فتحالفوا على أن لا يُظلم بمكة
قريب ولا غريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه ، حتى يأخذوا له بحقه
ويردوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم ، ثم عمدوا إلى ماء من ماء زمزم
فجعلوه في جفنة ، ثم بعثوا به إلى البيت ففسلت فيه أركانه ، ثم أتوا به
فشربوه ، ثم انطلقوا إلى الرجل الذي تعدى على الرجل المستعصرخ ، الداص
ابن وائل أو غيره ، فقالوا : والله لا نفارقك حتى تؤدى إياه حقه .

فأعطى الرجل حقه ، فكثروا كذلك لا يُظلم أحد حقه بمكة إلا أخذوه له .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان
حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدهى به في الإسلام لأجبت » .

وحكى الزبير أيضاً أنه إنما سمي حلف الفضول لأهم تحالفوا على أن لا يتكروا
لأحد عند أحد فضلاً إلا أخذوه .

وقيل : إنما سمي بذلك لأنه لما تداعى له من ذكر من قبائل قريش كره
ذلك سائر المطيعين والأحلاف بأسرهم ، وسماه حلف الفضول ، عنيهاً له ،
وقالوا : هذا من فضول القوم .

وقيل : بل كان هذا الحلفُ على مثلِ حلفِ تقدمٍ إليه نفرٌ من جرهم
يقال لهم : الفضلُ وأفضالُ والفضيل^(٢) ، فسمي لذلك هذا الآخرُ حلفَ الفضول :

وأياً ما كان من ذلك ، فهي مأثرةٌ لقريش من مآثرها السكرام ، وآثارها
المعظام ، نالتهم فيه بركةُ حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو وإن كان
فِعْلاً جاهلياً دعتهم السياسةُ إليه ، فقد صار لحضور رسول الله صلى الله
عليه وسلم له وما قاله بعد النبوة فيه وأكَّده من أمره ، حُكماً ذريعاً
وفِعْلاً نبوياً .

وقد نشأ بين حسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما وبين الوليد بن
عُتْبَةَ بن أبي سفيان زمنَ معاوية ، والوليدُ يومئذُ أميرُ المدينة من قبله ، منازعةٌ
في مال كان بينهما بذى اللروة^(١) ، فكأن الوليدَ تحامل على حسين في حقه
لسلطانه ، فقال له حسين : أحلفُ بالله لَتُنْصِرَنِي من حقي أو لَأُخْذَن سِيفِي
نِم لَأَفُومَن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لَأَدْعُونَ بِحِلافِ الفضول .

فقال عبد الله بن الزبير وهو عند الوليد : وأنا أحلفُ بالله أنن دعا به لَأُخْذَن
سِيفِي نِم لَأَفُومَن معه حتى يُنْصَفَ من حقه أو نموتَ جميعاً .

وبلغت المِسْوَر بن مخزومة الزُهْرِي فقال مثلَ ذلك .

وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عُبَيْد الله التَّيْمِي فقال مثلَ ذلك .

فلما بلغ ذلك الوليدَ أنصف الحسينَ في حقه حتى رضى .

ولم تمكن بنو عهد شمس دخلت في هذا الحلف .

(١) ذى اللروة : قرية بوادى القرى .

(٢) فى الروض الأنب : الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، وفضيل بن الحارث .

وقد سأل عهدُ الملك بن مروان عن ذلك محمد بن جُبَيْر بن مُطْعَم إذ قديم عليه حين قُتل ابنُ الزبير ، واجتمع الناس على عهد الملك بن مروان ، وكان محمد بن جبَيْر أعلمَ قريش ، فلما دخل عليه قال : يا أبا سعيد ، ألم نكن نحن وأنتم ، بمعنى بنى عهد شمس و بنى نوفل ابْنَيْ عهد مناف ، فى حلف الفضول ؟ قال : أنت أعلم . قال عهد الملك : لتخبرنى يا أبا سعيد بالحق من ذلك . فقال : لا والله ، لقد خرجنا منه نحن وأنتم . قال : صدقت .

فسكان عتْبة بن ربيعة بن عهد شمس يقول : لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عهد شمس ، حتى أدخل فى حلف الفضول .

[العرب فى جاهليتهم]

وكانت اقريش أحلام عظام ، كانوا منها فى جاهليتهم على مثل السلطان الضابط ، عناية من الله بهم ومَنًا منه سبحانه عليهم ، هم سكان الحرم ، وأهل الله وحُجَّاب بيته ، وأهل السُّقاية والرُّقادة والرياسة والالواء والدعوة ومكارم مكة ، وكانوا على إرث من دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما ، من قرى الضيف ويرفد الحاج وتعظيم الحرم ومنع من التَّبَنى فيه والإلحاد ، وقمع الظالم ومنع المظلوم .

إلا أنه دخلت على أرايتهم أحداثٌ غيّرت أصولَ الحنيفية عندهم وجمال الزمان حتى أفضى ذلك بهم إلى جهالات بشرائع الدين وضلالات عن سنن التوحيد ، فتدارك الله ذلك كله بنبيه صلى الله عليه وسلم ، فهدى من الضلالة وعلم من الجهالة .

[عمرو بن لحي]

فيقال : إنه كان أول من غيّر الحنيفية دين إبراهيم ونصّب الأوثان حول السكبة ودعا إلى عبادتها : عمرو بن لحيّ بن قمة بن إلياس بن مضر .

روى أبو هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكنتم بن الجون الخزاعي : « يا أكنم ، رأيت عمرو بن لحيّ بن قمة بن خندف يجره قصيبه في الدار ، فما رأيت رجلا أشبه رجلا منك به ولا بك منه » .

فقال أكنم : عسى أن يضربني بشبهه يا نبي الله ^(١) ، قال : « لا ، لأنك ^(٢) مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غيّر دين إسماعيل ، فنصّب الأوثان وبحر البهيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي » .

فالبهيرة عند العرب الفاقة تشق أذنّها ولا يركب ظهرها ولا يُجرّز وبراها ولا يشرب لبنها إلا ضيف ، أو يُصدق به ، وتُهمّل لأهلهم .

والسائبة : التي يَنْذُر الرجلُ إن برى من مرضه أو أصاب أمرا يطلبه أن يُسيبها ترعى لا ينتفع بها .

والوصيلة : التي تلد أمها اثنين في كل بطن ، فيجعل صاحبها لأهلكه الإناث منها لنفسه الذكور ، فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن فيقولون : وصات أخاها ، فيُسبب أخوها معها فلا ينتفع به .

والحامي : الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حتى

(١) ابن هشام : شبهه يا رسول الله

(٢) ابن هشام : لأنك .

ظهوره ، فلم يُركب ولم يجزَّ وَبَرَهُ وَخُلِّيَ في إبله يضرب فيها ، لا ينتفع منه
بغير ذلك .

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه : « ما جعل الله من بحيرة
ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولسكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب
وأكثرهم لا يعقلون »^(١) .

وذكر بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَيٍّ خرج من مكة إلى الشام في بعض
أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ المالئق وهم من ولد عَمَلَأَق ،
ويقال عَمَلِيق بن لَأَوْذ بن سام بن نوح ، رأهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه
الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها ونستعظمها فتعظمنا
ونستعظمها فتعظمنا .

فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه^(٢) ؟
فأعطوه صنما يقال له « هُبَل » فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بهادته
وتعظيمه .

[بداية الوثنية]

قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ،
أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسيح^(٣)
في البلاد ، إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه
وطافوا به كطوافهم بالكعبة .

(١) سورة المائدة ١٠٣ .

(٢) الأصل : فيعبدونه .

(٣) ابن هشام : الفسيح .

حتى تسليخ ذلك بهم^(١) إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوه من الحجارة ،
[وأعجبهم]^(٢) حتى خلقت الخُلُوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين
إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم
من الضلالات .

وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت
والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهذى البُذُن والإهلال
بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

فكانت كنفانة وقريش إذا أهلأوا قالوا : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك
لك ، لا شريك هو لك تملكه وما ملك » .

فيوحدونه بالتلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملسكها بيدها

يقول الله تبارك وتعالى للنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وما يؤمنُ أكثرهم
بالله إلا وهم مُشركون »^(٣) ، أى ما يوحدوننى بمعرفة^(٤) حتى إلا جعلوا معى
شريكا من خلقى .

وقد كانت لقوم نوح أصنام عكفوا عليها ، قص الله تبارك وتعالى خبرها
على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وقالوا : لا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولا تَدْرُنَّ وَدًّا
ولا سِوَاعَا ، ولا يَفُوتَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ، وقد أضلأوا كثيراً »^(٥) .

(١) أى أدى بهم .

(٢) من ابن هشام .

(٣) سورة يوسف .

(٤) ابن هشام : لمعرفة ، وما هنا أوضح .

(٥) سورة نوح ٢٣ ، ٢٤ .

وذكر الواقدي بإسناده عن أبي هريرة أن أول ما أُهتد الأَصنام في زمن نوح عليه السلام ، وأن وَدًا وسُوعًا وَيَعُوثَ ويعوق ونَسْرًا كانوا رجالاً صالحين من قوم نوح ، أهلَ عبادة وفضل ، فاتوا فوجدَ عليهم أهلهم وتوحَّش^(١) الناس لفقدهم ، فقال لهم رجل : ألا أصوِّركم لكم صوراً من خشب فتتظفرون إليهم وتشكِّنون إلى رؤيتهم ؟ قالوا : بلى إن قدرت ، قال : أنا أقدر على تصويرهم ، ولا أقدر أن أنفخ الروح فيهم .

فجاء بالصُّور كما يُمثِّلهم أحياء ، فأخذ أهلُ كل بيت صورةَ صاحبهم فوضعوها في منزلهم ينظرون إليها ، فأذهب ذلك بعضَ حزنهم .

فكانوا على ذلك ما شاء الله ، حتى هلك ذلك القرن ، ثم خلف قرن آخر ثم ثالث بعده ، فكانوا على ما كان عليه القرن الأول حتى هلكوا .

ثم خلف القرن الرابع ، فقالوا : لو أننا عبدنا هؤلاء لقرَّبونا إلى الله وشفعوا لنا عنده ، ولا يزيدوننا إلا خيراً إنما نريد ما يقرَّبنا منه ، فعبدوها حتى هلكوا ، وعبدوها من بعدهم .

فلما غرقت الأرض زمن نوح عليه السلام غرقت تلك الأصنام ، فسكَّت ما شاء الله أن تمسك ، ثم استخرجها عمرو بن كُحَيْلٍ ففرَّقها في القبائل . فالحمد لله تعالى أعلم .

وقد خرَّج البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس موقوفاً عليه في التفسير نحوه ما ذكره الواقدي مختصراً ، أن وَدًا وسُوعًا وَيَعُوثَ ويعوق ونَسْرًا أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشياطينُ

إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها انصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبدْ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبدت .

قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد الرجلُ منهم سَفَرًا تَمَسَّحَ به حين يركب ، فكان ذلك آخرَ ما يصنع حين يتوجه إلى سفر ، وإذا قَدِمَ من سفره تَمَسَّحَ به ، فكان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله .

فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوحيد قالت قريش : « أَجَعَلَ الأَلَمَةَ إلهاً واحداً إن هذا لَشَيْءٌ عَجَابٌ » .^(١)

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيتَ ، وهى بيوت تهظها كة ، غلج الكعبة ، لها سَدَنَةٌ وحُجَّابٌ ، وتُهْدَى إليها^(٢) كما تُهْدَى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها ، وتندحر عندها ، وهى تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده .

وسيمرُّ في تضاعيف هذا الكتاب بعضُ أخبار هذه الطواغيت وكيف جال الله عاقبة أمرها خُسْراً ، فأزهق الحقُّ باطلها وفى الإسلام آثارها ، وأكمل الله تعالى دينه ، وتَمَّ نوره ونعمته ، ونعمر دين الهدى والحق ، فأظهره على الدين كله .

(١) سورة م . ه .

(٢) ابن هشام : لها .

[اليهودية في بلاد العرب]

ومع إصفاق^(١) العرب مُضَرَّها وَيَمَنُّها على هذا الضلال ، فقد كان وقع إلى بعضهم^(٢) باليمن دينُ اليهودية فدانوا به ، ووقع أيضاً دينُ النصرانية بفجران من أرض العرب على ما نذكره .

فأما موقع اليهودية باليمن فن جهة تُبَعِّع الآخر ، وهو تَبَّان أسد أبو كَرَب ابن كَلْسِي^(٣) كَرَب بن زيد ، وهو تُبَعِّع الأول بن الأول بن عمرو ذى الأذعار ابن أبرهة ذى المنار^(٤) .

وتَبَّان أسد هو الذى قديم المدينة وساق الحُبَرَيْنِ من يهود إلى اليمن ، وعمر البيت الحرام وكساه .

وكان قد جعل طريقه حين أقبل من المشرق على المدينة ، وكان قد مرَّ بها في بدايته فلم يَسْجِ أَهْلُهَا وخَلَّفَ بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلةً ، فقدمها وهو يُجْمَع لإخراها واستئصال أهلها وقطع نخلها .

فجح له هذا الحى من الأنصار ، ورثيُسهم عمرو بن طَلَّة^(٥) أخو بنى النجار . وقد كان رجل من بنى عَدِي بن النجار يقال له أحر^(٦) ، عدّا على رجل من أصحاب تُبَعِّع ، حين نزل بهم ، فقتله . وذلك أنه وجده في عَدَق له يجذّه^(٧) ، فضربه بمنجّله فقتله ، وقال : إنما التمر لمن أبرّه^(٨) . فزاد ذلك تُبَعِّعاً حَقَقاً عليهم .

(١) أصفقوا على أمر واحد انفقوا عليه .

(٢) ت : لبعضهم .

(٣) ابن هشام : كلثي كَرَب .

(٤) تذكر المراجع عللاً لبعض هذه الأسماء والألقاب لم أر فائدة في إثباتها لها فيها من

تمحل وبعد . انظر الاشتقاق لابن دريد وشرح السيرة لأبى ذر .

(٥) كذا في ابن هشام . وفي الأصل : طلة بالطاء المعجمة المضمومة .

(٦) في ط : أحد .

(٧) المذقة : النخلة . ويجده : يقطعه .

(٨) أبرّه : لفقجه .

فافتتلوا ، فَنَزَعَمُ الْأَنْصَارُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَهُ بِالنَّهَارِ وَيُقَرُونَهُ بِاللَّيْلِ ! فَمِجِبِهِ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَيَقُولُ : وَاللَّهِ إِنْ قَوْمَنَا لَكَيْكَرَامٌ .

فَبَيْنَمَا تُتَّبَعُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حَرْبِهِمْ^(١) إِذْ جَاءَهُ حَبْرَانُ مِنْ أَحْبَارِ يَهُودٍ مِنْ بَنِي قَرِيظَةَ عَالِمَانِ رَاسِخَانِ ، حِينَ سَمِعَا بِمَا يَرِيدُ مِنْ إِهْلَاكِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِهَا ، فَقَالَا لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ : لَا تَفْعَلْ ، فَإِنَّكَ إِنْ أَتَيْتَ إِلَّا مَا تَرِيدُ حَيْلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا ، وَلَمْ نَأْمَنْ عَلَيْكَ عَاجِلَ الْعُقُوبَةِ . فَقَالَ لَهَا : وَلَيْمَ ذَلِكَ ؟ قَالَا : هِيَ مُهَاجِرَةٌ نَبِيٌّ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْحَرَمِ مِنْ قَرِيظٍ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، تَكُونُ دَارَهُ وَقَرَارَهُ .

فَتَنَاقَشَا وَرَأَى أَنَّ لَهَا عِلْمًا ، وَأَعْجَبَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُمَا ، فَانصَرَفَ عَنِ الْمَدِينَةِ وَاتَّبَعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا .

وَهَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ حَقَّقُ تَبَعٍ عَلَى هَذَا الْحَيِّ مِنْ يَهُودٍ ، الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ هَلَاكَهُمْ فَنَعْمُوهُمْ مِنْهُ ، ثُمَّ انصَرَفَ^(٢) عَنْهُمْ ، وَلِلذَلِكَ قَالَ فِي شِعْرِهِ :

حَقَّقًا عَلَى سِبْطَيْنِ حَالًا يَنْزِرِبَا
أَوَّلَى لَهُمْ بِعَقَابِ يَوْمٍ مُنْصَرِفٍ

وَذَكَرَ ابْنُ هِشَامٍ أَنَّ الشَّعْرَ الَّذِي فِيهِ هَذَا الْبَيْتُ مَصْنُوعٌ .

* * *

وَكَانَ مُتَّبِعٌ وَقَوْمَهُ أَصْحَابَ أَوْتَانٍ يَعْبُدُونَهَا ، فَوَجَّهَ إِلَى مَكَّةَ وَهِيَ طَرِيقُهُ إِلَى الْبَلَدِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ عُسْفَانَ^(٣) وَأَمَّجٍ أَتَاهُ نَفَرٌ مِنْ هَذِيلَ بْنِ مُذْرَكَةَ فَقَالُوا

(١) ابن هشام : من قتالهم .

(٢) ابن هشام : حتى انصرف .

(٣) عسفان : منتهى من ساهل الطريق بس لحيقة ومكة . وأمج : بلد من أعراس المدينة .

له : أيها الملك : ألا ندلك على بيت مالٍ دائرٍ أغفلته الملوكة قبلك ، فيه الأوائل والزَّجَد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا بيتٌ بمكة يعبدُه أهله ويصلُّون عنده .

وإنما أراد المُتدليون هلاكه بذلك ، ليأعرفوا مِن هلاكه من أرادَه من الملوكة وبقي عنده .

فلما أجمع ليأ قالوا أرسل إلى الحَبَرين ، فسألهما عن ذلك ، فقالا له : ما أراد القومُ إلا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتاً لله اتخذَه في الأرض لنفسه غيرَه ، وإنما فعلت ما دَعَوَكَ إليه لتَهلكن ولتَهلكن من معك ^(١) جميعاً .

قال : فإذا تأمراني أن أصنع إذا قَدِمْتُ عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله ، تطوف به وتمنَّاه وتسكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذلل ^(٢) له حتى تخرج من عنده .

قال : فما يمتنعكما أنما من ذلك ؟ قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لَكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله ، وبالدماء التي يهريقون عنده ، وهم نجسٌ أهلٌ شرك . أوكا قالوا له .

فعرف نصبهما وصدق حديثهما ، ففَرَّب النَّقَر من هَذِيل ففقطع أيديهم وأرجلهم .

ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ، فيما يذكرُون ، يذبح بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل .

(١) كذا في ابن هشام ورواية الأصل : لتَهلكن ولتَهلكن جميعاً .

(٢) ابن هشام : وتذل .

وأرى في المنام أن يكسو البيت فكساه الخَصَف^(١) ، ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه المعافر^(٢) ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكساه الملاء والوسائل^(٣) .

فكان تَبَعٌ فيما يزعمون أول من كسا البيت .
وأوصى به ولاته من جُرمهم ، وأمرهم بقطعيده ، وأن لا يُقربوه دماً ولا ميئةً ولا مثالة ، وهى الحائض ، وجعل له باباً ومفتاحاً .

ثم خرج موجهاً إلى اليمن بمن معه من جنوده والخيَّرين ، حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه ، فأبوا عليه ، حتى يحاكموه إلى النار التى كانت باليمن .

ويقال : إنه لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حَجَرٌ بينه وبين ذلك ، وقالوا لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا .

فدعاهم إلى دينه وقال : إنه خير من دينكم .

قالوا : فما كنتم إلى النار . قال : نعم .

وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن ، نارٌ تحسّم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم .

فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ، وخرج الخبران بمصاحفهما فى أعناقهما متعلقينها ، حتى قعدوا للنار عند نخرجها الذى تخرج منه ، فخرجت النار عليهم ،

(١) الخصف : جمع خصفة وهى شئ ينسحق الحوس والليف ، وهو أيضاً ثياب غلاظ .

(٢) المعافر : ثياب تنسب إلى قبيلة من اليمن .

(٣) الملاء : جمع ملأ وهى الملحفة ، والوسائل ثياب موصلة من ثياب اليمن واجديتها وصيلة .

فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فذمرهم^(١) من حضرم من الناس وأمروهم بالصبر لها . فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ، ومن حمل ذلك من رجال خير .

وخرج الخبران بمصاحفها تترق جباههما لم تضربهما .
فأصغقت عند ذلك حمير على دينه .
فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن اسحق : وقد حدثني محدث أن الخبرين ومن خرج من خير إنما اتبعوا النار ليردوها وقالوا من ردّها فهو أولى بالحق . فدنا منها رجال خير بأوثانهم ليردوها ، فذنت منهم اثنا كلهم ، وحادوا عنها ولم يستطيعوا ردّها ، ودنا منها الخبران بعد ذلك ، وجعلا يتلوان التوراة ففقد كس [عنهما]^(٢) حتى ردّاها إلى تخرجها الذي خرجت منه .

فأصغقت عند ذلك خير على دينهما . فالله أعلم أى ذلك كان .
وكان رثام بيتا لهم يعظمونه وينحرون عنده ويتكلمون^(٣) منه إذ كانوا على شركهم ، فقال الخبران لتبع : إنما هو شيطان يفتنهم تغفل بيننا وبينه . قال : فشأنكما به . فاستخرجا منه ، فيما يزعم أهل اليمن ، كلبا أسود ، فذبحاه ، ثم هدما ذلك البيت .

قال ابن اسحاق : فبقاياها اليوم ، كما ذكر لي ، بها آثار الدماء التي كانت تهراق عليه .

(١) ذمرهم : حضرم .

(٢) من ابن هشام .

(٣) ابن هشام : ويتكلمون .

[من أخبار تبع]

وتبع هذا هو أحد الملوك الذين وطئوا البلاد ودوخوا الأرض ودانت لهم الممالك .

ويقال : إنه المسمى في قوله تعالى : « أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، أَهْلُ كِنَانِ » (١) .

وذلك لأنه لما آمن في آخر عمره ووحد ، خالفته خير ففرقوا عنه ، فانتقم الله منهم .

وحكى الحسن بن أحمد التميمي أنه أول ملك بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به ، وهو رتب الملوك وأبناء الملوك من قومه في قبائل العرب والمعجم رمداثها وأمصارها ، وكان لكل قبيلة من العرب ولكل حي من المعجم ملك من قومه ، إما خيرى وإما كهلانى يُسمع له ويطيع .

ويذكر أنه جمع الملوك وأبناء الملوك والأقوال وأبناء الأقوال من قومه ، وقال لهم :

أيها الناس : إن الدهر نَفَدَ أكثره ولم يَبْقَ إلا أَقلُّه ، وإن الكثير إذا قَلَّ إلى الفقهان أجرى مذهبه إلى الزيادة سارعوا (٢) إلى المسكارم ، فإنها تقر بكم إلى الفلاح ، واعملوا (٣) ، على أنه مَنْ سَلِمَ مِنْ يَوْمِهِ لم يَسْلَمْ مِنْ غَدِهِ ، ومن سلم من الغد لا يسلم مما بعده ، وإنسكم لتؤوبون ما بآباء والأجداد وتصيرون إلى

(١) سورة الدخان ٣٧ .

(٢) ت : فسارعوا .

(٣) ت : واعملوا .

ما صاروا إليه ، والموتُ كلُّ يوم أقرب إلى المرء من حياته فيه ، ولكلُّ زمان أهلٌ ، ولكلُّ دائرة سببٌ ، وسببُ عُطلان^(١) هذه الفترة التي من عنفٍ فيها بزَّ من هودونه ، ظهورُ نبيِّ يُعزُّ اللهُ به دينه ويخصه بالكتاب المبين ، على يأس من المرسلين ، رحمة المؤمنين وحُجة على الكافرين ، فليكن ذلك عندكم وعند أبنائكم بعدكم وأبناء أبنائكم قرأنا فقرنا وجيلاً فجيلاً ، ايتوقوا ظهوره وليؤمنوا به وایجتهدوا في نصره على كافة الأحياء ، حتى في الناس له إلى أمر الله .

وأنشد له :

شهدتُ على أحمدٍ أنه
رسولٌ من الله باري النسم
فلو مُدَّ دهرى إلى دهره
لكنتُ وزيراً له وابنَ عمٍّ
وأزمتُ طاعته كلَّ مَنْ
على الأرض من عربٍ أو عجمٍ
ولكنَّ قولى له دائماً^(٢)
سلامٌ على أحمدٍ في الأمم

في أبيات ذكرها ، وأشعار غير هذا أثبت في « إكليله » كثيراً منها .

قال : وذكروا أن الملوك وأبناء الملوك من خير وكهلان لم تزل تتوقع ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وتبشّر به ، وتوصى بالطاعة له والإيمان به والجهاد معه

(١) ت : الآن وهو خطأ .

(٢) ط : دائماً .

والتيام بنصره ، منذ ذلك العصر إلى أن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فبـكـانوا بذلك حين بُعث من أحرص الناس على نصره وطلاعته .

فمنهم من سمع له وأطاع وآمن به قبل أن يراه ، ومنهم من وصل إليه كتابه
فسمع وأطاع وآمن وصدق ، ومنهم من آواه ونصره وأيده وجاهد في سبيل
الله دونه .

نطق بذلك الكتاب المذير في قوله : « والذين تبوءوا الدارَ والإيمانَ مِن
قبلهم يحبُّونَ مَنْ هاجرَ إليه ولا يجدونَ في صدورهم حاجةً مما أوتوا ويؤثرونَ
على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ » (١) .

وقوله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ
يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَهُ وَيُحِبُّونَهُ ، أدلَّةٌ على المؤمنين أغرةٌ على الكافرين
يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومةَ لائمٍ ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء
والله واسعٌ عليم » (٢) .

قال الترمذاني : عن أبي الحسن الخراساني يقال : لهم همدان .

ثم أشار إلى ذكر سيف بن ذي يزن للنبي صلى الله عليه وسلم وما ألقاه من
أمره إلى جده عبد المطلب عند وفادته عليه .

قال : وذكروا أنه لم يكن لسيف بن ذي يزن ذلك العلمُ في قصة النبي صلى الله
عليه وسلم إلا من جهة تتبع ، وما تنهاه إليه مما كان ألقاه إليهم وهرقهم به من
خبر النبي صلى الله عليه وسلم .

وسنذكر خبر سيف هذا في موضعه إن شاء الله .

(١) سورة الحشر الآية ٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ٥٤ .

[النصرانية في بلاد العرب]

وأما موقع النصرانية في أرض ^(١) العرب ، فقد كان بتَجْران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم على الإنجيل ، أهلُ فضلٍ واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأس يقال له عبد الله بن الشامير ، وكان موقعُ أصل ذلك الدين بتَجْران ، وهى بأوسط أرض العرب في ذلك الزمان ، وأهلها وسائر العرب كلها أهلُ أوثان يعبدونها أن رجلا من بقايا أهل ذلك الدين يقال له « فَيَمِيُون » وقع بين أظهرهم فحملهم عليه فدانوا به .

فحدث وهبُ بن مُنبّه : أن فَيَمِيُون كان رجلاً صالحاً مجتهداً زاهداً في الدنيا بحجاب الدعوة ، وكان سائحاً ينزل [بين] ^(٢) القرى ، لا يعرف في قرية إلا خرج منها إلى قرية لا يعرف بها ، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ، وكان بَدَاءً يعمل الطين ، وكان يعظمُ الأحَدَ ، فإذا كان يومُ الأحد لم يعمل فيه شيئاً ، وخرج إلى فلاة من الأرض ، فصلى فيها حتى يُنسى .

قال : وكان في قرية من [قرى] ^(٣) الشام يعمل عمله ذلك مستخفياً ، فذهبن لشأنه رجل من أهلها يقال له صالح ، فأحبه صالح حباً لم يحب شيئاً كان قبله مثله ، فكان يتبعه حيث ذهب ولا يقطن له فَيَمِيُون ، حتى خرج مرة في يوم الأحد إلى فلاة من الأرض كما كان يصنع ، وقد اتبعه صالح ، وفَيَمِيُون لا يدري ، فجلس صالح منه منظر العين مستخفياً منه لا يحب أن يعلم بمكانه ، وقام فَيَمِيُون يصلى ، فبينما هو يصلى إذ أقبل نحوه القنين ، الحية ذات الرؤوس السبعة ، فلما

(١) ط : بأرض .

(٢) من ابن هشام .

رآها فيمميون دعا عليها فانت ، ورآها صالح ولم يذر ما أصابها فخافها^(١) عليه
[فَمِيلَ عَوْله]^(٢) فصرخ : يا فيميون التئنين قد أقبل نحوك .

فلم يلتفت إليه وأقبل على صلاته حتى فرغ منها .

وَأَمْسَى فأنصرف وعرف أنه قد عُرف ، وعرف صالح أنه قد رأى مكانه ،
فقال له : يا فيميون تعلم والله أني ما أحببت شيئاً قط حبك ، وقد أردتُ صحبتك
والسكينونة معك حينما كنت .

قال : ماشئت ، أمرى كما ترى ، فإن علمت أنك تقوى عليه فندم .

فلزمه صالح ، وقد كاد أهل القرية يفتطون لشأنه ، وكان إذا ما جاءه^(٣) العبدُ
به العشر دعا له فشئني ، وإذا دُعي إلى أحد به ضرر لم يأتَه .

وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير ، فسأل عن شأن فيميون ، فقل له
إنه لا يأتي أحداً دعاه ، ولكنه رجل يعمل للناس البنیان بالأجر ، فعمد الرجل
إلى ابنه ذلك فوضعه في حجرته وألقى عليه ثوبا ، ثم جاءه فقال : يا فيميون ، إنني
قد أردت أن أعمل في بيتي عملاً ، فانطلق معي حتى تنظر إليه فأشار طك عليه .

فانطلق معه حتى دخل حجرته ، ثم قال له : ما تريد أن تعمل في بيتك هذا ؟
قال : كذا وكذا . ثم انتشط الثوب^(٤) عن الصبي وقال : يا فيميون : عبدُ بن
عباد لله أصابه ما ترى فادعُ الله له .

(١) ط : خاف .

(٢) من ابن هشام ومعناها : غلب على صبره .

(٣) ابن هشام : « فاجأه » وما هنا أصح .

(٤) اللشط : نزعه يسره وى ت : اللشط الرجل .

فدعا له فيميون فقام الصبي ليس به بأس .

وعرف فيميون أنه قد عُرف ، فخرج من القرية ، واتبعه صالح ، فبينما هو يمشى في بعض الشام إذ مرَّ بشجرة عظيمة فنادهامها رجل فقال : يا فيميون مازلت أنتظرك وأقول : متى هو جاء ، حتى سمعتُ صوتك فعرفت أنك هو ، لا تهرح حتى تقوم على ، فإنى ميت الآن .

قال : فمات . وقام عليه حتى وراه .

ثم انصرف ومعه صالح ، حتى وطئا بعض أرض العرب ، فاخطفتهما سيارة من بعض العرب ، فخرجوا بهما حتى باعوهما بنجران ، وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعمدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد في كل سنة ، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلى النساء ، ثم خرجوا إليها فمكفوا عليها يوما .

فاتباع فيميون رجل من أشرفهم ، واتباع صالح آخر ، فكان فيميون إذا قام من الليل يصلى في بيت أسكنه إياه سيده ، استسرج له البيت نوراً حتى يصبح ، من غير مصباح ، فرأى ذلك سيده فأعجبه ما يرى منه ، فسأله عن دينه فأخبره به ، وقال له فيميون : إنما أنتم في باطل ، إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ، ولو دعوتُ عليها إلهى الذى أعبدُ أهلَكها ، وهو الله وحده لا شريك له ، فقال له سيده : فافعل ، فإنك إن فعلت دخلنا في دينك وتركنا ما نحن عليه .

فقام فيميون فتطهر وصلى ركعتين ، ثم دعا الله عليها ، فأرسل الله ريحا فجعلتها^(١) من أصلها فألقتها .

فأتيه عند ذلك أهل نجران على دينه ، فحملهم على الشريعة من دين عيسى

* (١) اقتلعتها .

ابن مريم عليه السلام ، ثم دخلت عليهم الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرضٍ ، فمن هنالك كانت النصرانية بنجران ، فيما ذكر وهب بن منبه في حديثه هذا .

[عبد الله بن الثامر وأصحاب الأخدود]

وأما محمد بن كعب القرظي ، وبعض أهل نجران ، فذكروا أن أهل نجران كانوا أهل شرك ، يعبدون الأوثان ، وكان في قرية من قرأها ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها قيثميون - ولم يسمه محمد بن كعب ولا شركاؤه في الحديث ، قالوا : رجل نزلها - ابتقى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر ، فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر ، فبعث الثامرُ ابنه عبد الله مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مرَّ بصاحب الخيمة أحبه ما يرى من صلاته وعبادته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم فوحد الله وعبدته ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يعلمه ، فسكته إياه ، فقال : يا بن أخي إنك تحمله أخشى [عليك] ^(١) ضعفك عنه .

والثامرُ أبو عبد الله بن الثامر ، لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان .

فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضنَّ به عنه وتخوف ضعفه فيه ، عُد إلى قداح فجمعها ، ثم لم يُبقِ لله اسماً يعلمه إلا كتبه في قدح ^(٢) ، لسكل اسم

(١) من ابن هشام .

(٢) القدح : السهم .

قُدْح ، حتى إذا أحصاها أوقد لها نارا ، ثم جهل يقذفها فيها قُدْحًا قُدْحًا ، حتى إذا مرَّ بذلك الاسم الأعظم قذف فيها بقُدْحه فوثب القدح حتى خرج منها لم تضره شيئا ، فأخذه ثم أتى صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الذي كتبه ، فقال : وما هو ؟ قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع ، قال : أى ابن أخى ، قد أصبته فأمسك على نفسك و! أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضرّاً إلا قال له : يا عبد الله ، أتوحد الله وتدخل في ديني فأدعو^(١) الله فيعافيك مما أنت فيه من الهلاك ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويُسلم ، ويدعوه فيُشفي .

حتى لم يبق بنجران أحد به ضرّاً إلا أنه فاتبعه على أمره ودعاه فعوفي .

حتى رُفِع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال : أفسدت على أهل قريتي وخالف ديني ودين آبائي ، لأمثلن بك .

قال : لا تقدر على ذلك .

فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيُطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ليس به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياهِ بنجران بمحور لا يقع أحد فيها إلا هلك ، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس .

فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : إنك والله لا تقدر على قتلتي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سلطك الله على^(٢) ، فقتلتني^(٣) .

(١) ابن هشام : وأدعو .

(٢) ابن هشام : سلطت على .

(٣) ت : فتقتلني .

فوحّد الله ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثم ضربه بعصا في يده فشجّه شجرة غير كبيرة فقتله ، وهلك^(١) الملك مكانه .

واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وعلى ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحُكمه ، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث .

فمن هنالك كان أصل النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظي وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر ، قاله أعلم أي ذلك كان .

وحديث عبد الله بن الثامر هذا قد ورد في الصحيح مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من طرق ثابتة ، خرّجه مُسلم بن الحجاج من حديث صُهَيْب ، وبينه وبين حديث ابن إسحاق اختلاف ، وفيه مع ذلك زوائد تحسن لأجلها إعادة الحديث .

فروى عبد الرحمن بن أبي لبّي ، عن صُهَيْب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان ملكٌ فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت ، فابعث إليّ غلاما أعلمه السحر .

فبعث إليه غلاما يملئه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقامد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى

(١) ابن هشام : ثم هلك .

الساحرَ ضربه فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحرَ فقل :
حبسنى أهلى ، وإذا خشيتَ أهلكَ فقل : حبسنى الساحر .

فبينما هو كذلك ، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناسَ ، فقال : اليوم
أعلمُ الساحرُ أفضلُ أم الراهبُ أفضل .

فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر
فأقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس .
فرماها فقتلها ، ومضى الناس .

فأتى الراهبَ فأخبره ، فقال له الراهب : أى بنى ، أنت اليوم أفضل منى ،
قد بلغ من أمرك ما أرى وإنيك ستُقتل ، فإن ابتليت فلا تدلَّ على .

وكان الغلام يبرىء الأكف والأبرص ويداوى الناسَ سائر الأدوية ، فسمع [به]
جليسٌ للملك ، وكان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما هاهنا لك أجمعُ إن
أنت شفيقتى .

قال : إني لا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله ، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك .
فآمن بالله ، فشفاه الله .

فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من ردَّ عليك بصرك ؟
قال : ربى ، قال : ولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله .

فأخذه فلم يزل يمزجه حتى دلَّ على الغلام ، فقال له الملك : أى بنى ، قد
بلغ من سحرك ما يبرىء الأكف والأبرص وتفعل وتفعل . فقال : إني لا أشفى
أحدًا ، إنما يشفى الله .

فأخذه فلم يزل يمزجه حتى دل على الراهب .

فجىء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع في
مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه .

ثم جىء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع
في مفرق رأسه ، فشقه به حتى وقع شقاه .

ثم جىء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ،
فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغت ذروتاه ،
فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به ، وصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم
اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا .

وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال كفناهم الله .
فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاخلوه في قرقر^(١) فقتلوا
به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاخذفوه ، فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم
بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك .

فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال : كفناهم الله .

إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به .

قال : وما هو ؟

قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصالني على جذع ، ثم أخذ سهماً من
كدناتي ، ثم ضع السهم في كبدي القوس ، ثم قل : باسم الله رب الغلام ، ثم
ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني .

(١) القرقر السفينة : الطويلة

لجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهمًا من كنفائه ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فأت .

فقال الناس : آمَنَّا بِرَبِّ الغلام ، آمَنَّا بِرَبِّ الغلام .

فأنى الملك فقيل له : أرايت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرُك ، قد آمن الناس .

فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخذت وأضرَم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه ، يعنى فأحرموه فيها . أو قيل له : اقتحم .

ففعّلوا ، حتى جاءت امرأة ومعهما صبى لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أمّه ، اصبرى فإنك على الحق ١١ .

فهذا حديث مسلم عن عبد الله بن الثامر وأهل نجران ، وإن وقعت الأسماء فيه مُبْهَمَة ، فقد فسرّها العلماء بما ورد من ذلك مبينًا في حديث ابن إسحاق وغيره ، وجعلوا ذلك كله حديثًا واحدًا .

وذكر ابن إسحاق أنه لما كان من اجتماع أهل نجران على دين عبد الله ابن الثامر ما تقدم الحديث به ، سار إليهم ذو نواس بجنوده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيّرهم بينها وبين القتل ، فاخترأوا القتل ، فخذلهم الأخدود ، فصرق بالنار ، وقتل بالسيف ، ومثّل بهم ، حتى قتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا .

ففى ذى نواس وجنده ذلك أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :
(٨ — الاكفنا)

« قُتِلَ أصحابُ الأخدود ، النار ذاتِ الوقودِ ، إذ هُمَ عليها قُعُودٌ ، وهم على ما يَفْقَهُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ ، وما تَقَمَّوْا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » ^(١) إلى آخر الآيات .

والأخدود هنا هو الحُفْرُ المستطيل في الأرض ، كالخندق والجُدول ، ويقال أيضاً لأثر السيف والوسط والسكين ونحوه في الجِلْد : أخدود .

قال ابن إسحاق : ويقال : كان فيمن قَتَلَ ذُو نُوَّاسَ عَبْدُ اللَّهِ بنِ الثَّامِرِ رَأْسُهُمْ وإمامهم .

وحدث عن عبد الله بن أبي بكر أنه حَدَّثَ أَنَّ رجلاً من أهل نَجْرَانَ حَفَرَ خِرْبَةً من خِرَابِ نَجْرَانَ في زمن عمر بن الخطاب ، فوجدوا عَبْدَ اللَّهِ بنِ الثَّامِرِ تحت دَفْنٍ منها قاعداً واضعاً يده على ضَرْبَةٍ في رَأْسِهِ ممسكاً عليها بيده ، فإذا أَخْرَجَتْ يده عنها تَمَقَّيْتُ ^(٢) دَمًا ، وإذا أُرْسِلَتْ يده رَدَّهَا عليها فأَمْسَكَ دَمَهَا ، في يده خاتم مكتوب فيه : رَبِّي اللَّهُ . فسَكَبَ فيه إلى عمر ، فسَكَبَ إليه : أَنْ أَقْرِؤَهُ على حاله وَرَدُّوا عليه الدفن الذي كان عليه . ففعلوا ^(٣) .

[ربيعة بن نصر والسكران]

وَذُو نُوَّاسَ هذا هو زُرْعَةُ بنِ تَيْبَانَ أَسَدُ أَبِي كَرْبٍ ، وهو تُبَّعُ الْآخِرُ ، وقد تقدم خبره ، وابنه زُرْعَةُ ذُو نُوَّاسَ هذا كَانَ من صفار بنيهِ ، وصار إليه مُلْكُ الْيَمَنِ ، وأمرَ خَيْرَ بَعْدَ أَبِيهِ بِزَمَانٍ .

(١) سورة البروج .

(٢) تَمَقَّيْتُ : تَفَجَّرَتْ .

(٣) القصة خرافية لا تصح .

وذلك أنه ملّك اليمين بين أضعاف ملوك التباينة ، ربيعةُ بن نعيم بن أبي حارثة
ابن عمرو بن عامر ، وكان من سادات اليمين وأهل الشرف منهم .
وهو صاحب الرؤيا التي يعرف من تأويلها استيلاء الحبشة على اليمن ، والبشارةُ
بظهور النبي صلى الله عليه وسلم .

وذلك أنه رأى رؤيا هالته وقَطِيعَ بها^(١) ، فلم يدعْ كاهنًا ولا ساحرًا ولا عائمًا
ولا منجمًا من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتي
وقَطِيعَتْ بها ، فأخبروني بها وتأويلها . قالوا : افصصها علينا نخبرك بتأويلها .
قال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، إنه لا يعرف تأويلها
إلا من عرفها قبل أن أخبره بها .

فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطِيعِ وشِقِّ ، فإنه
ليس أحد أعلم منهما ، فهما يخبرانه بما سأل عنه .

فبعث إليهما ، فقدم عليه سَطِيع قبل شِقِّ ، فقال : إني قد رأيت رؤيا
هالتي وقَطِيعَتْ بها ، فأخبرني بها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها .
فقال : أفعَل . رأيت حُمَمَةً^(٢) خرجت من ظُلَمَة فوقت بأرضِ تَهْمَةٍ^(٣)
فأكلت منها كلَّ ذات جُحْمَةٍ .

فقال له الملك : ما أخطأت منها شيئًا يا سَطِيع ، فما عندك في تأويلها ؟
فقال : أحلف بما بين الحرِّ تَيْنِ من حَفَشٍ ، ليهبطنَّ أرضَكم الحبش ، فأينما كنَّ
ما بين أبين إلى جُرَشٍ^(٤) .

(١) فظم بها ، كعلم ، أفرغته واشتدت عليه .

(٢) أى حُمَة مشتتة .

(٣) التهمة : الأرض المتصوبة في البحر كالتهم ، كأنهما مصدران من تهمة .

(٤) أبين وجرش : مغلطان من مخالفين اليمين

فقال الملك : وأبيك يا سطيج ، إن هذا لنا لغائظ مُوجِع ، فتي هو كائن ؟
أفي زمانى أم بعده ؟

قال : لا بل بعده بحين ، أ كثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين .
قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟
قال : بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يقاتلون^(١) ويخرجون منها هاربين .
قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟
قال : يليه إرم^(٢) بن ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن فلا يترك منهم أحداً باليمن .

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟
قال : بل ينقطع .
قال : ومن يقطعه ؟
قال : نبي زكي ، يأتيه الوحي من قبل العلي .
قال : ومن هذا النبي ؟
قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر ؟
قال : نعم ، يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون .

قال : أحق ما تخبرني ؟
قال : نعم ، والشفق والغسق ، والقمر^(٣) إذا أسق ، إن ما أنبأتك لحق .

(١) ت : يقتتلون وا : يقتلون وهى رواية ابن هشام .
(٢) (ب) : والفلق . (٣) المعروف فيه : سيف بن ذى يزن ، ولكنه عدل إلى إرم ، لتشبيهه بعاد إرم فى القوم .

ثم قديم عليه شق ، فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، ليغار
أيافقان أم يختلفان .

قال : نعم رأيت مُهمّة خرجت من ظلمة فوقعت بين روضة وأكمة فأكلت
منها كل ذات نسمة .

فلما قال له ذلك عرف أن^(١) قد اتفقا وأن قولهما واحد ، إلا أن سطيحا قال :
« بأرض تهمّة ، فأكلت منها كل ذات جهمّة » ، وقال شق : « وقعت بين
روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة » .

فقال له الملك : ما أخطأت يا شق منها شيئا ، فما عندك في تأويلها ؟

قال : أحلف بما بين الحرّين من إنسان ، ليهبطن أرضكم السودان ، فليغابن
على كل طفلة^(٢) البقان ، وليلسكن ما بين أبين إلى تجران .

فقال له الملك : وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موحج ، فتي هو كائن ؟
أنى زمانى أم بعده ؟

فقال : لا ، بل بعده بزمان ، ثم يستفقدكم منهم عظيم دوشان ، ويذيقهم
أشدّ الهوان .

قال : من هذا العظيم الشأن ؟

قال : غلام ليس بدنى ولا مدّن^(٣) يخرج من بيت ذى يزن .

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

(١) ابن هشام : أنهما .

(٢) الطفلة : الامة لرخصة .

(٣) المدن : المنصر فى الأمور . ورواية النهاية : مزن . أى منهم .

قال : بل يقطع برسولٍ مرسلٍ بأني بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ،
يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل .

قال : وما يوم الفصل ؟

قال : يومٌ يجرى فيه الولاة ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء
والأموات ، ويجمع فيه الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات .

قال : أحق ما تقول ؟

قال : إني ورب السماء والأرض وما بينهما من رفعٍ وخفضٍ ، إن ما أنبأتك
لحقٌ ما فيه أمض^(١) .

فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قال ، فجهز بنييه وأهل بيته إلى العراق بما
يصلحهم ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور [بن خرزاد^(٢)]
فأسكنهم الحيرة .

فمن بقية ولد ربيعة بن نصر فيما يزعمون ، النعمان بن المنذر ، فهو في نسب
اليمين وعلمهم : النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن
نصر ، ذلك الملك .

وقد تقدم قول من قال من العلماء أن النعمان من ولد قنص بن معد . وقد قيل
أيضاً إن النعمان من ولد الساطرون صاحب الحضر ، وهو حصن عظيم كالمدينة
كان على شاطئ الفرات ، وهو الذي ذكره عدي بن زيد في قوله :

(١) قال ابن هشام : أمض يعني شكاً ، هذا بلفظ حير ، وقال أبو عمرو : أمض : أي باطل .

(٢) من ابن هشام .

وأخو الحضر إذ بنكه وإذ دجلة تُججى إليه والخابورُ
شاده مرّ مرّاً وجلّله ركساً فللمأير في ذراه وكورُ
لم يهبه ريبُ المُنون فباد الملكُ عنه فهابه مهجورُ

[شِقٌّ وسَطِيع]

وأما شِقٌّ وسَطِيع ، فإن شِقّاً هو ابن صعب بن بشكر من بني أنمار بن نزار
أبى بجيلة وخشمهم .

وكان شِقٌّ إنساناً فيما زعموا ، إنما له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ،
ولذلك سُمي بشِقٍّ .

وسَطِيع هو ربيع بن ربيعة بن ذئب بن عدى^(١) بن مازن بن غسان ، وكانت
العرب تسميه الذبي ، وإياه عفى ميمون بن قيس الأعشى بقوله :

ما نظرتُ ذاتُ أشغارٍ كتنظريها
حقاً كما نطقُ الذبي إذ سَجَعَا

ولمّا قيل له سَطِيع ، لأنه كان جسداً ملقّى له رأس وليس له جوارح ، فيما
ذكروا . وكان لا يقدر على الجلوس ، فإذا غضب انتفخ .

وذكر أنه قيل له : أنّى لك هذا العلم ؟

فقال لي صاحب من الجن استمع أخبارَ السماء من طور سيناء ، حين كلم
الله منه موسى عليه السلام فهو يؤدّي إلى من ذلك ما يؤديه .

(١) ت ط : من بنى ذبيان .

وعاش سَطيح بعد هذا الحديث زمناً طويلاً ، حتى أدرك مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فذكر الخطابي وغيره من حديث هاني بن هاني الخزومي ، وأنت عليه مائة وخمسون سنة ، أنه لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى فسقط منه أربع عشر شُرْفَةً ، وغاضت بحيرة ساوة ، وفاض وادى السماء ، وخذت نار فارس ولم تحمد قبل ذلك ألف عام . وأرى الموبذآن إبلاً صماباً تقود خيلاً عراباً^(١) ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها .

فلما أصبح كسرى أفرغه ذلك فصبر عليه تشبهاً ، حتى إذا عيل صبره رأى ألا يدخر ذلك عن قومه ومرازيقه ، فلبس تاجه وقعد على سريره ، ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده قال :

أتدرون فيم بعتت فيكم ؟ قالوا : لا ، إلا أن يخبرنا الملك .

فبيناهم كذلك ، إذ ورد عليه كتاب بخمود النار ، فازداد غماً إلى غمه ، ثم أخبر بما رأى وما هاله من ذلك . فقال الموبذآن : وأنا أصليح الله الملك قد رأيت في هذه الليلة رؤيا . ثم قص عليه رؤياه في الإبل . فقال : أى شيء يكون هذا يا موبذآن ؟ قال : حدث يكون من ناحية العرب . وكان أعلمهم في أنفسهم .

فكتب عند ذلك كسرى إلى النعمان بن المنذر أن يوجه إليه رجل عالم بما يريد أن يسأله عنه . فوجه إليه بمعد المسيح بن عمرو بن حيان بن بَقِيلَةَ الغساني .

فاقدم عليه قال له الملك : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال ليخبرني الملك عما أحب ، فإن كان عندي منه علم وإلا أخبرته بمن يعلمه .

(١) الخيل العراب : خلاف البراذين .

فأخبره الذى وجه إليه فيه . فقال له : علمُ ذلك عند خال لي يسكن مشارفَ
الشام ، يقال له سَطِيح . قال : فائته فسئل عما سألتك عنه ، ثم أثنى بتفسيره .
فخرج عبد المسيح حتى أتى إلى سَطِيح وقد أشقى على الموت ، فسلم عليه وكلمه ،
فلم يرد عليه سَطِيح جواباً ، فأنشأ عبد المسيح يقول :

أَصَمٌّ أَمْ يَسْمَعُ غِطْرِيفُ الْيَمَنِ
أَمْ فَأَدَ فَازَلَمَ بِهِ شَأْوُ الْعَيْنِ^(١)
يَا فَاصلَ الْخَطَّةِ أَعْيَتْ مَنْ وَمَنْ
أَتَاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَسَنِ
وَأُمُّهُ مِنْ آلِ ذُنُبِ بْنِ حَبَجَنْ
أَبْيَضَ فَضْفَاضَ الرِّدَاءِ وَالْبَهْدَنْ
رَسُولُ قَبِيلِ الْمُجَمِّ يُنْتَمَى لِلَوْسَنْ
لَا يَزْهَبُ الْوَعْدَ وَلَا رَيْبَ الزَّمَنْ
تَجُوبُ بِي الْأَرْضَ عِلْمَدَاةُ شَزَنْ
تَرْفَعُنِي وَجَنَّا وَتَهْوِي بِي وَجَنْ^(٢)

(١) فاد : مات . قال :

رعى خرزات الملك عشرين حجة وعشرين حتى فاد والشيب شامل
وازم : ذهب مسرعاً . والأصل فيه ازلام فخذت الهمزة تخفيفاً ، وقيل : أصلها ازلام ،
كاشتهاب ، فخذت الألف تخفيفاً أيضاً . وشأو العين : اعتراض الموت على الخلق وقيل :
ارلم : قبض والعين : الموت ، أى عرض له الموت فقبضه وقد تصحفت الرواية في النهاية . أن فار .
انظر النهاية ١٣٩/٢ .

(٢) العلنداة : القوية من النوق . والعزن : التى تتمشى من نشاطها على جانب ، شزن
فلان إذا نشط ، وقيل : العزن المعنى من الحفاء .
والوجن بفتح فسكون ، وبفتحتين : الأرض الغليظة الصلبة ويروى بالضم ، جم وجين .

حتى أتى عارى الجأحي والقطن
تلفه في الريح بؤغاه الدمن^(١).

فلما سمع سطيح شمره رفع رأسه يقول : عبد المسيح ، أتى إلى سطيح ، على
جمل مشيخ ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاس الإيوان
وخود الديران ، ورؤيا المويذآن ، رأى إبلاً صعباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت
دجلة وانتشرت في بلادها .

عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب المراوة ، وفاض وادى
السماء ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخدت نار فارس ، فليست الشام لسطيح شاما ،
يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات ، وكل ماهوات آت .
ثم قضى سطيح مكانه .

فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بمقالة سطيح . فقال : إلى أن يملك
منا أربعة عشر ملكاً قد كانت أمور .

فلك منهم عشرة إلى أربع سنين وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضى الله عنه .

[عمرو يقتل حسان]

فلما هلك ربيعة بن نصر رجع ملك اليمن كله إلى حسان بن تيمان أسعد
أبي كرب ، فسار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم .

(١) الجأحي : جمع جوجو ، وهو عظام الصدر والقطن يفتح الطاء أسفل الظهر . وقيل :
الصواب : القطن بكسر الطاء جمع قطنة ، وهى ما بين الفخذين .
والبؤغاء . التراب الناعم . والدمن ما تدمن منه أى تجمع وتلبد . وبشهاد له الرواية الأخرى :
تلفه الريح ببؤغاه الدمن . النهاية .
وقد وردت هذه القصة في البداية والنهاية ٢/٢١٩ ، ولسان العرب ٣/٣١٢ باختلاف
وربادة ونقص . قال الأزهري : وهو حديث حسن غريب .

حتى إذا كان بأرض العراق كرهت خمير وقبائل اليمن السير معه وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهلهم ، فـكَلَّمُوا أَخَا لَهُ يُقَالُ لَهُ عَمْرُو وَكَانَ مَعَهُ فِي جَيْشِهِ فَقَالُوا لَهُ : اقْتُل أَخَاكَ حَسَّانَ وَنَمْلِكْكَ عَلَيْنَا وَتَرْجِعْ بِنَا إِلَى بِلَادِنَا . فَأَجَابَهُمْ .

فاجتمعوا على ذلك إلا ذارُعَيْنِ الْحِمَيْرِيَّ ، فإنه نهاه عن ذلك فلم يقبل منه .
فقال ذورُعَيْنِ الْحِمَيْرِيَّ :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِي سَهْرًا بِنُومٍ أ
سَعِيدٌ مَنْ يَبِيتَ قَرِيرَ هَيْنِ
فَإِنَّمَا خَيْرٌ غَدَرْتُ وَخَانْتُ^(١)
فَمَعْدِرَةُ الْإِلَهِ لَدَى رُعَيْنِ

ثم كتبهما في رقعة وختم عليهما ثم أتى بها عمرأ فقال له : ضَعْ لِي هَذَا السِّكِّابَ عِنْدَكَ . ففعل .

ثم قتل عمرو أخاه حَسَّانَ وَرَجِعَ بِنَ مَعَهُ إِلَى الْيَمَنِ .
فلما نزل اليمنَ مُنِعَ مِنْهُ النُّومُ وَسَأَطَّ عَلَيْهِ السَّهْرُ ، فَلَمَّا جَهَّدَهُ ذَلِكَ سَأَلَ الْأَطْبَاءَ وَالْحُزَاةَ^(٢) مِنَ السَّكَمَانِ وَالْعَرَافِينَ عَمَّا بِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا قَتَلَ رَجُلٌ أَخَاهُ أَوْ ذَا رَحِمِهِ بَغْيًا عَلَى مِثْلِ مَا قَتَلْتَ أَخَاكَ عَلَيْهِ إِلَّا ذَهَبَ نَوُّهُ وَسَأَطَّ عَلَيْهِ السَّهْرُ .

فلما قيل له ذلك جعل يقول كلَّ مَنْ أَمَرَهُ بِقَتْلِ أَخِيهِ حَسَّانَ مِنْ أَشْرَافِ الْيَمَنِ حَتَّى خَلَّصَ إِلَى ذِي رُعَيْنِ .

(١) رواية البيت في الاشتقاق ٥٢٥ : فَإِنْ تَكْ خَيْرٌ غَدَرْتُ وَخَانْتُ .

(٢) الحزاة : جمع حاز ، وهو الذي ينظر في النجوم ويسمى بها .

فقال له ذو رُعَيْن : إن لي عندك براءة . قال : وما هي ؟ قال : الكتابُ
الذي دفعتُ إليك .

فأخرجَه فإذا فيه البيتان ، فترَكهُ ورأى أَنَّهُ قد نَصَحَه

[لَخْنِيمَةُ ذُو شَنَاتِر]

وهلك عمرو فمرَج^(١) أمرُ حمير عند ذلك وتفرقوا ، فوثب عليهم رجل من
حمير لم يكن من بيوت المملكة ، يقال له لَخْنِيمَةُ ينوف ذو شَنَاتِر^(٢) ، فقتل
خيارهم وهبث ببيوت أهل المملكة منهم ، فقال قائل من حمير :

تَقْتُلُ أَبْدَاسَهَا وَتَنْفِي سَرَاتَهَا وَتَبْنِي بِأَيْدِيهَا لَهَا الذِّلَّ خَمِيرُ
تَدْمُرُ دَنِيَاهَا بِطَلِيشِ حُلُومِهَا وَمَا ضَيَّعْتَ مِنْ دِينِهَا فَمَوْ أَكْثَرُ
كَذَاكَ الْقُرُونُ قَبْلَ ذَاكَ يَظْلِمُهَا وَإِسْرَافُهَا تَأْتِي الشُّرُورَ فَتُخَسِّرُ

وكان لَخْنِيمَةُ امرأة فاسقة تعمل عمل قوم لوط ، فكان يرسل إلى الغلام
من أبناء الملوك فيقع عليه في مشربة^(٣) له قد صنعها لذلك لثلاث ليالٍ ، فبذل ذلك ،
ثم يطلع من مشربته تلك إلى حرسه وجنده قد أخذ مسواك فجعله في فيه علامة
للفراغ من خمييث فعله .

حتى بعث إلى زُرْعَةَ ذِي نُوَّاس ، بن رَبَّانِ أَسْعَد ، أخى حسان ، وكان صبيها
صغيراً حين قُتل حسان ، ثم شبَّ غلاماً جميلاً وسيماً ذا هيئة وعقل ، فلما أتاه
رسولُه عرف ما يريد به ، فأخذ سكيناً حديدًا لطيفاً نخبأه بين قدميه ونعله ،

(١) مرج : اضطرب واختلط .

(٢) المعروف فيه : الخيعة بغير نون ، كما قال ابن دريد ، وهو مأخوذ من اللخم ، وهو
استرخاء اللحم . والشَنَاتِر : الأصابع بلغة حمير .

(٣) المشربة : الغرفة المرتفعة .

— ١٢٥ —

ثم أتاه فلما خلا معه وثب إليه ، فوائبه ذو نُوَاس فوجأه حتى قتله ، ثم حَزَّ رأسه فوضعه في السكوة التي كان يشرف منها ، ووضع مسواكه في فيه ثم خرج على الناس ، فسألوه فأشار لهم إلى الرأس فنظروا فإذا رأس الخنيفة مقطوعٌ ، فخرجوا في إثر ذي نُوَاس حتى أدركوه ، فقالوا : ما ينبغي أن يملكنا غيرك إذ أرحمنا من هذا الخبيث .

فلكوه ، واجتمعت عليه خَيْرَ قبائل اليمن ، فكان آخرَ ملوك حمير ، ويسمى يوسف ، فأقام في مُلْكِهِ سنين .

قال ابن قُتَيْبَةَ : ثمانيا وستين سنة .

إلى أن كان منه في أهل نجران ما تقدم ذكره ، فكان ذلك سبباً لاستئصال ملكه واستيلاء الحبشة على اليمن .

ذكر دخول الحبشة أرض اليمن

واستبلاهم على مُلْكها ، وذكر السبب في ذلك
مع ما يتصل به من أمر الفيل

ولما انتهى زُرْعَةُ ذُو نُؤَاسٍ إلى ما انتهى إليه بأهل نجران من التحريق
والقتل ، أفلت منهم رجل من سبأ يقال له دَوْسٌ ذُو ثَقْلَبَانٍ على فرس له ،
فسلك الرملَ فَأَمْجَزَهُمْ ، فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قَيْصَرَ صَاحِبَ الرُّومِ ،
فاستنصره على ذِي نُؤَاسٍ وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم ، فقال له : بُعِدَتْ
بلادك منا ، ولستى سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين ،
وهو أقرب إلى بلادك .

فكتب إليه يأمره بنصره والطلبِ بثأره .

فقدِمَ دَوْسٌ على النجاشي بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة ،
وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له أَرْيَاطُ ، ومعه في جنده أَرْبَعَةُ الْأَثَرَمِ ، فركب
أَرْيَاطُ الْبَحْرَ حتى نزل بساحل اليمن ومعه دَوْسٌ ، فسار إليه ذُو نُؤَاسٍ في رَحِيرٍ ،
ومن أطاعه من قبائل اليمن ، فلما اتقوا انهزم ذُو نُؤَاسٍ وأصحابه ، فلما رأى
ذُو نُؤَاسٍ ما نزل به وبقومه وجه فرسه إلى ^(١) البحر ، ثم ضر به فدخل به ،
نفاض به ضَحَضَاحَ ^(٢) البحر حتى أفضى به إلى تخمه فأدخله فيه ، فسكان
آخِرَ الْعَهْدِ به .

(١) ابن هشام : في .

(٢) الضحضاح من الماء : الذي يظهر منه القمر ، وكان أصله من الضح وهو حر الشمس
كأن الشمس تداخله لقلته فقلبت فيه إحدى الحاءين ضادا كما قالوا في ثرة : ثرثرة وفي تملل : تملل .

ودخل أرياطُ اليمين ، فملكها .

[بين أرياط وأبرهة]

فأقام بها سدين في سلطانه ذلك ، ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهةُ الحبشى ، حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ، ثم سار أحدهما إليهم الآخر ، فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط أنك لا تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً ، فأبرز لى وأبرز لك ، فأيدا أصاب صاحبه انصرف إليه جندُه . فأرسل إليه أرياط : انصفت .

ففرج إليه أبرهة ، وكان رجلاً قصيراً لحيماً^(١) ، وكان ذا دين في النصرانية ، وخرج إليه أرياط ، وكان رجلاً عظيماً جميلاً طويلاً ، وفي يده حربّة له ، وخلف أبرهة غلام له يقال له عتودة^(٢) يمنع ظهره ، فرفع أرياطُ الحربة فضرب أبرهة ، ينزيد يافوخه ، فوقعت الحربة على جهة أبرهة ، فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته ، فبذلك سُمي أبرهة الأشرم .

. وجعل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله .

فانصرف جند أرياط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ، وودى^(٣) أبرهةُ أرياطَ ،

فلما بلغ ذلك النجاشي غضب غضباً شديداً وقال : عدّا على أميري فقتله بغير أمرى ! ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته .

فخلق أبرهة رأسه وملاً جراباً من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشي ،

(١) أى سمينا .

(٢) قال السهيلي : العتودة : الشدة في الحرب .

(٣) وداه : أدى ديته .

وكتب إليه : أيها الملك إنما كان أرباط عبيدك ، وأنا عبيدك ، اختلعتنا في أمرك ، وكل طاعته لك ، إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأستوس منه وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك ، وبعثت إليه بجراب من تراب أرضي ليضعه تحت قدميه ، فغير قسمه في .

فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضى عنه ، وكتب إليه : أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري .
فأقام بها .

ثم إن أبرهة بنى القلبيس بصنعاء ، فبنى كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبنَ مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمفتة حتى أصرف إليها حج العرب .

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من النساء^(١) أحد بني فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنفانة ، فخرج حتى أتى القلبيس فأحدث فيها ، ثم لحق بأرضه ، فأخبر بذلك أبرهة ، فقال : من صنع هذا ؟ ف قيل له : رجل [من العرب]^(٢) من أهل هذا البيت الذي تخرج العرب إليه بمكة ، لما سمع قولك « أصرف إليها حج العرب » غضب فجاء فقامد فيها^(٣) أي أنها ليست لذلك بأهل .

فغضب عند ذلك أبرهة ، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه .

(١) سبق الحديث عن النساء ص ٨٠

(٢) من ابن هشام .

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم ساروا^(١) وخرج معه بالليل .

وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفطعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام .

فخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نَفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله ، وما يريد من هدمه وإخراجه .

فأجابه من أجابه إلى ذلك ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نَفر وأصحابه ، وأخذ له ذو نَفر فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نَفر : أيها الملك لا تقتلني ، فإنه عسى أن يكون بقاى معك خيراً لك من قتلى .

وكان أبرهة رجلاً حليماً ، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نُفَيْل بن حَبِيب الخثعمي في قبيلتي خثعم : شَهران وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة ، وأخذ له نُفَيْل أسيراً فأتى به ، فلما تم بقتله قال نُفَيْل : أيها الملك لا تقتلني فإني دليلاك بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلتي خثعم ، شَهران وناهس ، بالسمع والطاعة .

فدخل سبيله وخرج به معه يده .

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتَّب بن مالك التميمي في رجل قتييف ، فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس

(١) ابن هشام : سار .

عندنا لك خلاف ، وليس يدقنا هذا البيت الذى تريد . يعنون اللات ،
إنما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه .

فتجاوز عنهم . واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ،
فبعثوا معه أبا رغال يدلّه على الطريق إلى مكة .

نفرج أبرهة ومعه أبو رغال ، حتى أنزله المغمّس^(١) ، فلما أنزله به
مات أبو رغال هنالك ، فرجعت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرجم
الناس بالمغمّس .

فلما نزل أبرهة بالمغمّس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود
على خيل له حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش
وغيرهم ، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير
قريش وسيدها .

فهيئت قريش وكندانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنه
لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة حنظلة الحُميرى إلى مكة وقال له : سلّ عن سيّد أهل هذا
البلد وشریفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آت الحربكم ،
إنما جئت لهذا البيت ، فإن لم تعرّضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم .
فإن هو لم يرّض حرّبى فائتنى به .

فلما دخل حنظلة مكة سأل عن سيد قريش وشریفها ، فقيل له :
عبد المطلب بن هاشم .

(١) موضع بطريق الطائف على ثلثى فرسخ من مكة . وبضبط بفتح الميم الثانية وكسرهما .
انظر الروس الأنف ١ / ٤٣ .

فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عهد المطلب : والله ما نريد حرباً وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم . أو كما قال : فإن يمدحه مِنْهُ فهو بيته وحُرْمَتُهُ ، وإن يُخَلِّ بِيدِهِ وبيدِهِ ، فوالله ما عندنا دَفْعٌ عنه .

فقال حُطَّاطة : فانطلقِ إليه ، فإنه قد أمرني أن آتيه بك .

فانطلق معه عهد المطلب ومعه بعض بنيهِ ، حتى أتى المعسكرَ فسأل عن ذى نَفرٍ ، وكان له صديقاً ، حتى دخل عليه في تحبسه فقال له : يا ذا نَفرٍ هل عندك من غَناءٍ فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نَفرٍ : وما غَناءُ رجلٍ أسيرٍ في يَدِ ملكٍ^(١) يَنْتَظِرُ أن يقتله غُدُوًّا أو عَشِيًّا ! ما عندى^(٢) غَناءٌ في نفسى مما نزل بك ، إلا أن أنيساً سائس النمل صديق لى فسأرسِلَ إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمهُ بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . قال : حسبي .

فبهت ذو نَفرٍ إلى أنيس فقال له : إن عهد المطلب سيد قريش وصاحب عير مكة يطعم الناس بالسَّهْل والوحوشَ في ردوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بَهِيمٍ ، فاستأذن له عليه وانفذه عنده بما استطاعت . قال : أفعل .

فكلم أنيس أبرهة قال له : أيها الملك ، هذا سيد قريش بهابك يستأذن هليك ، فأذن له فليتكلمك في حاجته .

ووصفه له بما وصفه ذو نَفرٍ لأنيس .

(١) ابن هشام : بيدى ملك .

(٢) ابن هشام : ما عندنا ، وما هنا أولى .

فأذن له أبرهة ، وكان عبد المطلب أوْسَمَ الناس وأَجْمَلَهُ وأعْظَمَهُ^(١) ، فلما رآه أبرهة أَجَلَّهُ وأَكْرَمَهُ عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان . فقال : حاجتي أن يردَّ عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتي حين رأيته ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ! أتسكمني في مائتي بعير أصبغتها لك ، وتترك بيتك هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تسكمني فيه ! ! .

قال عبد المطلب : [إني]^(٢) أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيِّمعه . قال : ما كان ليمتنع مني . قال : أنت وذاك .

ويزعم بعض أهل العلم أنه كان ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة يَعْمَرُ بنُ نَفَاقَةَ بن عدى بن الذُّئْل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهو يومئذ سيد بني بكر ، وخويلد بن وائلة المَذْلِي ، وهو يومئذ سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم . فالله أعلم ، أكان ذلك أم لا .

فردَّ أبرهةُ على عبد المطلب الإبلَ التي أصاب له ، فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّزَ في شَتَف الجبال والشعاب ، تخوفاً عليهم من مَعَرَّة الجيش .

(١) ذكر سيديويه هذا الكلام محكيًا عن العرب ، ووجهه عندهم أنه تحول على المعنى ، فسكأنك قلت : أحسن رجل وأجمل فأفرد الاسم المضر التفاناً إلى هذا المعنى ، ويصح حمله على الجنس ، كأنه حين ذكر الناس قال : هو أجل هذا الجنس من الخلق .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش
يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة [وجنده ^(١)] .

فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُمْ إِلَّا الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَاَمْنَعُ حِلَالَكَ ^(٢)
لَا يَنْتَلِيْنُ صُلْبُهُمْ وَيَحْتَالُهُمْ غَدَاً مَحَالِكَ ^(٣)

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش
إلى شتف الجبال فتحرّروا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعلٌ بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تهباً لدخول مكة وهيئاً فيله وعبي جيشه . وكان اسم الفيل
محمودا ، وأبرهة يُجمع لمذم البيت والانصراف ^(٤) إلى اليمن ، فلما وجّهوا الفيل
إلى مكة قام نفيل بن حبيب إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال له : ابرك
وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك
الفيل وخرج نفيل يشهد حتى أصعد في الجبل .

وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوه في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ،
فأدخلوا تحاجن لهم في مرقاه فبزغوه ^(٥) بها ليقوم فأبى ، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن
فقام يهرول ، ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجّهوه إلى المشرق ففعل
مثل ذلك ، ووجّهوه إلى مكة فبرك .

(١) من ابن هشام .

(٢) الحلال جمع حالة بكسر الحاء ، وهي جماعة البيوت وتطلق على القوم المجتمعين .

(٣) المحال : القوة ، وغدوا : غدا ، استعمل تالما ولا يستعمل كذلك إلا في الشعر .

(٤) ابن هشام : ثم الانصراف .

(٥) الطبرزين : آلة من حديد كالقأس ، والمحاجن جمع محجن : وهي عصا معوجة ،
والمراق : مارق من البطن ولان ، وبزغوه : أدموه .

فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والنباتان^(١) مع كل طائر منها ثلاثة أحجار ، حجر في مقاره وحجران في رجليه ، أمثال الختص والعدس لا تصيب أحدا منهم إلا هلك ، وليس كلهم أصابت .

وخرجوا هاربين يبتدون الطريق الذي منه جاءوا ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى الين ، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أين المفرُّ والإله الطالبُ
والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبُ !
وقال نفيل أيضا :

ألا حميت عنا يا ردينا
نممنّاكم مع الإصباح عينا
ردينة لو رأيت ولا ترينه
لدى جنب الحصب ما رأينا
إذا لعذرتني وحسدت أسمى
ولم تأتني على ما فات بيننا^(٢)
حسدت الله إذ أبصرت طيرا
وخفت حجارة تلتقي علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل
كان على لأحباشان دينا

(١) الخطاطيف جم خطاف وهي طيور سوداء ، والنباتان كما نقل ابن الأثير : يظن أنها الزرايزر .
(٢) بينا : نصب نصب المصدر المؤكد لما قبله إذ كان في معناه ولم يكن على لفظه .

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون [بكل منهلك ^(١)] على كل منهل ،
وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، كلما سقطت أنملة
منها أنبعتها مِدَّة تمت ^(٢) فيحيا ودما ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ،
فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، فيما يزعمون .

ويقال إنه أول ما رُئيت الحَصْبَة والجُدْرَى بأرض العرب ذلك العام ، وإنه
أول ما رُئي بها مرأى الشجر الحرْمَل والحنظل والعُشْر ذلك العام .

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم كان مما يبعث الله على قريش من نعمته
عليهم وفضله ، ما ردّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أسرهم ومدتهم ، فقال تبارك
وتعالى : « ألم ترّ كيف قتل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم
في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم
كصَفِ مأكول » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيتُ قائد الفيل وسائسه بمكة أحيين
مُتَعِدِينَ يستطعمان .

قال ابن إسحاق : فلما ردّ الله الحبشة عن مكة وأصابهم ما أصابهم به من
الدمعة ، أعظمت العربُ قريشا ، وقالوا : هم أهل البيت ، قاتل الله عنهم وكفاهم
مؤنة عدوهم ، فقالوا في ذلك أشماراً يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما ردّ
عن قريش من كيدهم ، فقال عبد الله بن الزُّبَيْرِ السَّهْمِي :

تَدَّكُلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ لَهَا
كَانَتْ قَدِيمًا لَا يُرَامُ حَرِيمُهَا
لَمْ تُخْلَقِ الشُّعْرَى لَهَا إِلَى حُرْمَتِ
إِذْ لَا عَزِيزَ مِنَ الْأَنَامِ يَرُومُهَا
سَائِلَ أَمِيرِ الْخَبَشِ^(١) عَنْهَا مَا رَأَى
وَلَسَوْفَ يُنْجِي الْجَاهِلِينَ عَلَيْهِمُهَا
سَتُونَ أَلْفًا لَمْ يُوْثِرُوا أَرْضَهُمْ
بَلْ لَمْ يَمِيشْ بِمَدِّ الْإِيَابِ سَقِيمُهَا
كَانَتْ^(٢) بِهَا عَادٌ وَجُرْمٌ قَبْلَهُمْ
وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ الْعِبَادِ يَقِيمُهَا
وَقَالَ أَبُو قَيْسٍ بْنُ الْأَسَلَاتِ الْأَنْصَارِيُّ ثُمَّ الْخَطْمِيُّ ، مِنْ قَصِيدَةِ سِيَأَنِي
ذَكَرَهَا بِحَمَلَتِهَا :

فَقُومُوا فَصَلُّوا رَبِّكُمْ وَتَمَسَّحُوا
بِأَرْكَانِ هَذَا الْبَيْتِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ
فَعِنْدَكُمْ مَدَّةٌ بِلَا مَعْدَدٍ
غَدَاةَ أَبِي يَكْسُومَ هَادِي السَّكَاثِبِ
كَثِيبَتُهُ بِالسَّهْلِ تَمَشَّى وَرَجُلُهُ
عَلَى الْقَاذِفَاتِ فِي رَعُوسِ الْمَنَاقِبِ

(١) ابن هشام : أمير الجيوش .

(٢) ابن هشام : دانت .

فلما أناكم نصرُ ذى العرش رُدَّهم
جنودُ الملِّيك بين سافرٍ وحاصِبٍ^(١)
فولوا سراعا هاربين ولم يُؤبِ
إلى قومه مِلْحُوشٍ غَيْرُ عَصَائِبِ

وقالت سُبَيْعَةُ بنتُ الْأَحَبِّ بنُ زُبَيْعَةَ من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن
ابن منصور ، لأنها خارجة بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تميم بن مُرَّة ،
تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغى فيها وتذكر تبعاً وتذللها لها ، والفيل
وهلاك جيشه عندها :

أُبْنَى لَا تَظْلَمُ بِمَكَّةَ لَا الصَّغِيرَ وَلَا الْكَبِيرَ
واحفظ محارمها بُنَى وَلَا يَفْرُوكَ الْفَرَّورَ
أُبْنَى مَنْ يَظْلَمُ بِمَكَّةَ يَبْقَى أَطْرَافَ الشَّرُورِ
أُبْنَى يُضْرَبُ وَجْهُهُ وَيُكَلِّجُ بِخَدَّيْهِ السَّعِيرَ
أُبْنَى قَدْ جَرَّبَتْهَا فَوَجَدَتْ ظَالِمَهَا يُبْهَرُ
اللَّهُ آمَنَهَا وَمَا بَدِيتُ بَعَرَصَتَهَا قُصُورَ
وَاللَّهُ آمَنَ طَائِرَهَا وَالْعُصْمَ^(٢) تَأْمَنُ فِي ثَبِيرِ
وَلَقَدْ غَزَاهَا تَبِيعُ فَكَسَا بِلَيْتِهَا الْحَبِيرَ
وَأَذَلَّ رَبِّي مُلْكَهُ فِيهَا فَأَوْقَى بِالْفُذُورِ
يَمْشَى إِلَيْهَا حَافِيًا بِفَنَائِهَا أَلْفَا بِمِيرِ
وَيَظْلُ يُطْعِمُ أَهْلَهَا لَحْمَ الْمَهَارَى^(٣) وَالْجَزُورِ

(١) الساقى الذى يرمى بالتراب ، والحاصب : الذى يرمى بالحصباء .

(٢) العصم : الوعول ، وشير جبل بمكة .

(٣) المهارى : جمع مهريّة ، لابل منسوبة إلى مهرة بن حيدان .

يسقيهمُ العسلَ المصنوعَ والرحيضَ من الشعير
والفيلَ أَهْلَكَ جيشَه يُرْمَوْنَ فيها بالصخور
والملكُ في أَقصى البلا د وفي الأعاجم والجزير^(١)
فاسمع إِذا حَدَّثَتْ وأفهمهم كيف عاقبةُ الأمور

ولم يزل شعراء أهل الجاهلية يذكرون ذلك في أشعارهم معتدّين بصنع الله
فيه ، وقد جرى على ذلك شعراء الإسلام ، فقال الفرزدق بن غالب التميمي ،
يمدح سليمان بن عبد الملك بن مروان ويعرض^(٢) للحجاج بن يوسف ، ويذكر
الفيلَ وجيشه :

فلما طمّنى الحجاجُ حين طمّنى به
غنى قال إني مُرتقى في السلام
فكان كما قال ابنُ نوحٍ سأرتقى
إلى جبلٍ من خشيةِ الماءِ عاصمـ
رمى الله في جُثمانه مثلَ ما رمى
عن القنبلةِ البيضاء ذاتِ الحارم
جنوداً تسوق الفيلَ حتى أعادهم
هباءً وكانوا مُطرَخِي الطراخيم^(٣)
فهيّرتَ كنفصر البيت إِذ ساق فيلَه
إليه عظيمُ المشركين الأعاجمـ

(١) الجزير: يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونِ جَمْعُ جَزِيرَةٍ بِأَلَدِ الْعَرَبِ. وَتُرْوَى: وَالْجَزِيرُ. أُمَّةٌ مِنَ الْعَجَمِ .

(٢) ابن هشام : ويهجو الحجاج .

(٣) الطراخم : المقلّاء كبرا وغضبا وجهه الطراخم.

قال ابن إسحاق : فلما هلك أبرهة ملك الحبشة ابنه يكسوم بن أبرهة ،
وبه كان يُكنى ، فلما هلك يكسوم ملك اليمن في الحبشة أخوه مسروق
ابن أبرهة .

[سيف بن ذى يزن]

فلما طال البلاء على أهل اليمن ، خرج سيف بن ذى يزن الحنيزي حتى قدم
على قيصر ملك الروم ، فشكا إليه ما هم فيه ، وسأله أن يخرجهم عنه ، ويلبهم
هو ، ويبيعهم إليهم من شاء من الروم . فلم يُشكِّكه .

فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر ، وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من
أرض العراق ، فشكا إليه أمر الحبشة ، فقال له النعمان : إن لى على كسرى وفادة
في كل عام ، فأقيم حتى يكون ذلك . ففعل .

ثم خرج معه فأدخله على كسرى ، وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذى
فيه تاجه ، وكان تاجه مثل القنقل^(١) العظيم ، فيما يزعمون ، يُضرب فيه الياقوت
والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة ، معلّقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقه في
مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجه ، إنما يُستر بالثياب حتى يجلس في مجلسه
ذلك ، ثم يدخل رأسه في تاجه ، فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب ،
فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا برك هيبة له .

فلما دخل عليه سيف بن ذى يزن برك . وقيل إنه لما دخل عليه طأطأ
رأسه ، فقال الملك : إن هذا لأحق ! يدخل على من هذا الباب الطويل ثم
يطأطأ رأسه !

(١) القنقل : المسكيات .

فقيل ذلك لسيف ، فقال : إنما فعلت هذا لهُمى ، لأنه يضيق عنه كلُّ شيء .
ثم قال : أيها الملك ، غلبنا على بلادنا الأُغربية .
فقال كسرى : أىُّ الأُغربة ؟ الحبشة أم السُّند ؟
قال : بل الحبشة ، فجئتُك لنعصرنى ويكون مُلك بلادى لك .
قال : بعُدت بلادك مع قلة خيرها ، فلم أكن لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب ، لا حاجة لى بذلك .
ثم أجازته بمشرة آلاف درهم وافر ، وكساه كسوة حسنة .
فلما قبض ذلك سيفٌ خرج فجعل يذتر تلك الورق للناس .
فبلغ ذلك الملك فقال : إن لهذا لشأناً .
ثم بعث إليه فقال : عمدت إلى حِباء الملك تذرته للناس !
فقال : وما أصنع بهذا ؟ ما جبالُ أرضى التى جئتُ منها إلا ذهب وفضة .
يرغبه فيها .
فجمع كسرى مرازبته^(١) فقال : ماذا ترون فى أمر هذا الرجل وما جاء له ؟
فقال قائل : أيها الملك إن فى سجونك رجالاً حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه ، فإن يَهْلِكوا كان ذلك الذى أردت ، وإن ظفروا كان مُلكاً ازددته .
فبعث معه كسرى من كان فى سجونهِ ، وكانوا ثمانمائة رجل ، واستعمل عليهم [رجالاً منهم يقال له^(٢) وَهْرِزُ وكانَ ذابِئاً فيهم وأفضلهم حسباً وبيتاً ، فخرجوا فى ثمان سفائن ففرقت سفينتان ووصلت إلى ساحل عَدَنٍ ست سفائن .

(١) مرازبته : وزراءه .

(٢) من ابن هشام .

فجمع سيفاً إلى وَهْرَز من استطاع من قومه وقال له : رجلى مع رجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً . قال له وَهْرَز : أنصفت .

وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن وجمع إليه جنوده ، فأرسل إليهم وهْرَز ابداً له ليقاتلهم فيختبر قتالهم ، فقتل ابن وهْرَز ، فزاده ذلك حَقَقاً عليهم .

فلما تواقف الناس على مصافهم قال وَهْرَز : أرونى مَلِككم . قالوا له : أنرى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه ، بين عينيه ياقوتة حمراء ؟

قال : نعم . قالوا : ذلك مَلِككم . قال : أتركوه . فوقفوا طويلاً ثم قال : علامَ هو ؟ قالوا : قد نحول على الفرس . قال : أتركوه .

فوقفوا طويلاً . ثم قال : علامَ هو ؟ قالوا : على البقرة . قال وهْرَز : بات الحمار ذلّ وذللّ مَلِكك ، إنى سأرميه ، فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاقبضوا حتى أؤذنكم ، فإنى قد أخطأت الرجل ، وإن رأيتم القوم قد استداروا ولائوا به^(١) فقد أصبت الرجل ، فاحملوا عليهم .

ثم أوتر قوسه ، وكانت فيما يزعمون لا يُوترها غيره من شدنها ، وأمر بحاجبيه فمُصَّباً له ، ثم رمى فصبك الياقوتة التى بين عينيه فتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه ؟ ونكس عن دابته ، واستدارت الحبشة ولائت به ، وحملت عليهم الفرس وانهمزوا فقتلوا وهربوا فى كل وجه .

وأقبل وَهْرَزُ ليدخل صنعاء ، حتى إذا أتى بابها قال : لا تدخل رابى منكَسة أبداً ، اهدموا الباب . فهدم ، ثم دخلها ناصباً رايته .

(١) أى التفوا حوله .

وقال في ذلك أبو العتات بن أبي ربيعة النقي ، وتروى لابنه أمية بن أبي العتات :

إِطْلُب الْوِثَرَ أَمْثَالُ ابْنِ ذِي يَزَنٍ
رَيْمٌ فِي الْبَحْرِ ^(١) لِلْأَعْدَاءِ أَحْوَالاً
يَمَّ قَيْصَرَ لَمَّا حَازَ ^(٢) رَحْلَتَهُ
فَلَمْ يَجِدْ عَنْدهُ بَعْضَ الَّذِي سَالَا
حَتَّى أَتَى بَيْتَ الْأَحْرَارِ يَحْمِلُهُمْ
لِإِنَّكَ عَمْرَى لَقَدْ أَسْرَعْتَ فَلَقَالَا ^(٣)
لِلَّهِ دَرُّهُمْ مِنْ عَصْبَةِ خَرَجُوا
مَا إِنْ أَرَى لَهُمْ فِي الْفَاسِ أَمْثَالَا
بَيْضَا مِرَازِبَةً غُلْبَا أَسَاوِرَةً
أَشَدَّ تَرْبُّبُ فِي الْغَيْضَاتِ أَشْبَالَا
أَرْسَلَتْ أَشَدَّ عَلَى سُودِ الْكَلَابِ فَقَدْ
أَضْحَى شَرِيدَهُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَقَالَا ^(٤)

(١) كذا في ابن هشام وأكثر النسخ : ريم في البحر . وقد شرحها السهيلي بقوله : ريم في البحر أى أقام فيه وذكر اشتقاقه فقال : « وريم ليس من رام وإنما هو من الريم وهو الدرج ، أو من الريم الذى هو الزيادة والفضل ، أو من رام يريم إذا برح ، كأنه يريد : فاب زمانا وأحوالا ثم رجع للأعداء أو ارتقى في درجات المجد أحوالا ، إن كان من الريم الذى هو الدرج . ووجدته في غير هذا الكتاب : خيم » .

وفي ط : مذ أم في البحر . ولعل بما يساعد عليها قوله بعد : ييم قيصر .

(٢) ابن هشام : لما حان .

(٣) القفال : شدة الحركة .

(٤) نللا : منهزمين .

فأشرب هديئاً عليك القاجُ مرتفعاً^(١)
في رأس عُمدان^(٢) داراً منكٍ محلاً
وأشرب هديئاً فقد شالت نعامتهم
وأشرب اليوم في بُردك إسبالاً
تلك المسكارم لا قعبان من لبن
شيبها بماء فمادا بعدُ أبوالاً^(٣)

وأقام وهرز والفرس باليمن ، فعين بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء^(٤)
الذين باليمن اليوم .

وكان ملك الحبشة باليمن منذ دخلها أرباط إلى أن أخرجتهم الفرس
عنها اثنين وسبعين سنة ، وفق ما ذكره سطيح وشق في تأويل رؤيا ربيعة
ابن نضر .

ثم مات وهرز ، فأمر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن ، ثم مات المرزبان
فأمر كسرى ابنه التيميجان^(٥) بن المرزبان ، ثم مات فأمر كسرى ابن التيميجان ،
ثم عزله وولى باذان ، فلم يزل عليها حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغ مبعثه^(٦) كسرى كتب إلى باذان : إنه بلغني^(٧) أن رجلاً من قريش
خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فسر إليه فاستقبه ، فإن تاب وإلا قابع إلى برأسه .

(١) ابن هشام : مرتفعاً .

(٢) عُمدان : قصر كان باليمن بناء يشرح بن يعصب .

(٣) نسب ابن هشام هذا البيت للناطقة الجمدي ونفاه عن أبي الصلت .

(٤) قالوا النهاية : ويقال لأولاد فارس الأبناء ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن .

(٥) والطبري طبع أوربا : الينجان .

(٦) في السير أن الرسول صلوات الله عليه أرسل إلى كسرى كتاباً ، وخبره مشهور .

(٧) ط : بلغه .

فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد وعدني أن يُقتل كسرى في يوم كذا من شهر كذا .

فلما أتى باذان الكتابُ توقفَ ينظر وقال : إن كان نبيا فسيكون ما قال .
فقتل الله كسرى على يد ابنه شيرَوَيْه في اليوم الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال الرسل من الفُرس : إلى مَنْ نحن يا رسول الله . قال : أنتم معنا وإليها أهل البيت .

قال الزهري : فَمِنْ ثَمَّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سَلَامُنْ مَعَا أَهْلَ الْبَيْتِ .

وكل هذه الأخبار وإن قطعت بعض ما كنا بسبيله من أمر بنى قَعْنَى فلما أيضا من الإفادة بنحو ما قصدناه وحسن الإمتاع^(١) بالشأن المناسب لما اعتمدناه ما يُحَسِّنُ اعتراضها وينظم في سلك واحدٍ مع ما مرَّ من ذلك أو يأتي ، أغراضها .

وعليها بمعونة الله في تجويد الترتيب لذلك كله تطبيقُ المنفصل وردُّ هذه

(١) ت : الإنباع .

الأحاديث المتفرقة في حكم الحديث المتصل ، فنعطيل ولا نُملِّئ ، ونُقهر فلا نخل ،
كل ذلك ببركة المختار الذي يَمُنَّا تخليداً وأولايته ، وتُيَمُّنا بخدمة آثاره وسيرته ،
صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأكرمين وصحابه

[عَوَّذُ إِلَى أبناء قصى]

وكنا اتهمنا من شأن بنى قصى بعده ، إلى ما تراضوا به بينهم من الصلح على
أن تكون السقاية والرفادة لبنى عبد مناف ، وتسكون حِجَابَةُ البيت والاهواء
والغدوة لبنى عبد الدار ، على نحو ما جعله قصى إلى أبيهم .

فولى السقاية والرفادة هاشمُ بن عبد مناف .

وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سفاراً قلما يقيم بمكة ، وكان مُقلاً ذا ولد
كثير ، وكان هاشم موسراً ، وكان فيما يزعمون ، إذا حضر الحج قام صبيحة
هلال ذى الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيحض قومه على
رفادة الحاج التي سنّها لهم قصى ، ويقول لهم في خطبته :

يا معشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوهاً ، وأعظمها أحلاماً ،
وأوسط العرب أنساباً ، وأقرب العرب للعرب أرحاماً .

يا معشر^(١) قريش ، إنكم جيران بيت الله ، أكرمكم الله بولايته وخصمكم
بجواره دون بنى إسماعيل ، حَفِظْ مِنْكُمْ أَحْسَنَ مَا حَفِظَ جَارٌ مِنْ جَارِهِ ،
ولمَّا يَأْتِيكُمْ فِي هَذَا الْمَوْسَمِ زُؤَارُ اللَّهِ ، يَعْظُمُونَ حَرَمَهُ بَيْتَهُ ، فَهُمْ ضَيْفُ اللَّهِ ،
وَأَحَقُّ لِلضَيْفِ بِالْكَرَامَةِ ضَيْفُهُ ، فَأَكْرَمُوا ضَيْفَهُ وَزُؤَارَهُ ، فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ شَتْمًا

(١) لم يذكر ابن هشام ما سبق من أول الخطبة إل هنا . وهنا زيادة عما ذكره
ابن هشام .

غُزْرًا من كل بلد على ضَوَامِرِ كَالْقِدَاحِ^(١) ، وقد أَرْحَفُوا وَأَرْمَلُوا^(٢) فَاقْرُؤْهُمْ
وَأَعِيفُوهُمْ ، فَوَرَبُّ هَذِهِ الْبَيْذِيَّةِ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ يَحْمِلُ ذَلِكَ لَكَفَيْتُكُمْوه ،
وَأَنَا مُخْرِجٌ مِنْ طَيِّبِ مَالِي وَحَلَالِهِ ، مَا لَمْ تُتَقَطَّعْ فِيهِ رَحِمٌ ، وَلَمْ يُؤْخَذْ بِظُلْمٍ ،
وَلَمْ يَدْخُلْ فِيهِ حَرَامٌ فَوَاضِعُهُ ، فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فَعَلِهِ .
وَأَسْأَلُكُمْ بِحَرَمَةِ هَذَا الْبَيْتِ أَلَّا يُخْرِجَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مِنْ مَالِهِ لِكِرَامَةِ زَوَارِ بَيْتِ اللَّهِ
وَمَعُونَتِهِمْ إِلَّا طَيِّبًا لَمْ تُتَقَطَّعْ فِيهِ رَحِمٌ ، وَلَمْ يُؤْخَذْ غَضَبًا .

فَكَانَتْ بَنُو كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ وَسَائِرُ قُرَيْشٍ يَجْتَهِدُونَ فِي ذَلِكَ وَيَتَرَاوَدُّونَ عَلَيْهِ ،
وَيُخْرِجُونَ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى يَأْتُوا بِهِ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ فَيَضُمُّوهُ فِي دَارِهِ ،
حَتَّى إِنْ كَانَ أَهْلُ الْبَيْتِ لَيُرْسِلُونَ بِالشَّيْءِ الْيَسِيرِ عَلَى قَدَرِهِمْ . وَكَانَ هَاشِمٌ يُخْرِجُ
فِي كُلِّ سَنَةٍ مَالًا كَثِيرًا . وَكَانَ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَهْلَ بَسَايِرَ ، رُبَّمَا أُرْسِلَ كُلُّ
إِنْسَانٍ مِنْهُمْ بِمِائَةِ مِثْقَالٍ هِرَقْلِيَّةٍ .

وَكَانَ هَاشِمٌ يَأْمُرُ بِحِيَاضٍ مِنْ أَدَمٍ ، فَتُجْعَلُ فِي مَوْضِعٍ زَمَزَمٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ
تُحْفَرُ ، ثُمَّ يُسْتَقَى فِيهَا مِنَ الْبِيَّارِ الَّتِي بِمَكَّةَ ، فَيُشْرَبُ الْحَاجُّ .

وَكَانَ يَطْعَمُهُمْ أَوَّلَ مَا يَطْعَمُهُمْ بِمَكَّةَ قَبْلَ التَّزْوِيَةِ بِيَوْمٍ ، ثُمَّ يَمْنَى ، وَيَجْمَعُ
وَعَرْفَةَ ، يُثَرِّدُ لَهُمُ الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ ، وَالْخُبْزَ وَالسَّمْنَ ، وَالسَّوِيقَ وَالْقَمْزَ ، وَيَحْمِلُ لَهُمُ
الْمَاءَ ، فَيُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ حَتَّى يَصْدُرُوا .

وَكَانَ اسْمُ هَاشِمٍ عَمْرًا ، وَيُقَالُ لَهُ عَمْرُو الْعَلَا . وَإِنَّمَا سَمِيَ هَاشِمًا لِهُشْمِهِ
الْخُبْزَ بِمَكَّةَ لِقَوْمِهِ ، وَهُوَ فِيمَا يَذْكُرُونَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّحْلَتَيْنِ لِقُرَيْشٍ ، رَحْلَةَ
الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُ شُعَرَاءِهِمْ :

(١) القِدَاحُ : جَمْعُ قَدَحٍ ، وَهُوَ السَّهْمُ .
(٢) أَرْحَفُوا : أَعْيَوْا . وَأَرْمَلُوا : نَفَدَ زَادُهُمْ .

عَمُرُوا الْمَلَا^(١) هَاشِمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ
قَوْمٍ بِمَكَّةَ^(٢) مُشْنَتَيْنِ عَجَافٍ
سُنَّتْ إِلَيْهِ الرُّحَلَتَانِ كِلَاهُمَا
سَفَرُ الشُّتَاءِ وَرَحْلَةُ الْإِصْيَافِ

وذلك أن قُرَيْشًا كانوا قوماً تُجَارًا ، وكانت تجارتهم لا تمتدو مكة ،
لأنها لا تقدم الأعاجم بالسَّلْع فيشترون منهم ويتبايعون فيما بينهم ، ويبيعون
من حولهم من العرب .

فلم يزالوا كذلك حتى ذهب هاشم إلى الشام ، فسكان يذبح كل يوم شاة ،
فيصنع جفنةً ثريد ، ويدعو من حوله فيأكلون .

وكان هاشم من أحسن الناس وأجملهم ، إلى شرف نفسه وكرم فعاله .
فدُكرَ لقيصر فدعا به فلما رآه وكلّمه أعجب به وأذناه منه .

فلما رأى هاشم مكانه منه ، طلب منه أماناً لقومه ليقدّموا بلاده بتجاراتهم .
فأجابه إلى ذلك . وكتب لهم قيصر كتاب أمان لمن أتى منهم .

فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فكلماً مرّ بحى من أعياء العرب أخذ من
أشرافهم إيلافاً لقومه يأمنون به عندهم وفي أرضهم من غير حائف ، إنما هو
أمان الطريق .

واستوفى أخذ ذلك ممن بين مكة والشام ، فأتى قومه بأعظم شيء أتوا به
قط بركة ، فخرجوا بفجاعة عظيمة ، وخرج هاشم معهم ليوفيههم إيلافهم

(١) ابن هشام : عمرو الذي .

(٢) ويرى : ورجال مكة مستنون عجاف . والمسنون : المحدثون .

الذى أخذ لهم من العرب ، فلم يزل يوفيههم إياه ، ويجمع بينهم وبين العرب حتى قدم بهم الشام .

فهلك هاشم في سفره ذلك بغزاة من أرض الشام .
وكان أول بني عبد مناف هلكاً .

وخرج المطلب بن عبد مناف ، وهو يسمى الفيض لسماعته وفضله ، إلى اليمن ، فأخذ من ملوكهم أماناً لمن تجرّ من قومه إلى بلادهم ، ثم أقبل يأخذ لهم الإيلاف من كان على طريقه من العرب ، كما فعل أخوه هاشم ، حتى أتى مكة ، ثم رجع إلى اليمن . فمات يرثه مان .

وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة ، فأخذ منه أماناً كذلك لمن تجرّ من قريش إلى بلاده ، ثم أخذ الإيلاف من العرب الذين على الطريق إليها حتى بلغ مكة . وتوفى بها فقبره بالحجون .

وخرج نوفل بن عبد مناف ، وكان أصغر ولد أبيه إلى العراق ، فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش ، ثم أقبل يأخذ الإيلاف ممن مرّ به من العرب حتى قدم مكة . ثم رجع إلى العراق فمات بسلمان من ناحية العراق .

فخبر الله قريشاً بهؤلاء النفر الأربعة من بني عبد مناف ، ففتمت أموالهم ، واتسعت تجارتهم ، فكان بدو عبد مناف يسمون لأجل ذلك المجبرين^(١) ، والعرب تسميهم أقداح النضار ، لطيب أحسابهم وكرم فعالهم .

وقال مطرود بن كعب الخزاعي يُبكيهم جميعاً حين أتاه نعي نوفل منهم ، وكان آخرهم هلكاً :

(١) ط ت : المجبرين .

يا لَيْلَةَ هَيَّجَتْ لَيْلَانِي إِحْدَى لَيْلَى الْقَسِيَّاتِ
 وما أَقاسى من مَـوَمٍ وما عَاجَتْ من رُزْمِ اللَّيَّاتِ
 إِذَا تَذَكَّرْتُ أَخِي نَوَفَلًا ذَكَرَنِي بِالْأَوَّلِيَّاتِ
 ذَكَرَنِي بِالْأَزْرِ الْحُمْرِ وَالْأَزْدِيَّةِ الْعُطْفِ الْقَشِيَّاتِ
 أَرْبَعَةَ كُلِّهِمْ سَيِّدٌ أَبْدَاهُ سَادَاتِ لِسَادَاتِ
 مَيِّتٌ بَرْدَمَانٌ وَمَيِّتٌ بَسْمَانٌ وَمَيِّتٌ بَغَزَاتِ^(١)
 وَمَيِّتٌ أَشْكِنَ لَحْدًا لَدَى الْحَجُونِ^(٢) شَرْقَى الْهَيْئَاتِ
 أَخْلَصْتَهُمْ عِبْدُ مَنْفٍ فَهُمْ مِنْ لَوْمٍ مَنْ لَامَ بِمَنْجَاةِ
 إِنْ الْمَغِيرَاتِ وَأَبْقَاهَا مِنْ خَيْرِ أَحْيَاءِ وَأَمْوَاتِ
 وَإِنَّمَا سَمَّاهُ الْمَغِيرَاتِ لِأَنِّ عِبْدَ مَنْفٍ أَبَاهُمْ كَانَ اسْمُهُ الْمَغِيرَةُ .

فَقِيلَ لِمَطْرُودٍ - فِيمَا يَزْعُمُونَ - : لَقَدْ قُلْتَ فَأَحْسَنْتَ ، وَلَوْ كَانَ أَفْجَلَ مِمَّا هُوَ
 كَانَ أَحْسَنَ .

فَقَالَ : أَنْظِرُونِي لَيْلَى . فَكَثَّ أَيَّامًا ثُمَّ قَالَ :
 يَا هَيْنُ جُودِي وَأَذِرِي الدَّمَعَ وَانْهَمِرِي
 وَابْكِي عَلَى السَّرِّ مِنْ كُغْبِ الْمَغِيرَاتِ
 يَا هَيْنُ وَاسْحَنْفِرِي^(٣) بِالْدمْعِ وَاحْتَفَلِي
 وَابْكِي خَبِيثَةَ نَفْسِي فِي الْمَلَمَاتِ
 وَابْكِي عَلَى كُلِّ فَيَاضٍ أَخِي ثَقِيَّةً
 ضَخْمَ الدَّسِيعَةِ^(٤) وَهَابَ الْجَزِيلَاتِ

(١) ابن هشام : عند غزات .

(٢) ابن هشام : لدى المحجوب .

(٣) اسحنفري : استكثري .

(٤) صخيم الدسيعة : جزيل العطاء .

تُخَضِّى الضَّرِيبَةَ عَلَى الْهَمِّ مُخْتَلِقِ
جَلْدِ النَّحِيزَةِ^(١) نَاءَ بِالْعَظِمَاتِ
صَدَّبَ الْبَدِيهَةَ لَا نِيْكَسِ^(٢) وَلَا وَكِلِ
مَاضِى الْمَرْزِيمَةِ مُتَلَاوِفِ الْكِرِيْمَاتِ
مَدَقِرِ تَوْسُطَ مَنْ كَمَبَ إِذَا نَسِبُوا
بِمَجْوَحَةِ الْمَجْدِ وَالشَّيْمِ الرَفِيعَاتِ
ثُمَّ انْدُبَى الْفَيْضَ وَالْفَيْاضَ مُطْلِبًا
وَاسْتَخْرَطَى بَعْدَ فَيْاضِ بَحْمَاتِ^(٣)
أَمْسَى بِرَدْمَانٍ عِنَا الْيَوْمَ مَفْتَرِبًا
يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْهِ بَيْنَ أَمْوَاتِ
وَابْكِي ، لَكِ الْوَيْلُ ، إِمَّا كُنْتَ بِأَكِيَّةٍ
لَعِبْدِ شَمْسٍ بِشَرْقِ الْبَهَائِيَاتِ
وَهَاشِمٍ فِي ضَرْبِجٍ وَسُطَّ بَلَقَمَةِ
تَسْنَى الرِّيَّاحُ عَلَيْهِ بَيْنَ غَزَاتِ
وَنُوفَلٍ كَانَ دُونَ الْقَوْمِ خَالِصَتِ
أَمْسَى بِسَلْمَانَ فِي رَمْسٍ بِمَوَا^(٤)
لَمْ أَلْقَ مِثْلَهُمْ عَجْمًا وَلَا عَرَبًا
إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِهِمْ أَذْمُ الْمُطَلِّيَاتِ^(٥)

(١) الضريبة والنحيزة : الطبيعة . وناء : متحمل .

(٢) النكس : الجبان الدنى .

(٣) استخرط فى البكاء : لج واشتد . والجات : الماء المجتمع ويريد به الدم ، وى ابن هشام :

بعد فيضات بحمات .

(٤) مومة : ففر .

(٥) الأدم : الإبل المشربة سودا أو بياضا ، أو هى البيضاء الواضحة البياض .

أُمِسَتْ ديارهمُ منهمُ معْظَلَةٌ
 وقد يكونون زِينًا في السَّرِيَّاتِ
 أفْهَامُ الدَّهْرِ أَمْ كَلَّتْ سِيوفُهُمْ
 أَمْ كُلُّ مَنْ عَاشَ أَزْوَادُ الْمَنِيَّاتِ
 أَصْبَحَتْ أَرْضِي مِنَ الْأَقْوَامِ بَعْدَهُمْ
 بَسَطَ الْوَجْوهَ وَالْقَاءَ الْقَحِيَّاتِ
 يَا عَيْنِ وَابِكِي أبا الشُّعَثِ الشَّجِيَّاتِ
 يَبْكِيهِ حُسْرًا مِثْلَ الْبَلِيَّاتِ^(١)
 يَبْكِيهِ أَكْرَمَ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
 يُعْوِلْنَهُ بِدُمُوعٍ بَعْدَ عَثَرَاتِ
 يَبْكِيهِ شَخْصًا طَوِيلَ الْبَاعِ ذَا فَجَرٍ^(٢)
 آيِ الْمَضِيْمَةِ فَرَّاحِ الْجَلِيمَاتِ
 يَبْكِيهِ عَمَرُو الْعُلَا إِذْ حَانَ مَصْرُهُ
 تَمْنَحُ السَّجِيْمَةَ بِسَامِ الْعَشِيَّاتِ
 يَبْكِيهِ مَسْتَكِيْفَاتٍ عَلَى حَزَنِ
 يَا طَوْلَ ذَلِكَ مِنْ حُزْنٍ وَعَوَّلَاتِ
 يَبْكِيهِ لَمَّا جَلَّاهُنَ الزَّمَانُ لَهُ
 خُضِرَ الْخُدُودَ كَأَمْثَالِ الْحَمِيَّاتِ^(٣)

(١) البليّات : جم بليّة وهي الناقة التي كانت تعقل عند قبر صاحبها إذا مات حتى تموت
 جوعاً وعطشاً . وكانوا يظنون أنه يحشد عليها .
 (٢) الفجر : العلاء .
 (٣) الحيات : الإبل التي تمنع من الماء .

مُحْتَرَمَاتٍ عَلَى أَوْسَاطِهِنَّ لِيَا
جَرَّ الزَّمَانِ مِنْ أَحْدَاثِ الْمَصِيبَاتِ
أَيْتُ لَيْلِي أَرَايَ النُّجُومَ مِنَ الْمِ
أَبِيكِ وَتَبَكَّى مَعِيَ شَجْوَى بُنْيَاتِي
مَا فِي الْقُرُومِ لَهُمْ عِذْلٌ وَلَا خَطَرٌ
وَلَا لِمَنْ تَرَكَوْا شَرَّوَى بَقِيَّاتِ^(١)
أَبْدَانُهُمْ خ——يُرُ أَبْدَاءُ وَأَنْفُسُهُمْ
خَيْرُ النُّفُوسِ لَدَى جَهْدِ الْإِلَيَّاتِ
كَمْ وَهَبُوا مِنْ طَيْرٍ سَابِحٍ أَرِنِ
وَمِنْ طَيْرٍ نَهَبٍ فِي طَيْرَاتِ^(٢)
وَمِنْ سِوْفٍ مِنَ الْمَنْدَى مُخْلِصَةٍ
وَمِنْ رِمَاحٍ كَأَشْطَانِ الرِّكِيَّاتِ^(٣)
وَمِنْ تَوَابِعٍ مِمَّا يُفَضِّلُونَ بِهَا
عَدَدَ الْمَسَائِلِ مِنْ بَذْلِ الْعَطِيَّاتِ
فَلَوْ حَسَبْتُ وَأَحْصَى الْخَاسِرُونَ مَعِيَ
لَمْ أَحْصِ^(٤) أَفْعَالَهُمْ تِلْكَ الْمَنْيَّاتِ
هُمْ الْمُدِلُّونَ إِمَّا مَعَشَرٌ نَفَرُوا
عَنْدَ الْفَخَارِ بِأَنْسَابِ نَقِيَّاتِ

(١) القُرُومُ : السادات . والعدل : المثل . والفروى أيضا : المثل .

(٢) الطير : الفرس الخفيف ، والأرن : النشيط .

(٣) الأشطان : الحبال ، والركيان : الآبار .

(٤) ابن هشام : لم أفض .

زَيْنُ الْبُيُوتِ الَّتِي خَالُوا مَسَاكِنَهَا
فَأَصْبَحَتْ مِنْهُمْ وَخْشَا خَلِيَّاتِ
أَقُولُ وَالْمَيْنُ لَا تَرَقًا مَدَامُهَا
لَا يُبْعِدُ اللَّهُ أَصْحَابَ الرِّزْيَاتِ

وكان هاشم بن عبد مناف قد قدم المدينة فتزوج بها سلمى بنت عمرو أحد بنى
عدى بن النجار ، وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح فيما ذكر ابن اسحق .
قال : وكانت لا تدرك الرجال لشرفها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إن
كرهت رجلا فارقه .

فولدت لها هاشم بن عبد المطلب فسمته شيبه ، فتركه هاشم عندها حتى كان
وصيفا^(١) أو فوق ذلك .

ثم خرج إليه عمه المطلب ليقبضه فيلحقه ببلده وقومه ، فقالت له سلمى :
لست بمرسلة معك .

فقال لها المطلب : إني غير منصرف حتى أخرج به معي ، إن ابن أخى قد بلغ
وهو غريب في غير قومه ، ونحن أهل بيت شرف في قومنا نلي كثيرا من أمرهم ،
ورحطه وعشيرته وبلده خير له من الإقامة في غيرهم . أو كما قال .

وقال شيبه لعمه المطلب ، فيما يزعمون ، لست بمفارقها إلا أن تأذن لي .
فأذنت له ودفعته إليه ، فاحتمله فدخل به مكة مُرْدِفَهُ على بعيره ، فقالت
قريش : عبد المطلب ابقاه .

(١) الوصيف : الذى بلغ حد الخدمة .

فبها سُمِّي شَيْبَةُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ .

فَقَالَ الْمَطْلَبُ : وَيَحْكُمُ إِنَّمَا هُوَ ابْنُ أَخِي هَاشِمٍ قَدِمْتُ بِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ .
وَذَكَرَ الزَّبِيرُ أَنَّ شَيْبَةَ إِنَّمَا سُمِّيَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، لِأَنَّ عَمَّهُ الْمَطْلَبَ لَمَّا قَدِمَ بِهِ مِنْ
يَثْرِبَ وَدَخَلَ بِهِ مَكَّةَ ضَحْوَةً مُرْدِفَهُ خَلْفَهُ وَالنَّاسُ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ ، قَامُوا
يُرْحَبُونَ بِهِ وَيَقُولُونَ : مَنْ هَذَا مَعَكَ ؟ فَيَقُولُ : عَبْدٌ لِي ابْتَعْتَهُ بِيَثْرِبَ ، فَلَمَّا كَانَ
الْعِشِيَّةَ أَلْبَسَهُ حُلَّةً ابْتِاعَهَا لَهُ ، ثُمَّ أَجْلَسَهُ فِي مَجْلَسِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَأَخْبَرَهُمْ خَبْرَهُ ،
فَجَمَلَ بَعْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ فِي تِلْكَ الْحُلَّةِ فَيَطُوفُ فِي سَكَاكِ مَكَّةَ ، وَكَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ ،
فَيَقُولُونَ : هَذَا عَبْدُ الْمَطْلَبِ . لَقَوْلِ الْمَطْلَبِ فِيهِ ذَلِكَ ، فَلَجَّ اسْمُهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ ،
وَتَرِكَ شَيْبَةُ .

وَكَانَ يُقَالُ لِعَبْدِ الْمَطْلَبِ شَيْبَةُ الْحَمْدِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ شَيْبَةَ لِأَنَّهُ كَانَ فِي ذَوَابِتِهِ
شُعْرَةٌ بَيْضَاءُ .

ثُمَّ وَلِيَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ بْنُ هَاشِمٍ السَّقَايَةَ وَالرَّقَادَةَ بَعْدَ عَمِّهِ الْمَطْلَبِ ، فَأَقَامَهَا لِلنَّاسِ
وَأَقَامَ لِقَوْمِهِ مَا كَانَ آبَاؤُهُ يَقِيمُونَ لِقَوْمِهِمْ مِنْ أَمْرِهِمْ قَبْلَهُ ، وَشَرَّفَ فِي قَوْمِهِ شَرَفًا
لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ آبَائِهِ ، وَأَحْبَبَهُ قَوْمُهُ وَعَظُمَ خَطَرُهُ فِيهِمْ .

وَيُقَالُ : كَانَ يَعْرِفُ فِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ نَوْرَ النُّبُوَّةِ وَهَيْبَةَ الْمَلِكِ .

قَالَ الزَّبِيرُ : وَمَكَارِمُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ أُحِيطَ بِهَا ، كَانَ سَيِّدَ قُرَيْشٍ
غَيْرَ مَدَافِعَ نَفْسًا وَأَبَا وَبَيْتًا وَجَهَالًا وَبَهَاءٍ وَفَعَالًا وَكَلَالًا .

فَصَلَّى اللَّهُ عَلَى الْمُنْتَخَبِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، الْخُصُوصِ بِأَوَّلِيَّةِ الْفَخْرِ وَآخِرِيَّتِهِ ، وَعَلَى
آلِهِ الْأَكْرَمِينَ وَهَوَاتِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

ذكر حفر عبد المطلب زمزم

وما يتوصل بذلك من حديث

مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قد تقدم الخبر عن زمزم أنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام التي سقاها الله حين ظمياً وهو صغير .

وكانت جُرُوم دفنتها حين ظمئوا من مكة بين صمى قريش إساف ونائلة عند مدحّر قريش ، فبقى أسرها كذلك إلى أن أمر عبد المطلب بن هاشم بحفرها .

فذكر ابن إسحق وغيره من حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : قال عبد المطلب : إني لنأثم في الحجر إذ أتاني آت فقال : احفر طيبة . قلت : وما طيبة ؟ ثم ذهب عني .

[فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي ففتمت فيه ، فجاءني فقال احفر بركة . فقلت : وما بركة ؟ ثم ذهب عني]^(١) .

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي ففتمت فيه ، فجاءني فقال : احفر المضمونة . قلت : وما المضمونة ؟ ثم ذهب عني .

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي ففتمت فيه فجاءني فقال : احفر زمزم . قلت : وما زمزم ؟

(١) من ابن هشام .

قال : لا تُنزف أبداً ولا تُنذَم^(١) ، تَسْقِي الحَجِيجَ الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نَقْرَةِ الغراب الأعصم عند قرية النمل^(٢) .

فلما بَيَّن له شأنها ودُلَّ على موضعها وعرف أنه قد صَدِيق ، غَدَا بِمَعُولِهِ ومعه ابنه الحارث ، ليس له يومئذٍ ولدٌ غيره .
فلما بَدَأ لعبد المطلب الطُّى كَهْر .

فمرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه ، فقالوا يا عبد المطلب ، إنها بئرُ أَيْدِنَا لإسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها .

قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر خُصِمْتُ بِهِ دونكم وأعطيتُهُ من بينكم .

قالوا له : فأَنْصِفْنَا ، فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها .

قال : اجعلوا بيني وبينكم مَنْ شِئْتُمْ نَحَاكُمْ إِلَيْهِ .

قالوا : كاهنةُ بَنِي سَعْدِ بْنِ هُذَيْمٍ^(٣) ، قال : نعم . وكانت بِأَشْرَافِ الشَّامِ .

فركب عبد المطلب ومن نَفَرٌ مِنْ بَنِي أَبِيهِ مِنْ بَنِي عَهْدِ مَنَافٍ ، وركب من كل قبيلة من قريش نَفَرٌ . قال : والأَرْضُ إِذْ ذَاكَ مَفَاوِزُ .

قال : فخرجوا حتى إِذَا كَانُوا بِيَمَاضِ تِلْكَ الْمَفَاوِزِ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ فَنِي مَاءِ عَهْدِ الْمَطْلَبِ وَأَصْحَابِهِ ، فَظَمُوا حَتَّى أَيْقَنُوا بِالْهَلَكَةِ ، فَاسْتَسْقَوْا مَنْ مَعَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ ، وَقَالُوا : إِنَّا بِمَفَارَةٍ وَنَحْنُ نَخْشَى عَلَى أَنْفُسَا مِثْلَ مَا أَصَابَكُمْ .

(١) لا تنزف : لا يفرغ ماؤها ، ولا يذم لا يقل ماؤها .

(٢) ذكر السهيلي في الروض الأنيب تعليلاً لهذه الأوصاف ومناسبتها لزمزم وأوصافها .

(٣) في الطبري : سعد هذيم .

فلما رأى عبدُ المطلب ما صنع القومُ وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال :
ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأينا إلا تتبعُ رأيك ، فمُرنا بما شئت .

قال : فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حُفْرته لنفسه بما بهكم الآن من القوة ،
فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلاً
واحداً ، فضيعةُ رجل واحد أيسرُ من ضيعة ركبٍ جميعاً .

قالوا : نَعَمْ ما أمرتَ به ، فقام كل رجل منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا
ينتظرون الموت عطشاً .

ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا الموت
لا نضرب في الأرض ولا نبني لأنفسنا لَمَجْزُ ، فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض
البلاد ، ارتحلوا .

فارتحلوا ، حتى إذا فرغوا ، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم
فاعلون ، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجرت من
تحت خُفِّها عَيْنٌ من ماء عَذْب ، فسكَّبر عبد المطلب وكبَّر أصحابه ، ثم نزل
فشرب وشرب أصحابه واستَقَوْا حتى ملأوا أَسْقِيَتِهِمْ .

ثم دعا القبائل من قريش ، فقال : هَلُمُّوا إلى المساء فقد سقانا الله فاشربوا
واستَقُوا .

فجاءوا فشرَبوا واستَقُوا ، ثم قالوا : قد والله قُضِيَ لك علينا يا عبد المطلب ،
والله لأنحكاجُك في زمزم أبداً ، إن الذي سقاك المساء بهذه الغلاة لهم الذي سقاك
زمزم ، فارجع إلى سقايك راشداً .

فرجع ورجعوا معه ولم يَصِلُوا إلى السكاهنة وخالوا بينه وبينها .

وفي غير حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، أن عبداً المطلب قيل له حين
أمر بمحضر زمزم :

ثم ادعُ بالماء الزوى غير السكدر
بَسَقِ حجيجَ الله في كل مَبَرَّةٍ
ليس يُخاف منه شيء ما عَمَرَ

فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش ، فقال : تَعَلَّمُوا أَنَّى قد أمرت
أن أحفر لكم زمزم ، فقالوا : فهل بُيِّن لك أين هي ؟ قال لا . قالوا : فارجع إلى
مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت فإن يَكُ حقاً من الله يبين لك ، وإن يك
من الشيطان فلن يعود إليك .

فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه فأُتِيَ فقيل له :
احفر زمزم ، إنك إن حفرتها لم تندم ، وهى تراثٌ من أبيك الأعظم
لا تنزف أبداً ولا تُندَم ، تسقى الحجيج الأعظم ، مثلَ نعام حافل^(١) لم يُقسم ،
ينذر فيها ناذرٌ لمنعم ، تكون ميراثاً وعقداً مُحْكَم ، ليست كبعض ما قد تعلم ،
وهى بين الفرث والدم .

فزعموا أنه حين قيل له ذلك قال : وأين هى ؟ قيل : عند قرية النمل حيث
ينقر الغراب غداً .

فإذا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره ، فوجد قرية
النمل ووجد الغراب ينقر عندها ، بين الوثنين لمساف ونائلة اللذين كانت قريش
تفخر عندهما ذبايحهم .

(١) حافل كثير . :

فجاء بالمعول وقام ليحفّر حيث أمر ، فقامت إليه قريش حين رأوا جده ، فقالوا : والله لا نتركك تحفر بين وتذينا هذين اللذين نندحر عندهما . فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذبّ عني فوالله لأمضين إِمّا أمرت به .

فلما عرفوا أنه غير نازع خلّوا بينه وبين الحفر وكفّوا عنه ، فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطيّ ، فكبّر وعرف أنه قد صدق ، فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب ، وهما الغزالان اللذان دفنت جُرم فيها حين خرجت من مكة ، ووجد فيها أسيافاً قَدَمِيَّةً^(١) وأدراهما .

فقات له قريش : يا عبد المطلب لنا معك في هذا شركٌ وحقّ ، قال : لا ، ولكن هلموا إلى أمرٍ نصّف بيني وبينكم ، يضرب عليها بالقِداح . قالوا : وكيف نصنع ؟ قال : أجعل للكعبة قِدْحين ولى قِدْحين ولكم قِدْحين ، فمن خرج قِدْحاه على شيء فهو له^(٢) ومن تخلف قِدْحاه فلا شيء له ، قالوا : أنصفت .

فجعل قِدْحين أخضرين للكعبة ، وقِدْحين أسودين لعبد المطلب ، وقِدْحين أبيضين لقريش .

ثم أعطوا القداح [صاحب القداح الذي]^(٣) يضرب بها عند هُبَل ، وهُبَل صنم في جوف الكعبة ، وهو أعظم أصنامهم ، وهو الذي عني^(٤) أبو سفيان بن حرب لما نادى^(٤) يومَ أحد : اعلُ هُبَل ، أي ظهر دينك^(٤) .

(١) نسبة إلى القلعة ، بلد بالهند .

(٢) ابن هشام : كان له . (٣) من ابن هشام

(٤) ابن هشام : يسي ، قال ، أظهر .

وقام عبد المطلب يدعو الله ، وضرب صاحبُ القِدَاح ، فخرج الأصغران على الغزاليين ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب ، وتحلف قَدْحا قريش .

فضرب عبد المطلب الأسيافَ باباً للكمة ، وضرب في الباب الغزاليين من ذهب ، فسكان أولَ ذهب حُلَيْمَتِ الكمة ، فيما يزعمون .

وذكر الزبير أن عبد المطلب لما أنبَطَ المساء في زمزم حفرها في القرار ثم بَحَرَها حتى لا تَنَزِفَ ، ثم بنى عليها حوضاً فطفق هو وابنه يَنَزِعَان عليها فيملآن ذلك الحوض ، فيشرب منه الحاج .

وكان قومٌ حَسَدَةُ من قريش لا يزالون يكسرون حوضه ذلك بالليل ويغتسلون فيه ، فيُصْلِحُه عبد المطلب حين يصبح .

فلما أكَثَرُوا فساده دعا عبدُ المطلب ربَّهُ ، فقيل له في المنام : قل :
اللهم إني لا أُحِلُّها لمغتسل ، وهى لشاربٍ حِلٌّ وَبَلٌّ .

فقام عبد المطلب في المسجد فنادى بالندى أرى ، ثم انصرف فلم يكن يفسد حوضه ذلك عليه أحد من قريش أو يغتسل فيه إلا رُمِيَ في جسده بداء ، حتى تركوا حوضه ذلك وسقايقه فَرَقًا .

وذكر الزبير أيضاً أن عبد المطلب لما حفر زمزم وأدرك منها ما أدرك وجدت قريش في أنفسها مما أُعْطِيَ ، فلقية خويلد بن أسد بن عبد العزى ، فقال : يا بن سلمى لقد سَقَيْتَ ماء رَغْدًا وَنَثَلْتَ عَادِيَةَ حُتْدًا^(١) ، قال : يا بن أسد ، أما إنك

(١) نثلت: حفرت. والعادية : القديمة كأنها منسوبة إلى عاد ، والمتد : التي لا يحف ماؤها

تشارك في فضائلها ، والله لا يساعفني أحدٌ عليها بهر ولا يقوم معي بأزر إلا بذات
له خيراً لصيهر .

فقال خويلد بن أسد :

أقول وما قولي عليهم بسُنَّةٍ
إليك ابن سَلَمَى أنت حافرُ زمزمِـ
حفيرة إبراهيم يوم ابن آجرِـ
وركنة جبريل على عهد آدمِـ

فقال عبد المطلب : ما وجدتُ أحداً ورث العلمَ الأقدم غير خويلد بن أسد .

ثم إن عبد المطالب أقام سقايةً زمزم للحجاج ، وكانت قريش قبل حفر زمزم
قد احتفرت بئارا بمكة ، وكانت خارجا من مكة آبارُ حفاير قديمة من عهد مُرَّة بن
كعب وكلاب بن مُرَّة وكبراء قريش الأول ، منها يشربون ، فعَفَّت زمزمُ على
تلك البئار التي كانت قبلها يُسقى عليها الحاج .

وانصرف الناس إليها لمسكاتها من المسجد الحرام ، ولفضائلها على ماسواها من
المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وافتخرت بها بنو عبد مناف
على قريش كلها وعلى سائر العرب .

[نذر عبد المطلب]

وكان عبد المطلب فيما يزعمون ، والله أعلم ، قد نَذَرَ حين لقي من قريش ما لقي
عند حفر زمزم : لئن وُلِدَ له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى ينعوه ، لينحرنَّ أحدهم
لله عز وجل عند الكعبة .

فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء به ، فأطاعوه وقالوا : وكيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قِدْحاً ثم يكتب اسمه فيه ثم ائتموني ففعلوا ، ثم أتوه فدخل بهم على هيكل في جوف السكبية ، وكان على بئر في جوف السكبية ، فيها يُجمع ما يهدى للسكبية ، وكان عند هُبل قِدْحٌ سبعةٌ بها يضربون على ما يريدون ، إلى ما تخرج به القداح ينتهون في أمورهم .

فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بَنِي هُؤْلَاءِ بِقِدَاحِهِمْ هذه . وأخبره بنذره الذي نذر ، وأعطاه كل رجل منهم قِدْحَهُ الذي فيه اسمه . وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب بنى أبيه إليه ، فيما يزعمون ، فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أشوى^(١) .

فلما أخذ صاحبُ القِدَاحِ القِدَاحَ لِيَضْرِبَ بها ، قام عبد المطلب عند هُبل يدعو الله ، ثم ضرب صاحبُ القداح ، فخرج القِدْحُ على عبد الله ، فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أُنْدِيتِها وقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه . فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعْذِرَ فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه فما بقاء الناس على هذا ؟

وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وكان عبد الله ابن أخت القوم أمه وأم أخويه الزبير وأبي طالب فاطمة بنت عمرو بن عاصم بن عبد بن عمران ابن مخزوم : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعْذِرَ فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

(١) أشوى بشين معجمة : يقال : رمى فأشوى إذا لم يصب المقتل . وقال الخشني : يقال أشويت في العلم إذا أقيمت منه .

وقالت له قريش وبدوه : لا تفعل وانطلق إلى الحجاز فإن بها عرافة لها تابع ، فأسألهما
ثم أنت على رأس أسرك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك وله فيه
فرَج قبلته .

فانطلقوا حتى قدموا المدينة ، فوجدوها فيما يزعمون ، بخير ، فركبوا حتى
جاءوها فأسألوها ، وقصَّ عليها عهدُ المطلب خبره وخبر ابنه وما أراد به ونذره فيه
فقالته له : ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله .

فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبدالمطلب يدعو الله ، ثم غدوا عليها
فقالته لهم :

قد جاءني الخبر ، كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل ، وكانت كذلك
قالت : فارجموا إلى بلادكم ثم قرّبوا صاحبكم وقرّبوا عشرة من الإبل ،
ثم اضربوا عليه وعليها بالقدّاح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل
حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم
ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا ذلك من الأمر قام عهد المطلب
يدعو الله ، ثم قرّبوا عهد الله وعشرا من الإبل ، وعهد المطلب عند هُبل
يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدحُ على عهد الله ، فزادوا عشرا من الإبل ،
فبلغت الإبل عشرين ، وقام عهد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدحُ
على عهد الله ، فزادوا عشرا من الإبل ، وما زالوا كذلك يزيدون عشرا فعشرا
من الإبل ويضربون عليها ، كل ذلك يخرج القدح على عهد الله ، حتى بانتهت
الإبل مائة من الإبل ، وقام عهد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدحُ على
الإبل ، فقامت قريش : قد انتهى ، رضى ربك يا عهد المطلب .

فزعوا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ،
فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، فخرج القِدْحُ
على الإبل ، ثم عادوا الثانية والثالثة وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فخرج القِدْحُ
في كليهما على الإبل .

ففُحِرت ، ثم تركت لا يُصد عنها إنسان ولا يُمنع .

ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله ، فز به ، فيما يزعمون ، على
امرأة من بنى أسد بن عبد العزى ، وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد ، وهى
عند الكعبة .

قال الزبير : وكان عبد الله أحسن رجل رُئى فى قريش قط ، فقالت له
حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله . قال : مع أبى . قالت : لك مثل
الإبل التى نُحِرت عنك وقَعَّ على الآن ، قال : أنا مع أبى ولا أستطيع
خلافه ولا فراقه .

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب
ابن مرة ، وهو يومئذ سيد بنى زهرة سناً وشرفاً ، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب
وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعا .

فزعوا أنه دخل عليها حين أملىكها مكانه فوقع عليها فحملت برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عَرَضَتْ عليه ما عَرَضَتْ ،
فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما عرضت بالأمس ، قالت له : فارتك
الدور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ، وقد كانت

تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ، وكان تنصّر وتبع السكّاب ، أنه كان
في هذه الأمة نبي^(١) .

ويقال إن عبد الله إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة ابنة وهب ، وقد
عمل في طين له وبه آثار من الطين ، فدعاها إلى نفسها ، فأبطأت عليه لمّا
رأت به من آثار الطين ، فخرج من عندها ، فتوضأ وغسل ما كان به من
ذلك ، ثم خرج عائداً إلى آمنة ، فمرّ ب تلك المرأة فدعته إلى نفسها فأبى
عليها ، وعمد إلى آمنة فدخل عليها فأصابها ، فحملت بمحمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ثم مرّ بأمراته تلك فقال لها : هل لك ؟ قالت :
لا ، مررت بي وبين عينيكَ غرة فدعوتك فأبيت ، ودخلت على آمنة
فذهبت بها .

فزعوا أن امرأته تلك كانت تحدّث : أنه مرّ بها وبين عينيهِ مثل غرة
الفرس ، فدعوته رجاء أن تكون تلك بي ، فأبى على ودخل على آمنة فأصابها
فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوَسَطَ قومه نسباً ، وأعظمهم شرفاً ،
من قبل أبيه وأمه صلى الله عليه وسلم .

ويزعمون فيما يتحدث الناس ، والله أعلم ، أن أمه كانت تحدّث أنها أتيت
حين حملت به ، فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى
الأرض فقولى :

(١) هذه الرواية لا تؤدى الهدف الذى قصده واضعوها ، والمعروف أن آباء النّبي لم يكن فيهم
من يرضى بالربنا أو يتوق اليه كما دلت عليه أحاديث صحيحة ، والمعروف أن النبوة لم تكن
لرثا من عبد الله لمحمد صلى الله عليه وسلم .

— ١٦٦ —

أَعْيَذُهُ بِالْوَحْدِ مِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ

ثُمَّ سَمِّيَهُ مُحَمَّدًا .

ثُمَّ لَمْ يَلِدْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ ، أَبُو رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنْ هَلَكَ وَأُمُّهُ حَامِلٌ بِهِ .

هَذَا قَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ . وَخَالَفَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، فَقَالُوا : إِنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي الْمَهْدِ حِينَ تَوَفَّى أَبُوهُ . ذَكَرَهُ الدُّوْلَابِيُّ وَغَيْرُهُ . وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ أَنَّهُ كَانَ ابْنُ شَهْرَيْنَ ، وَقِيلَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

[ولادة النبي]

وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل قيل : بعد الفيل بخمسين يوماً^(١) .

وحكى الواقدي عن سليمان بن سُهَيْم قال : كان بمكة يهودى يقال له يوسف ، فلما كان اليوم الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يعلم به أحد من قريش قال : يا معشر قريش قد ولد نبي هذه الأمة فى بحر تكم هذه اليوم . وجعل يطوف فى أنديتهم فلا يجد خبراً ، حتى انتهى إلى مجلس عهد المطلب فسأل فقيل له : ولد لابن عهد المطلب غلام . فقال : هو نبي^٢ والتوراة .

وقال : حسان بن ثابت : والله لى لغلام يفعه ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما أسمع إذ سمعت يهوديا يصرخ على أطمه بيثرب : يا معشر يهود . حتى إذا اجتمعوا قالوا له : ويلاك ! مالك ! قال : طلع الليلة نجم أحد الذى ولد به .

وذكر ابن السكك من حديث عثمان بن أبى العاص عن أمه فاطمة بنت عهد الله ، أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً .

قالت : فما نبي أنظر إليه من البيت إلا نور ، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول لتقعن^٣ على .

وذكر ابن تخذ فى تفسيره أن إبليس رن أربع رنات ، رنة حين لعن ،

(١) وذلك سنة ٥٧٠ م قال الطبرى : وكان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهد كسرى أنو شروان عام قدم أبرهة الأشرم .. وذلك لمضى اثنتين وأربعين سنة من ملك كسرى أنو شروان ، وفى هذا العام كان يوم جيلة وهو يوم من أيام العرب المذكور. الطبرى ١٩٩ طبع أوربا .

ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورنة حين أنزلت
فاتحة الكتاب !

قال ابن إسحق : فلما وضعت أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك
غلام ، فأتته فانظر إليه . فأتاه ونظر إليه ، وحدثته بما رأت حين حملت به ،
وما قيل لها فيه ، وما أمرت أن تسميه .

فیزعمون أن عبد المطلب أخذه فدخل به الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له
ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها .

ويروى أن عبد المطلب إنما سماه محمدا لرؤيا رآها .

زعموا أنه أرى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في
السما وطرف في الأرض وطرف في المشرق وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها
شجرة على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها .

فقصها فعبّرت له بمولود يكون من صلبه يتقبّله أهل المشرق والمغرب ويحمّده
أهل السماء والأرض . فلذلك سماه محمداً ، مع ما حدثته أمه .

[من سُمّي محمداً قبله]

ولا يعرف في العرب أحد تسمّى بهذا الاسم قبله ، سوى نفر سُموا به من أجله
منهم محمد بن سفيان بن نجاشع النخعي ، ومحمد بن أبيحة بن الجلاح ، وآخر
من ربيعة .

وكان آباؤهم قد وفدوا على بعض الملوك ممن كان عنده علم بالكتاب الأول ،
فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وتقرّب زمانه ، وباسمه ، وكان كل واحد
منهم قد خلف امرأته حاملاً ، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر أن يسجّيه محمداً .

ففعلوا ذلك رجاء أن يكونه .

والله أعلم حيث يجعل رسالاته .

وقد وقع في مواضع أخرى أن هؤلاء الغفركا نوا أربعة ، ولم يذكر فيهم محمد بن أحبيحة ، وحديثهم يخالف لما ذكرناه خلافاً يسيراً .

روينا من حديث عبد الملك بن أبي سوية عن أبيه عن جده قال : سألت محمد بن عبد الله بن ربيعة : كيف سماك أبوك محمداً ؟ فقال : سألت أبي عما سألتني عنه ، فقال : خرجت رابعاً أربعة من بني تميم أنا فيهم ، وسفيان بن مجاشع بن دارم وأسامة بن مالك بن خندف ويزيد بن ربيعة ، نريد ابن جندفة ملك غسان فلما شارفنا الشام نزلنا إلى غدير عليه شجرات وقربه شخص ناه ، فتحدثنا فاستمع كلامنا وأثرف علينا فقال : إن هذه لغة ما هي لغة أهل هذه البلاد . فقلنا : نحن قوم من مضر قال : من أي المضمرين ؟ قلنا : من خندف . قال : أما إنه يُبعث فيكم وشيكا نبي خاتم النبيين فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه تَرشُدوا .

فقلت له : ما اسمه ؟ قال : محمد فرجعنا من ابن جندفة فولد لكل رجل منا ابن سماه محمداً .

[الرضاعة]

والتَّمَسُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرضعاء ، فاسترضع له من امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها حليلة بنت أبي ذؤيب .

وكانت تحدث أمها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها ترضعه ، في نسوة من بني سعد بن بكر التَّمَسُّ الرضعاء . قالت : وفي سنة شهباء لم تُبقِ لنا شيئاً .

قالت : فخرجتُ على أتانٍ لى قَمَرَاءَ معنا شارف^(١) لنا ، والله ما تَبِضُ^(٢) بقطارة ولا نَافِمْ^(٣) لِيَاقَتَنَا أَجْمَعَ مِنْ صَبِينَا الَّذِى مَعَنَا مِنْ بَكَائِهِ مِنَ الْجُوعِ ، مَا فِى تَدْنِى مَا يَغْذِيهِ وَمَا فِى شَارِفِنَا مَا يَغْذِيهِ ، وَلَكِنَّا نَرْجُو الْغَيْثَ وَالْفَرَجَ .
فخرجتُ على أتانى تلك ، فَلَقَدْ أَذْمَتُ بِالرَّكْبِ^(٤) حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، ضَعْفًا وَتَجَفًّا .

حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ نَلْتَمِسُ الرُّضْعَاءَ ، فَمَامَنَا امْرَأَةٌ إِلَّا وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَأَبَاهُ إِذَا قِيلَ لَهَا إِنَّهُ يَتِيمٌ ، وَذَلِكَ أَنَّآ إِنَّمَا كُنَّا نَرْجُو الْمَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ ، فَكُنَّا نَقُولُ : يَتِيمٌ مَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجَدُّهُ ! ! فَكُنَّا نَسْكُرُهُ لذلِكَ .

فَمَا بَقِيَتْ امْرَأَةٌ قَدِمَتْ مَعِى إِلَّا أَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِى .
فَلَمَّا أَجْمَعْنَا الْإِنْفِلَاقَ قُلْتُ لِمَ صَاحِبِ : وَاللَّهِ إِنِّى لَا أَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِى وَلَمْ أَخْذِ رَضِيعًا ، وَاللَّهِ لَأُذْهِبَنَّ إِلَى ذلِكَ الْيَتِيمِ فَلَأُخْذَنَّهُ .
قَالَ : لَا عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً .
قَالَتْ : فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَأَخَذْتُهُ ، وَمَا حَمَانِى عَلَى أَخْذِهِ إِلَّا أَنِّى لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ .
فَلَمَّا أَخَذْتُهُ رَجَعْتُ بِهِ إِلَى رَحْلِى ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُ فِى حَجْرِى أَقْبَلَ عَلَيْهِ تَدْيَاى بِمَا شَاءَ مِنْ لبنٍ ، فَشَرِبَ حَتَّى رَوَى وَشَرِبَ مَعَهُ أَخُوهُ حَتَّى رَوَى . ثُمَّ نَامَا وَمَا كُنَّا نَنَامُ مَعَهُ^(٥) قَبْلَ ذلِكَ . وَقَامَ زَوْجِى إِلَى شَارِفِنَا ذلِكَ فَإِذَا لَهَا لَحَافِلُ ، فَحَلَبَ مِنْهَا مَا شَرِبَ وَشَرِبْتُ حَتَّى اتَّهَيْفْنَا رِيًّا وَشَبَعًا .

(١) الْقَمَرَاءُ : الَّتِى يَعْمَلُ لَوْنُهَا إِلَى الْخَضْرَاءِ . وَالشَّارِفُ : النَّاقَةُ الْمُسْنَةُ .

(٢) مَا تَبِضُ : مَا تَرْشِجُ .

(٣) ابْنُ هَشَامٍ : وَمَا .

(٤) أَى تَأَخَّرَتْ بِهِمْ .

(٥) تَرِيدُ ابْنُهَا الرُّضْعَةَ الَّتِى نَحْدُثُ عَنْدهَا قَبْلَ .

فبقيت بنا خير ليلة ، يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليلة لقد أخذت نَسْمة مباركة ! قلت : والله إنني لأرجو ذلك .

ثم خرجنا ، وركبت أتانى وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ، ما يقدر على شيء من حيرهم ، حتى إن صواحي ليقلن : يا بنت أبي ذؤيب ويحك ! اربعي علينا ! أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ ! فأقول لمن : بلى والله إنها لمي . فيقلن : والله إن لها شأنًا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بنى سعد ، ولا أعلم أرضا من أرض الله أجذبَ منها ، فكانت غمى تروح على حين قدمنا به معها شبعاها لُبْنًا ، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يحمدها في ضرع ، حتى كان الحاضر^(١) من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعا ما تبضُّ بقطرة لبن وتروح غمى شبعا لُبْنًا .

فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتان وفصلتني .

وكان يشبُّ شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جَوْرًا^(٢) .

فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا ، لِمَا كنا نرى من بركته .

فكلامنا أمه وقلت لها : لو تركت بني عندي حتى يَمْلُظ ، فإني أخشى عليه وباء مكة .

(١) ابن هشام : الحاضر .

(٢) الجفر الفليظ العديد .

— ١٧٢ —

فلم نزل بها حتى ردته معنا ، فرجعنا به .

[شق الصدر]

فوالله إنه بعد مَقْدَمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم^(١) لنا خاف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لي ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا فشقنا بطنه فهما بسوطانه^(٢) .

قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما ممعما وجهه .

قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا : مالك يا بنى ؟

قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا فشقنا بطنى فالتسنا فيه شيئا لا أدري ما هو .

قالت : فرجعنا به إلى خبائنا وقال لي أبوه : يا حليلة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به .

قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت : ما أقدمك به يا غلتر^(٣) ولقد كنت حريصة عليه وعلى مكانه عندك ؟

قلت : قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى على ، ونحوفت الأحداث عليه ، فأدبته عليك كما تحبين .

قالت : ما هذا شأنك ، فأصدفنى خبرك .

(١) البهم : الصغار من النعم

(٢) يسوطانه : يحطمانه .

(٣) الغلتر : الحاصنه المرصعة

قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها .

قالت : أفترخفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم .

قالت : كلاً والله ما للشيطان عليه سبيل ، وإن لبني لشأنا ، أهلاً أخبرك خبره قلت : بلى .

قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام .

ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من تحمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وأنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء .
دعاه عنك وانطلق راشدة .

ويروى أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له :
يا رسول الله : أخبرنا عن نفسك .

قال : « نعم : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بن مريم ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر .

بينما أنا مع أخ لي خلف ييوتنا نرعى بهنماً لنا ، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطأست من ذهب مملوءة ثلجاً ، فأخذاني^(١) فشقا بطنى ثم استخرجوا قلبي فشقه فاستخرجوا منه علة سوداء فطرحوها ثم غسلوا قلبي وبطنى بذلك الثالج حتى أنباه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنيه بعشرة من أمته^(٢) فوزنتهم . ثم قال زنيه بمائة من

(١) ابن هشام : ثم أخذاني .

(٢) ابن هشام : فوزني بهم .

أُمته . فوزني بهم فوزتهم . ثم قيل : زنه بألف من أُمته . فوزتهم . فقال :
دَعَه عَنكَ ، فلو^(١) وزنته بأُمته لوزنها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من نبي إلا وقد رَعَى الغنم . قيل :
وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا .

وكان يقول لأصحابه : أنا أغرُّ بكم ، أنا قُرْشِي واسترضيت في بني سعد
ابن بكر .

وزعم الناس فيما يتحدثون ، والله أعلم ، أن أُمه السَّعْدِيَّة لما قدمت به مكة
أضناها في القاس وهي مقبلة به نحو أهله ، فالتمسته فلم تجده ، فأنت عبد المطلب
فقال له : إني قدمت بمحمد هذه الليلة فلما كنت بأعلى مكة أضاني ، فوالله
ما أدرى أين هو .

فقام عبد المطلب عند السَّكْبَةِ يدعو الله أن يرده ، فيزعمون أنه وجد ورقة
بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به عبد المطلب فقالا : هذا ابنك وجدناه
بأعلى مكة . فأخذه عبد المطلب فجعله على عنقه وهو يطوف بالسَّكْبَةِ يعوِّذه
ويدعوه له . ثم أرسل به إلى أُمته .

وذكر بعض أهل العلم أن مما هاج أُمه السَّعْدِيَّة على رده ، ما ذكرت لأُمه
ما أخبرتها عنه ، أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد
فطامه ، فنظروا إليه وسألوها عنه ، وقلَّبوه ، ثم قالوا لها :
لناخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى مَلِكِكنا وبلدنا ، فإن هذا غلام كأن له
شأن نحن نعرف أمره . فلم تكذب تفقأت به منهم .

وذكر الواقدي أن أُمه حليلة السَّعْدِيَّة بعد أن رجعت به من عند أُمه حضرت

(١) ابن هشام : فوالله لو .

به سوق ذى الحجاز ، وبها يومئذ عراف من هوازن يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم ، فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الحمرة فى عينيه وإلى خاتم النبوة ، صاح : يا معشر العرب فاجتمع إليه أهل الموسم ، فقال : اقتلوا هذا الصبي . وانسلت به حليلة . فجعل الناس يقولون : أى صبي هو ؟ فيقول : هذا الصبي . فلا يرون شيئاً ، قد انطلقت به أمه ، فيقال له : ما هو ؟ فيقول : رأيت غلاماً ، وآلمته ، ليمخلين أهل دينكم وليكسرن أصدانكم وليظهرون أمره عليكم . فطُلب بمكاظ فلم يوجد .

ورجعت به حليلة إلى منزلها ، فكانت بعد هذا لا تمرضه لأحد من الناس .

ولقد نزل بهم عراف ، فأخرج إليه صبيان أهل الحاضر ، وأبّت حليلة أن تخرجه إليه ، إلى أن غفلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج من المظلة فرآه العراف فدعاه فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل الخيمة ، فجهد بهم العراف أن يخرج إليه فأبّت . فقال : هذا نبي .

وقد عرض له أبو طالب على عائف من لُهب ، كان إذا قدم من مكة أتاه رجال قريش بنملانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم ، فأتاه به أبو طالب وهو غلام مع من يأتيه ، قال : فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شغله عنه شيء فقال : الغلام على به . فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيَّبه ، فجعل يقول : ويلكم ردّوا على الغلام الذى رأيت آنفاً ، فوالله ليكونن له شأن .

وانطلق به أبو طالب .

وكانت حليلة بعد رجوعها به من مكة لا تدّعه أن يذهب مكاناً بعيداً . فنفتات عنه يوماً فى الظلمة ، فخرجت تطلبه حتى تجده مع أخته . فقالت : فى هذا

الحر ؟ فقالت أخته : يا أمه ، ما وجد أخى حرّاً ، رأيت غمامة تظال عليه . إذا وقف وقفت وإذا سار سارت ، حتى انتهى إلى هذا الموضع .

تقول أمها : أحقّ يا بنية ؟ قالت : إى والله . قال : تقول حليلة : أعود بالله من شر ما يُخَذَّر على ابني .

فكان ابن عباس يقول : رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين .

وكان غيره يقول : رجع إليها وهو ابن أربع سنين .

هذا كله عن الواقدي .

[وفاة أمه وكفالة جده]

قال ابن إسحق : فكان النبي صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة وجده عبدالمطلب في كلاءة الله وحفظه ، يُنبئهم الله نبأنا حسناً لما يريد به من كرامته .

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه بالأبواء بين مكة والمدينة .

وكانت قد قدمت به إلى أخواله من بنى عدى بن النجار تُزَيِّره إياهم ، فماتت وهي راجعة به إلى مكة .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبدالمطلب .

وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجاس عليه أحد من بنيهِ لإجلال له . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جَفَرٌ حتى يجاس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دَعُوا ابني فوالله إن له لشأناً .

ثم يُجَنِّسُه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسرُّه ما يراه يصنع .

قالوا : وكانت أمُّ أيمن تحدِّث تقول : كنت أحضن رسول الله صلى الله عليه وسلم فغفلت عنه يوما فلم أذرِ إلا بعبد المطلب قائما على رأسي يقول : يا بَرَكة ، قلت : لبيك ، قال : أتدريين أين وجدت ابني ؟ قلت : لا أدري . قال : وجدتُه مع غلمان قريبا من السُّدرة ، لا تغفلي عن ابني ، فإن أهل السُّكَّاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة ، وأنا لا آمن عليه منهم .

وكان لا يأكل طعاما إلا قال : علىَّ يا بني . فيؤثي به إليه .

وحدِّث كعب بن مالك عن شيوخ من قومه أنهم خرجوا محمَّارا ، وعبدُ المطلب يومئذ حىٌّ بمكة ، ومعهم رجل من يهود تيماء ، صجهم للتجارة يريد مكة أو اليمن ، فنظر إلى عبد المطلب ، فقال : إنا نجد في كتابنا الذي لم يبدل أنه يخرج من ضئضئ^(١) هذا نبيٌ يقتلنا وقومه قتلَ عاد .

وجلس عبدُ المطلب يوما في الحِجْر وعنده أسقف نجران ، وكان صديقا له ، وهو يحدِّثه وهو يقول : إنا نجد صفة نبي يبقَى من ولد إسماعيل ، هذه مولده ، من صفته كذا وكذا .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الحديث ، فنظر إليه الأسقف وإلى عينيهِ وإلى ظهره وإلى قدميه ، فقال : هو هذا . فقال : الأسقف : ما هذا منك ؟ قال : ابني . قال الأسقف : لا ، ما نجد أباه حيا . قال عبد المطلب : هو ابن ابني مات أبوه وأمه حبلى به . قال : صدقت . قال عبد المطلب : تحفظوا يا بني أخيكُم ، ألا تسمعون ما يقال فيه ؟ !

(١) الضئضئ* : الأصل .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً يلعب مع الغلمان حتى بلغ الرّدم ،
فرآه قوم من بني مُذَلْج فدَعَوْهُ ، فنظروا إلى قدميه وإلى أثره ، ثم خرجوا
في طلبه حتى صادفوا عبدَ المطلب قد لقيه فاعتنقه ، فقالوا لعبد المطلب : ما هذا
مذك ؟ قال : ابني . قالوا : فاحتفظ به ، فإننا لم نَرَ قدماً قط أشبه بالقدم الذي
في المقام من قدمه .

فقال عبد المطلب لأبي طالب : اسمع ما يقول هؤلاء . فكان أبو طالب
يحفظ به .

وقد روى أبو داود السُّجِسْتَانِي من حديث ابن عباس ، قال : أتى
نفر من قريش امرأةً كاهنةً ، فقالوا : أخبرينا بأقربنا شَبْهاً بصاحب
هذا المقام .

قالت : إن جرّزتم على السَّهْلَةِ عبادةً ومشيتم عليها أنبأتكم بأقربكم
شَبْهاً به .

فجرّزوا عليها عبادةً ، ثم مشوا عليها ، فرأت أثرَ قدم محمد صلى الله عليه وسلم ،
فقالت : هذا والله أقربكم شَبْهاً به .

قال ابن عباس : فكثروا بعدُ عشرين سنةً ، ثم بعث محمد صلى الله
عليه وسلم .

[بشارة سيف بن ذى يَزَنَ بالنبي]

ولما ظهر سيفُ بن ذى يزن على الحبشة ، وذلك بعد مولد النبي صلى الله
عليه وسلم أتته وفودُ العرب وأشرافها وشعراؤها يهنئونه ويمدحونه ويذكرون
من حسن بلائه وطلبه بشار قومه .

فأتاه وفد قريش وفيهم عهد المطلب بن هاشم في أناس من وجوه قريش ،
فقدّموا عليه صنعا فأذن لهم ، فلما دخلوا عليه دنا عهد المطلب منه
فاسأذنه في الكلام ، فقال : إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد
أذِنَّا لك .

فقال عهد المطلب : إن الله قد أحلك أيها الملك تحلاً رفيعا صنعا مديعا ،
شامخا باذخا ، وأنبتك متبعا طابت أرومته وعزّت جرثومتها ، وثبت أصله ،
وبسّق قرعته ، في أكرم موطن ، وأطيب معدن .

وأنت أيها الملك رأس العرب الذي به تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ،
ومتّعلها الذي يلجأ إليه العباد ، سلفك لك خير سلف ، وأنت لنا فيه خير
خلف ، فلم يتحمل من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه ، نحن أيها الملك
أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجنّا بكشف السكرب الذي
قدحنا ، فمحّن وفد التهئة لا وفد المرزئة .

فقال له سيف : وأيّهم أنت أيها المتكلم ؟ فقال : أنا عهد المطلب بن هاشم .
قال : ابن أختنا ؟ قال : نعم . قال : أذنه ، فأذناه .

ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال لهم : مرحبا وأهلا ، قد سمع الملك مقاتلكم
وعرف قرابتكم وقيل وسيلتكم ، وأنتم أهل الليل والنهار ، فاسكم السكرامة
ما أقمتم والحياه إذا ظعنتم .

ثم أنهضوا إلى دار الضيافة والوفود ، فأقاموا شهرا لا يصِلون إليه ولا يأذن
لهم بالانصراف .

ثم انقبه لهم انتباهة فأرسل إلى عهد المطلب ، فقال له : إني مفوض إليك

من سَفِيٍّ على أمرًا لو يكون غيرك لم أَبْحُ له به ، ولكن رأيتك مَعْدِنَه
فأطاعتك عليه ، فلم يكن عندك مكنونا حتى يأذن الله فيه ، فإن الله
بالغُ أمره .

إني أجد في السحاب المسكون والعلم الحزون الذي اختزنناه لأنفسنا واجتهدناه
دون غيرنا خبرا عظيما وخطرا جسيما ، فيه شرفُ الحياة وفضيلة الوفاة ، للناس عامة
ولرهلك كافة ، ولك خاصة .

فقال له عهد المطلب : مثلك أيها الملك سرٌّ وبَرٌّ ، فما هو ؟ فذاك أهلُ الوبر
زُمرًا بعد زُمر .

فقال : إذا ولدَ بهيمة غلام بين كنفه شامة ، كانت له الإمامة ولحكم به
الزعامة إلى يوم القيامة .

فقال له عهد المطلب : لقد أثبتُ بخير ما آتَى بمثله وافد ، ولولا هيبة الملك
وإجلاله وإعظامه لسألتُه من سارَّه إلأى ما أزداد به سرورا .

فقال له ابن ذى يَزَن : هذا حِمِيَّةُ الذي يولد فيه ، أوقد ولد ، اسمه محمد ،
يموت أبوه وأمه ويكفله جده وحمه ، قد ولدناه مرارا^(١) والله باعته جهارا
وجاعل له منا أنصارا يعزُّ بهم أوليائه ويذل بهم أعداءه ، يضرب بهم الناس
عن عُرض ، ويستبيح بهم كرائم الأرض ، ويكسر الصلابان ويخمد النيران
ويعهد الرحمن ويذبح الشيطان ، قوله فَصْلٌ وحكمه عَدْلٌ ، يأمر بالمعروف
ويمنعه ، وينهى عن المنكر ويهبطه .

(١) يريد أن العرب جميعا ولدوا رسول الله ، أى أن له فيهم قرابة سبطهم .

فقال له عبد المطلب : عَزَّ جَدُّكَ وعَلا كَعَمِّكَ ودام مُلْكُكَ وطال عَمْرُكَ ،
فهل الملك سارٌّ بإفصاح ، فقد أوضح لي بعض الإيضاح .

فقال له ابن ذى يزن : والبَيْت والحُجُب ، والعلامات والنُصُب ، إنك يا عبد
المطلب لجَدُّهُ غَيْرُ الكَذِب .

نَفَرٌ هَبَدَ المطلب ساجدا ، فقال له : ارفع رأسك تَلَجَّ صَدْرُكَ وعَلا أَمْرُكَ ،
هل أحسست بشئٍ مما ذكرت لك ؟

فقال عبد المطلب : كان لي ابن ، وكنت عليه رفيقا ، فزَوَّجته كريمةً من
كُرَّامِ قَوْمِهِ ، فجاء بفِلاَم فسميته محمداً ، فمات أبوه وأمه ، وكفَلته أنا .

فقال له ابن ذى يَزَن : إن الذى قلتُ لك كما قلتَ ، فاحتفظ بأهلك واحذر
عليه اليهود ، فإنهم أعداؤه ، ولن يعمل الله عليه سييلا ، وأطوِّ ما ذكرتُ لك
دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لا آمن أن تدخلهم القماسة من أن تكون
لكم الرياسة ، فيطلبون له الفوائِل وينصبون له الحبائل ، وهم فاعلون وأبناؤهم ،
ولولا أنى أعلم أن الموت يُختَرى قبل مَبِيتِهِ لَسِرْتُ بِخَيْلى وَرَجِلى حتى أصير
بيثرب دار مُلْكِهِ ، فإنى أجِدُ فى السكّاب الفائق والعِلم السابق أن ييثرَب
استحكامُ أمرِهِ وأهلُ النَصرة له ، وموضع قبرِهِ ، ولولا أنى أخاف عليه الآفات
وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حدائنه سنة بذِكْرِهِ ، ولكفى صارفٌ ذلك
إليك ، من غير تقصير بمن معك .

ثم أمر لكل رجل من القوم بعشرة أَعْبُدٍ وعشر إماء ، وحِاسٍ من البرود ،
ومائة من الإبل ، وخمسة أُرطال ذهب ، وعشرة أوطال فضة ، وكرش^(١)
مملوءة عذيرا .

(١) السكرش : لدى الحف والظلف كاللمعة للانسان .

وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك كله ، وقال له : إذا حال الحولُ فأتني .

فأت ابنُ ذى يزن قبل أن يحول الحولُ ، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : يا معشر قريش ، لا ينبغي أحدكم بجزيل عطاء الملك وإن كثُر ، فإنه إلى نفاد ، ولكن ليغبطني بما يبقى لى ولعقبى من بعدى ذِكْرُه ، ونفْرُه وشرفه .

فإذا قيل له : فما ذاك ؟ قال : ستعلمون نبأه ولو بعد حين .

وحديثُ سيفِ بن ذى يزن هذا عن غير ابن إسحق^(١) وهو عندنا بالإسناد ، وقد تقدم ما ألقاه تبعُ الآخر إلى ملوك حمير وأبناءهم من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن علم سيفٍ بذلك إنما كان من تلك الجهات . والله أعلم .

[وفاة جده]

ثم إن عبد المطلب بن هاشم هلك عن سنٍّ عالية مُخْتَلَفٍ في حقيقةها .

أدناها فيما انتهى إلىَّ ووقفت عليه ، خمسٌ وتسعون سنة . ذكره الزبير .

وأعلاها فيما ذكر الزبير أيضاً عن نوفل بن عمار قال : كان عبيدُ بن الأبرص تَرْبَ عبد المطلب ، وبلغ مائةً وعشرين سنة ، وبقي عبدُ المطلب بعده عشرين سنة .

وقال محمد بن سعيد بن المسيَّب : لما حضرت الوفاة عبدَ المطلب وعرف أنه

(١) وهو في دلائل النبوة لأبي نعيم ٥٦ ، وفي تاريخ ابن عساكر ٣٦١/١ .

ميت جمع بفاته وكن سينا ، صفية ، وبرّة ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء ، وأميمة وأزوى ، فقال لمن : ابكين علىّ حتى أسمع ما تقولن قبل أن أموت .

فقال كل واحدة منهن شعرا ترميه به وأنشدته إياه ، فأشار برأسه ، وقد أصمّت : أن هكذا فابكيني .

وذكر ابن إسحق تلك الأشعار .

وقال ابن هشام : إنه لم يرَ أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها .

قال ابن إسحق : قال حذيفة بن غانم أخو بني عدي بن كعب يهكي عبداً المطلب بن هاشم ، ويذكر فضله ، وفضل قصيّ على قريش وفضل ولده من بعده عليهم :

أَعْيَنِي جُودًا بِالدَّمْسِوعِ عَلَى الصَّدْرِ
وَلَا تَسْأَلِي ، أُسْقِيْعُمَا سَبَلَ الْقَطْرِ^(١)

وَجُودًا بِدَمْعٍ وَاشْفَحَا كُلَّ شَارِقٍ
بَكَاءٍ أَمْرِي لَمْ يَشُوْهُ^(٢) نَائِبُ الدَّهْرِ

وَسُحْحًا وَجْهًا وَاسْجُمَا مَا بَقِيْنَا^(٣)
عَلَى ذِي حَيَاءٍ مِنْ قَرِيْشٍ وَذِي سَيْرٍ

عَلَى رَجُلٍ جَلَدٍ الْقَوَى ذِي حَفِيْظَةٍ
جِيلٍ الْمُحَيَّا غَيْرِ نِكْسٍ^(٤) وَلَا هَذَرٍ

(١) السبل بحركة : المطر .

(٢) لم يشوه : لم يخطئه .

(٣) سححا : صبا . وجما : أجما واسجما : أسىلا . (٤) النكس : الجبان .

على المساجد البهلول ذى البأس والفدى
ربيع لؤى فى القحوط وفى العُسرى^(١)
على خير حافر من معدة وناهل
كريم المساعى طيب الخيم والنجر^(٢)
على شيبة الحمد الذى كان وجهه
يضىء سواد الليل كالعمر البدر
وساقى الحبيب ، ثم للخير هاشم
وعبد مناف ذلك السيد الفهرى
طوى زمزماً عند المقام فأصبحت
سقايتُهُ فخرًا على كل ذى فخر
ليبتك عليه كل عاب بكربة
وآل قصى من مقل وذى وفر
بنوه سرة كنههم وشبابهم
تفلق عنهم بيضة الطائر الصقر
قوى الذى عادى كدانة كلها
ورابط بيت الله فى العُسر واليسر
فإن تلك غالت المدايا وصرفها
فقد عاش ميمون النقيبة والأمر

(١) من ابن هشام .

(٢) الخيم : السجية . والنجر : الأصل .

وَأَبْقَى رَجَالًا سَادَةً غَيْرَ مُزَلٍّ^(١)
مَصَالِيَتَ أَمْنَالِ الرَّدْيِيَّةِ الشُّمْرِ^(٢)
أَبُو عُتْبَةَ الْمَلِيقَى إِلَى حَبَاءِ
أَغْرُهُ هِجَانُ اللَّوْنِ مِنْ نَفَرٍ غُرٍّ^(٣)
وَحِمَزَةُ مِثْلِ الْبَدْرِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى
نَقِيُّ الثِّيَابِ وَالذَّمَامِ مِنَ الْغَدْرِ
وَعَهْدُ مَدَافٍ مَاجِدٌ ذُو حَفِيفَةٍ
وَصَوْلٌ لَذَى الْقُرْبَى رَحِيمٌ بِذَى الصَّهْرِ
كَهَوْلُهُمْ خَيْرُ الْكَهُولِ وَنَسْلُهُمْ
كَنَشْلُ الْمُلُوكِ لَا تَبُورُ وَلَا تَحْرَى^(٤)
مَقَى مَا تَلَاقَى مِنْهُمْ الدَّهْرَ نَاشِئًا
تَجْدِيهِ بِالْجَرِيَا أَوَائِلِهِ يَجْرَى^(٥)
هُمْ مَلَأُوا الْبَطْحَاءَ تَجْدًا وَعِزَّةً
إِذَا اسْتَبَقَى الْخَيْرَاتُ فِي سَالِفِ الْعَصْرِ
وَمُ حَفَرُوا وَالنَّاسُ بِأَدْرِ فَرِيقَهُمْ
وَلَيْسَ بِهَا إِلَّا شَوْخٌ بِنَى عَمْرِو
بَدَوَهَا دِيَارًا جَمَّةً وَطَوَّأَ بِهَا
بَثَارًا نَسُحُ الْمَاءِ مِنْ تَبَحٍّ بِحَرِّ

(١) الرديفة : الريح .

(٢) الهيجان : الأزهر .

(٣) لا تحرى : لا تنقص .

(٤) الإجريا : الوجه الذى تأخذ فيه وتجري عليه .

لِيَكُنْ يَشْرَبُ الْحَبَّاجُ مِنْهَا وَغَيْرُهُمْ
إِذَا ابْتَدَرُوهَا صُبْحَ تَابَعَةِ الدَّهْرِ
ثَلَاثَةَ أَلَامٍ تَطْلُ رُكْبَهُمْ
مُحْبَسَةً بَيْنَ الْأَخَاشِبِ وَالْحِجْرِ
وَقَدْ مَآ غَدِينَا قَبْلَ ذَلِكَ حِقْبَةً
وَلَا نَسْتَقِي إِلَّا بِحِمٍّ أَوْ الْحَفْرِ^(١)
م^(٢) يَغْفِرُونَ الذَّنْبَ يُنْقِمُ دُونَهُ
وَيَعْفُونَ عَنْ قَوْلِ السَّفَاهَةِ وَالْهَجْرِ
أَخَارَجَ^(٣) إِمَّا أَهْلِكَنَّ فَلَا تَزَلْ
لَهُمْ شَاكِرًا حَتَّى تُغَيَّبَ فِي الْقَبْرِ
وَلَا تَنْسَ مَا أَسْدَى ابْنُ لُثَيْمٍ فَلِإِنَّهُ
قَدْ أَسْدَى يَدًا مَحْقُوقَةً مِنْكَ بِالشُّكْرِ
وَأَنْتَ ابْنُ لُثَيْمٍ مَنْ قَصَى إِذَا انْقَمَوْا
بِمَيْثِ انْتَهَى قَصْدُ الْفَوَادِ مِنَ الصَّدْرِ
وَأَمَّاكَ سِرٌّ مِنْ خَزَاةِ جَوْهَرٍ
إِذَا حَصَلَ الْأَنْسَابَ يَوْمًا ذُو الْخَبْرِ
إِلَى سَبَائِلِ الْأَبْطَالِ تُنْمَى وَتَلْتَمَى
وَأَكْرَمَ بِهَا مَنْسُوبَةٌ فِي ذُرَى الدَّهْرِ^(٤)

(١) خم والحفر : بئران من آبار مكة .

(٢) ابن هشام : وهم .

(٣) ابن هشام : نخرج .

(٤) ابن هشام : في ذرى الزهر .

ابن أُنَيْسٍ هو^(١) أبو لُحَب عبد المُرِّي بن عبد المطلب ، وهو أبو عُتْبَةَ الذي ذكره قبل في هذا الشعر .

وكانت أمه امرأة من خزاعة اسمها أُنَيْس بنت هاجر . ولذلك قال :
« وَأَمْلِكُ سِيرًا مِنْ خَزَاعَةَ » .

وَنَمَّا هَا إِلَى سَبَأِ الْأَبْطَالِ بِنَاءٌ عَلَى مَا قَدِمْنَاهُ مِنْ انْتِمَاءِ خَزَاعَةَ إِلَى عَمْرِو بْنِ طَامِرٍ ، مِنْ غَسَّانٍ وَانْتِفَائِهِمْ مِنَ الْمُضَرِّيَّةِ .

واليدُ التي ذكر هذا الشاعر أنها ترتبت عليه لأبي لُحَب : ذكر ابن إسحاق أنه كان أخذ بِغُرْمٍ أَرْبَعَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ بِمَكَّةَ ، فَوَقِفَ بِهَا ، فَمَرَّ بِهِ أَبُو لُحَبِ فَافْتَكَهُ .

ونسب الزبيرُ هذا الشعرَ لحُذَافَةَ بْنِ غَانِمٍ ، ودليله قوله فيه :

« أَخَارَجَ إِمَّا أَهْلُسَكْنَ الْبَيْتَ .. »

فإن خارجة هو ابن حذافة .

وحذيفة الذي نسب ابن إسحاق إليه الشعرَ هو أخو حذافة ، ولا يعرف له ابن يسمى خارجة ، وإنما هو والد أبي جَهْمِ بْنِ حَذِيفَةَ ، واسمُ أبي جَهْمِ عُبَيْدٌ ، وهو الذي بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتَّوْحِيدِ ذات الأعلام التي أَلْهَمَهُ عَنْ صَلَاتِهِ ، وأمر أن يُؤْتَى بِأَنْبِجَانِيَّةٍ^(٢) .

(١) ت ط : هذا .

(٢) الأنبيانية : كساء . من الصوف له خل ولا علم فيه ، ينسب إلى منبج على غير قياس

[العباس يلى زمزم]

ولما هلك عبدُ المطلب ، ولى زمزم والسقاية عليها ابنه العباس وهو يومئذ
من أحدث إخوته سناً ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهي بيده ، فأقرها
رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما مضى من ولايته ، وكان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يُجمله لإجلال الولدِ والده .

يقول كريب [مولى ابن عباس ^(١)] : وما ينبغى لرسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يحمل إلا والدها وحماً ، فضيلةً خص الله بها العباس دون
من سواه .

وقال صلى الله عليه وسلم : احفظوني في عمى العباس ، فإن همَّ الرجل
صنواً أبيه .

وطلع يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا العباس أجودُ
قريش كفاً وأوصالها .

ولم يزل العباس سيداً في الجاهلية والإسلام ، يمنع الجارَ ويبذل المال ويعطى
في الدواب .

قال الزبير : وكان يقال : كان للعباس بن عبد المطلب ثوبٌ لعارى بى
هائم ، وجفنةٌ لجائعهم ، ومقطرةٌ لجاهلهم . والمقطرة : خشبة ذات ساسلة
يُحتبس فيها الناس .

وفى ذلك يقول إبراهيم بن على بن هرمة :

— ١٨٩ —

وكانت لعمباس ثلاث نَمُدُّها
إِذَا مَا جَفَّابُ الْحَيِّ أَصْبَحَ أَشْهَبًا^(١)
فَسَلْسَلَةٌ تَنْهَى الظُّلُومَ وَجَفَنَةٌ
لَمَّارٍ ضَرِيرِكِ^(٢) ثُوبُهُ قَدْتَهْدَبَا

وقال ابن شهاب : لقد جاء الله بالإسلام وإن جَفَنَةُ العباس لتدور على فقراء
بنى هاشم ، وإن قَيْدَهُ وَسَوَّطُهُ لَمَعَدُ لِسْفِهَائِهِمْ .

قال : فكان ابن عمر يقول : هذا والله الشرفُ ، يطعم الجائع
ويؤدب السفيفه .

وكان أبو بكر وعمر في ولايتهما لا يَلْقَى العباسَ واحدٌ منهما وهو راكِبٌ
إلا نزل عن دابته وقادها ومشى مع العباس حتى يبلغ منزله أو مجلسه
فيفارقه .

[كِفَالَةُ عَمِّ أَبِي طَالِبٍ]

وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مَمَلِكِ جده عبد المطلب مع عمه
أبي طالب .

وكان عبد المطلب يوصيه به فيما يزعمون .

وذلك أن عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا طالب أخوان لأب
وأم ، فكان أبو طالب هو الذي يلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جده ،
فكان إليه ومعه .

(٢) الضريك : هو الصغير ، وهو الفقير

(١) الأشهب : المجذب

وذكر الواقدي أن أبا طالب كان مُقِلًّا من المال ، وكانت له قطعة من الإبل بِمُرْفَةٍ^(١) ، فيهدو إليها فيسكون فيها ، ويؤتى بلبنها إذ كان حاضرا بمكة .

فكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعا وفُرِّادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا .

فكان أبو طالب إذا أراد أن يعيشهم أو يغديهم يقول : كما أنتم حتى يأتي ابني .

فَيَأْتِي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فيُقْضِلُون من طعامهم ؛ وإن كان لبنا شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم ، ثم يناول العيال القَعْبَ فيشربون منه فيروون من عند آخرهم من القعب الواحد ، وإن كان أحدهم يشرب قَمْبًا !

فيقول أبو طالب : إنك لمُبارَك ! .

وكان الصبيان يصبحون شُعْثًا رُمُضًا ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دَهِيقًا كحَيْلًا .

وقالت أم أيمن ، وكانت تحضنه : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم شَكًّا جوعًا قط . ولا عطشا ، وكان يغدو إذا أصبح فوشرب من ماء زمزم ثربة ، فربما عَرَضْنَا عليه الغذاء فيقول : لا أريده أنا شهبان .

[رحلته إلى الشام]

قال ابن إسحق : ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام ، فلما

(١). عرفة : واد بجذاء مرقات .

تهباً للرحيل صَبَّ^(١) به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون ، فرق^٢ له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدا .
أو كما قال .

فخرج به معه ، فلما نزل الركبُ بُصرى في أرض الشام ، وبها راهب يقال له بَحِيرى في صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصارى ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهبٌ إليه يصير عليهم عن كتاب منها ، فيما يزعمون ، يتوارثونه كابرا عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العام ببَحِيرى وكانوا كثير ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا ، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته ، يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب حين أقبلوا وغمامةٌ تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبا منه ، فغظروا إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهجرت أغصانُ الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحنها ، فلما رأى ذلك بَحِيرى نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ، ثم أرسل إليهم فقال : إني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش وأحب أن تحضروا كلكم صهيكم وكبيركم وعبدكم وحرركم .

فقال رجل منهم : والله يا بَحِيرى إن لك اليوم لشأنا !
ما كنت تصنع هذا بفا ، وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم ؟
قال له بَحِيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ولست بكم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم .

(١) صب به : تعلق وتروى : ضبث . أى لزمه .

فاجتمعوا إليه وتخلّف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم، فلما نظر بحيرى فى القوم لم ير الصفة التى يعرف ويحدّ عنده ، فقال : يا معشر قريش لا يتخلّفنّ أحد منكم عن طعامى .

قالوا له : يا بحيرى ما تخلّف عنك أحد ينبى له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنّاً ، فيتخلّف فى رحالهم . قال : لا تفعلوا ادعوه فليحضّر هذا الطعام معكم . فقال رجل من قريش : واللّات والعزى إن كان للوأم^(١) بنا أن يتخلّف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا . ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يحدّها عنده فى صفته .

حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرّقوا قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما . فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تسألنى باللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أبفضتُ شيئاً قط بنفسهما . فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه قال له : سألنى عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره ، ويخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فىوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم الدهوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

(١) ابن هشام : اللؤم

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب ، فقال : ما هذا الغلام منك ؟ قال :
ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حُبلى به .

قال : صدقت ، فارجم بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن
رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبْتُغُنَّهُ شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ،
فأسرع به إلى بلاده .

ففرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته
بالشام .

فزعوا أن نفرأ من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله
عليه وسلم مثل ما رأى بحيرى فى ذلك السفر الذى كان فيه مع عمه أبى طالب ،
فأرادوه فردم عنه بحيرى ، وذكروا الله وما يجدون فى الكتاب من ذكره
وصفاته ، وأنهم إن أجمعوا لم يأتوا ولم يخلصوا إليه ، حتى عرفوا ما قال لهم
وصدقوا بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه .

[حَفِظُ الله له]

فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكأوه الله ويحفظه ، ويحوطه من
أقذار الجاهلية ليأىريد به من كرامته ورسالته .

حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم
حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حِلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ،
وأبمدم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، تنزهها وتكرّمها .

حتى ما اسمه فى قومه إلا الأمين ، ليأى جمع الله فيه من الأمور الصالحة .
(١٣ — الاكتفا)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث مما كان الله يحفظه به في صِتره وأمر جاهليته ، أنه قال : لقد رأيتني في غلمان قريش نفل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تمرى وأخذ إزاره فجعله على رقبتة يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبلُ معهم كذلك وأذيرُ إذ لَكَمَنِي لَأَكُمُ ما أراه لكُمةً وجيمةً ، ثم قال : شدَّ عليك إزارك .

قال : فأخذته فشدَّ ذنُّه عليَّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى عليَّ من بين أصحابي .

وذكر البخارى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما هممتُ بسوء من أمر الجاهلية إلا مرتين .

وروى غيره أن إحدى المرتين كان في غَنَمٍ يرعاه هو وغلّام من قريش ، فقال لصاحبه : اكفني أمر الغنم حتى آتى مكة ، وكان بها عرسٌ فيه لهو ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك ألقى عليه الغنم ، فقام حتى ضربته الشمس ، عصمةً من الله له !

والمرة الأخرى مثل الأولى سواء .

وذكر الواقدي عن أم أيمن قالت : كانت بوانة صنما تحضره قريش وتمظمه وتمسك له وتملّق عنده وتمكف عليه يوماً إلى الليل في كل سنة ، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ويكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معهم فيأبى ذلك .

قالت : حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عَمَّاتِه غضبين يومئذ أشدَّ الغضب ،

وجعلان يقان : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتباب آلهتنا . ويقان : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تُكثر لهم جمعا ؟

فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعوباً فزعاً ، فقان له : ما دهاك ؟ قال : إني أخشى أن يكون بي لم^(١) .

فقان : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذي رأيت ؟

قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثّل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه .

قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نبيّ صلوات الله عليه وعلى آله .

[زواجه بخديجة]

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد ، فيما ذكره غير واحد من أهل العلم .

وذكر الواقدي بإسناد له إلى نفيسة بنت مُنية أخت لبلى بن منية ، وقد رويناه أيضاً من طريق أبي علي بن السكن ، وحديث أحدهما داخل في حديث الآخر مع تقارب اللفظ ، وربما زاد أحدهما الشيء اليسير ، وكلاهما ينحى إلى نفيسة .

قالت : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خمساً وعشرين سنة وليس له بمكة اسمٌ إلّا الأمين ، لما تكاملت فيه من خصال الخير ، قال أبو طالب :

(١) المطبوعة لي وهو خطأ .

يا بن أخى أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان على وألحت علينا سفون منكورة ،
وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ،
وخديجة بنت خويلد تبهث رجالا من قومك فى غيرها فيتجرون لها فى مالها
ويصيبون منافع .

فلوجئتها فمرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك ، لى
بلغها عندك من طهارتك ، وإن كنت لأكره أن تأتى الشام وأخاف عليك
من يهود ، ولسكن لا تجد من ذلك بُدًا .

وكانت خديجة رضى الله عنها امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة
تبهث بها إلى الشام ، فيكون غيرها كعامة غير قريش ، وكانت تستأجر الرجال
وتدفع لهم المال مضاربة .
وكانت قريش قوما تجارا ، ومن لم يكن تاجرا من قريش فليس
عندهم شىء .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاعلمها ترسل إلى فى ذلك .

فقال أبو طالب : إني أخاف أن تولى غيرك ، فتطلب أمرا مذبرا .

فاfterقا ، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له ، وقبيل ذلك ما قد بلغها من
صدق حديثه ، وعظم أمانته وكرم أخلاقه ، فقالت : ما علمت أنه يريد هذا .

ثم أرسلت إليه فقالت : لانه دعانى إلى البيعة إليك ما باغى من صدق حديثك
وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك .

فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقى أبا طالب وذكر له ذلك ، فقال :
إن هذا لرزق ساقه الله إليك .

نفرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشام ، وجعل عموئته يوصون به أهل العير ، حتى قدم الشام فنزلا في سوق بُعْرى في ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا .

فأطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه فقال : يا ميسرة من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟

فقال ميسرة : رجل من قريش من أهل الحرم .

فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي^(١) .

ثم قال له : في عينيه حرة ؟

قال ميسرة : نعم لا تفارقه .

فقال الراهب : هو هو ، وهو آخر الأنبياء ، ويا ليت أى أدركه حين يؤمر بالخروج . فوعى ذلك ميسرة .

ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بُعْرى ، فباع سلعة التى خرج بها واشترى سلعة ، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة ، فقال الرجل : احلف باللات والعزى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بهما قط . فقال الرجل : القول قولك .

ثم قال لميسرة ، وخلا به : يا ميسرة ، هذا نبي^٢ ، والذى نفسى بيده إنه لو ، تجده أحبارنا مفعوتاً في كتبهم .

فوعى ذلك ميسرة .

ثم انصرف أهل العير جميعاً .

(١) يريد : ما نزل الآن وإلا فلم يغفل أن يجلس تحتها كثير من الناس غير أنبياء .

وكان ميسرة يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانت المهاجرة واشتد الحر، يرى ماسكين يُظِلُّونه من الشمس وهو على بعيره .

قال : وكان الله عز وجل قد ألقى على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجة من ميسرة ، فكان كأنه عبدٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما رجعوا وكانوا بمرَّ الظهران تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة في ساعة الظميرة ، وخديجة في عُلْيَا^(١) لها ، معها نساء فيهن نفيسة بنت مُنَيَّة ، فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل وهو راكبٌ على بعيره ، ولمَّا كان يُظِلُّونَ عليه ، فأرته نساءها ، فمجنبن لذلك .

ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخبَّرها بما رجعوا ، فسرت بذلك . فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت ، فقال لها ميسرة : قد رأيتُ هذا مفذ خرجنا من الشام . وأخبرها بقول الراهب نسطورا ، وقول الآخر الذي خالفه في البيع .

قالوا : وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارتهما ، فربحت ضعفَ ما كانت تبيع ، وأضمت له ما سَمَّت له .

فلما استقرَّ عندها هذا ، وكانت امرأة حازمة شريفةً لبيبةً ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، وكلُّ قومها كان حريصاً على نكاحها لوقدر عليه ، عرضت عليه نفسها .

فقلت له فيما يزعمون : يا بنَ عَمَى ، إني قد رَغِبْتُ فيك لقرباك

(١) العلية : الحجرة .

وصيبتك^(١) في قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصديق حديثك .
 فلما قالت له ذلك ، ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب ،
 رحمه الله تعالى ، حتى دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها إليه فنزوها .
 هكذا ذكر^(٢) ابن إسحاق ، وذكر الواقدي وغيره من حديث نفيسة ، أن
 خديجة أرسلت إليه دسيساً ، فدعته إلى تزويجها .
 فلما أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد
 فحضر ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عروسته فزوجه أحداهم .
 وقال عمرو : هذا القحل لا يقدر أنفه .
 قال ابن هشام : وأصدقهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة .
 وكانت أول امرأة تزوجها ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .
 قال ابن إسحاق : فولدت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولده كلهم ،
 إلا إبراهيم : القاسم ، وبه كان يُكنى صلى الله عليه وسلم ، والطاهر ، والطيب ،
 وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .
 فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية .
 وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام ، فأسلمن وهاجرن معه .
 هذا قول ابن إسحاق في ذكور البنين ، أنهم هلكوا في الجاهلية .
 وقال الزبير بن بكار ، وهو من أئمة هذا الشأن : ولدت له القاسم ، وعبد الله
 وهو الطاهر والطيب ، وُلِدَ بعد النبوة ومات صغيراً .

(٢) المطبوعة : قال .

(١) ط : ووسطتك .

وفي مسند الفريابي ، ما يدل على أنه مات قبل أن تتم رضاعته وبعد النبوة^(١).

وذلك أن خديجة دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت القاسم وهي تبكي عليه فقالت : يا رسول الله ، لو كان عاش حتى تستكمل رضاعته لهوّن على . فقال : إن له مريضاً في الجنة تستكمل رضاعته . فقالت خديجة : لو أعلم ذلك لهوّن على . فقال رسول الله : إن شئت أسمعك صوتّه في الجنة . فقالت خديجة : بل أصدق الله ورسوله .

قال ابن هشام : وأما إبراهيم فأمه مارية سُريّة النبي صلى الله عليه وسلم التي أهداها إليه المقوقس من حَفْنٍ من كُورة أنصَبَاء^(٢) .

وهي قبطية من قبط مصر ، وهذا هو العهر الذي ذكره لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « الله الله في أهل الامة ، أهل المدرة السوداء السحيم الجماد ، فإن لهم نسباً وصهراً » .

قال مولى غفرة : نسبهم أن أمّ إسماعيل النبي منهم ، وصهرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرّر فيهم .

وفي حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا افتتحتهم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمةً ورّجاً » .

(١) أي القاسم

(٢) هي مدينة بنواحي الصعيد على شرف النيل .

قال ابن إسحق : وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد ابن العزى ، وكان ابن عمها^(١) وكان نصرانيا قد تنبّع السكيب وعلم من علم الناس ، ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يُظِلّانه .

فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبى هذه الأمة ، قد عرفتُ إنه كائنٌ لهذه الأمة نبى يُلتَظَر ، هذا زمانه . أو كما قال .

فحمل ورقة يستبطن الأمر ويقول : حتى متى ؟ وقال فى ذلك :

لَجِئْتُ وَكُنْتُ فى الذِّكْرِ لَجُوجاً .
لِهَمٍّ طَالَمَا بَعَثَ النَّشِيجُ
ووصفٍ من خديجة بعدَ وصفٍ
فقد طال انتظارى يا خديجاً
ببطنِ المسكتين^(٢) على رجائى
حديثك أن أرى منه خروجاً
بما خبرتينا من قول قسٍّ
من الرهبان أكره أن يعوجاً
بأن محمداً سيُسود يوماً
ويُنْهَم من يكون له حبيجاً

(١) المطبوعة : عمه وهو خطأ .

(٢) يريد بالمسكتين : جانباً مكة ، أو بطاها وظواهرها .

وَيُظْهِرُ فِي الْبِلَادِ ضِيَاءَ نُورٍ
يَقِيمُ بِهِ الْبَرِيَّةُ أَنْ تَمُوجَا
فَيَلْقَى مِنْ يَحَارِبُهُ خَسَارَا
وَيَلْقَى مِنْ يُسَالِمُهُ فُلُوجَا^(١)
فِي الْيَمِينِ إِذَا مَا كَانَ ذَاكُمْ
شَهِدْتُ فَكُنْتُ أَوَّلَهُمْ وَلُوجَا
وَلُوجَا فِي الَّذِي كَرِهَتْ قَرِيشُ
وَلَوْ هَجَّتْ بِمَكْنَهَا عَجِيجَا
أَرْجَى بِالَّذِي كَرِهُوا جَمِيعَا
إِلَى ذِي الْمَرْشِ إِنْ سَفَلُوا عُرُوجَا
وَهَلْ أَمْرُ السَّفَاهَةِ^(٢) غَيْرُ كُفْرٍ
بِمَنْ يَخْتَارُ^(٣) ، مَنْ سَمَكَ الْبُرُوجَا
فَإِنْ يَبْقَاوا وَأَبْقَى تَكُنْ أُمُورُ
يَخْبِئُ الْكَافِرُونَ لَهَا ضَجِيجَا
وَإِنْ أَهْلِكَ فَكُلُّهُ فَتَى سَيَلْقَى
مِنْ الْأَوْدَارِ مَشَقَّةَ حَرُوجَا^(٤)

(١) أى طهوراً ونجاحاً .

(٢) ابن هشام : السفالة .

(٣) المطبوعة : تختار .

(٤) أى مهلكة واسعه التصرف .

وقال ورقة بن نوفل أيضاً ذلك وهو ما رواه يونس بن بكير عن
ابن إسحاق :

أَتُبَكِّرُ أُمُّ أَنْتِ الْعَشِيَّةَ رَائِحُ
وَفِي الصَّدْرِ مِنْ إِضْمَارِكَ الْحَزْنَ قَادِحُ
أَفَرِقَهُ قَوْمٌ لَا أَحَبُّ فِرَاقِهِمْ
كَأَنَّكَ عَنْهُمْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ نَازِحُ
وَأَخْبَارِ صِدْقٍ خَبَّرْتُ عَنْ مُحَمَّدٍ
يُخَبِّرُهَا عَنْهُ إِذَا غَابَ نَاصِحُ
فَتَاكِ الَّذِي وَجَّهْتَ يَا خَيْرْتَ حُرَّةُ
بِغَدَوٍ وَبِالْجَدَيْنِ حَيْثُ الصَّحَاصِحُ^(١)
إِلَى سَوْقٍ بُعِثَ فِي الرِّكَابِ الَّتِي غَدَتْ
وَهُنَّ مِنَ الْإِنْعَمَالِ قُعُصٌ دَوَالِحُ^(٢)
نُفِخْنَا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ بَعْلُهُ
وَاللَّحِقُ أَبْوَابُ لَهْنٍ مَفَاتِحُ
بِأَنَّ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ مُرْسَلُ
إِلَى كُلِّ مَنْ ضُمَّتْ عَلَيْهِ الْأَبَاطِحُ
وَوُظِّنِي بِهِ أَنْ سَوْفَ يُبْعَثُ صَادِقًا
كَمَا أُرْسِلَ الْعَبْدَانِ هُودُ وَصَالِحُ

(١) الصحاح: الأرس المستوية .

(٢) أى ثقبيلات خطو منقبضات .

وَمُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ حَتَّىٰ يُرَىٰ لَهُ
بَهْلًا وَمَنْشُورٌ مِنَ الذِّكْرِ وَاضِحٌ
وَيَقْبَعُهُ حَيًّا لُؤَيٌّ* بِنِ غَالِبٍ
شَبَابُهُمُ وَالْأَشْيَبُوتُ الْجَحَاجِجُ
فَإِنْ أَبَقَ حَتَّىٰ يَدْرِكَ النَّاسَ دَهْرُهُ
فَإِنِّي بِهِ مُسْتَبْشِرُ الْوُدِّ فَارِحُ
وَالَا فَإِنِّي يَا خُدَيْجَةُ فَاعْلَمِي
عَنْ أَرْضِكَ فِي الْأَرْضِ الْعَرِيضَةِ سَائِحُ

ذكر بنيان قريش السكبة

مع ذكر ما أحدثوه في المفاسك

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين^(١) سنة ، اجتمعت قريش لبنيان السكبة .

قال موسى بن عُميرة : وإنما سَمِلَ قريشاً على ذلك^(٢) أن السَّيْلَ كان أتى من فوق الرِّدْم الذي صنعوا فأخربته ، فخافوا أن يدخلها الماء ، وكان رجلٌ يقال له مُلَيْح سرق طيب السكبة .

فأرادوا أن يشيّدوا بنيانها ، وأن يرفعوا بابها ، حتى لا يدخلها إلا مَنْ شاءوا وأعدّوا لذلك نفقة ، وعمالاً ، ثم عمدوا إليها ليهدموها على شَفَقٍ وحَذَرٍ من أن ينعمهم الله الذي أرادوا .

قال ابن إسحاق : وكانوا يهثّون بذلك [ليُسَقِّفوها]^(٣) وبها بون هَذَمٌ ، وإنما كانت رَضَمًا^(٤) فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك أن نفرًا سرقوا كنز السكبة ، وإنما كان يكون في بئر في جوف السكبة .

قال : وكان الذي وُجِدَ عنده الكنز دُوَيْكٌ مولى لبني مُلَيْح بن عمرو ، من خزاعة [قال ابن هشام :] فقطعت قريش يده .

(١) المطبوعة : خمساً وعشرين ، وهو خطأ .

(٢) المطبوعة : على بنيانها .

(٣) من ابن هشام

(٤) أى حجارة نصد بعضها على بعض من غير ملاط

وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دؤيك .

قال : وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جُدَّة لرجل من تجار الروم فحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها ، وكان بمكة رجل قبلي نجار ، فتهياً لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها .

وكانت حية تخرج من بئر السكمة التي كان يُطرح فيها ما يُهدى لها ، فتشرق^(١) على جدار السكمة ، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحدٌ إلا احزأت^(٢) وكشت وفتحت فاهها ، فكانوا يهابونها . فبينما هي يوماً تشرق على جدار السكمة كما كانت تصنع ، بعث الله إليها طائراً فاخطفها ، فذهب بها .

فقال قريش : إنا نرجو أن يكون الله قد رضى بما أردنا ، عندنا عاملٌ رقيق وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية .

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها ، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ ابن عمران بن مخزوم ، فتناول من السكمة حَجَراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يا معشر قريش ، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً ، لا تدخلوا فيها مهر^(٣) بغي ولا بيع رباً ، ولا مظلة أحدٍ من الناس .

والناس يفعلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم .

(١) تشرق : تبرز للشمس .

(٢) احزأت : رفعت رأسها . وكشت : صوتت من جلدها لا من فيها .

(٣) في ط : مقر ، وفي هامشها : في السيرة : مهر .

ثم إن قريشاً تجزأت^(١) السكعبة ، فكان شقُّ الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان ما بيني الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضبتوا إليهم ، وكان ظمُرُ السكعبة لبني جُحج وبني سُهْم ، وكان شقُّ الحجر لبني عبد الدار بن قصي ، ولبني أسد بن عبد العزى^(٢) بن قصي ، ولبني عدي بن كعب رهو الحطيم^(٣) .

ثم إن الناس هابوا هَدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم في هَدمها ، فأخذ المِعْوَل ، ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم تُزِغْ^(٤) . ويقال : لم تُزِغْ . اللهم إنا لا نريد إلا الخير .

ثم هَدم من ناحية الركنين ، فتربَّص الناسُ تلك الليلة ، وقالوا : ننظر ، فإن أُصيبَ لم نهَدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يُصِبْ شيءٌ ، فقد رضى الله ما صنعنا .

فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهَدم وهدم الناسُ معه ، حتى إذا انتهى الهدمُ بهم إلى الأساس ، أساس إبراهيم عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة خضِر ، كالأسنة^(٥) أخذ بعضهم بعضها بعضاً .

قال ابن إسحاق : فحدثني بعض من يروى الحديث : أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها ، أدخل عَقْلَةً بين حجارين منها ليقطع بها أحدهما ، فلما تحرك الحجر تنقضت مكةُ بأسرها ، فانتهوا عن ذلك الأساس .

(١) ابن هشام : جزأت .

(٢) ابن هشام : ابن العزى .

(٣) الرهو : ما اطمأن من الأرض وارتفع ما حوله .

(٤) أى لم تفزع السكعبة .

(٥) ط : كالأسنة

قال : وَحُدِّثْتُ أَنَّ قَرِيشًا وَجَدُوا فِي الرُّكْنِ كِتَابًا بِالسَّرْيَانِيَّةِ ، فَلَمْ يَذَرُوا مَا هُوَ حَتَّى قَرَأَهُ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ ، فَإِذَا هُوَ : أَنَا اللَّهُ ذُو بَرْكَةٍ ، خَلَقْتُهَا يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَصَوَّرْتُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَحَفَفْتُهَا بِسَبْعَةِ أَمْلاكٍ حَقَفَاءَ ، لَا تَزُولُ حَتَّى يَزُولَ أَخْشَبَاهَا^(١) ، مَبَارَكٌ لِأَهْلِهَا فِي الْمَاءِ وَاللَّيْلِ .

وَحُدِّثْتُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا فِي الْمَقَامِ كِتَابًا فِيهِ : مَكَّةَ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا مِنْ ثَلَاثِ سُبُلٍ ، لَا يُحِلُّهَا أَوَّلَ مِنْ أَهْلِهَا^(٢) .

وَزَعَمَ إِيْثُ بْنُ أَبِي سَلَيْمٍ أَنَّهُمْ وَجَدُوا حَجَرًا فِي السَّكْمَةِ قَبْلَ مَبْعَثِ الدَّهِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ، إِنْ كَانَ مَا ذَكَرَ حَقًّا ، مَكْتُوبًا فِيهِ : مَنْ يَزْرِعْ خَيْرًا يَحْصِدْ غَبِيظَةً ، وَمَنْ يَزْرِعْ شَرًّا يَحْصِدْ نَدَامَةً ، يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، وَتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتُ ! ! أَجَلٌ كَمَا [لَا] يُجْتَنَى مِنَ الشُّوْكِ الْعَذَابُ .

[وَضِعَ الْحَجَرُ]

قال ابن إسحاق : ثُمَّ إِنْ الْقَبَائِلُ مِنْ قَرِيشَ ، جَمَعَتِ الْحَجَارَةَ لِبَنَائِهَا ، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَجْمَعُ عَلَى حِدَّةٍ ، ثُمَّ يَفُوقُهَا حَتَّى يَبْلُغَ الْبَنِيَانُ مَوْضِعَ الرُّكْنِ ، فَاخْتَصِمُوا فِيهِ ، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ دُونَ الْآخَرِ ، حَتَّى تَجَاوِزُوا وَتَحَالَفُوا ، وَأَعْدَوْا لِلْقِتَالِ ، فَتَقَرَّبَتْ بَدُو عَبْدِ الدَّارِ جَفْنَةً مَمْلُوءَةٌ دَمًا ، ثُمَّ تَعَاقدُوا هُمْ وَبَدُو عَدِيٍّ عَلَى الْمَوْتِ ، وَأَدْخَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي ذَلِكَ الدَّمِ فِي تِلْكَ الْجَفْنَةِ ، فَسَحَّوْا لَمَعَةً الدَّمِ .

فَكَثَمَتْ قَرِيشَ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْسًا ، ثُمَّ لَانَهُمْ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ ، فَتَشَاوَرُوا وَتَنَاصَفُوا ، فَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الرِّوَايَةِ ، أَنَّ أَبَا أُمَيَّةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ

(٢) أَيْ أَنَّ أَهْلَهَا هُمُ الَّذِينَ يَبْتَدِئُونَ بِإِحْلَالِهَا .

(١) أَخْشَبَاهَا : جِبِلَّاهَا .

ابن عمر بن تخزوم ، وكان عامئذٍ أسنّ قریش كلّها ، قال : يا معشر قریش اجعلوا
بيدكم فيما تختلفون فيه ، أوّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ يَقْضِي بَيْنَكُمْ . ففعلوا .
فكان أوّلَ داخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه ، قالوا : هذا
الأمين ، رضيدينا ، هذا محمدٌ .

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم : هلمّ إلىّ ثوباً .
فأتى به ، فأخذ الركنَ فوضعه فيه بيده ثم قال لَتَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِفَاحِشَةٍ مِنَ الثُّوبِ
ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعاً . ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده صلى الله
عليه وسلم ، ثم بُنِيَ عَلَيْهِ .

[كسوة السكبة]

وكانت السكبة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثمانى عشرة ذراعاً ، كانت
تُكْسَى الْقَبَائِطِيُّ^(١) ، ثُمَّ كَسَيْتِ الْهُرُودَ .

وأول من كساها الديباج ، الحجاجُ بن يوسف . هذا قول ابن اسحاق .

وقال الزبير : بل أول من كساها الديباج عبدُ الله بن الزبير .

وذكر جماعة سواهما منهم الدارقطني : أن نُتَيْلَةَ بنت جفاب ، أمّ العباس
ابن عبد المطلب ، كانت قد أضلّت العباس وهو يومئذ صغير ، فنذرت إن هي
وجدته أن تسكسو السكبة الديباج ، ففعلت ذلك حين وجدته .

وفدّكر الزبير أن الذى أضلّته نُتَيْلَةُ بنت جفاب إنما هو ابنها ضرار بن

(١) ثياب بيض كانت تصنع بمصر .

عبد المطلب [شقيق العباس^(١)] ، ونذرت أن تكسو البيت إن وجدته ،
فكسسته حين وجدته ثياباً بيضاً ، قاله تعالى أعلم .

[أَمْرُ الْخُمْسِ]

قال ابن إسحاق : وكانت قريش ، لا أدرى أَقْبَلَ الْفَيْلَ أم بعده ، ابتدعت
أَمْرَ الْخُمْسِ ، رَأْيَا رَأَوْهُ وَأَدَارَوْهُ .

فقالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت ، وقاطن مكة وساكنها ،
فليس لأحد من العرب مثل حَقِّنَا ، ولا مثل منزلَقِنَا ، ولا تعرف له العرب مثل
ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الْحِلِّ كما تعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم
ذلك استخفَّت العربُ بِحَرَمَتِكُمْ ، وقالوا : قد عظموا من الحلِّ مثل ما عظموا
من الحرم .

فتركوا الوقوفَ على عرفة والإفاضة منها وهم يعرفون ويقرؤون أنها من
الْمَشَاةِ وَالْحَجِّ وَدِينِ إِبْرَاهِيمَ ، ويرون لسائر العرب أن يبقوا عليها ،
وأن يُفَيِّضُوا منها ، إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم ، فليس ينبغي لنا أن
نَخْرُجَ من الحرم ، ولا نعظم غيرها كما نعظمها ، نحن الخمس ، والخمس
أهل الحرم .

ثم جعلوا لمن وَلَدُوا من العرب مِن سَاكِنِ الْحِلِّ وَالْحَرَمِ مثلَ الَّذِي لَهُمْ
بَوْلَادَتِهِمْ إِيَّاهُمْ ، يَحِلُّ لَهُمْ مَا يَحِلُّ لَهُمْ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِمْ مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ .

وكانت كدانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك .

ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لهم ، حتى قالوا : لا ينبغي للخمسة أن

(١) من المطبوعة .

يَأْتِقُطُوا الْأَفِطَ^(١) ، وَلَا يَسْأَلُوا السَّمْنَ وَمِ حُرْمَ ، وَلَا يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ شَعَرٍ ، وَلَا يَسْتَظِلُّوا إِنْ اسْتَظَلُّوا إِلَّا فِي بَيْوتِ الْأَدَمِ مَا كَانُوا حُرْمًا .

ثُمَّ رَفَعُوا فِي ذَلِكَ فَقَالُوا : لَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْحِلِّ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِهِمْ جَاءُوا بِهِ مَعَهُمْ مِنَ الْحِلِّ إِلَى الْحَرَمِ إِذَا جَاءُوا حُجَّاجًا وَعُمَرَاءَ ، وَلَا يَطُوفُوا بِالْبَيْتِ إِذَا قَدَمُوا أَوَّلَ طَوَافِهِمْ إِلَّا فِي ثِيَابِ الْحُمْسِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا مِنْهَا شَيْئًا طَافُوا بِالْبَيْتِ عُرَاءَ ، فَإِنْ تَسَكَّرَ مِنْهُمْ مَتَسَكَّرٌ مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ ، وَلَمْ يَجِدْ ثِيَابَ الْحُمْسِ فَطَافَ فِي ثِيَابِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مِنَ الْحِلِّ ، أَلْقَاهَا إِذَا فَرَّغَ مِنْ طَوَافِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا ، وَلَمْ يَسْمَعْهَا هُوَ وَلَا أَحَدٌ غَيْرُهُ أَبَدًا . فَكَانَتِ الْعَرَبُ نَسَمَى تِلْكَ الثِّيَابِ اللَّتَى^(٢) .

لَحَمَلُوا عَلَى ذَلِكَ الْعَرَبَ فَدَانَتْ بِهِ ، فَوَقَفُوا عَلَى عِرَاقَاتٍ وَأَفَاضُوا مِنْهَا ، وَطَافُوا بِالْبَيْتِ عُرَاءَ ، أَمَا الرِّجَالُ فَيَطُوفُونَ عُرَاءَ ، وَأَمَا النِّسَاءُ فَتَضَعُ لِأَحَدَاهُنَّ ثِيَابَهَا كُلَّهَا إِلَّا ثَوْبًا^(٣) مَفْرَجًا عَلَيْهَا ، ثُمَّ تَطُوفُ فِيهِ .

فَكَانُوا كَذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ حِينَ أَحْكَمَ لَهُ دِينَهُ وَشَرَعَ لَهُ سُنَنَ حَجِّهِ : « نَمِ افْيِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »^(٤) ، يَعْنِي قَرِيشًا ، وَالنَّاسُ الْعَرَبُ . فَرَفَعَهُمْ فِي سُنَّةِ الْحَجِّ إِلَى عِرَاقَاتٍ وَالْوُقُوفِ عَلَيْهَا وَالْإِفَاضَةِ مِنْهَا .

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِيمَا كَانُوا حُرْمًا عَلَى النَّاسِ مِنْ طَعَامِهِمْ وَلِبَاسِهِمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ،

(١) الأفط : شئء متخذ من الخبيض الغنمى .

(٢) اللقى : الشئء الملقى .

(٣) ابن هشام : درما .

(٤) سورة البقرة ١٩٩ .

حين طافوا عند البيت عُرَاةً وحرَّموا ما جاءوا به من الحِلِّ من الطعام :
 « يا بني آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا
 إنه لا يحبُّ المُسْرِفينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ
 مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ
 نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (١) .

فوضع الله أمرَ الحُمُسِ ، وما كانت قريش ابتدعت منه على الناس ، بالإسلام
 حين بعث الله رسوله .

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموافقِ قومه على تغيير مشاعر الحجِّ
 والعدول عن مواقف الناس .

قال جُبَيْر بن مُطْعِم : لقد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قبلَ أن ينزل
 عليه الوحي ، وإنه لواقفٌ على بعيره بمرفات مع الناس مِنْ بَيْنِ قومه حتى يدفع
 معهم ، توفيقاً من الله له .

وقد تقدَّم ما أحدثوه من النِّسْيِ ، وما أَبْطَلَ اللهُ مِنْ حُكْمِهِ بقوله سبحانه :
 « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَمَّا وَاعَدُوا
 عَامًّا لِيُؤْثِرُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سِوَهُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ
 لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » (٢) .

فأغنى ذلك عن إعادته .

(١) سورة الأعراف : ٣١ ، ٣٢ .

(٢) سورة التوبة ٣٧ .

ذكر ما حفظ عن الأخبار والرهبان

والسكّان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبْلَ مَبْعَثِهِ ،
سوى ما تقدم من ذلك ، مع ذكر شيء مما تُسمع
من ذلك عند الأصنام أو هَتَفَتْ به المواتف^(١)

قال ابن إسحاق : وكانت الأخبار من يهود ، والرهبان من النصارى ،
والسكّان من العرب ، قد تحدّثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبْلَ مَبْعَثِهِ
مِثْلَ تَقَارِبِ مِنْ زَمَانِهِ .

أما الأخبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فعَمَّا وجدوا في كتبهم من
صِفَتِهِ وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه .

وأما السكّان من العرب فأتَّبَهُمْ به الشياطين فيما تَسْتَرِيقُ من السمع ، إذ
كانت لا تُحْجَبُ^(٢) عن ذلك ، وكان الكاهن والكاهنة ، لا يزال يقع منهما
ذكرُ بعض أموره لا يُتْلَقُ العربُ لذلك فيه بالآ ، حتى بعثه الله ووقعت تلك
الأمور التي كانوا يذكرون فعرّفوها .

فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مَبْعَثُهُ ، حُجِبَتْ الشياطين
عن السمع ، وحِيلَ بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها لاستراقه^(٣) ، فرُءوا
بالفجور ، فعرفت الجنُّ أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد .

(١) يعترض على الاستدلال بقول السكّان في إثبات النبوة بأن الإسلام قد أبطل السكّانة .
قال الماوردي : « فمَنه جوابان : أحدهما : أنه تأويل رُفِيَا تحققت خرج بها عن حكم السكّانة
الثاني أنه علمها بنقل الجن : كهتوف الجن » .

وعلى كل ، لما أُنْهِى الإسلام عن هتاف الجن وقول السكّان :
(٢) ابن هشام : وهي لا تُحْجَبُ . (٣) ابن هشام : لاستراق السمع فيها .

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حين بعثه يقص عليه خبر الجنّ إذ حُجِبُوا : « قُلْ : أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنَكَ عَجْبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا . وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا . وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعْبُودُونَ بَرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ، وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْبَغَتْ إِلَهُ أَحَدًا . وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاَهَا مُنْبَثَّةً حرَسًا شَدِيدًا وَشُحُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِذُّ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَبَشَرٌ أُرِيدَ يَمْنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا »^(١) .

فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما مُنعت من السمع قبل ذلك لئلا يُشكّل الوحيُ بشيء من خبر السماء فيُلَبِّسَ^(٢) على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه ، لوقوع الحجة وقطع الشبهة ، فآمنوا وصدّقوا . ثم « وَلَوْ أَلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا تَنبَأَ يَدِينَهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ »^(٣) .

وقولُ الجنّ^(٤) : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعْبُودُونَ بَرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا » هو أن^(٥) الرجل من العرب من قریش وغيرهم كان إذا

(١) سورة الجن ،

(٢) ابن هشام : فيلبس .

(٣) سورة الأحقاف .

(٤) ابن هشام : وكان قول

(٥) ابن هشام : أنه كان .

سافر فنزل بطن وادٍ من الأرض ايببت فيه قال : إني أعود بعزير هذا الوادى من الجن الليلة من شرٍّ ما فيه .

وذكر أن أول العرب فزع للرعي بالنجوم ، حين رعى بها ، ثقيف ، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية ، أحد بني عِلاج ، وكان أذى العرب وأنكرها^(١) رأيا فقالوا له : يا عمرو ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم ؟

قال : بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء ، ليأكل يصلح الناس في معاشهم ، هي التي يرمى بها فهو والله على الدنيا ، وهلاك هذا الخلق الذي فيها .

وإن كانت نجوماً غيرها ، وهي ثابتة على حالها ، فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق . فما هو ؟ !

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أنف من الأنصار : ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به ؟

قالوا : يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها يرمى بها : مات ملك ، ملك مولود ، مات مولود .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس ذلك كذلك ، ولكن الله تبارك تعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه حملة العرش فسبحوا ، فسبح من تحتهم

(١) أنكرها : من النكر بفتح النون ، وهو الدماء .

للسبيحهم ، فسبح من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهى إلى السماء الدنيا فسبحوا . ثم يقول بعضهم لبعض : ممّ سبّحتم ؟ فيقولون : سبّح من فوقنا فسبّحنا لتسبيحهم . فيقولون : ألا تسألون من فوقكم ممّ سبّحوا ؟ فيقولون : مثل ذلك ، حتى يذهبوا إلى حلة العرش ، فيقال لهم : ممّ سبّحتم ؟ فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا . للأمر الذى كان . فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهى إلى السماء الدنيا ، فيحدثوا به ، فتسترقه الشياطين بالسمع على نوحهم واختلاف ، ثم يأتون به السكّهان من أهل الأرض فيحدثونهم فيخطئون ويصيبون ، فتحدث به السكّهان فيخطئون بعضاً ، ويصيبون بعضاً .

ثم إن الله حجب هذه الشياطين بهذه النجوم التى يُقدّفون بها ، فانهطت السكّهانة اليوم ، فلا كهانة .

وذكر أبو جعفر المفضل بإسناد له ، إلى كهيب بن مالك اللّهي^(١) . قال : حضرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده السكّهانة ، فقلت : أبى أنت وأمى يا رسول الله ! نحن أول من عرّف حراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنهم من استراق السمع عند قذف النجوم ، وذلك أنّا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك ، وكان شيخاً كبيراً ، قد أنت عليه مائة سنة وثمانون سنة ، وكان من أعلم كهّاننا ، فقلنا : يا خطر ، هل عندك علم بهذه النجوم التى يُرى بها ؟ فإننا قد فرغنا لها وخفنا سوء عاقبتها .

فقال : ائفوني بسحر ، أخبركم الخبر ، أخيراً ضرر ، أو أمن أو حذر .

قال : فانهرفنا عنه يومئذ ، فلما كان من غد في وجه السحر أتينا ، فإذا هو

(١) بنو لهب : قوم من الأزد

فَأُثِمَّ عَلَى قَدَمَيْهِ شَاخِصٌ^(١) فِي السَّمَاءِ بِمِيزَانِهِ ، فَهَادِيذَاهُ : يَا خَطَرَ يَا خَطَرَ . فَأَوْمَأَ إِلَيْنَا
أَنْ أَمْسِكُوا . فَأَمْسَكْنَا .

فَانْقَضَ^(٢) نَجْمٌ عَظِيمٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَصَرَخَ السَّكَّانُ رَافِعًا صَوْتَهُ : أَصَابَهُ أَصَابُهُ ،
خَاطَمَتْهُ عِقَابُهُ ، عَاجَلَهُ عَذَابُهُ ، أَخْرَقَتْهُ شَيْهَابُهُ ، زَايَلَهُ جَوَابُهُ ، يَا وَيْحَهُ^(٣)
مَا حَالُهُ ، بَلْبَلَاهُ بَلْبَلَاؤُهُ ، عَارَظَهُ خَبَالُهُ ، تَقَطَّعَتْ حَبَالُهُ ، وَغُيِّرَتْ أَحْوَالُهُ .

ثُمَّ أَمْسَكَ طَوِيلًا وَقَالَ : لَا مَعْشَرَ بَنِي قُحْطَانٍ ، أَخْبَرَكُمْ بِالْحَقِّ وَالْبَيَانِ ،
أَفَسَمْتُمْ بِالْكَعْبَةِ وَالْأَرْكَانِ ، وَالْبَلَدِ الْمُؤْتَمِنِ السَّدَّانِ ، لَقَدْ مُنِعَ السَّمْعَ عَتَاةُ الْجَنَانِ ،
بِثَاقِبٍ بِأَمْرِ ذِي سُلْطَانٍ ، مِنْ أَجْلِ مَبْعُوثٍ عَظِيمِ الشَّانِ ، يُنْبِئُ بِالْفَنَزِيلِ
وَالْقُرْآنِ ، وَبِالْهَدَى وَفَاصِلِ الْفِرْقَانِ ، تَبْطُلُ بِهِ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ .

قَالَ : فَقُلْتُ : يَا خَطَرَ ، إِنَّكَ لَتَذْكُرُ أَمْرًا عَظِيمًا فَإِذَا تَرَى لِقَوْمِكَ ؟

قَالَ :

أَرَى لِقَوْمِي مَا أَرَى لِنَفْسِي
أَنْ يَتَّبِعُوا خَيْرَ بَنِي الْإِنْسِ
بِرَهَانِهِ مِثْلُ شُعَاعِ الشَّمْسِ
يُنْبِئُ فِي مَكَّةَ دَارِ الْخُمْسِ
بِمُحْكَمِ التَّنْزِيلِ غَيْرِ اللَّبْسِ

فَقُلْنَا لَهُ : يَا خَطَرَ ، وَمَنْ هُوَ ؟

فَقَالَ : وَالْحَيَاةِ وَالْمَعِيشِ ، إِنَّهُ لَمِنْ قُرَيْشٍ ، أَيْسَ فِي حَيْلِهِ^(٤) طَيْشٌ وَلَا فِي خُلُقِهِ

(١) المطبوعة : يَاوِيلُهُ .

(٢) المطبوعة : فِي حَكْمِهِ .

هيش^(١) يكون فى جيش وأى جيش ! من آل قحطان وآل أيش . فقلنا له :
بين لنا من أى قریش هو ؟

فقال : والبيت ذى الدعائم ، إنه لمن نبجل هاشم ، من معشر أكارم ، يهيم
بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرنى به رئيس الجان .
ثم قال : الله أكبر جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر .
ثم سكت وأغشى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاثة ، فقال : لا إله إلا الله .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ، لقد نطق عن مثل نبوة ،
وإنه ليهيم يوم القيامة أمة وحده .

قال ابن إسحق : وحدثنى بعض أهل العلم أن امرأة من بنى سَنَمٍ يقال لها
الغَيْطَلَةُ ، كانت كاهنة فى الجاهلية ، جاءها صاحبها ليلة من الليالى فانقض تحتها ،
ثم قال : بذرت ما بدر^(٢) ، يوم عقر ونحر .

فقال قریش حين بلغها ذلك : ما تريد ؟

ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها ، ثم قال : شعوب^(٣) ما شعوب^(٣)
تصبرع فيه كعب^(٣) الجُؤوب .

(١) الهيش : الإفساد

(٢) ابن هشام : أدر ما أدر . وما هنا أوضح .

(٣) شعوب هنا بضم الشين وكأته جمع شعب ، وقول ابن إسحق يدل على هذا حين
قال : فلم يدر ما قالت حتى قتل من قتل بيبر وأحد بالشعب .

فلما بلغ ذلك قريشا ، قالوا : ماذا يريد ؟ إن هذا لأمرٌ هو كائن
فانظروا ما هو .

فما عرفوه حتى كانت وقعةٌ بدّر وأحد بالشعب ، فعرفوا أنه الذي كان
جاء به إلى صاحبتة .

قال : وحدثنى علي بن نافع الجرمي أن جَنبًا بَطْنًا من اليمن ، كان لهم
كاهن في الجاهلية ، فلما ذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر
في العرب قالت له جَنب : انظر لنا في أمر هذا الرجل . واجتمعوا له
في أسفل جَبَلِه .

فنزل عليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائما متكئا على قوس له ، ورفع
رأسه إلى السماء طويلا ، ثم جعل ينزو ثم قال : أيها الناس ، إن الله أكرم
محمداً واصطفاه ، وطهر قلبه وحشاه ، ومُسَكَّنُهُ فيكم أيها الناس قليل . ثم اشتد
في جبهه راجعا من حيث جاء^(١) .

قال : وحدثنى مَنْ لا أتهم ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بينما هو جالس
في الناس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبل رجل من العرب يريد
عمر ، فلما نظر إليه عمر قال : إن الرجل لَمَلَى شِرْكُهُ ما فارقه بعدُ ، أو لقد كان
كاهنا في الجاهلية .

فسلم عليه الرجل ، ثم جلس ، فقال له عمر : هل أسلمت ؟ قال : نعم يا أمير
المؤمنين ، قال : فهل كنت كاهنا في الجاهلية ؟ فقال له الرجل : سبحان الله

(١) ط : ثم أسند في جبهه راجعا من حيث شاء .

يا أمير المؤمنين ! لقد خِلْتُ فيَّ واستقبلتني بأمر ما أراك قلبه لأحدمن رعيقتك منذ وليت .

فقال عمر : اللهم غَفراً ، قد كُفينا في الجاهلية على شرٍّ من هذا ، نعبُد الأصنام ونعتنق الأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام .

قال : نعم ، والله يا أمير المؤمنين لقد كنتُ كاهناً في الجاهلية .
قال : فأخبرني بما جاءك به صاحبك .

قال : جاءني قبيل الإسلام بشهر أو شَيعِه^(١) ، فقال : ألم تر إلى الجن وإبلاسها وإياسها من دينها ، ولحوقها بالقيَاص وأحلاسها !

قال ابن هشام : هذا الكلام سَجَّع وليس بشعر وأنشدني بهض أهل العلم بالشعر :

عجبتُ للجنِّ وإبلاسها وشَدَّها العيسَ بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبني الهدى ما مؤمنُ الجن كأنجاسها

فقال عمر رضي الله عنه عند ذلك ، يحدث الناس : والله إنى أعتد وثني من أوثان الجاهلية في نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب هجلاً ، فنحن ننتظر قَسْمه لِيَقْسَمَ لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل صوتاً ما سمعت قط أنفَدَ منه ، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شَيعِه يقول : يا ذَرِيعُ أمرٌ نجيع ، رجل يصيح يقول لا إله إلا الله .

قال ابن هشام : ويقال : رجل يصيح باسان فصيح يقول لا إله إلا الله .

(١) أى مقداره .

وهذا الرجل الذى ظن به عمر رضى الله عنه ما ظن ، هو سواد بن قارب
الدؤسى ، وكان يتسكن في الجاهلية .

وقد ذكر خبره غير ابن إسحق ، فساقه سياقة أحسن من هذه وأتم ، وذكر
فيه أنه كان قائماً على جبال من جبال السراة ليلة من الليالي ، فأناه آثر ،
فضر به برجله وقال :

قم يا سواد بن قارب ، أذاك رسول من أومى بن غالب .

قال : فرفعت رأسى وجلست فأدبر وهو يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَتَطْلَأُ بِهَا
وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَقْنَابِهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْنِي الْمُدَى
مَا صَادَقُ الْجَنُّ ككَذَابِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
لَيْسَ قَدَّامَهَا كَأَذْنَابِهَا

وأناه في الليلة الثانية ، فضر به برجله ، وقال : قم يا سواد بن قارب ، أذاك
رسول من لوى بن غالب . قال : فرفعت رأسى فجلست ، فأدبر وهو يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَأَخْبَارَهَا
وَرَحَلَهَا الْعَيْسَ بِأَسْكَوَارَهَا
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْنِي الْمُدَى
مَا مُؤْمِنُوهَا مِثْلُ كُفَّارَهَا

— ٢٢٢ —

فَارْحَلْ إِلَى الْمَصْفُوفَةِ مِنْ هَاشِمٍ
لَيْسَ قَدْ آمَاها كَادِبَارِها

وَأَتَاهُ فِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ بَعْدَ مَا نَامَ ، فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ وَقَالَ : قُمْ يَا سَوَادُ بْنُ
قَارِبٍ أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤْيٍ بْنِ غَالِبٍ قَالَ : فَرَفَعَتْ رَأْسِي وَجَلَسْتُ ،
فَأَدْبَرَ وَهُوَ يَقُولُ :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَإِبْلَاسِها
وَرَحَلَهَا الْعَيْسَ بِأَحْلَاسِها
نَهَوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْنِي الْهُدَى
مَا مُؤْمِنُها مِثْلُ أَرْجَاسِها
فَارْحَلْ إِلَى الْمَصْفُوفَةِ مِنْ هَاشِمٍ
وَارْمِ بَعِينِيكَ إِلَى رَأْسِها

قَالَ : فَلَمَّا أَصْبَحَتْ اقْتَعَدَتْ بِمِيزَى فَاتَيْتَ مَكَّةَ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ظَهَرَ ، فَأَخْبَرْتَهُ الْخَبَرَ وَبَايَعْتَهُ .

وَفِي بَعْضِ طَرُقِ حَدِيثِهِ أَنَّهُ أَنْشَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِعْرًا مِنْهُ
فِي مَعْنَى مَا جَاءَ بِهِ رِئِيسُهُ :

أَتَانِي رِئِيسٌ بَعْدَ هَذِهِ وَرَقْدَةٍ^(١)
وَلَمْ يَكُ فِيمَا قَدْ بَلَوْتُ بِكَادِبٍ

(١) ط : وَهَجْمَةٌ .

ثلاث ليالٍ قوله كل ليلة
أناك رسول^(١) من لؤي بن غالب
فرفعت أذيال الإزار وشمـرت
بي العزمس الوجناء وسط السباب^(٢)
فأشهد أن الله لا رب غيره
وأناك مأمون على كل غائب
فمرنا بما ياتيك من وحي ربنا
وإن كان فيما حثت شيب الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاع^(٣)
بمئني فتيلة عن سواد بن قارب

واسواد بن قارب هذا مقام حميد في قومه دؤس ، حين بلغهم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يشبّتهم في الدين ويحضّهم على التمسك بالإسلام ، سنذكره إن شاء الله مع نظائره بعد استيفاء الخبر عن وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكر الواقدي بإسناد له قال : كان أبو هريرة يحدث أن قوماً من خنعم كانوا عند صنم لهم جلوساً ، وكانوا يتحاجون إلى أصنامهم ، فيقال لأبي هريرة : هل كنت أنت تفعل ذلك ؟ فيقول : قد فعلتُ فأكثر ، فالحمد لله الذي أنقذني^(٤) بمحمد صلى الله عليه وسلم .

(١) المطبوعة : نبي .

(٢) العزمس : الناقة الصلبة . وتروى : الذعلب . والسباب : جمع سبب وهي الفلاة

(٣) ط : ذو قرابة . (٤) ط : تنقذني .

قال أبو هريرة : فَبَيَّنَّا الْخُلُوعِيَّونَ عِنْدَ صَنَمِهِمْ إِذْ سَمِعُوا هَاتِفًا يَهْتَفُ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ذُورِ الْأَجْسَامِ -
وَمُسْنَدُوا الْحُكْمِ إِلَى الْأَصْنَامِ -
أَكَلْتُمْ أَوْزَةَ كَالْكُهْمِ^(١) -
أَلَا تَرَوْنَ مَا أَرَى أُمَامِي
مِنْ سَاطِعٍ يَخْلُو دُجَى الظُّلَامِ -
ذَاكَ نَهْيٌ سَيِّدُ الْأَنَامِ -
مَنْ هَاشِمٍ فِي ذِرْوَةِ السَّمَامِ -
مُسْتَعْلَنٌ بِالْبَلَدِ الْحَرَامِ -
جَاءَ بِهِمْ^(٢) الْكَفَرُ بِالْإِسْلَامِ^(٢) -
أَكْرَمَهُ الرَّحْمَنُ مِنْ إِمَامِ -

قال أبو هريرة : فَأَمْسَكُوا سَاعَةً حَتَّى حَفِظُوا ذَلِكَ ثُمَّ تَفَرَّقُوا ، فَلَمْ تَمُضْ بِهِمْ ثَلَاثَةٌ حَتَّى جَاءَهُمْ خَبَرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ بِمَكَّةَ .
قال : فَمَا أَشْلَمَ الْخُلُوعِيَّونَ حَتَّى اسْتَأْخَرُوا إِسْلَامَهُمْ وَرَأَوْا عِزًّا عِنْدَ صَنَمِهِمْ .

وذكر الواقدي أيضاً أن رجلاً من الأنصار حدث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : انطلقت أنا وصاحبان لي نريد الشام ، حتى إذا كنا بدفرة من الأرض نزلنا بها ، فبينما نحن كذلك إذ لحقنا راكب ، فكنا أربعة وقد أصابنا سَقَبٌ شديد ، والتفتُّ فإذا أنا بظلمية عَضْبَاءَ ترتع قريباً مني فوثبتُ إليها .

(١) الأوزة : الأحمق .

(٢) المطبوعة : جاء بهدم الكفر بالإسلام .

فقال الرجل الذى هنا : خل سبيلها ، لا أبالك ، والله لقد رأيتهما ونحن نسالك
هذا الطريق ونحن عشرة أو أكثر فمُخْتَلَفٌ بعضُنا ، فما هو إلا أن كانت
هذه الظبية فما يُهاجُ بها أحد .

فأبَيْتُ وقلت : لا لَعَمَرُ الله لا أخليها .

فارتحلنا وقد شدتها معى ، حتى إذا ذهب سَدَفٌ من الليل إذا هاتف
يهتف بنا ويقول :

يا أيها الركبُ السُّراعُ الأربعة
خلوا سبيل الدافِر^(١) المَفزَعَه
خلوا عن اللَّعْنَاءِ فى الوادى سَمَعَه
لا تَذْبَحُنَّ الظبيَّةَ المروَّعةَ
فيها لأيتام صفار منقعة

قال : نخلت سبيلها ، ثم انطلقنا حتى أتينا الشام ، فقضينا حوائجنا ، ثم أقبلنا
حتى إذا كنا بالمكان الذى كنا فيه هتف بنا هاتف من خلقنا :

إياك لا تَعَجَلْ وخذها من ثِقَةٍ
فإن شرَّ السَّيْرِ سَيْرُ الحَقِيقَةِ^(٢)
قد لاحَ نجمٌ فأضاء مَشْرِقَه
يُخْرِجُ مِنْ ظِلْمَا عَسُوفٍ مُوَيَّقَه

(١) ط : الدافد .

(٢) الحقيقه : أرفع السير وأتمه للظفر أو اللجاح لى السير .

ذاك رسولٌ مُفْلِحٌ مَن صَدَّقَهُ اللهُ أَعْلَى أَمْرِهِ وَحَقَّقَهُ
قال الرجل : فأنيت مكة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو
إلى الإسلام .

فقال عمر : الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ورويانا عن أبي المنذر هشام بن محمد الكلبي بإسناد متصل إليه ، قال : لقد
لقيتُ شيوخا من شيوخ طَيِّبِ المقدمين ، فسألتهم عن قصة مازن ،
يعني مازن بن النضوبة الطائي ، وسبب إسلامه ووفوده على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وإقطاعه أرض عُحْمَانَ ، وذلك بِمَنْ الله وفضله .

وكان مازن بأرض عُحْمَانَ بقرية تدعى سَمَائِلَ . قال مازن : فَمَتَرْتُ ذات
يوم عَتِيرَةَ ، وهي الذبيحة ، فسمعت صوتا من الصنم يقول : يا مازن أَقْبِلْ أَقْبِلْ ،
فاسمع مالا تَجْهَلُ ، هذا نبيٌّ مُرْسَلٌ ، جاء بحق مُنْزَلٍ ، فَأَمِنْ به كي تُعْزَلَ ،
عن حرّ نارِ نُشْعلٍ ، وقودها بالجفدل .

قال مازن : فقلت إن هذا والله لمعجب ، ثم عَتَرْتُ بعد أيام عَتِيرَةَ أخرى ،
فسمعت صوتا أَبَيِّنَ من الأول ، وهو يقول : يا مازن اسمع نُسْرَةً ، ظهر خيرٌ ويطن
شر ، بُثَّ نبي من مُضَرٍّ ، بدين الله الأكبر^(١) ، فدَعِ نَحِيْقًا من حَجَرٍ ، تَسْلُمُ
من حرّ سَقَرٍ .

قال مازن : فقلت إن هذا والله لمعجب وإنه لخير يراد بي ، وقَدِمَ علينا رجل
من أهل الحجاز فقلنا : ما الخير وراءك ؟ قال : خرج بتهامة رجل يقول لمن
أنابه : أجيئوا داعيَ الله ، يقال له أحمد .

(١) هذه رواية المطبوعة . وفي ط : بدين لله الأكبر . وفي ا : بدين الله الأكبر

فقلت : هذا والله نبؤ ما سمعت .

فنزتُ إلى الصنم فسكسرتُه بُعْدًا إذا وشهدت راحلتى ورحلت ، حتى
أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرح لى الإسلام فأسلمت ،
وأنشدت^(١) أقول :

كسرتُ يا جُرَّ أجذاذا وكان لفا
ربنا نُطِيف به ضللاً بتضلال^(٢)
بالهاشميَّ هدايا من ضلالتنا
ولم يكن ديدنه منى على بالـ
يا راكبا بلفن عمرا وإخوتها
أنى لمن قال ربى يا جُرَّ قالى

وقلت : يا رسول الله إنى امرؤ مولع بالطرب وبشرب الخمر وبالهلوك إلى
النساء ، وألحّت عليّنا^(٣) السُّنُونُ ، فأذهبن الأموالَ وأهزلن الذَّرارى والرجالَ ،
وليس لى ولد ، فادع الله أن يُذهب عنى ما أجد ويأتينى بالحياة ، ويهب
لى ولدا .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن ، وبالحرّام
الحلالَ ، وائتقه بالحياة ، وهب له ولدا .

قال مازن : فأذهب الله عنى كل ما أجد ، وأخصبتُ عُمانَ ، وتزوجتُ

(١) ط : فأنشأت .

(٢) المأبوءة : سلا لتضلال .

(٣) ط : طلى .

أربع حرائر، ووهب الله لى حيان^(١) بن مازن ، وأنشأت أقول :

إليك رسول الله سقتُ مِطْيَتِي
تجوبُ الفياثى من عُثْمَانَ إلى العَرْجِ^(٢)
لأشفع لى ياخيرَ مَنْ وَطِئَ الندى
فيعفر لى ربى فأرجع بالفالج^(٣)
إلى معشرٍ خالفتُ فى الله دينهم
فلارأيتهم رأيت ولا شرجهم شرجى^(٤)
وكنت امرأ باللهو والخمر مؤلماً
شبابى حتى أذن الجسم بالنهيج
فأصبحت همى فى جهادٍ وليتى
فله ما صومى والله ما حببى*

ومما يلحق بهذا الباب من حسان أخبار السكهان وإن كان بعد المبعث بزمان
ولكنه يجتمع مع الأحاديث السابقة فى الدلالة على صدق الرسول ، والإعلام
بالغيب المجهول ، والإرشاد إلى سواء السبيل ، ما ذكره أبو هلى إسماعيل بن القاسم
فى أماليه^(٥) بإسناد له إلى ابن الكلبي عن أبيه قال :

-
- (١) المطبوعة : حبة .
(٢) العرج : موضع بين مكة والمدينة .
(٣) الفالج بفتح الفاء الظفر والاسم منه الفالج بالضم .
(٤) المريج : المثل والنوع
(٥) هذه رواية المطبوعة ، وفى ط : بالزعب وهو الجناح وفى الأصل .
(٦) الأمالى ١ / ١٣٢ - ١٣٤

كان خُذافَر بن الثَّوَام الخُزَيْرِي كاهنًا ، وكان قد أوتي بسطةً في الجسم وسعة في المال ، وكان عاتيكًا ، فلما وفدت وفود اليمين على النبي صلى الله عليه وسلم [وظهر الإسلام] أغار على إبل لمراد فاكتسحها ، وخرج بأهله وماله ولحق بالشجر لخالف جُودَان بن يحيى ^(١) [الفرضي ^(٢)] ، وكان سيِّدا مفيعا ^(٣) ، ونزل بوادي من أودية الشجر مخصب كثير الشجر من الأيكة والعرين .

قال خُذافَر : وكان رأيي في الجاهلية لا يغييب عني ^(٤) ، فلما شاع ^(٥) الإسلام فقدته مدة طويلة وساءني ذلك ، فبينما أنا ليلة بذلك الوادي نائمًا إذ هوَّى هوَّى المقاب ، فقال خُذافَر ؟ فقات شصار ؟ فقال : اسمع أفل . قلت : قل . اسمع . فقال : عه تغنم ، اسكل مدة نهاية وكل ذي أمد إلى غاية . قلت : أجل . فقال : كل دولة إلى أجل ثم يتاح لها حول ، انسخن الدحل ورجعت إلى حقائقها الممل ، إنك سيجير موصول ^(٦) والنصح لك مهذول ، إنى آنست بأرض الشام نفرا من أهل العزام ^(٧) حكماء على الحسكام يذبرون ^(٨) ذا رونق من السكلام ، ليس بالشعر المؤلف . ولا بالسجع المتشكف ، فأنصت فزُجرت ، فعاودت فظلمت ^(٩) ، فقلت : بهم تهينمون وإلام تعززون ؟ فقالوا خِطاب كهبار جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار تنبج من أوار النار .

(١) ط : بن يحيى . وضبطها بضم التاء وفتح الحاء بالقلم .

(٢) من الأمالي .

(٣) ط : مفيعا .

(٤) الأمالي : لا يكاد يغييب عني .

(٥) ١ : شريح .

(٦) السجبر : الصديق .

(٧) العرام : قبيلة من اليمن .

(٨) ١ : ذبرت الكتاب إذا قرأه وذرته إذا كتبه ، وقالوا : ذبرته وذبرته بمعنى

واحد إذا كتبه . و ١ : يذكرون .

(٩) طلعت : منعت .

فقلت : وما هذا الكلام ؟ قالوا : فرقانٌ بين الكفر والإيمان ، رسول من مُضَرٍّ ، من أهل المَدَرِ ، ابْتُمَّتْ فظْهَرُ ، خِفاء بقول يَبْهَرُ ، وأوضح نَهْجًا قد دَوَّرَ ، فيه مواعظٌ لمن اعتبر ، ومَعَاذٌ لمن اذْدَجَرَ ، أَلْفٌ بِالْأَيِّ السَّكْبَرِ .

فقلت : ومن هذا المبعوث من مضر ؟ قالوا : أحمد خير البشر ، فإن آمَنت أعطيت الشَّيْرُ^(١) ، وإن خالفت أضليت سَقَر .

فآمَنتُ يا خُدَّافِرُ ، وأقبلت إليك أبادِرُ ، فجانِبْ كُلَّ نَجَسٍ كافر ، وشايِعِ كُلَّ مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراقُ لا عن تلاقٍ^(٢) .

قلت : من أين أبغى هذا الدين ؟

قال : من ذات الإحَرِّين^(٣) والنَّفَرِ اليَمَانِينَ أهل المساء والعطين .

قلت : أوضِّحْ . قال : الحقُّ بيثربَ ذات النخل ، والحرقِ ذات النخل^(٤) ، فهذه لك أهلُ الطَّوْلِ والفضل والمواساة والبذل .

نم املَسَ عني فبتُ مَذْهُوراً أراعى الصباح ، فلما برق لى النور امتعطيت راحلتى وآذنت^(٥) أعْبُدِي واحتملت بأهلى ، حتى وردت الجوف فرددت الإبل على أربابها بمحولها وسِقَابِها^(٦) ، وأقبلت أريد صنعاء ، فأصَبْتُ بها

(١) الشير : يسكون الباء الخير ، وحرك للسجع ، كما قال المعجاج :

الحمد لله الذى أعطى الشَّيْرَ موالى الخير إن المولى شَكَّرَ

(٢) فى غير المطبوعة : عن لا .

(٣) قال الأصمى جمع الحرة : حرار وحرون وأحرون .

(٤) النخل : المكان المليط من الحرة .

(٥) آذنت : أعلمت .

(٦) الحول : جمع حائل ، وهى الأنثى فى أولاد الإبل . والسقاب : جمع سقاب ،

وهو الذكر .

معاذ بن جبل أميراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبايعته على الإسلام ، وعلمني
من القرآن ، فن الله على بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة ، وقامت
في ذلك :

أَنْتُمْ تَرَأَوْنَ اللَّهَ عَادَ بِنَفْسِهِ
فَأَنْقَذَ مِنْ أَنْفَجِ الزَّخِيمِخْ خُفَافاً^(١)
وَكَشَفَ لِي مِنْ حَجْمَتِي عَمَامَا
وَأَوْضَحَ لِي نَهْجِي وَقَدْ كَانَتْ دَائِرَا^(٢)
دَعَانِي شَيْسَارٌ لَلْقَى لَوْ رَفَضَتْهَا
لَأَصَابَتْ بَجْرًا مِنْ لَغَى الْهَوْبِ وَاهِرَا^(٣)
فَأَصْبَحْتُ وَالْإِسْلَامُ حَشُو جَوَانِحِي
وَجَانِبْتُ مَنْ أَمْسَى عَنِ الْحَقِّ نَائِرَا^(٤)
وَكَانَ مُضِلِّي مَنْ هَدَيْتُ بِرُشْدِهِ
فَلِلَّهِ مُنَوَّرٌ عَادَ بِالرُّشْدِ آمَرَا
نَجْمُوتُ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ قَحْصَةٍ
تَوَرَّثَ هَلْكَاءَ يَوْمٍ شَايَعْتُ شَاصِرَا^(٥)

(١) الزخيمخ : باقة أهل البين النار .

(٢) الحجةتان : البيان باقة أهل البين . قال شاعرهم ، وأكل أمه الذئب :

فِيَا حَجْمَتَا بَيْكِي عَلَى أُمِّ وَاهِبِ

أَكِيلَةَ قُلُوبٍ بِبِهِضِ الْمَذَانِبِ

(٣) الهوب : النار ، باقهم والواهر : الساكن مع شدة الحر .

(٤) النائر : النافر .

(٥) القحمة : الشدة .

— ٢٣٢ —

فقد أمتني بعد ذاك يُحابر
 بما كنتُ أغشى المُنديات يُحابرا
 فمن مُبلغ فتية إن قومي ألوكه
 بأنني من أقتال من كان كافرا^(١)
 عليكم سواء القصد لأفل حدكم
 فقد أصبح الإسلام للشرك قاهرا

وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم حدثه ، أنه كان لمِرْدَاس أبي العباس بن
 مِرْدَاس السلمي وثني يعبده ، وهو حجر يُقال له ضمائر ، فلما حضر مرداساً
 الموت^(٢) قال للعباس : أي بُنَى اعبدُ ضمائر ، فإنه ينفَعُك ويضُرُّك . فمينا العباس
 يوماً عند ضمائر ، إذ سمع في جوف ضمائر منادياً يقول :

قلن للقبائل من سليم كلمها
 أودى ضمائر وعاش أهل المسجد
 إن الذي ورث النبوة والهدى
 بعد ابن مريم من قريش مهدي
 أودى ضمائر وكان يُعبد مرة
 قبل الكتاب إلى النبي محمد
 ففرق العباس ضمائر ، ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فأسلم .

(١) الألوكه : الرسالة ، والأقتال : الأعداء .

(٢) غير المطبوعة : فلما حضر مرداس .

والأخبار في هذا الباب مما نُقِلَ من ذلك عن السُّكَّانِ ، أو سُمِعَ عند الأصنام ، أو هفتت به هواتفُ الجانِّ كثيرة جداً ، وقد أثبتنا منها ما استحسنناه ممَّا ذكره ابن إسحاق ، أو ذكره سواء .

[إنذار يهود بالذي]

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصمُ بن عمر بن قتادة ، عن رجال من قومه قالوا: إن ما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله لنا وهُداه ، لمَّا كنَّا نسمع من أخبار يهود .

كنَّا أهلَ شرك أصحابِ أوثان ، وكانوا أهلَ كتابٍ عندهم علمٌ ليس لنا ، وكانت لا نزال بيننا وبينهم شرورٌ ، فإذا نلنا منهم بعضَ ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقاربَ زمانُ نبيٍّ يبعثُ الآن ، نقتلُكم معه قتلَ عادٍ وإرمَ .

فكنَّا كثيراً ما نسمع ذلك منهم .

فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتواعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فأمنَّا به وكفروا به .

ففيما وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة « وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » ^(١) .

قال : وحدثني صالح بن إبراهيم ، عن محمود بن لبيد ، عن سلمة بن سلامة بن وقش وكان من أصحابِ بذر قال : كان لنا جارٌّ من يهود في بني عبد الأشهل ، فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث

والحساب والميزان والجنة والدار ، فقال ذلك لقومٍ أهلِ شِرْكٍ وأصحابِ أوثانٍ ، لا يرون أن ههنا كأنَّ بعدَ الموتِ .

فقالوا له : ويحك يا فلان أترى هذا كأنَّ ، أن الداس يُبْتَعُونَ بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنةٌ ونارٌ ، يُجْزَوْنَ فيها بأعمالهم .

قال : نعم والذي يُخَلَّفُ به : وَلَوْ أَنَّ له بِحِظِّهِ من تلك النارِ أعظمَ تَنَوُّيرٍ في الدارِ يُخَمِّمُونَهُ ثم يدخلونه إياه فيطَيِّبُونَهُ عليه ، بأن ينجو من تلك الدارِ غداً .

فقالوا له : ويحك يا فلان ، وما آية ذلك ؟

قال : نبيٌّ مبعوثٌ من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن .

قالوا : ومتى نراه ؟

قال : فنظروا إلىَّ ، وأنا أخذتهم سنًا ، فقال : إن يستغفد هذا الغلامُ عُمرَه يُذَرِّكُه .

قال سَلَمَةُ : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم وهو حيٌّ بين أظهرنا ، فآمَنَّا به وكفَر به بُقِيًّا وحسدًا .

فقلنا له : ويحك يا فلان ! ألسنتُ بالذي قلتَ لنا فيه ما قلتَ ؟ !

قال : بلى واسكن ليس به !

قال : وحدثني عاصم بن عمر عن شيخ من بني قريظة . قال : قال لي : هل تدري عمَّ كان إسلامُ ثعلبة بن سَعْيَةَ وأَسِيد بن سَعْيَةَ وأَسَد بن عبيد ، نفر من هَذَلٍ لإخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليتهم ، ثم كانوا سادتهم في الإسلام ؟ قال : قلت : لا .

قال : فإن رجلا من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهيئان ، قدم علينا قبل الإسلام بسدين ، فخل بين أظمرنا ، لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلح الخمس أفضل منه .

فأقام عندنا ، فـكـدنا إذا قحط عنا المطر قلنا له : أخرج يا ابن الهيئان فاستسقى لنا . فيقول : لا والله حتى تقدموا بين يدي نخرجكم صدقة . فـدـقول له : كم ؟ فيقول : صاعاً من تمر ومُدَّين من شعير .

فـدـخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حَرَّنا فيستسقى لنا ، فوالله ما يبرح بحاجته حتى تملأ السحاب ونسقى .

قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ، ثم حضرته الوفاة عندنا . فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ، ما ترون أنه^(١) أخرجني من أرض الظنم والظير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قلنا : أنت أعلم .

قال : فإنما قديمت هذه البلدة أتوكف^(٢) خروجي قد أظلم زمانه ، وهذه البلدة مُهاجرة ، فسكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه ، وقد أظلمكم زمانه ، فلا تُسمِّقن إليه يا معشر يهود ، فإنه يُبعث بسفك الدماء وسبى الدراري والنساء ممن خالفه ، فلا يمتنعنكم ذلك منه .

فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر بني قريظة قال هؤلاء الفِئْتية ، وكانوا شباباً أحداثاً : يا بني قريظة والله إنه للأنبي الذي عهد إليكم

(١) المطبوعة : ما ترونه .

(٢) أتوكف : أنتظر .

ففيه ابن الهيثبان ، قالوا : ليس به . قالوا : بلى والله ، إنه هو بصفته .
فنزلوا وأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهلهم .

قال ابن إسحاق : فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود^(١) .

[حديث سلمان الفارسي]

قال : وحدثني عاصم بن محمود^(٢) عن ابن عباس رضى الله عنه قال : حدثني
سلمان الفارسي من فيه ، قال :

كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان ، من أهل قرية يقال لها جئ ،
وكان أبى دَهْقَان^(٣) قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، لم يزل به حُبّه
إنيّ حتى حبسني في بيته كما تُحبَس الجارية ، واجتهدت في المجوسية حتى
كنت قَطَن^(٤) النار الذي يؤقدها ، لا يتركها تحبوس ساعة .

وكانت لأبى ضيمّة عظيمة ، فشغل في بنيان له يوماً ، فقال لى : يا بُنَى إني
قد شغلت في بنيانى هذا اليوم عن ضيمتى ، فاذهب إليها فاطلمها . وأمرنى فيها
ببعض ما يريد ، ثم قال لى : لا تحبس عني ، فإنك إن احتبست عني كنت
أهم إلى من ضيمتى وشغلتنى عن كل شيء من أمرى .

فخرجت أريد ضيمته التي بهمنى إليها فررتُ بكليسة من كنائس النصارى ،
فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلّون ، وكنت لا أدري ما أمرُ الناس ،
لجئس أبى إنيّ في بيته .

(١) المطبوعة : من أخبار يهود .

(٢) المطبوعة : عاصم عن محمود ، وهو خطأ .

(٣) الدهقان : زعيم فلاحي الميجم أو رئيس الإقليم .

(٤) أى خادمها .

فلما سمعت أصواتهم ، دخلتُ عليهم^(١) أنظرُ ما يصنعون ، فلما رأيتُهم
أعجبني صلاتُهم ، ورغبتُ في أمرهم رقلتُ : هذا والله خيرٌ من الذي نحن عليه .
فوالله ما برحْتُهم حتى غربت الشمس ، وتركْتُ ضيعة أبي فلم آتِها ، ثم قلتُ
لهم : أين أصلُ هذا الدين ؟ قالوا : بالشام .

فرجعتُ إلى أبي وقد بحث في طلي ، وشغلته عن عمله كُلِّه ، فلما جئتُه
قال : أي بُنى أين كنت ؟ ألم أكن عهدتُ إليك بما عهدتُ ١٢ قلتُ :
يا أبت مررتُ بأناس يصلون في كديسة لهم فأعجبني ما رأيت في دينهم ، فوالله
ما زلتُ هُندم حتى غربت الشمس .

قال : أي بُنى ليس في ذلك الدين خيرٌ ، دينك ودين آبائك
خيرٌ منه

فقلتُ له : كَلَّا والله ، إنه خيرٌ من ديننا .

قال : نفاقي ، فجعل في رجلٍ قيداً ثم حبسني في بيته .

وبعثتُ إلى القصارى ، فقلتُ لهم : إذا قدم عليكم ركبٌ من الشام
فأخبروني بهم ، فقدم عليهم [ركب من الشام]^(٢) تجار من القصارى ،
فأخبروني . فقلتُ لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم ،
فأذِنوني بهم .

قال : فلما أرادوا الرجعة أخبروني بهم ، فألقيت الحديدَ من رجلٍ ، ثم
خرجتُ معهم حتى قدمتُ الشام .

(١) المطبوعة : إليهم .

(٢) من ابن هشام .

فلما قدمتها قلتُ مَنْ أَفْضَلُ أَهْلُ هَذَا الدِّينِ عِلْمًا ؟ قالوا : الأُسْتَفُ
فِي السَّكِينَةِ . فَبَيَّنْتُ فَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ ، وَأَحْبَبْتُ
أَنْ أَكُونَ مَعَكَ وَأَخْدَمَكَ فِي كَنِيسَتِكَ ، وَأَتَعَلَّمَ مِنْكَ ، وَأَصِلَ مَعَكَ .
قال : ادْخُلْ .

فَدَخَلْتُ مَعَهُ ، فَكَانَ رَجُلٌ سَوَاءٌ يَأْمُرُهُمُ بِالصَّدَقَةِ وَيُرْغِبُهُمْ فِيهَا ، فَإِذَا
جَمَعُوا إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْهَا اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ ، حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِنْ
ذَهَبٍ وَوَرِقٍ .

فَأَبْغَضَتْهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتَهُ يَصْنَعُ .

ثُمَّ مَاتَ . وَاجْتَمَعَتِ النَّصَارَى لِيُدْفِنُوهُ ، فَقُلْتُ لَهُمْ : إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلًا
سَوَاءً ، يَأْمُرُهُمُ بِالصَّدَقَةِ وَيُرْغِبُهُمْ^(١) فِيهَا ، فَإِذَا جُمِعَ مَوْتُهُمْ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ
وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا .

فَقَالُوا لِي : وَمَا عَلَيْكَ بِذَلِكَ ؟ قُلْتُ : أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ فَأَرِيتُهُمْ
مَوْضِعَهُ فَاسْتَخْرَجُوا سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا ، فَلَمَّا رَأَوْهَا ، قَالُوا : وَاللَّهِ
لَا نَدْفِنُهُ أَبَدًا .

فَصَلَبُوهُ وَرَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ .

وَجَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ فَعَمَلُوهُ مِثْلَ مَا كَانَهُ ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا لَا يَصِلُ الْخَمْسَ ، أَرَى
أَنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ مِنْهُ ، أَزْهَدًا فِي الدُّنْيَا وَلَا أَرْغَبًا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا أَذْأَبًا
لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْهُ ، فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أَحِبَّهُ شَيْئًا قَبْلَهُ ، فَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا ، ثُمَّ حَضَرْتُهُ

(١) المطبوعة : يَأْمُرُهُمُ وَيُرْغِبُهُمْ .

الوفاة ، فقلتُ له : يا فلان إني كنت مملك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بي ، وبهم تأمرني .

فقال : أي بني والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنت عليه [فالحق به]^(١) .

فلما مات وعُيِّب لحقتُ بصاحب الموصل فقلت له : يا فلان إن فلاناً أوصاني عدد موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره . فقال : أقيم عندي .

فأقمتُ عنده ووجدته خيراً رجلاً على أمر صاحبه .

فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان إن فلاناً أوصى بي^(٢) إلحك ، وأمرني بالاحق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بي ؟ وبهم تأمرني ؟ قال : يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنت عليه إلا رجلاً بنصيبين^(٣) ، وهو فلان فالحق به .

فلما مات وعُيِّب لحقتُ بصاحب نصيبين ، فأخبرته خبري ، وما أمرني به صاحبي فقال : أقيم عندي .

فأقمتُ عنده ، فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما خُصِرَ قلتُ له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصى بي : وبهم تأمرني .

(١) من ابن هشام

(٢) الملبوعة : أوصاني إليك . وهو تعريف .

(٣) مدينة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل في الموصل إلى الشام .

قال : يا بنىّ والله ما أعلمه بقى أحدٌ على أمرنا آمرك أن تأتية ، إلا رجلاً بمُورِيّة من أرض الرُّوم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأتِهِ .
فلما مات وغيّب ، لحقتُ بصاحب عموريّة ، فأخبرته خبري ، فقال :
أقمْ عندي .

فأقمتُ عند خير رجل على هذى أصحابه وأمرهم ، واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنّيمة ، ثم نزل به أمر الله ، فلما خُضر قلت له : يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟

قال : أى بنىّ والله ما أعلمه أصبح على مثل ما كنتما عليه أحدٌ من الناس آمرك أن تأتية ، ولكنه قد أغلّ زمانُ نبىّ مبعوثٍ بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرضٍ بين حَرَّتَيْنِ بينهما نخْل ، به علامات لا تخفى ، يأكل المدينة ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كنفه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلاحق بتلك البلاد ، فافعل .
ثم مات وغيّب .

فسكرت بمُورِيّة ، ما شاء الله أن أمكث ، ثم مرّ بى نفرٌ من كُتابِ تجارٍ .
فقلت لهم : احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنّيتى هذه .
قالوا : نعم . فأعطيتهموها وحملونى معهم ، حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى ، فباعونى من رجل يهودى عبداً ، فسكرت عنده فرأيت النخل ، فرجوتُ أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبي ، ولم يَحِقْ فى نفسى .

فبينما أنا عنده إذ قدِم عليه ابنُ عمِّ له من بنى قريظة من المدينة ،

فابتاعني منه ، فاحتملني إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيته فعرفتها بصيفة صاحبي فأقمت بها .

وَبُيِّثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ لَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرِ ،
مع ما أنا فيه من شغل الرِّقِّ .

ثم هاجر إلى المدينة ، فوالله إنني لفي رأس عذقي لسيدي أعمل له فيه بعض العمل ، وسيدي جالس تحتي ، إذ أقبل ابنُ عمِّ له حتى وقف عليه . فقال : يا فلان قاتل الله بنى قَيْلَةَ^(١) ، والله لإنهم الآن ليجتمعون بقباء على رجل قديم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي .

فلما سمعتها أخذتني العرواء^(٢) حتى ظننت أني سأسقط على سيدي ، فنزلتُ من النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ فغضب سيدي فلما كفي لسكمة شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا أقبل على هؤلاء . فقلت : لا شيء إنما أردت أن أستنبهت عما قال .

وقد كان عندي شيء لجمعة ، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبتُ به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء ، فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغني أنك رجل صالح ، ومالك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء كان عندي للعقيقة ، فرأيتمكم أحق به من غيركم ، فقرَّبته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : كلوا . وأمسك يده فلم يأكل .

(١) قيلة بنت كاهل بن عنزة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحلاف بن قضاة أم الأوس والخزرج .

(٢) العرواء : الرعدة من البرد والانتفاس ، فإن كان مع ذلك عرق فهو الرخصاء .
(١٦ — الاكتفا)

فقلت في نفسي : هذه واحدة .

ثم انصرفْتُ عنه ، فجمعت شيئاً ، وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم جئته به ، فقلت : إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها . فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأمر أصحابه فأكلوا معه .

فقلت في نفسي هاتان اثنتان .

ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببيع الفرقد^(١) قد تبع جنازة من أصحابه ، على شملتان لي وهو جالس في أصحابه ، فسلمتُ عليه ثم استدرتُ أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي ؟ فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استديرُ به ، عرف أني استثبتُ في شيء وصف لي ، فالتى الرداء عن ظهره ، فغطرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكبتُ عليه أقبله وأبكي . فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحول . فتحولتُ فجلستُ بين يديه ، فقصصتُ عليه حديثي كما حدثتُك يا ابن عباس .

فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه . ثم شغل سلمان الرِّقْ ، حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذر واحد .

قال سلمان : ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : كاتبُ يا سلمان . فكانتُ صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحياها له بالفقير^(٢) وأربعين أوقية .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعيدوا أخاكم . فأعانوني بالانخل ، الرجل

(١) الفرقد : مقبرة أهل المدينة .

(٢) أي بالفقر والنرس .

بمئتين وديّة^(١) ، والرجل بعشرين وديّة ، والرجل بخمس عشرة والرجل بمشعر ، يُعين الرجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعت إلى ثلاثمائة وديّة ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب يا سلمان ففقر لها فإذا فرغت فأتني ، أكن أنا أضعها بيدي .

ففقرت وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت جئته فأخبرته ، فخرج معي إليها ، فجعلنا نقرّب إليه الوديّة ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده حتى فرغت . فوالذي نفس سلمان بيده ، ما ماتت منها وديّة واحدة .

فأديت النخل وبقي على المال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعدن ، فقال : ما فعل الفارسي المسكاتب فدعيت له فقال : خذ هذه فأديها بما عليك يا سلمان . قلت : وأين تقع هذه يا رسول الله بما على ؟ قال : خذها فإن الله سيؤدّي بها عنك . فأخذتها فوزنت لهم منها ، والذي نفس سلمان بيده ، أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم منها ، فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل حراً . ثم لم يفتني معه شهيد .

وعن سلمان أيضاً أنه قال : لما قلت وأين تقع هذه من الذي على ؟ يا رسول الله ؟ أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلّبها على لسانه . ثم قال : خذها فأوفهم منها . فأخذتها فأوفيتهم منها حقهم كلّ أربعين أوقية .

وعنه أيضاً أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره خبره : إن صاحب ثمورية قال له : أيت كذا وكذا في أرض الشام ، فإن بها رجلاً بين غيضةين ، يخرج في كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزاً ، يعترضه ذوو الأسقام

(١) الودية : واحدة الودي وهو فراخ النخل الصغير .

فلا يدعو لأحد منهم إلا شفى ، فسئل عن هذا الدين الذى تبتغى ، فهو
يخبرك عنه .

قال سلمان : فخرجت حتى جئت حيث وُصف لى ، فوجدتُ الناس قد
اجتمعوا بمرضاهم هناك ، حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزاً من إحدى الغيضةين
إلى الأخرى ، فغشيه الناس بمرضاهم ، لا يدعو لمرضى إلا شفى ، وغلبوني
عليه ، فلم أخلصُ إليه حتى دخل الغيضة التى يريد أن يدخل ، إلا مَدَّ يده
فبداولته فقال : من هذا ؟ والتفت إلى قلتُ : يرحمك الله أخبرنى عن الحنيفية دين
إبراهيم . قال : إنك لتسأل عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم ، قد أظلك
زمان نبيٍّ يُبْعَث بهذا الدين من أهل الحرم ، فائته فهو يملكك عليه . ثم دخل .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كنت صدقتنى يا سلمان ، لقد لقيت
عيسى بن مريم ^(١) .

[حديث أمية بن أبى الصلت وأبى سفيان]

ومن حديث غير ابن إسحاق ، عن أبى سفيان بن حرب قال : خرجتُ
أنا وأمّية بن أبى الصلت ، وآخر سقط اسمه فى كتابى ، تجاراً إلى الشام .
قال أبو سفيان : فكلما نزلنا منزلاً أخرج أمّية سيفراً يقرأه علينا ، فكنا كذلك
حتى نزلنا بقرية من قوى القصارى ، قال : فأروه وعرفوه وأهدوا له فذهب
معه إلى بيتهم ، ثم رجع فى وسط النهار ، فطرح ثوبيه ، واستخرج ثوبين
أسودين ، فلبسهما ثم قال : يا أبا سفيان هل لك فى عالم من علماء القصارى إليه
انتهى علمُ الكتّاب نسأله عما بدا لك ؟ . قال : قلت لا أربّ لى فيه ، والله انى
حدثنى ما أحبّ لا أثق به ، ولئن حدثنى ما أكره لأؤجلنّ منه .

قال : وذهب يخالفه شيخ من القصارى ، فدخل علينا فقال - يعنى له

(١) هذا الخبر ضعيف جداً كما قال ابن كثير . وفيه مغالطة تاريخية .

والآخر الذى كان معه : ما منعكما أن تذهبا إلى هذا الشيخ ؟ قلنا : لسنا على دينه . قال : وإن ، فإنكما تشعمان هجبا وتريانه . قال : قلنا : لا أرب لنا في ذلك . قال أئققيان إنما ؟ قلنا : لا ولكن من قريش . قال : فما منعكما من الشيخ ، فوالله إنه يحبكم ويوصى بكم .

وخرج من عدنا ، ومكث أمية عدا حتى جاءنا بعد هداة من الليل ، فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه ، فوالله ما قام ولا نام حتى أصبح . قال : فأصبح كشيها حزينا ، ساقطا غبوقه على صبحه ما يكلمنا ، ثم قال : ألا ترسلان ؟ قلنا . وهل بك من رسل ؟ قال : نعم فارحلا .

فرحنا فسيرنا بذلك ليلتين في همه وبته . ثم قال ليله : ألا تتحدث يا أبا سفيان ؟ قلت : وهل بك من حديث ؟ فوالله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك . قال : أما إن ذلك شيء است فيه إنما ذلك شيء رجأت به من منقلبى فقلت : وهل لك من منقلب ؟ قال : إى والله لأموتن ولأحاسنن قلت : فهل أنت قابل أمانى ؟ قال : وعلى ماذا ؟ قلت : على أنك لا تبهث ولا تحاسب . فضحك ثم قال : بلى والله يا أبا سفيان أنبهن وأحاسبن ، ولأيدخان فريق فى الجنة وفريق فى النار قلت : فى أيتهما أنت أخبرك صاحبك . قال : لا علم لصاحبى فى ذلك فى ولا فى نفسه .

فكنا فى ذلك ليلتنا ، يعجب منا ونضحك منه ، حتى قدمنا غوطة ديشق وإياها كذا نريد ، فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين ، ثم ارتحلنا حتى نزلنا بئلك القرية من قرى البصارى ، فلما رأوه جاءوه وأهدوا له ، وذهب معهم إلى بيعتهم ، حتى جاءنا مع نصف النهار ، فلبس ثوبيه الأسودين ، فذهب ولم يذعنا إليه كما دعانا أول مرة ، حتى جاءنا بعد هداة من الليل ، فطرح ثوبيه ،

ثم رمى بنفسه على فراشه فوالله ما نام ولا قام ، فأصبح مبهوثاً حزيباً ، لا يكلمنا ولا نكلمه ثم قال لى : ألا ترحلان ؟ قلت : بلى إن شئت . قال : فارحلا .

فرحلنا فسيرنا كذلك من بئمه وحزنه لىالى . ثم قال لى ليلة : يا أبا سفيان هل لك فى المسير ؟ وتخلّف هذا الغلام يستأنس بأصحابنا ويستأنسون به ؟ قلت له : ما شئت . قال : سير . فسرنا حتى برزنا . قال : هى يا صيخرا . قلت : مالاك ؟ قال : هى عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المحارم والمظالم ؟ قلت : إى والله . قال : ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : نعم ويصل الرحم ويأمر بصلتها . قال : وكريم الطرفين ، واسط فى المشيرة ؟ قلت : كريم الطرفين واسط فى المشيرة . قال : فهل تعلم قرشياً أشرف منه ؟ قلت : لا ما أعلم . قال : ومحوج هو ؟ قلت : لا بل ذو مال . قال : فكم أتى له ؟ قلت : هو ابن سبعمين نظر إليها قد قاربها ، هو لها ، هو ابنها . قال : السن والشرف أزرى به . قلت : وما لهما أزرى به ؟ لا والله بل هما زاداه خيراً . قال : هو ذاك هل لك فى المبيت ؟ قلت : هل لك فيه حاجة ؟ قال : فاضطجعنا . حتى مرّ الثقل فسيرنا حتى نزلنا فسكرنا فى المنزل وبقنا .

ثم رحلنا ، فلما كان الليل قال : يا أبا سفيان . قلت : لبّيك قال : هل لك فى البارحة ؟ قلت : هل لى . قال : فسرنا على ناقتين ناجيتين ، حتى إذا برزنا قال : يا صيخرا إيه عن عتبة . قلت : إيه عنه . قال : أيجتنب المحارم والمظالم ؟ ويأمر بصلة الرحم ويصلها . قلت : ويفعل . قال : ومحوج ؟ قلت : ومحوج .

قال : هل تعلم قرشياً أشودّ منه ؟ قلت : والله ما أعلمه . قال : وكم أتى له ؟ قلت : سبعمون هو لها هو ابنها قد واقعها . قال : فإن السن والشرف أزرى به . قلت : لا والله ما أزرى به ولسكنتهما زاداه ، وأنت قائل شيبنا فقله . قال :

والله لا تذكر حديثي حتى يأتي ما هوأت . قلت : والله لا أذكره . قال : الذي رأيت أصابني فلأتى جئتُ هذا العالم فسألتُه عن أشياء . قلت : أخبرني عن هذا النبي الذي يُنتظر ؟ قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمتُ فمن أيّ العرب ؟ قال : هو من أهل بيت تحبّه العرب . قلت : فيما بيتُ تحبّه العرب . قال : لاهم إخوانكم وجيرانكم من قريش . قال فأصابني والله شيء ما أصابني منه قط . وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة ، وقد كنت أرجو أن أكون أنا هو .

قلت : فإذا كان ما كان فصنفه لي ؟ قال : هو شابّ حين دخل في الكهولة بذه أمره ، أنه يجتنب المحارم والمظالم ، ويصل الرحم ويأمر بصالحاتها ، وهو مخوج ليس يدافع شرفاً كريماً الطرفين ، متوسط في المشيرة أكثر جنده من الملائكة . قلت : وما آية ذلك ؟ قال : قد رجف بالشام منذ هلك عيسى بن مريم ثمانون رجفة كلها فيهم^(١) مصيبة عامة ، وبقيت رجفة عامة ، فيها مصيبة يخرج على أثرها .

قال أبو سفيان : قلت : وإن هذا هو الباطل ، اتن بعث الله رسولا ، لا يأخذه إلا شريفاً مسيئاً .

قال : والذي يُخلف به إن هذا لمسكذا يا أبا سفيان . هل لك في البيت .

فبعدنا حتى مرّ بنا الثقل ، فرحلنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة ليلتان ، أدركنا الخبر من خلفنا : أصاب الشام بعدكم رجفة دمّر أهلها وأصابتهم فيها مصيبة عظيمة .

قال : كيف ترى يا أبا سفيان ؟ قلت : أرى والله ما أظنّ صاحبك إلا صادقاً . وقد سنا مكة فقصيتُ ما كان معي ، ثم انطلقتُ حتى جئتُ أرض الحبشة

(١) كذا في الوفا وابن كثير : فيها .

تاجراً ، فسكرت بها خمسة أشهر ، ثم أقبلتُ حتى قدمت مكة فبينما أنا في منزلي ، جاءني الناس بسلامون عليّ ، حتى جاءني في آخرهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وعندي ههنا جالسة تلاعب صبية لها ، فسلم عليّ ورحب بي وسألني عن سفري ومقدمي ، ثم انطلق . فقلت : والله إن هذا الفتى لعجب ، ما جاءنا أحدٌ من قريش له معنى بضاعة ، إلا سألتُ عنها وما بلغتُ والله إن له معنى لبضاعة ، ما هو بأغدهم عنها ، ثم ماسألني فقلت : أو ما علمت بشأنه ؟ قلتُ وفزعته : ما شأنه ؟ قالت : والله إنه ليزعم أنه رسول الله . قال : فوقدني ذلك وذكرني قول النضراني ، ووجتُ حتى قالت لي : مالك ؟ فانتبهتُ وقلتُ : إن هذا والله هو الباطل ، هو أعقل من أن يقول هذا . قالت : بلى والله إنه ليقوله ، ويؤتي عليه وإن له لصحابة^(١) معه على أمره . قلت : هو والله باطل .

فخرجتُ فبينما أنا أطوف إذ لقيته ، فقلت : إن بضاعتك قد بلغتُ وكان فيها خيرٌ ، فأرسل إليها بغيرها ، ولست آخذها فيها ما آخذ من قومك . قال فإني غير آخذها حتى تأخذني ما تأخذ من قومي . قلت : ما أنا بفاعل . قال : فوالله إذا لا آخذها . قلتُ : فأرسل إليها . فأخذتُ منها ما كبتُ آخذ ، وبعثتُ إليه ببضاعته .

ولم أنشب أن خرجتُ تاجراً إلى اليمن فقدمتُ الطائف فنزلنا على أمية ، فتغديتُ معه ثم قلتُ : يا أبا عثمان ، هل تذكر حديث النضراني ؟ قال : أذكره . قلتُ : فقد كان قال : ومن ؟ قلت : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . ثم قصصت عليه خبر ههنا . قال : فوالله يعلم أنه تصيب عرقاً ثم قال : يا أبا سفيان لعله ، وإن صيرته كهيته ، ولئن ظهر وأنا حي لأبليّن الله في نصرته عذراً .

ومضيتُ إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هناك استهلاله ، وأقبلتُ حتى قدمتُ

(١) ط : لصاحبه .

الطائف فنزلنا على أمية بن أبي الصلت . قلت : قد كان من هذا الرجل ما قد بلغك وسمعت . قال : قد كان . قلت : فأين أنت ؟ قال : ما كنت لأومن برسول ليس من ثقيف ! . قال أبو سفيان : فأقبلتُ إلى مكة ووالله ما أنا منه بهيم حتى جئته فوجدته هو وأصحابه يُضربون ويُقتلون ، فجعلتُ أقول : فأين جُده من الملائكة ؟ ! ودخلني ما دخل الناس من الفحاسة .

ووقع في هذا الحديث من قول أبي سفيان : أن عتبة بن ربيعة ذو مال ، ووقع بعد ذلك من قول أبي سفيان أيضاً أنه محوج ، ولا يصح أن يجتمع الأمران ، وأحدُهما غلطٌ من الناقل والله أعلم .
والمشهور من حال عتبة أنه كان فقيراً وكان يقال : لم يسُد من قريش مُملقٌ إلا عتبة وأبو طالب ، فإنهما ساداً بغير مال .

وأما أمية بن أبي الصلت فرجلٌ من ثقيف ، لم يرَض دينَ أهل الجاهلية ، ولا وفقه الله للدخول في السمحة الحنيفة .

فكان كما روى عن عروة بن الزبير قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمية بن أبي الصلت فقال : أرتى عِلماً فضيحه .

وكما روى عن الحسن وقتادة أنهما قالَا في قول الله تعالى : « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين » ^(١) أنه أمية بن أبي الصلت .

(١) سورة الأعراف .

قال ابن إسحاق : واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه ، وينحرون له ، ويعتسكون عنده ، فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنتم بعضكم على بعض .

قالوا : أجل . وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد المزي ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حرج نطف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضرب ولا يدفع !!

يا قوم : التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء .

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها .

وذكر الزبير بن بكار بإسناد له إلى عروة بن الزبير قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ورقة بن نوفل . فقال : لقد رأيته في المقام عليه ثياب بيض ، فقد أظن أنه لو كان من أهل الدار ، لم أرَ عليه البياض .

وكان يذكر الله في شعره في الجاهلية ، وبسبحه وهو الذي يقول :

لقد نصحت لأقوامٍ وقلت لهم
أنا الذير فلا يغرركم أحد

لا تعبدون إلهاً غير خالقكم
فإن دعواكم فقولوا بيدينا حد

سبحان ذي العرش سبحانه يدوم له
رب البرية فرد واحد صمد

سبحان ذى العرش سبحاناً نعوذ له
 وقَبْلُ سَبَّحَهُ الْجُودَى وَالْجَمْدُ
 مُسَخَّرٌ كُلُّ مَا تَحْتَ السَّمَاءِ لَهُ
 لَا يَنْهِنِي أَنْ يُنَادِي مُلْكُهُ أَحَدُ
 لَا شَيْءَ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بِشَاشَتِهِ
 يَبْقَى الْإِلَهُ وَيُودَى الْمَالُ وَالْوَلَدُ
 لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمِزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ
 وَأُخْلِدَ قَدْ حَاولَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا
 وَلَا سُلَيْمَانُ إِذْ تَجَرَّى الرِّيحُ بِهِ
 وَالْإِنْسُ وَالْجَنُّ فِيمَا بَيْنَهُمُ بُرْدُ
 أَيْنَ الْمُلُوكِ الَّتِي دَانَتْ لِعِزَّتِهَا
 مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَا وَافِدٌ يَفْدُ
 حَوْضٌ هُنَاكَ مَوْرُودٌ بِلَا كَذِبٍ
 لَا بُدَّ مِنْ وَرْدِهِ يَوْمًا كَمَا وَرَدُوا

وفى هذا الشمر ألفاظ عن غير الزبير ، والبيت الأخير كذلك ، وفيه أبيات
 تُروى لأمية بن أبي الصلت .

* * *

قال ابن إسحاق : وأما عبيد الله بن جهمش فإنه أقام على ما هو عليه من
 الاتقياس حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى أرض الحبشة ، ومعه امرأته
 أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة ، فلما قدماها تنصروا وفارق الإسلام حتى هلك
 هنالك نصرانياً ، وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على امرأته أم حبيبة

وكان حين تنصّر يمرّ بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : فقحنا وصأصأتم . أى أبصرنا وأنتم تلمتمسون البصر ولم تبصروا بعد .

وأما عثمان بن الحويرة فقدّم على قيصر ملك الروم فتعصّر وحسنت منزلته عنده .

وذكر الزبير : أن قيصر ملكه على أهل مكة ، وكتب له إليهم . فأنفت قريش أن يدينوا لأحدر ، وصاح فيه ابن عمه أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد والغاس في الطواف : إن قريشاً لا تملك ولا تملك . فضت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان ما جاء يطلب ، فرجع إلى قيصر ومات بالشام مسموماً . يقال : سمّه عمرو بن جفنة النسائي الملك ، وكان يقال لعثمان هذا البطريق ولا عقب له .

قال ابن إسحاق : وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان ، والميتة والدم ، والذباح التي تُذبح على الأوثان ونهى عن قتل المؤودة ، وقال أعبدُ ربّ إبراهيم ، وبأدى قومه بِحُتَيْب ما هم عليه .

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنها : لقد رأيتُ زيد بن عمرو ابن نفيل شيخاً كبيراً مُسنداً ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيرى . ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحبّ إليك عبدُك به ، واسكن لا أعلم . ثم يسجد على راحلته .

وسأل ابنه سعيد بن زيد وابن عمه مخر بن الخطاب بن نفيل رضى الله عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟ قال : نعم ، فإنه يُبعث أمةً وحده .

وقال زيد بن عمرو بن نفيل في فراق دين قومه :
أربأ واحداً أم ألف رب
أدين إذا تقسّمت الأمور
هزأت السلات والعزى جميعاً
كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابتليهم
ولا صمتى بنى - عمرو أزور
ولا غنماً أدين وكان رباً
لنا في الدهر إذ حلّى يسير
مجهت وفي الليالى مبهجات
وفي الأيام يعرفها البصير
فإن الله قد أفنى رجالاً
كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين برّ قوم
فأيرب^(١) منهم الطفل الصغير
وبينما المرء يمشى ثاب يوماً
كما يتروح الغنم المطير
ولكن أعبد الرحمن ربى
ليغفر ذنبى الرب الغفور

(١) ربل القوم إذا نموا وكثروا .

فتقوى الله ربكم احفظوها
مقى ما تحفظوها لا تبوروا
تري الأبرار دارهم جنات
وللكفار حامية سمير
وخزى في الحياة وإن يموتوا
يلاقوا ما تضيق به الصدور
وقال زيد بن عمرو بن نفيل ، وذكر ابن هشام أن أكثرها لأمية بن
أبي الصلت ، في قصيدة له :

إلى الله أنهدى مِذْحَى وثَنَائِيَا
وقولاً رصيناً لا يني الدهر باقياً
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه
إلهٌ ولا ربٌّ يكون مُدَانِيَا
ألا أيها الإنسان إياك والرّدى
فإنك لا تُخفى من الله خافياً
فإياك لا تجمل مع الله غيره
فإن سبيل الرّشد أصبح هادياً
حنانيك إن الجن أنت رجائهم
وأنت إلهى ربنا ورجائنا
رضيت بك اللهم ربنا فلن أرى
أدين إلهاً غيرك الله ثانياً

فَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مَنْ رَحْمَةٍ
بَعَثْتَ إِلَى مُوسَى رَسُولًا مُنَادِيًا
فَقُلْتَ لَهُ يَا أَذْهَبْ وَهَارُونَ فَادْعُوَا
إِلَى اللَّهِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ طَافِيًا
وَقُولَا لَهُ أَأَنْتَ سَوَّيْتَ هَذِهِ
بَلَا وَتَدِيرُ حَتَّى اطْمَأْنَنْتَ كَمَا هِيَ
وَقُولَا لَهُ أَأَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ
بَلَا عَمْدٍ أَرْفِقْ إِذَا بَكَ بَانِيَا
وَقُولَا لَهُ أَأَنْتَ سَوَّيْتَ وَسَطَهَا
مُتَدِيرًا إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ هَادِيَا
وَقُولَا لَهُ مَنْ يُرْسِلُ الشَّمْسَ غُدُوَّةً
فَيُصْبِحُ مَا مَسَتْ مِنَ الْأَرْضِ ضَاحِيَا
وَقُولَا لَهُ مَنْ يُنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى
فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهِ فِي رَعُوسِهِ
وَفِي ذَاكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا
وَأَنْتَ بِفَضْلٍ مِنْكَ تَجَمَّيْتَ يُونُسَا
وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَافٍ حُوتٍ لِيَالِيَا
وَلَمَّا سَبَّحْتَ بِاسْمِكَ رَبَّنَا
لَا كُفْرُ إِلَّا مَا غَفَرْتَ خَطَائِيَا
فَرَبُّ الْعِبَادِ أَلْقِ سَيِّئَا وَرَحْمَةً
عَلَى وَبَارِكْ فِي بَنِي وَمَالِيَا

وقال زيد بن عمرو أيضاً :

أَسَلْتُ وَجْعِي لِمَنْ أَسَلْتُ
 لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا نَقَالًا
 دَحَاها فَلَمَّا رَأَاهَا اسْتَوَتْ
 عَلَى الْمَاءِ أَرْضِي عَلَيْهَا الْجِبَالُ (١)
 وَأَسَلْتُ وَجْعِي لِمَنْ أَسَلْتُ
 لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زَلَالًا
 إِذَا هِيَ سَيِّقَتْ إِلَى بَلَدٍ
 أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سِجَالًا

ويُروى أن زيدا كان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال : أَيُّكَ حَقًّا
 حَقًّا تَعْبُدُكَ وَرِقًّا ، عُدْتُ بِمَا عَاذَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةِ وَهُوَ قَائِمٌ ، إِذْ قَالَ
 أَنفَى لَكَ عَانٍ رَاغِمٌ ، مَهْمَا تُجِشُّنِي فَإِنِّي جَاشِمٌ ، الْبِرُّ أَبْقَى لَا الْخَالُ ، لَيْسَ
 مَهْجَرُكُمْ قَالَ :

ويقال : الْبِرُّ أَهْوَى لَا الْخَالُ .

وكان الخطاب بن نفيل قد آذى زيدا حتى أخرجه إلى أعلى مكة .

(١) رواية البيت في البداية والنهاية .

دَحَاها فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّها

سَوَاءً وَأَرْضِي عَلَيْهَا الْجِبَالًا

(٢) الخال : الخيل والكبير ، والمهجر : من يسير في الهاجرة ، ومن قال : أَى من نام

في القاعة .

وكان الخطابُ عمه وأخاه لأمه ، وكُلُّ به شباباً من شباب قريش وسفهاً منهم ، فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة .

فكان لا يدخلها إلا سراً منهم ، فإذا علموا بذلك آذَنُوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه ، مخافة أن يُفسد عليهم دينهم وأن يقابله أحد منهم على فراقه .

وكان زيدٌ قد أجمع الخروجَ من مكة ليضرب في الأرض يطلب الحنيفيةَ دين إبراهيم ، فكانت امرأته صفيية بنت الحضرمي كلما رآته قد تهيأ للخروج أو أرادته ، آذنت به الخطاب بن نفيل ، وكان الخطاب وگُلها به وقال : إذا رأيته همَّ بأمرٍ فأذيني به .

ثم خرج يطلب دين إبراهيم ويسأل الرهبان والأحبار ، حتى باغ الموصلَ والجزيرة كلها ، ثم أقبل فَجَالَ الشَّامَ كلها ، حتى انتهى إلى راهبٍ بمِيقَةِ^(١) من أرض التَّلَقَاءِ ، كان ينتهى إليه عِلْمُ النصرانية فيما يزعمون ، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال : إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجِدٍ من يَحْمِلُك عليه اليوم ، ولستَ قد أَغْلَظَ زمانُ نبي يخرج في بلادك التي خرجت منها يُبَيِّث بدين إبراهيم الحنيفيةَ ، فآلِخْ به فإنه مبعوث الآن ، هذا زمانه .

وقد كان زيدٌ شامَّ اليهودية والنصرانية فلم يرضَ منهما شيئاً ، ففرج سريعا حين قال له ذلك الراهب ما قال ، يريد مكة ، حتى إذا تَوَسَّطَ بلادَ لَحْمٍ هدَّوْا عليه فقتلوه . فقال ورقَةُ بن نوفل يُبَيِّكُيه :

(١) لليفة : الأرض المرتفعة .

رَشِدْتَ وَأَنْعَمْتَ ابْنَ عَمْرٍو وَإِنَّمَا
تَجَنَّبْتَ تَنْذُورًا مِنَ الْفَارِ حَامِيًا
بَدَيْتُكَ رَبًّا لَيْسَ رَبُّهُ كَمِثْلِهِ
وَتَرَكْتَ أَوْثَانَ الطَّوَاغِي كَمَا هِيَا
وَلِمَادِرَاكَ الدِّينَ الَّذِي قَدْ طَلَبْتَهُ
وَلَمْ تَكُ عَنْ تَوْحِيدِ رَبِّكَ سَاهِيًا^(١)
فَأَصْبَحْتَ فِي دَارِ كَرِيمٍ مُقَامَهَا
تُعَلِّلُ فِيهَا بِالْكَرَامَةِ لَاهِيًا
تُلَاقِي خَلِيلَ اللَّهِ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ
مِنَ النَّاسِ جِبَارًا إِلَى النَّارِ هَاوِيًا
وَقَدْ تُذَرِّكُ الْإِنْسَانَ رَحْمَةً رَبِّهِ
وَلَوْ كَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ سَهْمِينَ وَادِيًا^(٢)

قال ابن إسحاق : وكان فيما بلغني عما كان وَضَعَ عيسى بن مريم فيما جاءه
من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
مَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ الرَّبَّ ، ولولا أني صُنِعْتُ بِحَضْرَتِهِمْ صِفَاتِي لَمْ يَصْنَعُوا
أَحَدٌ فَبَلَى مَا كَانَتْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ ، وَلَسَكُنَ مِنَ الْآنَ تَطَايَرُوا ، وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ
يَعِزُّونَنِي وَأَيْضًا لِلرَّبِّ ، وَلَسَكُنَ لَا بَدَ مِنْ أَنْ تَمَّ السَّكَاةُ الَّتِي فِي الدَّامُوسِ ،

(١) من ابن هشام .

(٢) نصب سهمين على الحال من لفظ مقدر مثل : بعد تحت الأرض .

أنهم أهنؤوني مجانكا ، أى باطلا ، فلولا قد جاء المُنْعَمَتَا هذا الذى يرسله الله إليكم من عند الرب ، روح القِسْط هو الذى من عند الرب خَرَجَ فهو شهيدٌ على ، وأنتم أيضا لأنكم قديما كنتم معي ، هذا قلت لكم لكيلا تشكوا .

فالمُنْعَمَتَا بالسريانية هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو بالرومية البرقلاطس .



قال ابن هشام : وبلغنى أن رؤساء بجران كانوا يتوارثون كتابا عندهم ، فكلما مات رئيس فأفضت الرئاسة إلى غيره ختم على ذلك الكتاب خاتما مع الخواتم التى قبلها ولم يكسرها ، نخرج الرئيس الذى كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يمشى فعثر ، فقال ابده : تمس الأبعد . يريد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبوه : لا تفعل فإنه نبي واسمه فى الوضائع . يعنى الكتب . فلما مات لم تكن لابده همة إلا أن شد فكسر الخواتم ، فوجد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسلم لحسن إسلامه وحج .

وهو الذى يقول :

إِلَيْكَ تَعْدُو قَلْبًا وَضِيئًا^(١)
معتريضا فى بطنها جبينها
مخالفا دين النصارى دينها

(١) الرضين : بطن عراس منسوخ من حلد أو شعر ، والقلق : غير المحكم . والمعنى أن الإبل هزيلة .

[صفة النبي في التوراة]

وقد جاءت أحاديث حسنًا بما وقع من صفة النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة ، لم يذكر ابن إسحاق منها^(١) شيئاً .

فإن ذلك ما ذكره الواقدي عن عطاء بن يسار قال : لقيتُ عبدَ الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة .

فقال : أجل ، والله ، إنه لموصوف في التوراة بصفته في الفرقان :

« يا أيها النبي ! إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِزْزاً للأمينين ، أنت عهدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخباب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، وإن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، يفتح بها أعينا قُميا وآذاناً مُصمياً وقلوباً غُلْفاً .

قال عطاء : ثم لقيت كعبَ الأحبار فسألته فما اختلفا في حرف !

وذكر الواقدي أيضاً عن الدعي السبكي قال : وكان من أحبار اليهود بالين ، فلما سمع بذكر النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه فسأله عن أشياء ، ثم قال : إن أبي كان يهتم على سفر يقول : لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبي قد خرج بهثر ، فإذا سمعت به فافقه .

(١) المطبوعة منهم . وهو خطأ .

فقال نعمان : فلما سمعت بك فتحتُ السُّفْرَ ، فإذا فيه صِفَتُكَ كما أراك الساعة ، وإذا فيه ما تُحِلُّ وما تُحَرِّمُ ، وإذا فيه أنك خيرُ الأنبياء وأمتك خير الأمم واسمك أحمد صلى الله عليك وسلم ، وأمتك الحَمَادُونَ ، قُرْبَانِهِمْ دِمَاؤُهُمْ وَأَنَاجِيْلِهِمْ فِي صُدُورِهِمْ ، لَا يَحْضَرُونَ قِتَالًا إِلَّا وَجَبَرِيلُ مَعَهُمْ ، يَقْتَحِنُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ^(١) كَتَمَحْنُ الطَّيْرَ عَلَى أَفْرَاحِهِ .

ثم قال : إذا سمعتَ به فاخرج إليه وآمِن به وصدِّق به .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يُسمع أصحابه حديثه ، فأتاه يوماً فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا نعمان حدثنا .

فابتدأ نعمان الحديث من أوله فرُئي رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسّم ، ثم قال : أشهد أني رسول الله .

ويقال إن نعمان هذا هو الذي قتله الأسود التَّمَنُسى وقطّعه عضواً عضواً وهو يقول : أشهد أن محمداً رسول الله ، وأنت كذاب مُفْتَرٍ على الله عز وجل . ثم حرقه بالنار .

--- (١) ط : إلهيهم وما أثبتته رواية المطبوعة .

ذكر المبعث

قال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين وكافة للناس .

وكان الله تعالى قد أخذ له الميثاق على كل نبي ببعثه قبله بالإيمان به والتصديق له والنصر له على من خالفه ، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم ، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق .

فيه يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ بَعَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتَتَّوِيَعُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ : أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي » أى ثقل ما حملتكم من عهدى « قَالُوا : أَأَقْرَضْنَا . قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » ^(١) .

فأخذ الله ميثاق النبیین جميعاً بالتصديق له والنصر وأدوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل هذين الكتابين .

وعن عائشة رضى الله عنها أن أول ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رؤيا إلا جاءت كدلق الصبح .

وَحُبِّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْخَلْوَةَ ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ وَحْدَهُ .

وَعَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَرَادَهُ اللَّهُ بِكَرَامَتِهِ وَابْتِدَائِهِ بِالنَّبْوَةِ ، كَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَبْعَدَ حَتَّى تَحْمُرَّ عَنْهُ الْبُيُوتُ وَيُنْفِضَ إِلَى شِعَابِ مَكَّةَ وَبَطُونِ أَوْدِيَّتِهَا ، فَلَا يَمُرُّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِمَجْرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَيَلْتَفِتُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا الشَّجَرَ وَالْحِجَارَةَ .

فَسَكَتَ كَذَلِكَ يَرَى وَيَسْمَعُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ .
ثُمَّ جَاءَهُ جَبْرِيلُ بِمَا جَاءَهُ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ وَهُوَ بِمَحَرَّاءَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ .

وَعَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ بْنِ قَتَادَةَ اللَّيْثِيِّ ، يَحَدِّثُ كَيْفَ كَانَ بَدْءُ مَا ابْتَدَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّبْوَةِ حِينَ جَاءَهُ جَبْرِيلُ قَالَ :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجَاوِرُ فِي حِرَاءَ مِنْ كُلِّ سَنَةِ شَهْرًا ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَحَدَّثُ بِهِ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَالتَّحَدُّثُ : التَّبَثُّرُ .

فَسَكَنَ يَجَاوِرُ ذَلِكَ الشَّهْرَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ ، يُطْعَمُ مَنْ جَاءَهُ مِنَ الْمَسَاكِينِ ، فَإِذَا قَضَى جَوَارَهُ مِنْ شَهْرِهِ ذَلِكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَبْدَأُ بِهِ إِذَا انْصَرَفَ [مِنْ جَوَارِهِ]^(١) قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ السَّكْمِيَّةَ ، فَيَطُوفُ سَبْعًا أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ .

حَتَّى إِذَا كَانَ الشَّهْرَ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ بِهِ فِيهِ مَا أَرَادَ مِنْ كَرَامَتِهِ ، وَذَلِكَ الشَّهْرُ رَمَضَانُ ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حِرَاءَ كَمَا كَانَ يَخْرُجُ لَجَوَارِهِ وَمَعَهُ أَهْلُهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ فِيهَا بِرِسَالَتِهِ وَرَحِمَ الْعِبَادَ بِهَا جَاءَهُ جَبْرِيلُ بِأَمْرِ اللَّهِ

(١) مِنَ الْمَطْبُوعَةِ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءني وأنا نائم^(١) بتمط من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ ففتني^(٢) به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ ؟ ففتني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ماذا أقرأ ؟

ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع .

فقل : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .
فقرأتها ثم انتهت فانصرف عني وهبت من نومي ، فسكنا كما كُتبت في قلبي كتابا .

فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

فرفعت رأسي إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أميرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك .

فأزالت واقفا ما أتقدم أماي وما أرجع ورأى ، حتى بعثت خديجة رؤساءها

(١) الذي في الروايات الأخرى أن جبريل جاءه في الغار وهو يظلم ، فلمل جبريل جاءه مرة في اليوم ومرة في الليلة ، كما ذكر ابن كثير وشراح السيرة .

(٢) غشي : حبس نفسي . ورواية الواهب اللدنية : فغطني .

في طلي ، فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرف عنه راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجاست إلى نفذها مضيفا إليها^(١) .

فقلت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسل في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى .

ثم حلتها بالذي رأيت ، فقلت : أبشريا بن عمي واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إنى لأرجو^(٢) أن تكون نبى هذه الأمة

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها ، وكان قد تدبر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقلو له فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف صبح كما كان يصنع ، بدأ بالكمة فطاف بها ، فلقية ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكمة ، فقال له : يا بن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت .

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة : والذي نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ،

(١) أى مائصقا بها (٢) المطبوعة : أرجو .

وَلَتَسْكُذِبَنَّ^(١) وَلَتُؤْذِنُهُ وَلَتُخْرِجَنَّهُ وَلَتَقَاتِلَنَّهُ ، وَالْمَن أَنَا أَدْرَكَتْ ذَلِكَ الْيَوْمَ
لَأَنْهَرَنَّ اللَّهُ نَصْرًا يَمْلِكُهُ .

ثُمَّ أَذْنَى رَأْسِهِ مِنْهُ فَتَقِيلُ يَا فَوْخُهُ ، ثُمَّ انْعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
إِلَى مَنْزِلِهِ .

وَبُرْوَى عَنْ خَدِيجَةَ أُمِّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيْ ابْنِ عَمٍّ ،
أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْبِرَنِي بِصَاحِبِكَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ إِذَا جَاءَكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَتْ :
فَإِذَا جَاءَكَ فَأَخْبِرَنِي بِهِ .

فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا خَدِيجَةُ
هَذَا جَبْرِيلُ قَدْ جَاءَنِي . قَالَتْ : قُمْ يَا بَنَ عَمٍّ فَاجْلِسْ عَلَيَّ نَفْذِي الْيَسْرَى .
فَقَامَ فَجَلَسَ عَلَيْهَا . قَالَتْ : هَلْ تَرَاهُ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَتْ : فَتَحْوَلْ فَاتَّعِدْ عَلَيَّ نَفْذِي
الْيَمْنَى . فَتَحْوَلْ فَتَّعِدْ عَلَيَّ نَفْذَهَا الْيَمْنَى ، فَقَالَتْ : هَلْ تَرَاهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَتْ :
فَتَحْوَلْ فَاجْلِسْ فِي حِجْرِي . فَتَحْوَلْ فَاجْلِسْ فِي حِجْرِهَا . ثُمَّ قَالَتْ لَهُ : هَلْ
تَرَاهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَتَحَسَّرَتْ وَأَلْقَتْ خَارَهَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ
فِي حِجْرِهَا ، ثُمَّ قَالَتْ : هَلْ تَرَاهُ ؟ قَالَ : لَا .

قَالَتْ : يَا بَنَ عَمٍّ اثْبِتْ وَأُبَشِّرْ ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَلَكٌ وَمَا هَذَا بِشَيْطَانٍ .

وَبُرْوَى أَنَّ خَدِيجَةَ أَدْخَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ دَرْعِهَا
فَذَهَبَ عِنْدَ ذَلِكَ جَبْرِيلُ .

(١) الهاء هنا السكت .

[بدء نزول القرآن]

وابتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في رمضان .
يقول الله عز وجل : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هُدًى للناس
وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » (١) .

وقال : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » (٢) إلى خاتمة السورة .
وقال : « حم والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا مُنذِرِينَ
فيها يُفَرِّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إنا كُنَّا مُرْسِلِينَ » (٣) .
وقال : « إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ اتَّقَى
الْجُحُمَانِ » (٤) ، يعنى مُلتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمُشركين ببدر ،
وذلك يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

هكذا أورد ابن إسحاق رحمه الله هذه الآيات كالمستشهد بها على ابتداء
التنزيل في شهر رمضان على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وفي صورة هذا الاستشهاد نظر .

(١) سورة البقرة : ١٨١

(٢) سورة القدر

(٣) سورة الدخان : ١ — ٤

(٤) سورة الأنفال : ٤٢

فإن ظاهر قوله سبحانه : « شهرُ رمضان الذي أنزلَ فيه القرآنُ » عمومُ نزول القرآن بجملة فيه . وكذلك قوله : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » . و « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » .

ولم يقع الأمر في إنزاله على رسوله صلى الله عليه وسلم هكذا ، بل أنزل الله عليه في رمضان وفي غيره مفترقا ، آياتٍ وسوراً ، بحسب سؤال السائئين ، أو أحداثٍ المُحدثين ، أو ما شاء الله من هداية العالمين .

وقد قيل في قوله تعالى : « شهرُ رمضان الذي أنزلَ فيه القرآن » أى الذى أنزل في شأنه القرآن ، أى نزل الأمر من الله عز وجل بصيامه كتاباً يتلى وقرآنًا لا يذُرُس ولا يَنْبَلَى .

كما يقال : « نزل القرآنُ بالصلاة » أى نزل جزء منه بفرضها و « نزل القرآن في عائشة » وإنما نزلت منه آيات ببراءتها من الإفك .

ومثل هذا الإطلاق موجود في الأحاديث والآثار كثيراً .

وليُسَلَّم أن معنى قوله : « أنزلَ فيه القرآنُ » أى ابتدئ فيه لإنزاله ، فقد قيل ذلك وليس ببعيد في المفهوم ولا بما تضيق عنه سعة الكلام ، ثم تُجْرَى ذلك الجرى الآيتين^(١) الاخرين وهما : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » ، و « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وإنْ بَعُدَ ذلك فيهما لما ورد من الآثار المصححة لحكم عمومهما حسبما ذكره بَعْدُ ، فإِبال الآية الأخرى التى هى : « وما أنزلنا على عبدنا يومَ الفرقان يومَ التقى الجمعان » تنظم في هذا النظام ، وقد أعقبها مُفسِّراً بأن المعنى بذلك يومُ بدر ، وهو الحق ١٩ .

وهل كان يومُ بدر إلا في السنة الثانية من الهجرة ، وبعد اثنتى عشرة سنة

(١) المطبوعة : تجرى ذلك الجرى في الآيتين .

من البعث ونزول الوحي ، أو بعد خمس عشرة سنة ، على ما ورد من الخلاف في مدة مُسْكُث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة ، وما زال القرآنُ المسكِيُّ والمدنَّى ينزل فيما مضى تلك السنين .

فإن كان ابن إسحاق عنى ما ذكرناه عنه ونسبناه إليه فقد بيّنا وجه رَدِّهِ واستوفينا التنبيه عليه ، وإن كان عنى غير ذلك فقهَّر عنه تحريرُ عيسارته أو سقط على الغافل من كلامه ما كان ينبغي لو بقي لفهامه ، فالله تعالى أعلم .

والرجلُ أَوْلَى منا بأن يُصِيب وبَسَلَم ، إلا أنه لا يُنْكَرُ أن يَغْلَط هذا البشر .

ونعوذ بالله أن نقصد بهذا الاعتداء على ذى علم أو الفَضْل من ذى حق ، فإن العلماء هم آباؤنا الأقدمون وهداتنا المقتدّون ، بأنوارهم نَشْرَى فنيهم ونستبهر ، وإلى غايتهم نجري فطوّراً نصِيل وأطواراً نقهَّر ، فلمهم دوننا قَصَبُ السَّبْق ، ولهم علينا فى كل الأحوال أعظمُ الحق ، إذا أصابوا اعتَمَدْنَا ، وإذا أخطأوا استَفْذْنَا ، وإذا أفادوا استَمَدَدْنَا ، فجزاهم الله عنسا أفضل الجزاء ، ووفّقنا لتوفية حقوق الأئمة والعلماء .

وبعدُ : فن أحسن ما يتعلق بتلك^(١) الآيات الثلاث التى صدر بها كلامه ، مما يحفظ حكم عمومها ويطبّق ظاهر مفهومها ، ما رواه سعيد بن جبّير عن ابن عباس رضى الله عنه أن القرآن أنزل جملة واحدة فى شهر رمضان إلى سماء الدنيا ، فجُعل فى بيت العزة ، ثم أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فشيئاً إلى حين وفاته .

وقيل للشئى : شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، أمّا كان ينزل فى سائر السنة ؟

(١) ط : ما يتعلق فى تلك الآيات . وما أثبتته رواية المطبوعة .

قال : بلى ، ولكن جبريل كان يمرض محمداً صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان ما أنزل في ماضى السنة فيمحو الله ما يشاء ويثبت .

قال ابن إسحاق : ثم تنكأ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن بالله مصدق لما جاءه منه ، قد قبِلَهُ بقبوله وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم .

وللدعوة أثقال ومؤنة لا يحملها ، ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله وتوفيقه ، لما يلقون من الناس وما يُردُّ عليهم مما جاءوا به عن الله عز وجل .

فخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى .

[إسلام خديجة]

وآمنت به خديجة ابنة خويلد ، وصدقت بما جاءه من الله ، وآزرته على أمره .

فكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدقت بما جاءه منه .

نخف الله بذلك عن رسوله ، لا يسمع شيئاً يكرهه من ردِّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتخفف عليه وتصدقته وتهوّن عليه أمر الناس .
يرحمها الله .

[فترة الوحي]

ثم فَتَرَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي حتى شقَّ عليه وأحزَّاه .
فجاءه جبريل بسورة « والضحى » ، يُقسم له ربه جل وتعالى ، وهو الذى
أكرمه بما أكرمه به ، ما ودَّعه وما قلَّاه .

فقال : « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ،
يقول : ما حرَّمتك فتركك ، وما أبغضك منذ أحببك .

« وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى » أى لَمَّا عُدَى مِنْ مَرْجِعِكَ إِلَى
خَيْرٍ لَكَ مما عَجَلْتُ لَكَ من السَّكَرَامَةِ فى الدنيا .

« وَأَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » من الفلج^(١) فى الدنيا والنواب
فى الآخرة .

« أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ
عَائِلًا فَأَغْنَى . »

يُمرِّفه ما ابتدأه به من كرامته فى عاجل أمره ، ومَنِّه عليه فى يُثمه وعَيلته
وضلالته ، واستدقاذه من ذلك كله برحمته .

« فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ » أى لا تكن جَبَّارًا
ولا متكبرًا ولا فحاشًا فظًا على الضعفاء من عباد الله .
« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » اذكرها واذعُ إليها .

(١) الفلج : الفلاح والنصر .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سراً إلى من يطعمون إلهيه من أهله .

[فَرَضُ الصَّلَاةِ]

وافترضت عليه الصلاة ، فصلى صلوات الله عليه وسلامه ورحمته وبركاته .

قالت عائشة رضي الله عنها : افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما افترضت ركعتين ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله أتمها في الحضر أربعاً وأقرها في السفر على فرضها الأول ركعتين .

وعن بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بفتحها في ناحية الوادي فأنه جرت منه عين ، فتوضأ جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ، ليريه كيف الظهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل توضأ ، ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته ، ثم انصرف جبريل فجاء رسول الله خديجةً فتوضأ لها ليريه كيف الظهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ ثم صلى بها كما صلى به جبريل فصلى بصلاته .

وعن نافع بن جبير بن مطعم ، وكان كثير الرواية عن ابن عباس ، قال : لما افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء جبريل فصلى به الظاهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثله ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق ، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر .

ثم صلى به الظهر حين كان ظلُّه مثله ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثاليه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول ، ثم صلى به الصبح مُسْتَفِرّاً غير مُشْرِقٍ .
ثم قال : يا محمد ، الصلاةُ فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس .

[إسلام على بن أبي طالب]

قال ابن إسحاق : ثم كان أول ذكرٍ من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معه وصدقَ بما جاءه من الله تبارك وتعالى على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وهو ابن عشرين يوماً .

وكان مما أنعم الله به عليه أنه كان في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام .

وذلك أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه ، وكان من أيسر بني هاشم : يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلينخفف [عنه ^(١)] من عياله ، آخذ من بنيهم رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فتسكفُلهما عنه . قال العباس : نعم .

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه . فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لي عَقِيلاً فاصنعا ما شئتما ، ويقال : عَقِيلاً وطالها .

فأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليّاً فضمّه إليه ، وأخذ العباس

(١) من ابن هشام

جاءوا فقدموا إليه ، فلم يزل على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبياً فاتبعه على وآمن به وصدقته ، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شباب مكة وخرج معه على بن أبي طالب مُستَخفياً عن أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أُمسيًا رجعا . فمكثنا كذلك ما شاء الله أن يمكثنا .

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله : يا بن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟

قال : أي عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ورسالته ودين أبينا إبراهيم . أو كما قال صلى الله عليه وسلم . بمعنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه . أو كما قال .

فقال أبو طالب : أي ابن أخي ، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخلصُ إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ .

وذكروا أنه قال لعل : أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه ؟

فقال : يا أبتِ آمنت برسول الله وصدقت بما جاء به واصلت معه الله واتبعته .

فرحموا أنه قال له : أما إنه لم يذكرك إلا إلى خير فالزمه .

[إسلام زيد بن حارثة]

قال ابن إسحاق : ثم أسلم زيد بن حارثة السكّلي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أولَ ذَكَرٍ أسلم وصلى بعد على بن أبي طالب .

وعن غير ابن إسحق أن زيدا أصابه في الجاهلية سبأ^(١) فاشتراه حكيم
ابن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، وقيل بل وهبه لها ، فوهبته خديجة
لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه ، وذلك قبل أن يوحى إليه ، وكان
أبوه حارثة قد جزع عليه جزعا شديدا وبكى عليه حين فقده ، فقال :

بكِتْ عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ أَذِرْ مَا قَتَلْ
أَحَىٰ فَيُزَجِّى أَمْ أَمَىٰ دُونَهُ الْأَجَلْ

فوالله ما أدرى ولانى لسائل
أَغَالَتَ بَعْدَى السَّمَلْ أَمْ غَالَتَ الْجَبَلْ

ويا ليت شعري هل لك الدهر أوبة
فَعَسَىٰ مِنْ الدُّنْيَا رَجُوعُكَ لِي بِجَلْ^(٢)

تَذَكَّرْنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
وَتَعَرَّضُ ذِكْرَاهُ إِذَا قُرْصُهَا أَقْلْ^(٣)

وإن هبَّتِ الأرواحُ^(٤) هَيَّجْنَ ذِكْرَهُ
فِيَا طَوْلَ مَا حَزَنِي عَلَيْهِ وَمَا وَجَلْ

سَأَعْمَلُ نَصَّ الْعَيْسِ^(٥) فِي الْأَرْضِ جَاهِدًا
وَلَا أَسْأَمُ الْقَطَوَافَ أَوْ تَسَامَ الْإِبِلْ

(١) السبأ : الأسير .

(٢) يجلى : حسى .

(٣) مل وابن هشام : « إذا غربها أفل » وما أئتمن المطبوعة .

(٤) الأرواح : جهم ريح .

(٥) نص العيس : أرفع سيرها .

حِيَانِي أَوْ تَأْتِي عَلَيَّ مَنِّي

فَكُلْ أَمْرِي فَاثِرَ وَإِنْ غَرَّهَ الْأَجَلُ

ثم إن أناساً من كُلب حجّوا فرأوا زيدا فعرفهم وعرفوه ، فأعلموا أباه
ووصفوا له موضعه وعند من هو .

فخرج أبوه حارثةٌ وعنه كعب ابنا شراحيل لفدائه .

وقدما مكة فسألا عن النبي صلى الله عليه وسلم فدخلوا عليه فقالا : يا بن
عبد المطلب بن هاشم يا بن سيد قومه ، أنتم أهل حرّم الله وجيرانه تفكّسون
العائى وتطعمون الأسير ، جئناك في ابننا عبدك ، فامنن علينا وأحسن إلينا
في فدائه .

قال : من هو ؟ قال : زيد بن حارثة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلاً غير ذلك ؟ قالوا : ما هو ؟

قال : أدهوه فأخبروه ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارنى فوالله
ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً . قالوا : قد زدّتنا على النصف
وأحسنّت .

فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هذا ؟ قال : أبى
وهذا عمى . قال : فأنا من قد علمت ورأيت محبى لك فاخترن أو اخترهما .

قال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى مكان الأب والعم !

فقالا : ويحك يا زيد ! أختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك
وأهل بيتك !

قال : نعم ، قد رأيتُ مِنْ هَذَا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً .

فلما رأى ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أخرجه إلى الحِجْر فقال : يا من حضر ، اشهدوا أن زيدا ابني يَرِثْنِي وأرثه . فلما سمع ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما ، فانهصرا .

ودُعي : زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، حتى جاء الله بالإسلام فنزلت : « ادعهم لآبائهم هو أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ^(١) » فدعى من يومئذ زيد بن حارثة .

[إسلام أبي بكر]

قال ابن إسحاق : ثم أسلم أبو بكر بن أبي قُحَافَةَ رضى الله عنه ، واسمه عَتِيقٌ ، وقيل : عبد الله ، وعتيق لقبٌ ، لحسن وجهه وعفته ، فيما قال ابن هشام .

واسم أبي قُحَافَةَ عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة ابن كعب بن لؤي .

فلما أسلم أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله .

وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلاً مُؤَلِّفاً لقومه محبباً سهلاً ، وكان أنسبَ قريشَ لقريش وأعلمَ قريشَ بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلقٍ ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته .

(١) سورة الأحزاب .

فجعل يدعو إلى الله والإسلام مَنْ وَثَّقَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ مَنْ يَغْشَاهُ
وَيَجْلِسُ إِلَيْهِ .

فأسلم بدعائه ، فيما بلغني ، عثمانُ بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد
شمس بن عبد مناف بن قصي ، والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد
المزني بن قصي ، وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث
ابن زهرة بن كلاب ، وسعد بن أبي وقاص ، مالك بن أهيب ، بن عبد مناف
ابن زهرة ، وطلحة بن عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم
ابن مرّة .

فجاءهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم —ين استجابوا له
فأسلموا وصلوا .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما بلغني : مادعوتُ أحداً إلى
الإسلام إلا كانت فيه عنده كِبْوةٌ ونَظَرٌ وتردُّدٌ ، إلا ما كان من أبي بكر بن
أبي قحافة ، ما عكم^(١) عنه حين ذكرته له وما تردّد فيه .

قال : فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلوا وصدقوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاءه من الله .

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن صبرة
ابن الحارث بن فهر .

(١) عكم : تحول

وأبو سلمة عهدُ الله بن عهد الأسد بن هلال بن عهد الله بن عمرو بن مخزوم .
والأزرقمُ بن أبي الأرقم بن أسد أبي جندب بن عهد الله بن عمرو
ابن مخزوم .
وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جحج بن عمرو بن هصيص
ابن كعب بن لؤى .
وأخواه قدامة وعهد الله ابدا مظعون .
وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عهد مناف بن قصي .
وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عهد الزبي بن عهد الله بن قرط بن رباح
ابن رزاح بن عددي بن كعب بن لؤى .
واسمائه فاطمة بنت عمه الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب .
وأسماء بنت أبي بكر الصديق .
وعائشة بنت أبي بكر الصديق وهي يومئذ صغيرة .
وخباب بن الأرت حليف بني زهرة .
وعمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص .
وعهد الله بن مسعود المذلي حليف بني زهرة .
وجعاعة سوى هؤلاء سماهم ابن إسحق .
قال : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكرُ
الإسلام بمكة وتحدث به .

[الجهر بالدعوة]

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله أن يصدع بما جاءه منه وأن يبكرى الناس

بأمره وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستسّر به إلى أن أمره الله بإظهاره ثلاث سنين ، فيما بلغني ، من مهمته .

ثم قال له الله : « فاصدّع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ^(١) » .

ثم قال : « وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفيض جماعك لِمَنِ اتبعتك مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ^(٢) » « وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِين ^(٣) » .

قال : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبيدك سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم ناس من المشركين وهم يصلون ، فذاكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلهم ، ففرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بغير فسيحة .

فكان أول دم هريق في الإسلام .

فلما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدّع به كما أمره الله لم يبعث منه قومه ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهم وعابها .

فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من همم الله منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون .

وحارب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه

(١) سورة الحجر ٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) سورة الحجر ٨٩ .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهرًا له^(١) ، لا يردده عنه شيء .

[بين قريش وأبي طالب]

فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُعْتَبَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ ، مِنْ فِرَاقِهِمْ وَعَيْبِ آلِهِمْ ، وَرَأَوْا أَنَّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ قَدْ حَادَّبَ عَلَيْهِ وَقَامَ دُونَهُ فَلَمْ يُسَلِّمْ لَهُمْ ، مَشَى رِجَالٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ إِلَى أَبِي طَالِبٍ ، عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ وَأَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ ابْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَى بْنِ قُصَيٍّ ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْمَطْلَبِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَى ، وَأَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وَنُبَيْهَةُ وَمُهَبَّةُ ابْنَا الْحِجَااجِ ، وَالْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ ، أَوْ مِنْ مَشَى مِنْهُمْ .

فَقَالُوا : يَا أَبَا طَالِبٍ ، إِنْ ابْنُ أَخِيكَ قَدْ سَبَّ آلَهُنَا وَعَابَ دِينَنَا وَسَفَّهَ أَحْلَامَنَا وَضَلَّلَ آبَاءَنَا ، فَإِنَّمَا أَنْ تَسْكُفَهُ عَنَّا ، وَإِنَّمَا أَنْ تَحُلِّيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ، فَإِنَّكَ عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِهِ ، فَدَسْكُفْهُ .

فَقَالَ لَهُمْ أَبُو طَالِبٍ قَوْلًا رَقِيقًا وَرَدِّمًا رَدًّا جَمِيلًا ، فَانصَرَفُوا عَنْهُ .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعو إليه .

ثم شَرِيَّ^(٢) الأمر بينه وبينهم ، حتى تَبَاعَدَ الرِّجَالُ وَتَضَاعَفُوا ، وَأَكْثَرَتْ

(١) ابن هشام : مظهرًا لأمره .

(٢) شَرِيَّ الأمر : اشتد .

قريش ذِكرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها ، فقتلوا فيه وحض بعضهم بعضا عليه .

ثم انهم مشوا الى ابي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا ابا طالب ، إن لك سِدًّا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد اسقنهميناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، حتى تكفنه عنا أو نُكْذِله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . أو كما قالوا .

ثم انصرفوا عنه ، فمَظَّم على ابي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يعطِ نفسا بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خذلانه .

وذكر أن ابا طالب حين قالت له قريش هذه المقالة بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال له : يا بن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، لاذي قالوا له فأبقي على وعلى نفسك ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدأ لعمه فيه بداء ، وأنه خاذلُه ومُسْلِمُه ، وأنه قد ضُغِف عن نصرته والقيام معه ، فقال له : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته !

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى !

ثم قام ، فلما ولي ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخي . فأقبل عليه ، فقال : اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلاً رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه ، [وإجماعهم إفرانهم في ذلك وعداوتهم ^(١)] مشوا إليه بعمارة بن الوليد ابن المغيرة ، فقالوا له : يا أبا طالب هذا حمارة بن الوليد أنهد قتي في قريش وأجمله ، نخذه فلك عقه ونصره واتخذ ولدًا ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف ديدك ودين آباءك وفرق جماعة قوك وسقه أحلامهم فذقتله ، فإنما هو رجل كرجل .

قال : والله أبئس ما تسوموني ! أتعطوني ابنيكم أغذوه لكم وأعطيتكم ابني تةقلونه ! هذا والله ما يكون أبدا .

فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تسكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

فقال له أبو طالب : والله ما أنصفوني ، ولستك قد أجمعت خذلاً في ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك . أو كما قال .

لحقب- ^(٢) الأمر وحملت الحرب وتدابذ القوم وبادى بعضهم بعضاً .

[إيذاء النبي والمسلمين]

قال : ثم إن قريشاً تذا مروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه .

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم .

(١) من ابن هشام (٢) حق : اشتد .

وَمَنْعَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ مِنْهُمْ بِعَمَلِ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَدْ قَامَ أَبُو طَالِبٍ - بَيْنَ رَأْيِ قُرَيْشَ يَصْنَعُونَ مَا يَصْنَعُونَ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَلَبِ فَدَعَاهُمْ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مَنْعِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقِيَامِ دُونَهُ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ وَقَامُوا مَعَهُ وَأَجَابُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي لَهَبٍ .

فَلَمَّا رَأَى أَبُو طَالِبٍ مِنْ قَوْمِهِ مَا سَرَّهُ مِنْ جِدْمٍ^(١) وَحَدَبِهِمْ عَلَيْهِ جَعَلَ يُمَدِّحُهُمْ وَيَذْكُرُ قَدِيمَهُمْ وَفَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ وَمَكَانَهُ مِنْهُمْ لِيَشِدَّ لَهُمْ رَأْيَهُمْ وَلِيَتَّخِذُوا مَعَهُ إِلَى أَمْرِهِ ، فَقَالَ :

إِذَا اجْتَمَعْتَ يَوْمًا قُرَيْشٌ لِمُنْخَرٍ
فَعَبْدٌ مُنَافٍ سِرُّهَا وَصَمِيمُهَا
فَإِنْ حُصِّلَتْ أَشْرَافُ عَبْدٍ مُنَافٍ
فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا
وَأِنْ فَخَّرْتَ يَوْمًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا
هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمُهَا
تَدَاعَتْ قُرَيْشًا غَنَمُهَا وَسَمِيمُهَا
عَلَيْنَا فَلَمْ تَظْفَرْ وَطَاشَتْ حُلُومُهَا
وَكَمَا قَدِيمًا لَا تُقَرُّ ظِلَامَةُ
إِذَا مَا تَدَوَّاهَا صُعُرَ الْخُلُودُ نُقِيمُهَا
وَتَحْمَى حِمَاها كُلَّ يَوْمٍ كَرِيمَةٍ
وَنَضْرِبُ عَنْ أَجْحَارِهَا^(٢) مِنْ يَوْمِهَا

(١) ابن هشام : في جِدْمِهِمْ مَعَهُ .

(٢) المطبوعة : أَجْحَارُهَا .

بدا انتمش العود الدوي وإنما
بأكنافنا تنفدى وتنمى أرومها

[الوليد بن المغيرة]

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع عليه نفر من قريش ، وكان ذاسن فيهم ، وقد
حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم ، وإن وفود
العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحداً
ولا تحتلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً .
قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول فيه ^(١) .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا السكبان فما هو بزمنة السكاهن
ولا سجعهم . قالوا : فنقول : مجنون . قال : وما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون
وعرفناه ، فما هو بمجننة ولا تخالجه ولا وسوسة . قالوا : فنقول : شاعر . قال :
ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه
فما هو بالشعر قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر ، قد رأينا السحار وسحرم ،
فما هو ببنفثه ولا عقده ^(٢) .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله
آتدق وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ،
وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء
وزوجه وبين المرء وعشيرته .

(١) ابن هشام : به وهو خطأ .

(٢) ابن هشام : بنفسهم ولاعقدهم .

فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسُبل الناس حين قدوا الموسم ، لا ير
بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ، وصدرت العرب من ذلك الموسم
بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها .

[قصيدة أبي طالب]

فلما خشى أبو طالب دُهاء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته التي يعوذ^(١)
فيها بحرَم مكة وبمكانه منها ، وتودّد فيها أشراف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم
وغيرهم في ذلك من شعره أنه غير مُسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تاركة
لشيء أبداً حتى يهلك دونه . وأولها .

لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وَدَّ فِيهِمْ
وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ
وَقَدْ صَارَ حَوْنًا بِالْعِدَاةِ وَالْأَذَى
وَقَدْ طَاوَعُوا أَمَرَ الْعَدُوِّ الْمَزَائِلِ
وَقَدْ حَالَفُوا قَوْمًا عَلَيْهِمْ أَظِنَّةٌ
يُمِضُّونَ غِيظًا خَلَفْنَا بِالْأَنَامِلِ
صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمَرٍ تَنْجَحِ
وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِنْ تَرَاثِ الْقَاوِلِ
وَأَحْضَرْتُ^(٢) عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي
وَأَمَكَسْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالْوَسَائِلِ

(١) المطبوعة : تموذ (٢) المطبوعة : وأحظرت . وهو خطأ .

قيامًا معًا مستقبليين رتاجه
لدى حيث يقضى حلفه كل نافل
وحيث يُذبح الأشعرون ركبهم
بمضى السيول من إسافٍ ونائل
موسمة الأعضاء أو قهراتها
نخيسة بين السديس وبازل^(١)
ترى الودع فيها والزخام وزينة
بأعناقها معقودة كالعناكل^(٢)
أعوذ برب الناس من كل طاعن
عليها بسوء أو ملحٍ بباطل
ومن كاشحٍ بسمى لها بمعية
ومن ملحقٍ في الدين ما لم نحاول
وثورٍ ومن أرسى أثيراً مكانه
وراقٍ ليرقى في حراء ونازل
وبالبيت ، حق البيت ، من بطن مكة
وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر الأسود^(٣) إذ يمسحونه
إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

(١) موسمة : معلقة ، والقصرات جمع قصرة وهي أصل العنق . والنخيسة المذلة . السديس من الإبل : الذي دخل في الثامنة ، والبازل : الذي خرج نابه وذلك لتسع سنين .
(٢) العناكل : الأغصان التي تنبت عليها الثمار .
(٣) الأصل : الأسود ، وما أثبتته من ابن هشام .

وَمَوْطِيْ^(١) اِبْرَاهِيْمَ فِي الصَّخْرِ وَطَاءَ^(٢)
عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ
وَأَشْوَاطَ بَيْنَ الْعَرَوَتَيْنِ إِلَى الصَّفَا
وَمَا فِيهِمَا مِنْ صُورَةٍ وَتَمَاثُلٍ^(٣)
وَمَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ رَاكِبٍ
وَمِنْ كُلِّ ذِي نَذْرٍ وَمِنْ كُلِّ رَاغِلٍ
وَبِالْمَشْرِ الْأَقْصَى إِذَا مَحْدُوا لَهُ
إِلَالٍ إِلَى مُنْفَعَى الشَّرَاحِ الْقَوَابِلِ^(٣)
وَتَوَقَّافِهِمْ فَوْقَ الْجِبَالِ عَشِيَّةً
يَقِيْمُونَ بِالْأَيْدِي صُدُورَ الرُّوَاهِلِ
وَلَيْلَةَ بَجَمْعٍ وَالْمَنَازِلِ مِنْ مِثْنَى
وَهْلٍ فَوْقَهَا مِنْ حَرَمَةٍ وَمَنَازِلِ
وَبَجَمْعٍ إِذَا مَا الْمُقَرَّبَاتِ أَجَزْنَ^(٤)
سَرَاعًا كَمَا يَخْرُجْنَ مِنْ وَقْعٍ وَابِلٍ
وَبِالْجُرَّةِ الْكُبْرَى إِذَا صَمَدُوا لَهَا
يَوْثُـونَ قَذْفًا رَأْسَهَا بِالْجُدَادِلِ
وَكِدْمَةً إِذْ هُمْ بِالْحَصَابِ عَشِيَّةً
تَجِيْزُ بِهِمْ حَبَاجُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ

(١) ابن هشام رضية .

(٢) من ابن هشام .

(٣) إلال جبل بعرفة معروف . والشراح القوابل مسايل الماء المقابلة .

حليفات شداً عَمَدَ ما اخْتَلَفَا لَهُ
 وردًا عَلَيْهِ عَاطِفَاتِ الْوَسَائِلِ
 وَحَظِيمِهِمْ مُنْمَرِ الصَّفَاحِ وَسَرَّحِهِ
 وَشِبْرَقِهِ وَخَدَّ النِّعَامِ الْجَوَائِلِ^(١)
 فَمَلَّ بِمَدَّةٍ هَذَا مِنْ مَعَاذِ لَعَائِذِ
 وَهَلْ مِنْ مُعِيزٍ يَتَّقَى اللَّهُ عَادِلِ^(٢)
 يَطَاعُ بِهَا الْعِدَى^(٣) وَوَدَّ لو أَنَا
 نُسَدُّ بِمِثْلِ أَبْوَابِ تَرْكِ وَكَأْبِلِ
 كَذِبِهِمْ وَبَيْتِ اللَّهِ نَتْرِكُ مَكَّةَ
 وَنُظْمِنُ إِلَّا أَمْرُكُمْ فِي بِلَالِ
 كَذِبِهِمْ وَبَيْتِ اللَّهِ يُنْزَى^(٤) عَمْدًا
 وَلَمَّا نَطَاعِنُ دُونَهُ وَنُدَاخِلُ
 وَنُسَلِّمُهُ حَتَّى نُنْعَرِّجَ حَوْلَهُ
 وَنَذْهَلُ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَالِ
 وَتَنْهَضُ قَوْمٌ فِي الْحَدِيدِ إِلَيْكُمْ
 نَهْوَضُ الرَوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلَاحِ^(٥)

(١) الصَّفَاح : جمع صَفْح ، وهو عَرْضُ الْجِلْد ، وَالسَّمَر : شَجَرُ الطَّلَح ، أصله بضم الميم
 فسكمت للأضروحة ، وَالسَّرَح : نوع من الشجر ، وَالسَبْرَق : نبات ، وَالْوَخْد : السَّيْر السَّريِم .
 وَالنِّعَام الْجَوَائِل : المهرعة .

(٢) ابن هشام : عاذل .

(٣) العدى : جمع عاد كغفار وغازي . (٤) أبرى : أساب . وفي الروض الأنف : ينزى . محزنة

(٥) أ وَايَا : الإبل التي تحمل الماء ، وَالصَّلَاح : المَزَادَاتُ التي تُصَالُ بالماء ،

(١٩ — الاكتفاء)

وحشى نرى ذا الضغن يركب رذعه
 من الطعن فمل الأتكبر المتحامل
 وإنّا لعمرؤ الله إن جدد ما أرى
 لقلعتين أسيافا بالأمائل
 بهكتى فتى مثل الشهاب تتبدع^(١)
 أخى ثقة حامى الحقيقة باسل
 وما ترك قوم لا أبالك سيدياً
 بمحوط الدمار غير ذرب مواكل
 وأبيض يستنقى الغمام بوجهه
 نمل الأيتام عصمة للأرامل
 يلوذ به الهالك من آل هاشم
 فهم عند الله في رحمة وفواضل
 جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً
 عقوبة شر عاجلاً غير آجل
 بميزان قسط لا يخس شعيرة
 له شاهد من نفسه غير هائل
 لقد شففت أحلام قوم تبدلوا
 بنى خلف قيصاً بنى والفياطل^(٢)

(١) السديد : السيد .

(٢) الفياطل : بنو سهم لأن أهم الغيلة . وفيضا : عوضا .

ونحنُ الصِّمِيُّ من ذؤابة هاشمٍ
وآلِ قَعِيٍّ في الخُطوبِ الأوائلِ
وسهمٌ ونخزومٌ تمالأوا وألبوا
عليها العِمدى من كلِّ طِئِلٍ وخاملٍ^(١)
فعمدَ منافٍ أنتمُ خيرَ قومكم
فلا تُشْرِكوا في أمركم كلَّ واغلٍ^(٢)
امرى لقد وهنتُمُ ومجرتُمُ
وجئتُمُ بأمرٍ مُخْطِئٍ للمفاصلِ
فإنَّ نَكْ قوماً تَنْتَهِزُ ما صعدتُمُ
وتحتلُّوها لِقِحَّةٍ غيرِ باهلٍ^(٣)
فأبلغُ قصيًّا أن سَيُنْشَرُ أمرُنا
وبشَّرُ قُصَيًّا بـمـدنا بالتغاضلِ
ولو طرقتُ ليلًا قصيًّا عظيمةً
إذا ما لجأنا دونهم في المداخلِ
ولو صدقوا ضرباً خلالَ بيوتهم
لكنا أسيّ^(٤) عندَ النساءِ المطافلِ

(١) الدمل : الفاحش ، وهو الاس أيضاً .

(٢) الواغل : المتطفل الدخيل .

(٣) نثر : نثر ، واللقحة : الناقة ذات الابن . والباهل : الناقة التي لا صرار

على أخلافها فهو مباحة الحاب .

(٤) الأسي : جمع أسوة .

فإن تلك كعب من لوى صُنَيْبَة (١)
فلا بُدَّ يوماً مرةً من تَزَايَلِ
فكلُّ صديقٍ وابنٍ أختٍ نَعْدُهُ
لَعَمْرِي وَجَدْنَا غَيْبَهُ غَيْرَ طَائِلِ
سوى أن رَهْطاً من كلابِ ابنِ مُزَوِّقِ
بَرَّالٍ إِلَيْنَا من مَعْقَةِ خَاذِلِ
ونعم ابنُ أختِ القومِ غَيْرَ مَكْذَبِ
زَهْرٍ حُسَامَا مُفْرَدَاً مِنْ حَائِلِ
أشْمُ من الشَّمِّ الْبَهَائِلِ يَنْتَمِي
إلى حَسَبٍ في حَوْمةِ الجَدِّ فَاذِلِ
لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجْداً بِأَحَدِ
وَإِخْوَتِهِ (٢) دَابَّ الْحَبِّ لِلْوَاوِلِ
فَلَا زَالٍ فِي الدُّنْيَا جَمَالاً لِأَهْلِهَا
وَزَيْنَاً لِمَنْ وَالَاهُ رَبُّ (٣) الْمَشَاكِلِ
فَنِ مِثْلُهُ فِي الدَّيَّاسِ أَيْ مُؤَمِّلِ
إِذَا قَاسَاهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ الْفَاضِلِ
حَكِيمٍ (٤) رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرَ طَائِلِ
يُوَالِي إِلَيْنَا لَيْسَ عَنْهُ بِنَافِلِ

(١) أي قريبة .

(٢) لم يكن للرسول إخوة مما يبين صنعة هذا الشعر .

(٣) المطبوعة : ذب

(٤) المطبوعة : حكيم .

فأيده رب العباد بمصره
وأظهر ديناً حقه غير باطل^(١)
فوالله لولا أن أجيء بسببة
تُجرّ على أشياخنا في القبائل
لَكُنّا اتبّعنا على كل حالة
من الدهر جِداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مُكذب
لديننا ولا يُعنى بقول الأباطل
فأصبح فيما أحده في أرومة
تُهمّرُ عنها سورة المتطاول
حدّثُ بنفسى دونه وحميّة
ودافعت عنه بالدري والكلال^(٢)

وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثر هذه القصيدة^(٣) .
قال : وحدثنى من أئق به قال : أقحط أهل المدينة فأنوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم فشكوا إليه ذلك ، فصعد الميبر فاستسقى ، فماله أن جاء من المطر ما أنام
أهل الضواحي يشكون منه الفرق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« اللهم حوالينا ولا علينا » .

(١) الطبوعة : غير فاصل .

(٢) السكلاكل : عطام الصدر . وترتيب القصيدة هنا يخالف لترتيب ابن هشام .

(٣) ويظهر عليه أيضاً ركاسة الصنم .

— ٢٩٤ —

فانجباب السحابُ عن المدينة ، فصار حوالها كالإكليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لمرّه » فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله :

وأبيضَ يُسْتَشَقَّى الغمامُ بوجهه
يُمَالُ اليَتَامَى عصمةً للأراملِ

قال : أجل .

[قصيدة أبي قيس بن الأسلت]

قال ابن إسحق : فلما انتشر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرب وبلغ البلدان ، ذُكِرَ بالمدينة ، ولم يك حى من العرب أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذُكِرَ وقَبِلَ أن يُذكر من الأوس والخزرج ، وذلك لِمَا كانوا يسمعون من أخبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ومعهم في بلادهم .

فلما وقع ذِكْرُهُ بالمدينة وتحذثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف ، قال أبو قيس بن الأسلت الأوثبي ، وكان يحب قريشاً وكان يقيم فيهم السنين بامرأته أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى ، قصيدة يعظم فيها الحرممة وينهى قريشاً عن الحرب ويذكُر فضائلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف عنهم عن بعض وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذكُرهم بلاء الله عنهم ودفعه الفيل عنهم فقال :

يا راحكها إِمَّا عَرَضَتْ فَبَلَّغْنِ
مُغْلَقَةً^(١) عَنِ لُؤَيٍّ بنِ غَالِبٍ

(١) المغلقة: الداخلة إلى أقصى ما يراد بلوغه منها.

رسول امرى قد راعه ذاتُ يَدَيْكُمْ
على النَّأْيِ تَحْزُونٍ بِذَلِكَ نَاصِبٍ
وقد كان عدى للموم مُعَرَّسٍ
ولم أَقْضِ (١) منها حاجتى ومآربى
أعْيَذكُمُ بالله من شر صُنْعِكُمْ
وشر تَبَاغِيكُم ودَسِّ العقاربِ
وإظهار أخلاقٍ وَتَجَوَّى سَقِيمَةٍ
كَوَحْزِ الْأَشْأَى وَقَعْمَا حَقِّ صَائِبِ (٢)
فَذَكَّرَكُمُ بالله أولَ وَهْمَةٍ
وإحلالِ إِحْرَامِ الطَّبَاءِ الشَّوَارِبِ (٣)
وقل لهمُ والله بِحُكْمِ حُكْمِهِ
ذَرُّوا الْحَرْبَ تَذْهَبْ عَنْكُمْ فى الرَّاحِبِ
مَنْ تَبَعْتُمْوهَا تَبَعْتُمْوهَا ذَمِيمَةٍ
مِى الْغُولِ لِلْأَقْصَيْنِ أَوِ الْأَقْرَبِ
تُقَطِّعْ أَرْحَامًا وَتُهْلِكَ أُمَّةً
وَتَهْرِى السَّدِيفَ مِنْ سَقَامٍ وَغَارِبِ (٤)
فَإِيَّاكُمْ وَالْحَرْبَ لَا تَعْلَقَنَّكُمْ
وَحَوْضًا وَخَيْمَ الْمَاءِ مُرَّ الْمَشَارِبِ

(١) ابن هشام : فلم أقض .

(٢) الأشأى : جم إشفى ، وهى المثقب والسراد يخرز به .

(٣) الشوارب : الضامرة التى تأتى من بعد لقأمن فيه ، فهى شاذبة أى ضامرة من بعد

(٤) السديف : لحم الظفر .

المسافة ، وى المطبوعة : الهوادب .

تُزَيْنُ لِلْأَقْوَامِ ثُمَّ يَرَوْنَهَا
بِعَاقِبَةٍ إِذْ يَبْتَغِي أُمُّ صَاحِبٍ^(١)
تُحَرِّقُ لَا تَشْوِي^(٢) ضَعِيفًا وَتَنْصَحِي
ذَرِيَّ الْعِزِّ مِنْكُمْ بِالْحَتُوفِ الصَّوَائِبِ
أَلَمْ تَعْلَمُوا مَا كَانَ فِي حَرْبِ دَاخِسٍ
فَقَعْتُمْ بِرَوَاهِ ، أَوْ كَانَ فِي حَرْبِ حَاطِبٍ ؟^(٣)
وَكَمْ قَدْ أَصَابَتْ مِنْ شَرِيفٍ مُسَوِّدٍ
طَوِيلَ الْعِمَادِ ضَيْفُهُ غَيْرُ خَائِبٍ
وَمَاءُ هُرَيْقٍ فِي الضُّلَالِ كَأَنَّمَا
أَذَاعَتْ بِهِ رِيحُ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ
يُخْبِرُكُمْ عَنْهَا أَمْرٌ حَقٌّ عَالِمٍ
بِأَيَّامِهَا وَلِلَّهِ لَمْ يَلْمُ الْعُلَمُ التَّجَارِبِ

(١) أم صاحب : أي عجزواكم صاحب لك .

(٢) لا تشوي : لا تخطيء .

(٣) داحس فارس كان لقيس بن زهير بن جذيمة بن عيس بن بغيض أجراه مع فارس لحذيفة ابن بدر بن عمرو بن زيد بن ذبيان بن بغيض يقال لها الغبراء ، قدس حذيفة قوما وأمرهم أن يضربوا وجه داحس إن رأوه قد جاء سابقا ، فجاء داحس سابقا فضربوا وجهه ، وجاءت الغبراء ، فلما جاء فارس داحس أخبر قيسا الخبر ، فوثب أخوه مالك بن زهير فلطم وجه الغبراء ، فقام حمل بن بدر فلطم مالك . فوَلَعْتُ الحرب بين عيس وفزارة .

وأما حرب حاطب ، فهو حاطب بن الحارث بن قيس . بن عمرو بن عوف بن مالك ابن الأوس ، كان قتل يهوديا جارا للخرزج ، فوَلَعْتُ الحرب بين الأوس والخرزج فاقْتَتَلُوا قتالا شديدا .

فهييخوا الحرابَ يلمحاربِ واذكروا
حسابكم والله خيرٌ محاسبِ
ولى امرى^(١) فاختار^(١) ديناً فلا يكن
عليكم رقيباً غيرُ ربِّ الثوابِ
أقيموا لنا ديناً حنيفاً فأنتم
لنا غايةٌ ، قد يُهتدى بالذوابِ
وأنتم لهذا الناس نورٌ وعصمةٌ
تؤمنون والأحلامُ غيرُ عواذبِ
تصونون أجساداً كراماً عتيقةً
مهذبةً الأنساب غيرِ أشائبِ^(٢)
ترى طالبي الحاجاتِ تحوُّ بيوتكم
عصائبَ هلكى تهتدى بعصائبِ
لقد علم الأفوامُ أن سرائكم
على كل حالٍ خيرُ أهل الجبابِ^(٣)
فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا
بأركان هذا البيت بين الأخشابِ^(٤)
فعدكم منه بلاً ومعضدقٌ
غداة أبى يكسوم هادى الكتائبِ

(١) إلقاء هنا زائدة (٢) غير متبادلة .

(٣) الجباب : جبال منه .

(٤) صلوا : دعوا .

— ٢٩٨ —

كَيْبِيَّتَهُ بِالسَّهْلِ تُمْسِي وَرَجُلُهُ
عَلَى الْقَاذِفَاتِ فِي رَعُوسِ الْمَقَابِرِ
فَلَمَّا أَتَاكُمْ نَعَرَ ذِي الْعَرْشِ رَدِّمَ
جَدُودُ إِلَهٍ بَيْنَ سَافٍ وَحَاصِبٍ
فَوَلُّوا سَرَاعًا هَارِبِينَ وَلَمْ يَتُوبْ
إِلَى قَوْمِهِ مَلْحُوشٌ غَيْرُ عَصَائِبِ
فَإِنْ تَهَاكُّوا نَهْلَكَ وَتَهْلَكَ عَصَائِبُ^(١)
يُعَاشُ بِهَا ، قَوْلُ امْرِئٍ غَيْرِ كَاذِبِ

[من أذى قريش]

ثم إن قريشا اشتد أمرهم ، للشقاء الذي أصابهم ، في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم .
فأغروا برسول الله سفهاءهم فكذبوه وآذوه وروءه بالشعر والسحر
والسكمان والجفون .
ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهرٌ لأمر الله لا يستخفى به ، مُبَادٍ لَهُمْ
بِمَا يَكْرَهُونَ مِنْ غَيْبِ دِينِهِمْ وَاعْتِزَالِ أَوْثَانِهِمْ وَفِرَاقِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ .
فَخَذَّتْ عَمْرُؤُا بْنُ الزَّبِيرِ أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَمْرُو بْنِ الْعَاصِ : مَا أَكْثَرُ
مَا رَأَيْتَ قَرِيشًا أَصَابُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا كَانُوا يَظْهَرُونَهُ
مِنْ عِدَاوَتِهِ ؟

(١) كَذَا فِي وَفِي ابْنِ هِشَامٍ : مَوَاسِمُ .

قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم يوماً في الحِجْر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثل ما صَبَرْنَا عليه من أمر هذا الرجل قط لِسَفَهٍ أَسْلَمْنَا وَشْتَمَ آبَاءَنَا وَعَابَ دِينَنَا وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَسَبَّ آلَهُتَنَا ، لَقَدْ صَبَرْنَا مَدَّةَ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ . أَوْ كَمَا قَالُوا .

فبيداهم في ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض القول .

قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أنسمعون يا معشر قريش ؟ ! والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذِّبْحِ ^(١) . قال : فأخذت القوم كلُّهُمُ حتى ما منهم رجل إلا كُتِبَ على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه وصاة ^(٢) قبل ذلك ليرفؤه ^(٣) بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولاً .

قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحِجْر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما باغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تسكرهون ترككموه !

فبيداهم في ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل

(١) أى بالهلاك والقتل إن عصيتكم وكذبتكم .
(٢) الوصاة : الوصية ، وى الطلوعة : وسائلها .
(٢) يرفؤه : يسكنه .

— ٣٠٠ —

واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ، للذى يقول^(١) من
غيب آلهتهم . فيقول رسول الله : نعم أنا الذى أقول ذلك .

فلقد رأيتُ رجلا منهم أخذ بمجمع رداءه ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكي
ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله !!

ثم انصرفوا عنه .

فإن ذلك لأشد ما رأيتُ قريشا نالوا منه قط .

(١) ابن هشام : لما كان يقول .

ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب

قال ابن إسحاق : وحديثي رجل من أسلم ، كان واعية ، أن أبا جهل مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم عدد الصفا فآذاه وشتمه ونال^(١) منه بعض ما يكره من العيب لدينه والضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومولاة لعبد الله بن جُدعان في مسكن لها تسمع ذلك .

ثم انصرف عنه فعمد إلى نادي قريش عند السكبة فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً سيفه راجعاً من قنص^(٢) له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالسكبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على نادي من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعزّ فتى في قريش وأشدّه^(٣) شكيمه .

فلما مرّ بالمولاة ، وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته قالت له : يا أبا حمزة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آتفا من أبي الحكم بن هشام وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فاحتمل حمزة الغضب ، لما أراد الله به من كرامته ، ففرج يسمى لم يقف على

(١) المذبذبة : قال . وهو خطأ .

(٢) القنص : الصيد .

(٣) ابن هشام : وأشد .

أحد ، مهذا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع^(١) به .

فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضر به بها فشججه شجرة منكورة ، ثم قال : أنشتمه وأنا^(٢) على دينه أقول كما يقول ، فرُدَّ ذلك على^١ إن استعطت .

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا ثمار ، فإنني والله قد سببت ابن أخيه سببا قبيحا .

وتم حمزة على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله من قوله .

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزَّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فسكنوا عن بعض ما كانوا يقولون منه .

[عتبة بن ربيعة يفارض الرسول]

وعن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيدا ، قال يوما وهو جالس في نادي قريش ، والذي صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فتمطيه أيها شاء ويكف عنا ؟

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرئون .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلِّمه .

(١) المطبوعة : أن يوقع .

(٢) المطبوعة : فأنا .

فقام عُتْبَةُ حتى جالس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا بن أخى
إناك منا حيث قد علمت من السُّطَّة^(١) فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإناك
قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فوَقَّتَ به جماعتهم وسفقت به أحلامهم ، وهَبَّتْ به
آلهم ودينهم ، وكفَّرت به من مضى من آباءهم ، فاسمع منى أعرض عليك
أمورا نهظر فيها ، لعلك تقبل منا بعضها .

فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالا جمعنا
لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك
عليها حتى لا تقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد مُلْكًا مَلَكَكَناك عليها ،
وإن كان هذا الذى يأتيك رِيًّا لا تراه ولا نستطيع ردّه من نفسك طلبنا لك
الطب وبذلنا فيه من أموالنا حتى نُهْرُثَكَ منه ، فإنه ربما غلب القابح على الرجل
حتى يداوى منه . أو كما قال له .

حتى إذا فرغ عتبه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : أقد
فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى . قال : أفعل .

قال : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم ، تنزيلٌ من الرحمن الرحيم . كِتَابٌ
فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ
فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وقالوا قلوبنا فى أَكْثَرِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ
بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ، فاعمل إننا عاملون »^(٢) .

(١) السُّطَّة : الشرف .

(٢) سورة فصّات ١ — ٤ .

ومضى^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورأى ألى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالسكمان ، يا معشر قريش أطيعوني واجملوه ابي ، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبا ، فإن تُصِبه العرب فقد كُفِيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فمُلْككم ملككم وعزّه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

[قريش تفاوض الرسول]

قال ابن إسحاق : ثم إن الإسلام جعل ينشؤ بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدّرت على حبسه وتفتن من استطاعت فتنّته من المسلمين .

(١) ابن هشام : ثم مضى .

ثم إن أشراف قريش^(١) من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند
ظهور الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا ل محمد فـكـأـوه وخاصموه حتى
تقتلوا فيه .

فبعثوا إليه نجاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا ، وهو يظن أن
قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدكم ويؤثر
عليه عنكم .

حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لـكـأـك ، وإنا والله ما نعلم
رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء
وعيث الدين وشتمت الآلهة وسفقت الأحلام وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر
قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا
حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا ف نحن نسودك
عليها ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك
رؤيا تراه قد غاب عليك ، وكانوا يسمون التابع من الجن رؤيا ، فربما كان
ذلك ، بذلك أموالنا في طلب العلب لك حتى نبرئك منه أو نقتل فيك .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون ، ما جئت
بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، وإن كان الله
بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ،
فبإذنتكم رسالات ربي ونصحتكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم

(١) ابن هشام : نسام .

في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه على أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .
أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل شيئاً مما عرضنا عليك فلذلك قد علمت
أنه ليس أحد من الناس أضيق بلدًا ولا أقل ماء ولا أشد عيشًا منا ، فسئل لنا
ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ،
وليتسط لنا بلادنا وليحرق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا
من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ،
فإنه [كان^(١)] شيخ صدق فذسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك
وصدعت ما سألتك صدقك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً
إلينا كما تقول .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بهذا بُعثت إليكم ،
إنما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن
تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه على أصبر لأمر الله حتى
يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك
ملاكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً
وكدوراً من ذهب وفضة يفتيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق
وتلتمس للعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلك من ربك إن كنت
رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل
ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً . أو كما قال .

(١) ط : فإنه شيخ صدق .

فلان تقبلوا ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ
أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فأشقيط الدجاء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء ففعل ،
فلإنا لا نؤمن بك إلا أن تفعل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله
بكم فعل .

قالوا : يا محمد فما علم ربك أننا سنجلس معك ونسألك عما سألتك عنه
ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم إليك فيمّا لك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو
صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به ؟

إنه قد بلغنا أنك إنما يملك هذا رجلٌ باليامة يقال له الرحمن ، وإنا والله
لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد اعتذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك ،
وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم : نحن نعهد الملائكة وهي بدأت الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك
حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن
أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد
المطلب ، فقال له : يا محمد عرّض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألك
لأنفسهم أموراً ليمروا بها منزلك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم
تفعل ، ثم سألك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلك من
الله فلم تفعل . أو كما قال له . فوالله لا أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً

— ٣٠٨ —

ثم تَرَني فيه وأنا أنظر ، حتى تأتياها ، ثم تأني معك بصك^(١) أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأبم الله لوفعات ذلك ما ظننت أني أصدقك .

ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولمّا رأى من مهادتهم إياه .

فلما قام عنهم قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلّا ما ترون من هيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أعلامنا وشتم آلهتنا ، وإنّي أعاهد الله لأجاسن له غداً بحجر ما أخلق حمله . أو كما قال .

فإذا سجد في صلاته فضّخت به رأسه ، فأسأروني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بدو عهد مناف ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نملك شيء أبداً فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينظره ، وغداً رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يندو ، وكان بمكة وقبيلته إلى الشام ، فسكان إذا صلى بين الركبتين الركن اليماني والحجر الأسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرى ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل

(١) ابن هشام : ثم تأني معك أربعة .

أبو جهل الحَجَر ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزما مفتقعا لونه مرعوبا
قد يبست يده على حَجَره حتى قذف الحجر من يده .

وقامت إليه رجال قريش فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قتلت إليه
لأفعل ما فلت لكم الهارحة ، فلما دنوت منه عَرَضَ لى دونه لخل من الإبل
لا والله ما رأيت مثل هامته ولا قعرته^(١) ، ولا أنيابه لفعل قط ، فهمم^(٢) .
أن يأكلنى .

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذلك
جبريل ، لودنا لأخذه .

فلما قال ذلك لهم أبو جهل قام النضر بن الحارث بن كَلْدَة بن عَلَقْمَة بن
عبد مناف بن عبد الدار بن نُصَي ، فقال : يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم
أمر ما أتيتم له بحيلة بعدد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثنا أرضاكم فيكم
وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغنيه الشيب وجاءكم
بما جاءكم به قلتم : ساحر . لا والله ما هو بساحر ، قد رأينا السحرة أنفثهم^(٣)
وعقدهم . وقلتم : كاهن . لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة يتخالجم^(٤)
وسمعا سجعهم . وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر وسمعا أصدافه
كلها هزجه ورجزه . وقتم : مجنون . لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما
هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يا معشر قريش انظروا فى شأنكم فإنه والله
لقد نزل بكم أمر عظيم .

(١) ابن هشام : ولا مثل قصرته ، والقصرة : أصل العنق .

(٢) ابن هشام : السحرة ونفثهم .

(٣) ابن هشام : وتخالجم .

[وفد قريش إلى أحبار اليهود]

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه وبعثوا معه عُمَبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة ، وقالوا لها : سَلِّامُ عن محمد وصِفَّا لهم صفته وأخبرهم بقوله ، فإنهم أهل السكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجوا حتى قدما المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره وأخبرهم ببعض قوله ، وقالوا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا !

فقالت لها أحبار يهود : سَلِّوهُ عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مُرْسَل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل فَرَّوْا فيه رأيكم .

سَلِّوهُ عن فِثْيَةِ ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فإنه كان لهم حديث عجيب .

وسَلِّوهُ عن رجل حَلَوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟

وسَلِّوهُ عن الروح ما هو ؟

فإذا أخبركم بذلك فأنبئوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل مُتَقَوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر بن الحارث وعُمَبة بن أبي مُعَيْط حتى قدما مكة ، فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد .

أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء ، فإن أخبركم عنها فهو نبي ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل ، فَرَّوْا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن تلك الأشياء فقال لهم :
أخبركم بما سألتهم عليه غدا . ولم يستثن .

فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمسة
عشرة ليلة لا يُحدث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل ، حتى أُرْجِفَ
أهل مكة ، وقالوا : وهذا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها
لا يخبرنا بشيء مما سألفاه عنه . وحتى أحرن رسول الله صلى الله عليه وسلم مُكثُ
الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .

ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه
عليهم وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية^(١) والرجل الطواف والروح .

فذكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل حين جاءه : لقد
احتبست عني يا جبريل حتى سئْتُ ظمأ . فقال له جبريل : « وما تنزل إلا
بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيماً »^(٢) .

فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه
فيما حدث وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سأله عما سأله
عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله وتركوا
أمره عياناً وأجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : لا تسمعوا لهذا القرآن
والغوا فيه لعلكم تغلبون .

أى اجعلوه لغوا وباطلاً واتخذوه هُزُوا لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن
ناظرتموه وخاصمتموه غلبكم .

(١) ابن هشام: من أمر الله الفتية ويبدو أن لفظ الجلالة مقتحم هنا .

(٢) سورة مريم ٣١ .

فقال أبو جهل بوما وهو يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق : يا معشر قريش ، يزعم محمد أنما جود الله الدين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أعظم^(١) الناس عددا وكثرة ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ !

فأنزل الله في ذلك من قوله : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا » إلى آخر القصة .

فلما قال ذلك بعضهم لبعض جعلوا إذا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو يصلي يتفرون عنه وبأبون أن يستمعوا له ، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يقول من القرآن وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقا منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته فظن الذي يستمع أنهم لا يسمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا دونهم أصاح يستمع له^(٢) .

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه : إنما نزلت هذه الآية : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » من أجل أولئك [الفر]^(٣) يقول : لا تجهر بصلاتك فيفترقوا عنك ، ولا تخافت بها فلا يسمعونها من يجب أن يسمعونها من يسترق ذلك دونهم ، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع فينتفع به .

(١) ابن هشام : أكثر .

(٢) المطبوعة : أصاح له يستمع منه . (٣) من ابن هشام .

[أول من جهر بالقرآن]

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبدُ الله ابن مسعود فيما حدث به عُرْوَةُ بن الزبير قال :

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ما سمعت قریشُ هذا القرآن يُجهر لها به قط ، فن رجلٌ يُسمِعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا . قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمدونه من القوم إن أرادوه . قال : دَعُونِي فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ .

قال : ففندا ابنُ مسعود رضى الله عنه حتى أتى المقام فى الضحى ، وقرش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قال : بسم الله الرحمن الرحيم رافعاً بها صوته « الرحمن ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ » قال : ثم استقبلها يقرأوها ، وتأملوه فجعلوا يقولون : ما قال ابنُ أمِّ عبدٍ ؟ ثم قالوا : إنه ليمتلو بعض ما جاء به محمد .

فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه وجعل يقرأ حتى بآخ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه . فقالوا : هذا الذى خشينا عليك فقال : ما كان أعداء الله أهونَ علىّ منهم الآن ، وإن شئتم لأغاديَنهم بمثلها [غدا]^(١) قالوا : لا ، حَسْبُكَ ، قد أسمعهم ما يكرهون .

[قریش تستمع إلى قراءة النبی]

وذكر الزهرى أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى من

(١) من ابن هشام .

الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهاءكم لأوقعتم في نفسه شيئاً .

ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة .

ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتماهد لا نعود ، فتماهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ حصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنيفة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وسملوا فسملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا^(١) على الركب وكنا ككفرى رهان قالوا : وما نبي يأتيه الوحي من السماء ! !

(١) تجاذبنا : أقمنا قال السهيلي : وقع في الجهرة : الجاذي : المقى على قدميه .

فتى ندرک هذه ؟ والله لا تؤمن به أبداً ولا تصدقه .
فتمام عنه الأخنس وتركه .

قال ابن اسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا يَهْزَأُونَ به : قلوبنا في أكنة لا نفقه ما تقول ، وفي آذاننا وقْر لا نسمع ما تقول ، ومن بيننا وبينك حجاب قد حال بيننا وبينك ، فاحمل بما أنت عليه إنا عاملون بما نحن عليه ، إنا لا نفقه عنك شيئاً .

فأنزل الله عليه في ذلك من قولهم : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أذانهم فغوراً » (١) .

أى كيف فهموا توحيدك ربك ، إن كنت جعلت على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقراً وبينك وبينهم حجاباً بزعمهم ؟ أى أنى لم أفل .

« نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً » (٢) .

أى ذلك ما تواصلوا به من ترك ما بعثتك به إليهم .

« انظروا كيف صرَبُوا لَكَ الأمثال فضأوا فلا يستغيثون سبيلاً » (٣) .

(١) سورة الإسراء ، ٤٦٤٥ .

(٢) سورة الإسراء : ٤٨ و ٤٧ .

أى أخطأوا المثل الذى ضربوا لك ، فلا يصيبون به هدى ولا يقتل لهم^(١)
فيه قول .

« وقالوا : أنذا كنّا عظاماً ورُفَاتَا أَنِنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا »^(٢) .

أى قد جئتَ نخسبرنا أنا سنُبْعَثُ بعد موتنا إذا كنّا عظاماً ورُفَاتَا
وذلك ما لا يكون .

« قُلْ : كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا . أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ
من يعيدنا ؟ قل : الذى فَطَرَكم أولَ مرّة »^(٣) .

أى الذى خَلَقَكم مما تعرفون ، فليس خَلْقُكم مِن تراب بأعز من
ذلك عليه .

وسئل ابن عباس رضى الله عنه عن قول الله عز وجل : « أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي
صُدُورِكُمْ » ما الذى أراد الله به ؟ فقال : الموت^(٤) .

[هدوان قریش]

قال ابن إسحاق : ثم لأنهم عَدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله
عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا
يحبسونهم ويمذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ،
من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، منهم من يفتن من شدة البلاء الذى
يصيبه ، ومنهم من يضأب لهم وبمعصمه الله منهم .

(١) المطبوعة : بهم .

(٢) سورة الإسراء : ٤٩ و ٥٠ و ٥١ .

(٤) أى لو كنتم الموت الذى هو كبير فى صدوركم فلا بد لكم من الفناء . وهو تفسير غامض

فكان بلال بن رباح وهو ابن سحامة لبعض بني جُمَح مَوْلداً من مَوْلديهم ، وكان صادق الإسلام طاهر القلب ، فكان أمية بن خلف يخرج به إذا سَهِيت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو في ذلك الهلاء : أَحَدٌ أَحَدٌ .

وكان ورقة بن نوفل يمرّ به وهو يعذب بذلك وهو يقول : أَحَدٌ أَحَدٌ . فيقول : أَحَدٌ أَحَدٌ والله يا بلال ! ثم يقبل على أمية ومن يصنع ذلك به من بني جُمَح فيقول : أحلف بالله لئن قتلتهموه على هذا لأتخذنه حناناً .
أى : لأتخذن قبره مَنَسْكَاً^(١) ومُسْتَرْحاً ، والحنان : الرحمة^(٢) .

حتى مرّ به أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوماً وهم يصنعون ذلك به فقال لأمية : ألا تتقى الله في هذا المسكين ؟ !

قال : أنت الذى أفسدته فأنتذره . فقال أبو بكر : أفعل ، عندي غلام أسود أجلّد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به . قال : قد قبلت . قال : هو لك .

فأعطاه أبو بكر ذلك ، وأخذ بلالاً فأعاقبه .

وأعاقب معه على الإسلام قبل أن يُهاجر إلى المدينة ستّ رقعات ، بلال سابعهم .

عامر بن فُهَيْرَة ، وأمّ عُبَيْس ، وزَيْنْبَة ، فأصيب بصرها حين أعاقبها ، فقالت

(١) المطبوعة : سَكَنّا . وهذا التفسير عن غير ابن هشام .

فريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى . فقالت : كذبوا وبيت الله ،
ما تضر اللات والعزى ولا تنفعان . فردَّ الله إليها بصرها .

وأعق الذهدية وابنتها ، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار ، فرَّ بهما أبو بكر
وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لما وهى تقول : والله لا أعتقكما أبدا . فقال
أبو بكر : حلًّا^(١) يا أم فلان . فقالت : حل أنت أفسدتكما فأعتقهما . قال :
فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد أخذتهما ، وما حرَّتان ، أرجما
إليها طحينها . قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليهما ؟ قال : أو^(٢) ذلك
إن شئنا .

ومرَّ بجارية بنى مؤمل^(٣) حى من بنى عدى ، وعمر بن الخطاب يعضها لترك
الإسلام ، وهو يومئذ مشرك ، فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

وقال له أبوه أبو قحافة : يا بنى أراك تفتى رقاباً ضعافاً فلماذا فعلت
ما فعلت أعتقت رجلاً جلداء ينعونك ويقومون دواك ؟ فقال أبو بكر :
يا أبت إنى إنما أريد ما أريد .

فهيَّتَ حديث : أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه وفيما قال أبوه : « فأما من أغفل
وأتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى »^(٤) إلى آخر السورة .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، وكانوا أهل بيت
إسلام ، إذا حُجيت الظهيرة يعضونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم فيقول فيما يلغى : صبراً آل ياسر قد كرموا الجنة .

(١) أى تحللى من يملك ، ولى ابن هشام : حل بالضم ، وما هنا أنصح .

(٢) ابن هشام : وذلك ، وما هنا أصح .

(٣) ط : بنى نوفل .

(٤) سورة الليل .

فأما أمه فقتلها وهي تأبى إلا الإسلام !

وكان أبو جهل الفاسق الذي يُفري بهم ، في رجال من قريش ، إذا سمع بالرجل له شرفٌ ومَنَمَةٌ قد أسلم أنبّه وأخزاه فقال : تركتَ دينَ أبيك وهو خيرٌ منك ! لئسفهمَ حِلْمُكَ وكُفْفَيَّانٌ^(١) رأيك وانضممتَ شرفك . وإن كان تاجراً قال : والله لأكسدتَ تجارتك ولنهلكن مالك . وإن كان ضميماً ضربه وأغرى به .

وقال سعيد بن جبير لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يميلون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يُمذِّرون به في ترك دينهم ؟

قال : نعم والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجمعونه ويمطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له : اللاتُ والمرى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجمل لير بهم فيقولون له : أهذا الجمل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداه منهم مما يملكون من جهده .

(١) أى لنخطئنه ونضللنه .

ذكر الهجرة إلى أرض الحبشة

قال ابن إسحق : فلما رأى رسولُ الله صلى عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن رحمته أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنهم بما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملسكالا يُظلم عنده أحد ، وهي أرضٌ صدق ، حتى يجعل الله لاسمكم فرجاً مما أنتم فيه .

ففرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً بدينهم إلى الله .

فكانت أول هجرة كانت في الإسلام .

وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان مع امرأته رُقَيَّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة بن عُمَيَّة بن ربيعة معه امرأته سَمْلَة بنت سُهَيْل ، والزُّبَيْر بن العَوَّام ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومُصَنَّب بن مُخَيْر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وأبو سلمة بن عبد الأسد الخزومي معه امرأته أم سلمة ، وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جُحَم ، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب بن نفيل معه امرأته ابلى بنت أبي حنيفة ، وسهل بن بيضاء من بني الحارث بن فهر ، وأبو سبرة بن أبي رُهم ، ويقال : بل أبو حاطب ابن عمرو . ويقال : هو كان أول من قدمها .

وكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين ، ثم خرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة منهم من خرج بأهله ومنهم من خرج بنفسه .

فكان جميعُ من لحق بأرض الحبشة من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صفاراً أو ولدوا بها ، ثلاثةً وثمانين رجلاً ، إن كان همار بن عامر فيهم ، وهو يُشكُّ فيه .

[ماقيل من الشعر في الحبشة]

وكان مما قيل من الشعر في الحبشة أن عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدى ابن سميد بن سهم ، حين أمموا بأرض الحبشة وسجدوا جوار النجاشي ، وعهدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً قال :

يا راکباً بَلَّغْنِ عَنِّي مُنْغَلَةً^(١)
 من كان يرجو بلاغَ الله والدينِ
 كلَّ امرئٍ مِنْ عِبَادِ الله مُضْطَمِدٍ
 ببطنِ مكة مقهورٍ ومفتونٍ
 أنا وجدنا بلادَ الله واسعةً
 تُنْجِي مِنَ الذِّلِّ والخِزَاةِ والهُونِ
 فلا تَقِيمُوا على ذلِّ الحياةِ وخِزْ
 يٍ في المماتِ وقَتِيبٍ غيرِ مأمونٍ
 إِنَّا تَبِعْنَا رَسُولَ الله وَاطَّرَحُوا
 قولَ النبيِّ وعَالُوا^(٢) في المـوازينِ

(١) أى رسالة .

(٢) عالوا : مالوا .

فاجمل عذابك بالقوم الذين بقوا
وعائذاً بك أن يملأوا فيطنوني
وقال عبد الله بن الحارث أيضاً يذكر نفى قريش لإمام من بلادهم ويعاتب
بعض قومه في ذلك :

أبت كيدي لا أكذبتك قتالهم
على وتباه على أنا على
وكيف قتلى معشراً أدبوكم
على الحق ألا تأشبهوه^(١) بهاطل
تفتهم عباد الجن من حر أرضهم
فأضجعوا على أمر شديد البلاء
فإن تك كات في عدي أمانة
عدي بن سعد عن نقي أو تواصل
فقد كنت أرجو أن ذلك فيكم
بمعد الذي لا يطهى بالجمائل^(٢)
وبدلت شيلاً شيل كل ضعيفة^(٣)
بذي فجبر^(٤) مأوى الضعاف الأراذل

وقال عبد الله بن الحارث أيضاً :
وتلك قريش تجحد الله حقه
كما جحدت عاد ومدين والحجر

(١) تأشبهوه : تخاطبوه .

(٢) يطهى : يستمال • والجمائل جمع جمالة وهي الرشوة .

(٣) ابن هشام : كل خبيثة .

(٤) ذو فجر : ذو عطاء كثير وفي المطبوعة : بذي نجر وهو خطأ .

فإن أنا لم أبرق فلا يستعني
من الأرض برّ ذو فضاء ولا بحر
بأرض بها عهد الإله محمد
أبين ما في النفس إذ بلغ النقر^(١)
فسمى عهد الله المبرق بعبقته الذي قال .

وقال عثمان بن مظعون يعاتب أمية بن خلف وهو ابن عمه ، وكان يؤذيه في
إسلامه ، وكان أمية شريف قومه^(٢) في زمانه ذلك :

أتيت بن عمرو للذي جاء بغضة
ومن دونه الشّرمان والبرك أكتع^(٣)
أخرجني من بطن مكة آمناً
وأسكنني في مَرَحٍ يبيض تقذع^(٤)
زريش نبالاً لا يُوانيك ربشها
وتزري نبالاً ربشها لك أنجع
وحاربت أقواماً كراماً أمرة
وأهلست أقواماً بهم كنت تفرع
سقم إن نابتك يوماً ملّة
وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

(١) النقر : البحث . فقرت عن الخبر : بحثت .

(٢) ابن هشام : شريفاً في قومه .

(٣) أى عجباً للذي جاء به ، والفرمان بالسكسر ثنية شرم وهو البحر لأنه أراد البحر
للملح والبحر والذهب والبرك : ما اطمأن من الأرض واتسع وأكتع : تأكيد .

(٤) تقذع : تكره . وبالذال : تدفع .

وتيم بن عمرو الذي يدعو عثمان هو جعج بن عمرو ، كان اسمه تيماً^(١) .

[وفد قريش إلى النجاشي]

قال ابن اسحق : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقواراً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدتين إلى النجاشي فيردنهم عليهم ، ليعقلهم في دينهم ويخرجهم^(٢) من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها .

فبعثوا عهداً الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وجعجوا لها هدايا للنجاشي ولبطارقتة ثم بعثوها إليه .

فقال أبو طالب حين رأى ذلك [من رأيهم وما بعثوها فيه^(٣)] أهيأتا يهض النجاشي^(٤) على حسن جوارهم والدفع عنهم :

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر
وعمرؤ وأعداء المــــدو الأقارب
وهل نالت أفعال النجاشي جعفر^(٥)
وأصحابه أو عاق ذلك شاغب
تعلم أبيت الأمن أنك ماجد
كريم فلا يشقى لديك الجانب

(١) ابن هشام : الذي يدعو عثمان ، جعج ، كان اسمه تيماً . وفيها سقط .

(٢) المطبوعة : ويخرجهم .

(٣) من ابن هشام .

(٤) ابن هشام : أهيأتا للنجاشي يحضه .

(٥) الأصل : وهل نال ، وفي المطبوعة : قال . وما ذكرته من ابن هشام .

تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ زَادَكَ بَسْطَةً
وَأَسْبَابَ خَيْرٍ كُلِّهَا بِكَ لَازِبُ
وَأَنْكَ فَيْضُ ذُو سِجَالٍ غَزِيرَةُ
يُنَالُ الْأَعَادَى نَفْعَهَا وَالْأَقَارِبُ

وذكر ابن إسحاق من حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت :
لما نزلنا أرض الحبشة [تعنى مع زوجها الأول أبي سلمة]^(١) جاورنا بها خيرَ جار
النجاشي ، أمّا على ديننا وعهدنا الله تعالى لا نؤذَى ولا نسمع شيئاً نكرهه .

فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي رجلين منهم
جاذبين وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستغترف من مقام مكة ، وكان من
أحب ما يأتيه منها الأدم^(٢) ، فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً
إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمر بن العاصي
[وأمرهما بأمرهم]^(٣) وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمّا
النجاشي فيهم ، ثم قدّمّا إلى النجاشي هداياه ثم أسألاه أن يسلمهم إليهما كما قبل
أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار ،
فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلماه^(٤) وقالوا لـكل
بطريق : إنه قد ضوّى إلى بلد الملك منا غلمانٌ سفهاء فارقوا دينَ قومهم ولم
يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مُبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك
فيهم أشرف قومهم ليردّهم إليهم ، فإذا كلّمنا الملك فأشيدوا عليه بأن يسلمهم إلينا
ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عتياً وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

(١) ليست في ابن هشام .

(٢) الأدم : اسم جمع للأديم وهو الجلد أو أحره أو المدبوغ منه . (٣) من ابن هشام .

(٤) ابن هشام : قبل أن يكلمها النجاشي .

ثم إنهما قَرَّبَا^(١) هداياهما إلى النجاشي فقبلها ، ثم قال له : أيها الملك إنه ضَوَى^(٢) إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء فارقوا دينَ قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعزرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي* .

فقال بطارقه : صدَقَا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمتهم إليهما فلم يُردَّاهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي ثم قال : لاها الله ، إذا لا أسلمتهم إليهما ولا يُكادُ قومٌ جارروني ونزلوا بلادى واختاروني على من سواى ، حتى أَدْعُوهم فأسألمهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنيت جوارهم ما جارروني .

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علمنا وما أمَرنا به نبيُّنا كأننا في ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أسأفته فأنشروا مصاحفهم حوله ، سألمهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من الملأ ؟

(١) ابن هشام : قدماً .

(٢) ضوى : أوى ولبأ .

قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال له : أيها الملك ،
كننا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ،
ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا
على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ،
فدعانا إلى الله لنوحده ونعبدّه ، ونخام ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة
والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار
والسكف عن الحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم
وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة
والزكاة والصيام . قالت : فمددّ عليه أمور الإسلام .

فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، وعبدنا الله وحده فلم نشرك به
شيئاً وحرمنا ما حرم الله علينا وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدّا علينا قومنا فعذبونا
وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحلّ ما كنا
نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا
خرجنا إلى بلادك واختناك على من سواك ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نُظلم
عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر :
نعم . قال : فافراء على . فقرأ عليه صدرأ من « كهـص » .

فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحية ، وبكت أساقفته حتى أخذوا
مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال له النجاشي : إن هذا الذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ،
انطلقا فوالله لا أسلهم إليكما أبداً ولا يُسكادون .

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لأتيه عندهم غداً بما أستاذل به خضراءهم .

قالت : فقال له هب الله بن أبي ربيعة ، وكان أبقي الرجلين فينا : لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا .

قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عتيذ .

ثم غداً عليه ، فقال : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فسلهم عما يقولون فيه .

قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، ولم ينزل بنا مثلها قط .

فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ فقالوا : نقول والله ما قال الله وما جاء به نبينا ، كأننا في ذلك ما هو كائن .

قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون في عيسى بن مريم ؟ قالت : فقال جمع من أبي طالب : نقول فيه الذي جاء به نبينا ، يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء اليتيم .

فغضب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

قالت : فتناخرت بطارفته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شئوم بأرضي آمنون ، من سبكم غريم ، من سبكم غريم ، من سبكم غريم ، فما أحب أن لي دبراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم . ويقال دبراً ، وهو الجبل بلسان الحبشة فيما قال ابن هشام .

رُدُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ عليّ مُلْكِي فَأَخَذَ الرشوة فيه ، وما أطاع الفاس في فاطمهم فيه .

قالت : نخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به ، وأقنا عنده بخير دار مع خير جار .

قالت : فوالله إنا لعلّ ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في مُلْكِهِ .
قالت : فوالله ما علمتُنا حزننا حزنا قط كان أشدَّ علينا من حزن حزننا .
عند ذلك ، تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي فيأتى رجل لا يعرف من حقتنا ما كان النجاشي يعرف منه .

وسار إليه النجاشي وبينهما هَرَضُ النِّيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخير ؟ قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا . قالوا : فأنت . وكان من أحدث القوم سبنا .

فدفعوا له قربة فجعلها في صدره ثم سَبَّحَ عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها مُلْتَقَى القوم ، ثم انطلق حتى حضرم .

قالت : فدعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والنمكين له في بلاده .
قالت : فوالله إنا لعلّ ذلك متوقعون إِمَّا هو كائن إذ طلع علينا الزبير وهو يسمى ، فَمَسَحَ بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظهر النجاشي وأهلك الله عدوه [ومكّن له في بلاده]^(١) .

(١) من ابن هشام .

قالت : فوالله ما علمتُنا فرحنا فرحة قط مثلها .

قالت : ورجع الدجاشي ، وقد أهلك الله عدوه ومكن له في بلاده واستوسق^(١) عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم [وهو بمكة]^(٢) .

قال الزهري : فحدثتُ عروة بن الزبير هذا الحديث ، فقال : هل تدرّون ما قوله : « ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه » ؟ قال : قلت لا .

قال : فإن عائشة أم المؤمنين حدثتني أن أباه كان ملك قوم ، ولم يكن له ولد إلا الدجاشي ، وكان للدجاشي عم له من صلبه اثنا عشر رجلا ، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة ، فقالت الحبشة بينها : لو أننا قبلنا أبا الدجاشي ومأكلنا أخاه ، فإنه لا ولد له غير هذا الغلام ، وإن لأخيه من صلبه اثني عشر رجلا فتوارثوا ملكه من بعده بقيت الحبشة بعده دهرآ .

فقدّوا على أبي الدجاشي فقتلوه ومأكلوا أخاه ، فسكنوا على ذلك حينما ونشأ الدجاشي مع عمه ، وكان لبيبا حازما من الرجال ، فغاب على أمر عمه ونزل منه بكل منزلة ، فلما رأت الحبشة مكانه قالت بينها : والله لقد غاب هذا الفتي على أمر عمه ، وإنا نتخوف أن يملكه علينا ، وإن ملكه علينا آتقننا أجمعين ، لقد عرف أننا نحن قتلنا أباه .

(١) استوسق : اجتمع .

(٢) من ابن هشام .

فمشوا إلى عمه ، فقالوا : إما أن تقتل هذا الفتى وإما أن تُخرجه من بين أظهرنا ، فإننا قد خفناه على أنفسنا .

قال : ويلكم ! قتلْتُ أباه بالأمس وأفتله اليوم ! بل أخرج به من بلادكم .

قالت : فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بستائة درهم ، فقذفه في سفينة فانطلق به حتى إذا كان العشي من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحاب الخريف الخريف فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته .

قال : ففرغت الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحَيِّق ليس في ولده خير ، فَمَرَجَ^(١) على الحبشة أمرهم ، فلما ضاق عليهم مام فيه من ذلك قال بعضهم لبعض : تعلموا والله أن مَلِكَكُمْ الذى لا يقيم أمرَكُمْ غيرُهُ لَأَذَى بِعُتْمِ غُدُوَّةٍ ، فإن كان لكم بأسر الحبشة حاجة فأدركوه . قالت : فخرجوا في طلبه وطلب الرجل الذى ياعوه منه حتى أدركوه فأخذوه منه ، ثم جاءوا به فعقدوا عليه القاج وأقعدوه على سرير الملك فذلّسوه ، فجاءهم التاجر الذى كانوا ياعوه منه ، فقال : إما أن تعطونى مالى وإما أن أكلمه فى ذلك . قالوا : لا نهطيك شيئاً . قال : إذا والله أكلمه . قالوا : فدونك .

قالت : فجاءه فجلس بين يديه ، فقال : أيها الملك ابتعتُ غلاماً من قوم بالسوق بستائة درهم ، فأسلموا إلى غلامى وأخذوا دراهمى ، حتى إذا سرتُ بنلامى أدركونى فأخذوا غلامى ومنعوني دراهمى .

قالت : فقال لهم النجاشى : لَتُعْطَنَّهُ دراهمه أو ليضنَّ غلامه يده فى يده فليذهبن به حيث شاءا

(١) اضطرب واختلط .

قالوا : بل نعطيه دراهمه .

فلذلك يقول : « ما أخذ الله مني رشوة حين ردّ عليّ ماسكي فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطع الناس فيه » .

فالت : وكان ذلك أول ما خُبر من صلابته في دينه وعذله في حكمه .

وعن عائشة قالت : لما مات الدجاشي كان يُتحدث أنه لا يزال يُرى على قبره نور .

وذكر ابن إسحق أيضاً عن جعفر بن محمد عن أبيه ، أن الحبشة اجتمعت ، فقالوا للدجاشي : إنك قد فارقت ديننا . وخرجوا عليه ، فأرسل إلى جعفر وأصحابه فمياً لهم سفناً وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بمحيث شئتم ، وإن خلفت فاثبتوا .

ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ويشهد أن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلته ألقاها إلى مريم .

ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن ، وخرج إلى الحبشة وصنّوا له ، فقال : يا معشر الحبشة ألسن أحق الناس بكم ؟ قالوا بلى . قال : فكيف رأيتم سيدي فيكم ؟ قالوا : خير سيرة . قال : فما بالسكم ؟ قالوا : قد فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد . قال : فما تقولون أنتم في عيسى ؟ قالوا : نقول هو ابن الله . فقال الدجاشي ، ووضع يده على صدره على قبائه : هو يشهد أن عيسى بن مريم لم يردّ على هذا شيئاً . وإنما يعني ما كتب .

فرضوا وانصرفوا .

فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما مات النجاشي صلى الله عليه واستغفر له .

قال ابن إسحاق ، ولما قدم عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش ، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وردّهما النجاشي بما يكرهون ، وأسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان رجلاً ذا شكيمة لا يُرام ما وراء ظهره ، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة حتى عازوا^(١) قريشاً .

وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلي عند السكبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند السكبة وصلينا معه .

وقال ابن مسعود في رواية البسكاني^(٢) عن غير ابن إسحاق : إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نهراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا وما^(٣) نصلي عند السكبة ، حتى أسلم عمر ، وذكر مثل ما تقدم نصاً إلى آخره .

(١) عازوا قريشاً : غلبوهم .

(٢) هو : أبو محمد زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي العامري الكوفي يروى عن ابن إسحاق المغازي ومن الأعمش وغيرهما روى عنه أحمد بن حنبل وغيره ، وقال : كان صدوقاً ، وكان القطان وابن المين يضعفانه توفي بالسكوبة سنة ١٨٣ .

(٣) ابن هشام : كنا ما .

ذكر الحديث عن إسلام عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

حدث عبد الله بن عامر عن أمه ، أم عبد الله بنت أبي حثمة قالت :

والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا ،
إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على ، وهو على شيركة ، قالت : وكنا نأتى
منه الهلاء أذى لنا وشدة علينا ، فقال : إنه كلالانطلاق يا أم عبد الله !

فقلت : نعم ، والله لنخرجن في أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يعمل
الله لنا تخرجاً ! فقال : صحبكم الله ! .

ورأيت له رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجهما .

قالت : فجاء عامر بحاجته تلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً
ورقته علينا !

قال : أطعمت في إسلامه ؟ قالت : نعم . قال : لا يسلم الذي رأيت حتى
يسلم حمزُ الخطاب ! !

قالت : ياساً منه لمسا كان يرى منه من غلظته وقسوته عن الإسلام .

قال ابن إسحاق : وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة^(١) .

(١) وذلك في السنة الخامسة للبعثة .

قال : وكان إسلامه فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت قد أسلمت ،
وأسلم زوجها سعيد بن زيد ، وهم مُسْتَعْتَفُونَ بِإِسْلَامِهِمْ مِنْ حَرِّ ، وكان نعيم بن
عبد الله النخعي من بني عدى قد أسلم^(١) ، وكان يستغني بإسلامه فرقاً من قومه ،
وكان خباب بن الارت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن .

فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورَهْطاً
من أصحابه ، قد ذُكِرُوا لَهُ أَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا فِي بَيْتِ عَبْدِ الصَّمَاءِ ، قَرِيباً^(٢) مِنْ
أَرْبَعِينَ بَيْنَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ ، مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَةُ حَزْزَةُ ،
وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَهَلِي بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَرِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

فنبه نعيم فقال : أين تريد يا عمر ؟ قال : أريد محمداً هذا الصابي الذي
فرَّقَ أُمْرَ قُرَيْشٍ وَسَفَّهَ أَحْلَامَهَا وَغَابَ^(٣) دِينَهَا وَسَبَّ آلَهَا فَأَقْتَلَهُ .

فقال له نعيم : والله لقد غرَّكَ نفسك من نفسك يا عمر ! أتري بني عبد مناف
تاركيك تمشي على الأرض ، وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك
فنتقم أمرهم .

قال : أيُّ أهل بيتي ؟ قال : خَتَنُكَ^(٤) وابن عمك سعيد بن زيد وأختك
فاطمة ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فمليك بهما .

فرجع عمر عائداً إلى أخوته وخَتَنِهِ ، وعندهما خباب معه صحيفة فيها « طه »

(١) ابن هشام : وكان نعيم بن عبد الله النخعي زجل من قومه من بني عدى بن كعب
قد أسلم .

(٢) ابن هشام : وهم قريب من .

(٣) ط : وأغاب .

(٤) الختن محرّكة : الصهر وهو المزوج إليه بنته أو أخته .

يُقرؤها إياها ، فلما سمعوا حيسَّ عمر تغيب خَبَاب في تخدع لهم ، أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت نخذها ، وقد سمع عمر قراءة خَبَاب ، فلما دخل قال : ما هذه الهيئمة ^(١) التي سمعت ؟ قالا : ما سمعت شيئاً . قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه .

وبطش بمخدته سميد ، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها ، فضر بها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختته : نعم أسألكما وأما بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك !

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم وارعوى ، وقال لها : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عابها . قال : لا تخافي ، وحلف لها بألحمته ليردنها إليها إذا قرأها .

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي ، إنك نجس على شريكك ، وإنه لا يمشيها إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها « طه » فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمته .

فلما سمع ذلك خَبَاب خرج إليه فقال : يا عمر ، والله إنني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحسك بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر .

فقال له عند ذلك : فدُلّني يا خَبَاب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خَبَاب : هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه .

(١) الهيئمة : الصوت الخفى .

فأخذ عمر سيقه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل منهم فينظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف فرجع وهو فرح فقال : يا رسول الله ، هذا عمر ابن الخطاب متوشحاً السيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له فأذن له الرجل . ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في الحجرة فأخذ بحجزته^(١) أو بمجمع رداءه ثم جبهه جبذة شديدة . وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة !

فقال عمر : يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عنده^(٢) . قال : فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم . فنفروا من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر ، مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم وينتصمون به من عدوهم .

فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر .

* * *

(١) ابن هشام : فأخذ حجزته .

(٢) ابن هشام : جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله .

وقد روى غيرهم أن إسلام عمر فيما نحدثوا به عنه أنه كان يقول : كنت للإسلام مُبَاْعِداً وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالْحَزْوَرَةِ^(١) ، فخرجتُ ليلةً أريد جالسائي أو أملك في مجلسهم ذلك فلم أجِد فيه منهم أحداً ، فقلت : لو أني جئت فلاناً الخمار لعلى أجِد عنده خمرأ فأشرب منها ، فجننته فلم أجده .

فقلت : فلو أني جئت السكبة فطُفْتُ بها سَبْعاً أو سَبْعِينَ^(٢) . فجننت أريد ذلك فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل يديه وبينها السكبة ، فكان مُصَلِّاه بين الركبتين الركن الأسود والركن اليماني ، فقلت حين رأيته : والله لو أني استمعت للحمد الليلة حتى أستمع ما يقول .

فقلت : لئن دنوت منه لأروِّعده ، فجننت من قبل الحِجْر ، فدخلت تحت ثيابها ، فجعلت أمشي رويداً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قمت في قبلته مُسْتَقْبِلُهُ ما بيني وبينه إلا ثياب السكبة .

فلما سمعت القرآن رَقَّ له قلبي ا فبكيتُ ودخلني الإسلام ، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حَسَنِ ، وكانت طريقه حتى يخرج^(٣) المَسْمَعَى ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب وبين دار ابن أَرْهَر .

فتبعته حتى إذا دخل بينهما أدركته ، فلما سمع حسى عرفني ، فظن أني إنما اتبعته لأؤذبه فنهمني^(٤) ثم قال : ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة ؟ قلت : جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله .

(١) الحزورة : كانت سوق مكة وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه .

(٢) سبعين : يريد تكرر الطواف حول السكبة ، وهو سبع مرات في كل طوفة .

(٣) ابن هشام . حتى يخرج . (٤) نهمة : زجره .

فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : قد هداك الله يا عمر . ثم مسح صدرى ودعأى بالثبات . ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته .

قال ابن إسحق : فإله أعلم أى ذلك كان .

وذكر محمد بن عبد الله بن سنجر الحافظ فى إسلام عمر رضى الله عنه زيادة لم يذكرها ابن إسحق ، فروى بإسناد له إلى شريح بن عبيد قال : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد فعمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أتعجب من تأليف القرآن ، فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ : « إنه أقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » قال : فقلت : كاهن عليم ما فى نفسه فقرأ : « ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » إلى آخر السورة . قال : فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع .

قال ابن إسحق : وحدثنى نافع عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر قال : أى قريش أنقل للحديث ؟ قيل له : جميل بن مَعْمَر الجُمَحِي . ففدا عليه وغدوت أتبع أثره أنظر ما يفعل ، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت ، حتى جاءه فقال له : أما علمت يا جميل أنى أسلمت ودخلت فى دين محمد ؟ ! .

فوالله ما راجعته حتى قام يجر رداءه ، واتبعه عمر ، واتبعت أبى ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش - وهم فى أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبا .

قال : يقول عمر من خلفه : كذبت واسكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وثاروا إليه ، فما برح يقتلهم .

ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم .

قال : وطلّح^(١) ففقد ، وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلو ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا .

فبيناهم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقيص مؤنث حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر . قال : فمّة ، رجل اختار لنفسه أمراً فإذا تريدون ؟ أنرون بنى عدى بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم ! هكذا^(٢) عن الرجل . فوالله لكأنما كانوا ثوباً كُشط عنه .

فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبت من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ جزاه الله خيراً . قال : أى بنى ، ذلك العاص بن وائل السهّمي ، لا جزاه الله خيراً .

وهذا الدعاء عاينه وله مما زاده ابن هشام عن غير ابن إسحق .

وعن بعض آل عمر قال : قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة تذكّرت أى الناس^(٣) أشدّ عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى آتته فأخبره أنى قد أسلمت ، قال : قلت أبو جهل . وكان عمر لحنّمة بنت هشام ابن المغيرة ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، ففرج إلى فقال : مرحباً وأهلاً يا بنى أختى ، ما جاء بك ؟ قلت : جئتُك أخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدّقت بما جاء به .

فضرب الباب فى وجهى وقال : قهحك الله وقبح ما جئت به ! .

* * *

(١) طلّح : تعب .

(٢) ابن هشام : هكذا خلوا عن الرجل .

(٣) ابن هشام : : أى أهل مكة .

وفيا رواه يونس بن بكير عن ابن إسحق^(١) أن عمر رضى الله عنه قال حين أسلم :

الحمد لله ذى المنّ الذى وجبت له علينا أياذٍ كلهم عير
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا صدق الحديث نبى الله الخبر
وقد ظلمت أمة الخطاب ثم هدى ربى عشية قالوا قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زللي بظلمها حين تولى عندها الشور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة والدمع من عينيها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذى تدعوه خالقها تكاد تسبقني من عبرة درر^(٢)
فقلت أشهد أن الله خالقنا وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبى صدق أنى بالحق من ثقة وفى الأمانة ما فى عوده خور^(٣)

[كتابة الصحيفة]

قال ابن إسحق : فلما رأت قریش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا واتفقوا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم .

فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة ثم تعاقدوا وتوافقوا على ذلك ، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

(١) لم يذكر ابن هشام هذه الرواية .

(٢) ط : من غيره وهو تحريف .

(٣) ط : لا فى عوده حور بفتح العين وسكون الواو .

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شيعته [واجتمعوا إليه ^(١)] وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش فظاھروهم ، ولقي هندا بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه وظاھر عليهم قريشاً ، فقال لها : يا بنت عتبة ، هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما وظاھر عليهما ؟ قالت : نعم ، فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة .

وقال أبو طالب فيما صنعت قريش من ذلك واجتمعوا عليه :

ألا أبلغنا عني على ذات بيننا لؤياً وخُصماً من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خطاً في أول الكتف
وأنت عليه في العباد محبة ولا خير ^(٢) ممن خصه الله بالحُب
وأن الذي لصقتم من كتابكم لكم كائن نحساً كراغية الشفب ^(٣)
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الأثرى ويصبح من لم يحن ذنبها كذى الذنب
ولا تبتغوا أمر الوشاة وتقطعوا أوامرنا بعد المودة والقرب
وتسجلبوا حرب عواناً وربما أمر على من ضاقه حلب الحرب ^(٤)
فلسنا ورب البيت نسلم أحمداً إمراً من عص الزمان ولا كرب
ولنا تبين منا ومنكم سوائف وأبد أنرت بالقساسة الشفب ^(٥)

(١) من ابن هشام .

(٢) اللباس هنا أن ينون ما بعد لا ، وإنما حذف التنوين مراعاة لأصل الكلمة لأن خيرا معناه . أخير على وزن أفل وحذفت الهزة تخفيفاً وأفل لا ينصرف . . انظر الروض الألف ٢٢١/١ .

(٣) قال السهيلي : يريد ولد الناقة التي عقرها قدار ، فرغا ولدها ، فصاح لرفقه كل شيء له صوت ، فهلكتم ثمود عند ذلك ، فضربت العرب ذلك مثلاً في كل حالكة .

(٤) العوان : التي يتكرر فيها القتال ، وحلب الحرب : وبالحا . وفي ابن هشام : على من ذاقه جلب الحرب .

(٥) القساسة : السيف ، نسبها إلى معدن حديد لبني أسد اسمه قساس الروض ٢٢١/١ .

بِمُتَرَكِّ ضَمِّكَ تَرَى كِسَرَ الْقَدَا
 به والنُّسُورَ الطُّغْمَ (١) يَفْكَفْنَ كَالشَّرْبِ
 كَانَ جَمَالَ الْخَيْلِ فِي حَجَرَانِهِ وَمَعْمَعَةَ الْأَبْطَالِ مَعْرَكَةَ الْحَرْبِ
 أَلَيْسَ أَبُوْنَا هَاشِمٌ شَدِيدٌ أَرْزَمُ وَأَوْصَى بَنِيهِ بِالطَّعْمَانِ وَالضَّرْبِ
 وَلَسْنَا نَمْلُ الْحَرْبَ حَتَّى تَمْلُنَا وَلَا نَتَشَكَّى مَا قَدْ يَنْوِبُ مِنَ الْفَكْبِ
 وَلَسْنَا أَهْلُ الْخَفَائِظِ وَالنُّهَى إِذَا طَارَ أَرْوَاحُ السَّكَاةِ مِنَ الرُّغْبِ
 فَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا حَتَّى جَهِدُوا لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ إِلَّا سِرًّا ،
 مُسْتَخْفِيًّا بِهِ مَنْ أَرَادَ صَلَاتَهُمْ مِنْ قَرِيشٍ .

وَقَدْ كَانَ أَبُو جَهْلٍ ، فِيمَا يَذْكُرُونَ ، لَقِيَ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ مَعَهُ غُلَامٌ يَحْمِلُ
 قِيحًا يَرِيدُ بِهِ عَمَّتَهُ خَدِيجَةَ وَهِيَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الشَّعْبِ
 فَتَمَلَّقَ بِهِ وَقَالَ : أَتَذْهَبُ بِالطَّعْمَانِ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ : طَعْمَانٌ
 كَانَ لَعَمَّتُهُ عِنْدَهُ ، أَفَتَمْنَعُهُ إِنْ كَانَ (٢) يَا أَبَاهَا بِطَعْمَانِهَا ؟ خَلَّ سَبِيلَ الرَّجُلِ .
 فَأَبَى أَبُو جَهْلٍ حَتَّى نَالَ أَحَدَهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ ، فَأَخَذَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ لِحْيَتَهُ بِمِيزِ
 فَضْرَتِهِ ، فَشَجَّهَ وَوَطَّأَ وَطْأً شَدِيدًا ، وَحَمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ قَرِيبٌ يَرَى ذَلِكَ
 وَهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ فَيَشْتَمُوا بِهِمْ .
 وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ يَدْعُو قَوْمَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا وَسِرًّا
 وَجَهْرًا ، مُبَادِبًا بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَتَّقِي فِيهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ .

[إِذَاءَ قَرِيشٍ لِلرَّسُولِ]

فَجَمَعَتِ قَرِيشٌ حِينَ مَنَعَهُ اللَّهُ مِنْهَا وَقَامَ عَمَّتُهُ وَقَوْمُهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ
 وَبَنِي الْمُطَّلَبِ دُونَهُ وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا أَرَادُوا مِنَ الْبَطْشِ بِهِ ، يَهْجُرُونَهُ

(١) النَّسُورُ الطُّغْمُ : سُودُ الرُّمُوسِ . وَالْمَرْبُ : الْجَمَاعَةُ مِنَ الْقَوْمِ يَسْرِبُونَ :

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : أَفْتَمْنَعُهُ أَنْ يَأْتِيَهَا .

ويستهنئون به ويخاصمونہ وجعل القرآن ينزل في قريش بأحاديثهم ، وفيمن نصب لعداوتهم ، فمنهم من سُمي لنا ، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار .

فسكان من سُمي لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن عنه أبو لهب وامراته أم جميل بنت حرب بن أمية ، حمالة الحطب ، وإنما سماها الله عز وجل حمالة الحطب لأنها^(١) كانت فيما بلغني تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر .

وكان أبو لهب^(٢) يقول في بعض ما يقول : يَعدُّني محمدٌ أشياء لا أراها يزعم أنها كائنة بعد الموت ، فإذا وُضع في يدَيَّ بعد ذلك اثم ينفخ في يديه ويقول : تَبَّا لهما ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد !

فأنزل الله عز وجل فيهما : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جَهَنَّمَ حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » .

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن أم جميل حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس عند السكبة ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فهر^(٣) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهيجوني ، والله لو وجدته لضررت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنني لشاعرة [ثم قالت^(٤)] :

(١) الأصل : أنها .

(٢) ذكر ابن إسحاق قول أبي لهب هذا عند ذكر امتناعه عن دخول الشعب مع بني هاشم ، ولكن المؤلف رأى موضعه هنا ، وهو ترتيب حسن .

(٣) الفهر : الحجر الصغير قدر ما يملأ الكف .

(٤) من ابن هشام .

مُذَمِّمًا عَصَيْنَا وَأَمْرَهُ أَبَيْنَا

وعن غير ابن إسحق : وَدِينَهُ قَلِينَا .

ثم انصرفت . فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأيتك ؟ فقال :
ما رأيتني ، لقد أخذ الله ببصرها عني .

وكانت قريش إنما تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم مذمماً ثم يسبونه ،
فكان عليه السلام يقول : ألا تعجبون لما صَرَفَ اللهُ عَنِّي مَنْ أَدَى
قريش ! يسبون ويهتجون مذمماً وأنا محمد !

* * *

وأمية بن خلف الجُمَحِيُّ ، كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم
همزه ولمزه ، فأنزل الله فيه : « وَيَلِلْ لِسْكَلٌ هَمْزَةً لَمَزَةً » إلى آخر السورة .

والعاصم بن وائل السهمي ، كان خباب بن الأرت ، قد باع منه سيوفاً
عملها له وكان قيناً بمكة فجاءه يتقاضاه ، فقال له : يا خباب ، أليس يزعم محمد
صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة
أو ثياب أو خدم ؟ قال : بلى . قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب
حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لا تكون أنت
وأصحابك يا خباب آثرَ عند الله منى ولا أعظم حظاً في ذلك !

فأنزل الله في ذلك : « أفرأيت الذي كَفَرَ بآياتنا وقال لَأَوْتِينَ مَالاً وَوَلَدًا ،
أَطْلَعِ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ! كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ
مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ، وَنَزِيلُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ^(١) » .

ولقي أبو جهل ابن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى ، فقال له :
ويحك يا محمد ! لنتركن سب آلهمنا أو انسبن إلهك الذى بعثك .

فأنزل الله تعالى : « ولا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ^(١) » .
فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كَفَّ عن سبِّ آلهتهم وجعل يدعوهم إلى الله .

والتَّضَرُّعُ بن الحارث بن كِلْدَةَ ^(٢) ، من شياطين قريش ممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قديم الحيرة وتعلَّم بها أحاديثَ ملوك الفرس ، فكان إذا جاس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله ودعا فيه إلى الله وحذَّر قومه ما أصاب الأمم الخالية من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهل فأننا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن رستم الشيد ^(٣) واسبنديار ^(٤) وملوك فارس ، ثم يقول : بماذا محمدٌ أحسن حديثاً مني ؟ والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتبتهنَّها .

فأنزل الله عز وجل فيه : « وقالوا : أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً . قُلْ : أنزله الذي يعلمُ السرَّ في السمواتِ والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ^(٥) » وكلٌّ ما ذكر فيه الأساطير من القرآن ^(٦) . وأنزل أيضاً فيه : « وبلى لـكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُمْلَى عليه ثم يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ^(٧) » .

(١) سورة الأنعام ١٠٨ .

(٢) ابن هشام : بن علقمة بن كِلْدَةَ بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي .

(٣) ابن هشام كما في شرح السيرة لأبي ذر : رستم السنديد .

(٤) ابن هشام : اسفنديار .

(٥) سورة الفرقان ٥ ، ٦ .

(٦) أي نزل فيه كل الآيات التي ذكر فيها أمر الأساطير .

(٧) سورة الجاثية ٧ ، ٨ .

وهو القائل : سأُنزل مثل ما أنزل الله ! فيما ذكر ابن هشام .
قال ابن إسحاق : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني يوماً
مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث فجلس معهم في المجلس ،
وفيه غير واحد من رجال قريش .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرّض له النضر ، فكلّمه رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : « إنكم وما تعبّدون
من دون الله حصّبُ جهنم أتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها
وأكُلّ فيها خالدون ، لهم فيها زفيرٌ وهم فيها لا يسمعون ^(١) » .

ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عبدُ الله بن الزُّبَيْرِ السَّهْمِيُّ
حتى جلس ، فقال له الوليد : والله ما قام النضرُ بن الحارث لابن عبد المطلب
أنفاً وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصّبُ جهنم .

فقال ابن الزُّبَيْرِ : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسألو محمد : أكلُّ
ما يُعبد من دون الله في جهنم مع مَنْ عبّده ؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود
تعبد عُزَيْراً والنصارى تعبد عيسى بن مريم .

فمجب الوليد ومن كان معه من قول ابن الزُّبَيْرِ ، ورأوا أنه
قد احتجَّ وخاصم .

فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : من أحب أن يُعبد
من دون الله فهو مع مَنْ عبّده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومَنْ أمرتهم بعبادته .
فأنزل الله عليه : « إن الذين سبقتم لما الحسنى أولئك عنها مُبْعَدُونَ ،
لا يسمعون حَسيسها وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون ^(٢) » أي عيسى وعُزَيْرُ
ومَنْ عبّدوا من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله ، فاتخذهم
من يعبدونهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله .

(١) سورة الأنبياء ٩٨ - ١٠٠ . (٢) سورة الأنبياء ١٠١ .

ونزل فيها يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله : « وقالوا :
اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل عِبَادٌ مُسْكِرُونَ . لا يسبقونه بالقول
وهم بأمره يعملون » إلى قوله : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ
نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كذلك نَجْزِي الظَّالِمِينَ » .

وأنزل فيما ذكر من أمر عيسى أنه يُعبد من دون الله وَتَحِبُّ الْوَالِدِ
وَمَنْ حَضَرَ مِنْ حِجَّتِهِ وَخُصُومَتِهِ : « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ
مِنْهُ يُصَدِّدُونَ » ثم قال : « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي
إِسْرَائِيلَ ، وَلَوْ نَشَاءُ اجْعَلْنَاهُ مِنْكُمْ مَلَأْنَاكَ فِي الْأَرْضِ يُخْلَفُونَ ، وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ
لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ^(١) » . أى ما وضعت على
يديهِ من إحياء الموتى وإبراء الأَسْقَامِ فَكَفَى بِهِ دَلِيلًا عَلَى عِلْمِ السَّاعَةِ . يقول :
« فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » .

وَالْأَخْلَاسُ بْنُ شَرِيقِ الثَّقَفِيِّ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ الْقَوْمِ
وَمِنْ يُسْتَمْعَمُ مِنْهُ ، فَكَانَ يُصِيبُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُرَدُّ عَلَيْهِ ،
فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ : « وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلِيفٍ مِمَّنْ هَمَّازٍ مَشَاءَ بِنَمِيمٍ ^(٢) »
إلى قوله « زَنِيمٌ » .

وَلَمْ يَقُلْ « زَنِيمٌ » لَعَيْبٍ فِي نَسَبِهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ ^(٣) لَا يَعْيِبُ أَحَدًا بِنَسَبِهِ
وَلَا كُنْهَ حَقَّقَ بِذَلِكَ نَعْمَتَهُ لِيُتَعَرَفَ ، وَالزَّانِمُ الْمَدِيدُ لِلْقَوْمِ ^(٤) . قَالَ الْخَطِيمُ ^(٥)
[الْتِمِيعِي] ^(٦) فِي الْجَاهِلِيَّةِ :

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً
كَمَا زِيدَ فِي عَرَضِ الْأَدِيمِ الْكَارِعِ ^(٧)

(١) سورة الزخرف ٥٧-٦١ . (٢) سورة ن ١٠-١٣ . (٣) الأصل : لَأَنَّ اللَّهَ .
(٤) أى الدعى فيهم . (٥) قال السهيلي : الأعرف أنه لحسان .
(٦) من ابن هشام . (٧) الأكارع : الأطراف .

والوليد بن المغيرة ، قال : أُبْنِزَلْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأُنْزَلَ وَأَنَا كَبِيرُ قُرَيْشٍ
وَسَيِّدُهَا ، وَيُنْزَلَ أَبُو مَسْعُودٍ وَعَمْرُو بْنُ عُمَيْرٍ الثَّقَفِيُّ سَيِّدُ ثَقِيفٍ وَنَحْنُ عَظَمَاءُ
قُرَيْشٍ^(١) .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، فَمَا بَلَغَنِي : « وَقَالُوا أَوَلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ
مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ؟ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ ! نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا
وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ^(٢) » .

وَأَبْنَى بَنَ خَلْفَ الْجُمَحَى وَعُقَيْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَكَانَا مُتَصَافِيَيْنِ حَسَنًا
مَا بَيْنَهُمَا ، فَكَانَ عُقَيْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ قَدْ جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَسَمِعَ مِنْهُ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبِيًّا فَأَتَى عُقَيْبَةَ فَقَالَ : أَلَمْ يَبْلُغَنِي أَنَّكَ جَالِسَتْ مُحَمَّدًا
وَسَمِعْتَ مِنْهُ ؟ ! ثُمَّ قَالَ : وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ أَنْ أَكَلِمَكَ ، وَاسْتَفْلِظْ
مِنَ الْيَمِينِ ، إِنْ كُنْتَ جَلَسْتَ إِلَيْهِ أَوْ سَمِعْتَ مِنْهُ ، أَوْ لَمْ تَأْنِهِ فَتَفْتَلْ فِي وَجْهِهِ .

فَفَعَلَ ذَلِكَ عَدُوُّ اللَّهِ عُقَيْبَةُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ : « وَيَوْمَ يَعْصِيُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ،
يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَايِلًا ،
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا^(٣) » .

وَمَشَى أَبْنَى بْنُ خَلْفٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْظُمَ بَالٍ قَدْ اِرْقَتْ
فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْزَعِ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَى^(٤) ؟ ! ثُمَّ فَتَنَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ نَفَخَهُ
فِي الرِّيحِ نَحْوَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ وَإِيَّاكَ بَعْدَ مَا تَسْكُونَانِ هَكَذَا ،
ثُمَّ يَدْخُلُكَ الدَّمَارُ .

(١) ابن هشام : عظماء القرينتين
(٢) سورة الزخرف ٢٠ - ٢٢ .
(٣) سورة الفرقان ٢٧ - ٢٩ .
(٤) ابن هشام : بعدما أرم .

فأنزل الله فيه : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ^(١) »

واعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني الأسود بن المطالب والوليد بن المغيرة وأميرة بن خلف والعاص بن وائل وكانوا ذوى أسنان فى قومهم ، فقالوا : يا محمد هلم فلعن عبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كذا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كذبت قد أخذت بحظك منه ا

فأنزل الله فيهم : « قُلْ : يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِى دِينِ » .

أى إن كنتم لا تعبدون الله ^(٢) إلا أن أعبد ما تعبدون فلا حاجة لى بذلك منكم ، لكم دينكم ولى دين .

وأبو جهل بن هشام ، لما ذكر الله شجرة الزقوم نخويها بها لهم ، قال يا معشر قريش : هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا . قال : عَجْوَةٌ يَنْتَرِبُ بِالزُّبْدِ وَاللَّهُ لئن استمكنّا منها لاتنزعقنّها تزقماً ا

فأنزل الله فيه : « إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ ^(٣) »

(١) سورة يس ٧٨ - ٨٠ .

(٢) ابن هشام : لا تعبدون إلا الله . وما هنا أصح .

(٣) سورة الجاثية ٤٣ - ٤٦ .

وأنزل الله فيه : « والشجرة للمعونة في القرآن ونحو فهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً^(١) »

ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله يكلمه وقد طمع في إسلامه ، فبينما هو في ذلك إذ مرَّ به ابنُ أم مكتوم الأعمى ، فكلَّم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وجعل يستقرئ القرآن ، فشقَّ ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضجعه ، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه ، فأنزل الله فيه : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى . أئما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك إلا بتر حتى ، وأئما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ، كلاً إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره في صُحُفٍ مُسَكَّرَةٍ مرفوعةٍ مُطَهَّرَةٍ^(٢) » .

أى : إنما بعثتك بشيراً ونذيراً لم أخص بك أحداً دون أحد ، فلا تمنعه ممن ابتغاه ولا تنصده^(٣) به لمن لا يريد .

[رجوع المهاجرين من الحبشة]

قال ابن إسحق : وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة فأقبلوا لما بلغهم ذلك^(٤) ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ذلك كان باطلاً ، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوارٍ أو مستخفياً .

وذكر موسى بن عقبة أن رجوع هؤلاء الذين رجعوا كان قبل خروج جعفر وأصحابه إلى أرض الحبشة ، وأنهم الذين خرجوا أولاً قبله ثم رجعوا حين أنزل الله سورة النجم .

(١) سورة الإسراء ٦٠ .
(٢) سورة عبس .
(٣) ابن هشام : ولا تنصدين .
(٤) ابن هشام : لما بلغهم في ذلك .

قال : وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقرناه وأصحابه ، ولكنه لا يذكر من خالفه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر به آلهتنا من الشتم والشر .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتسكذيبهم وأحزنته ضلاتهم وكان يتمنى هدام ، فلما أنزل الله تعالى سورة «والجهم» قال : «أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» ألقى الشيطان عددها على لسانه كلمات حين ذكر الطواغيت فقال : وإنهن لمن الغرائيق العلى وإن شفاعتن لمى التى تُرتجى .

وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم وتباشروا بها وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين آبائه . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر «والجهم» سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك ، غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً ، فرفع ملء كفه تراباً فسجد عليه .

فعجب الفريقان كلاهما من اجتماعهم في السجود لسجود رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ، ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان على ألسنة المشركين .

وأما المشركون فاطمأنت نفوسهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما ألقى الشيطان في أمنية النبى صلى الله عليه وسلم فسجدوا لتعظيم آلهتهم .

وفشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين ، عثمان بن مظعون وأصحابه ، وحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود

« الوليد بن المغيرة على التراب على كفيه ، وحدثوا أن المسلمين قد أمدوا بمكة .
فأقبلوا سراً وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته ، وقال عز من
قائل : « وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أُمِّيَّتِهِ
فَيُفْسِخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » ، ليجعل ما يلقي
الشيطان فِتْنَةً للذين في قلوبهم مرضٌ والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شِقَاقٍ
بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخُتِبَ له قلوبهم ،
وإنَّ الله لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

فلما بين الله قضاءه فبرأه من سَجْعِ الشيطان انقلب المشركون بضلاتهم
ونداوتهم للمسلمين فاشتدوا عليهم^(١)

فهذا الذي ذكره ابن عُقْبَةَ لم يستطع أحد ممن رجع من أرض الحبشة
أن يدخل مكة إلا بجوارٍ أو مستخفياً ، كما ذكر ابن إسحق .

(١) قصة الغرائيق تلك التي أوردها المؤلف - رحمه الله - موضوعة ظاهرة الاختلاق
ويمكن أن تنقد بمجرد العقل وبديهيات علم النبوة .

فأولا : كيف يلقي الشيطان على لسان رسول معصوم كلمات مناقضة لرسالاته بل هي
ارتداد عنها ، وإذا كان مؤرخو السيرة ومنهم السكلاعي يذكرون حادثة شق الصدر وأنها
كانت لتطهير النبي من حظ الشيطان ، فكيف يعترفون ، بإمكان تسلط الشيطان على عقل
الرسول ولسانه ! .

ثم كيف لا يتنبه المشركون لما بعد مدح آلهتهم من ذم وهجوم في قوله : « إن هي
إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » وقوله : « إن يتبعون
إلا الظن وما تهوى الأنفس » ولما ورد بعد من نفي الشفاعة عن الأصنام نفياً قاطعاً في قوله :
« وكم من ملك في السموات والأرض لا تنفع شفاعتهم شيئاً » وكيف تسحرهم كلتاهما ثم
لا توظفهم آيات طوال تنمى على آلهتهم وتوجههم إلى التوحيد والإيمان .

وقد يكون معقولا أن يسجد المشركون عند ذكر آلهتهم بالمدح ولكن كيف يسجدون
عند نهاية السورة عند قوله : « فاسجدوا لله واعبدوا » مع أنهم كانوا يرفضون السجود لله
« وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » =

قال : فكان جميع من قدم مكة منهم ثلاثة وثلاثين رجلاً ، دخل
منهم بجوارٍ ، فيمن سمي لذا : عثمان بن مظعون الجُمَحِي ، دخل بجوار من
الوليد بن المغيرة ، وأبو سلمة بن عبد الأسد بجوار خاله أبي طالب .

فأما عثمان فإنه لما رأى ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من
البلاء ، وهو يغدو ويروح في أمان الوليد ، قال : والله إن عُذُوِّي ورواحي
آمنًا بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني بلقون من البلاء والأذى
في الله ما لا بصيبي لذهص كبير في نفسي

فشي إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس وَفَتْ ذمتك وقد
رددتُ إليك جوارك . قال : لِمَ يا بن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي ؟
قال : لا ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره . قال : فانطلق
إلى المسجد فرُدَّ عليَّ جوارى علانية كما أجزتكَ علانية .

== كذلك كيف يسمع المفسكون ما ألقى الشيطان على لسان الرسول ولا يسمع المؤمنون ؟ !
إن كان كذلك فالشيطان هو الذي تكلم ، مما يدخلنا في عالم الأوهام والخرافات
ثم إن الاعتماد على آية : « وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في
أمنيته » خطأ بالغ فليست الآية تحتل هذه الرواية ولا تصالح نفسها لها أو حديثاً عنها .
ثم كيف لا يرتد أحد من المسلمين أو يزلزل حين يعلم أن رسوله قد مدح الأصنام وجعل
لها شفاعة ! !

وغفر الله لعلماتنا الأولين ، فلقد كانوا يخرجون أنفسهم بهذه المرويات ويجعلون لها في
اعتقادهم حقاً ، هو حق الذكر ، ولو كانت خرافة أو أسطورة من أخبار الأولين لما اهتمت
لها ، لكننا فرية ضد الإسلام ومكر برسوله عليه السلام .

وقال السهيلي :

« وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة ومن صححه قال فيه أقوالاً ، منها :
أن الشيطان قال ذلك وأذاعه والرسول عليه السلام لم ينطق به .

وهذا جيد لولا أن في حديثهم أن جبريل قال لحمد : ما أتيتك بهذا .

ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها من قبل نفسه وعن بها الملائكة أن شفاعتهم

==

لترتجى .

نفجراً حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان جاء يرث عليّ جوارى .
قال : صدق ، قد وجدته وفيّاً كريم الجوار ، ولكنني أحببت أن لا أستجير
بغير الله .

ثم انصرف عثمان ، ولبيد بن ربيعة في مجلس ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ،
فقال لبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

قال عثمان : صدقت . قال

وكلّ نعيم لا محالة زائل

قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول !

قال لبيد : يا معشر قريش ، والله ما كان يؤذّي جليستكم فتى حدث
هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه في سفهاء معه فارقوا دينه
فلا تجدن في نفسك منه^(١) .

= ومنها أن النبي عليه الصلاة والسلام قالها حاكياً عن الكفار وأنهم يقولون ذلك ،
فقالها متعجباً من كفرهم .

والحديث على ما خيلت غير مقطوع بصحته »

وقال القاضي عبد الجبار في كتابه « تنزيه القرآن عن المطاعن » ٢٤٣ :
« فإن قيل : فما المراد بقوله : « إلا إذا تمى ألقى الشيطان في أميته » وكيف يصح
ذلك على الأنبياء ؟ وجوابنا أن المراد إذا تلا القرآن يلحقه السهو في قراءته وذلك معروف
في اللغة ، فلذلك قال بعده « فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته » ولو كان المراد
غير ما ذكرناه من التلاوة لم يصح ذلك .

فأما ما يرويه الحشوية من أنه صلى الله عليه وسلم ذكر في قراءته أصنامهم وقال إن
الغرائق العلا شفاعتهن ترجى ، حتى فرح الكفار ، فلا أصل له ، ومثل ذلك لا يكون
إلا من دسائس المحدثه » .

(١) سيرة ابن هشام : من قوله .

فردّ عليه عثمان حتى شَرى أمرها ، فقام إليه ذلك الرجل فلاحطه عينه
فخَضَرها^(١) والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال : أمّا والله
يا بن أخي إن كانت عينك عمّا أصابها لغفّة ، لقد كنت في ذمة منيعة .
قال : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله :
ولمّا لني جوار من هو أعزّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس .
فقال له الوليد : هلم يا بن أخي إن شئت إلى جوارك ؟
فقال : لا .

وأما أبو سلمة بن عبد الأسد ، فإنه لما استجار بأبي طالب مشى إليه
رجال بني مخزوم فقالوا : يا أبا طالب هذا منعتَ منا ابن أخيك محمداً ، فمالك
ولصاحبنا تمنعه منا ؟ فقال : إنه استجار بي وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع ابن
أختي لم أمنع ابن أخى . فقام أبو لهب فقال : يا معشر قريش والله لقد
أكثرتم على هذا الشيخ ما تزلون تؤثّبون عليه في جواره من بين قومه ، والله
لنفتنّ عنه أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .
فقالوا : بل ننصرف عما تسكره يا أبا عتبة . وكان لهم ولياً وناصرأ على
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبَقُوا على ذلك .

فطمع فيه أبو طالب حين سمعه يقول ما قال ، ورجا أن يقوم معه في شأن
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يحرضه على ذلك :

وإب امرءا أبو عَتَبَة عمه لفي روضة ما إن يُسَام المظالم
أقول له وابن منه نصيحتي أبا مُعْتَبِر ثبّت سوادك قائماً
ولا تقبلن الدهر ما عشت خطّة نسب بها إمّا هبطت المواسم
وولّ سبيل المعجز غيرك منهم فإنك لم تُخلق على المعجز لازماً

(١) خضرها : ورمها .

وحارب فإن الحرب نصف وإن ترى

أخا الحرب بمضى اتلف حتى يسالماً
وكيف ولم يحنوا عليك عظيمة ولم يخذلوك غاماً أو مُغارِماً
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً وتيماً ومخزوماً عقوقاً ومأثماً
بتفريقهم من بعد ودة وألفة جماعة كئيباً يندلوا الحارِماً
كذبتم وبيت الله نُبزى^(١) محمداً ولما تروا يوماً لدى الشعب قائماً

[ابن الدغنة يهجو أبا بكر]

وكان أبو بكر رضى الله عنه ، كما حدثت عائشة رضى الله عنها ، حين ضاقت
عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تظأهر قريش على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما رأى ، قد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى الهجرة فأذن له ، فخرج ، هاجراً حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين لقيه
ابن الدغنة ، أخو بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وهو يومئذ سيد
الأحابيش^(٢) فقال : أين يا أبا بكر ؟

قال : أخرجنى قومي وآذونى وضيقوا على . قال : لِمَ ؟ فوالله إنك
لتزىن العشرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم ، فارجم
فأنت فى جوارى .

فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش :
إنى قد أجرت ابن أبى قحافة فلا يمرضن له أحد إلا بخير .

(١) نبزى : سلب

(٢) الأحابيش : بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والهمون بن خزيمة بن مدركة ،
وبنو المصطلق من خزاعة ، سمو الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة .

قالت : فـكـفـفوا عنه . وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جُحَاح
فكان يصلي فيه ، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكى ، فيقف عليه
الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته^(١) .

فشي رجال من قريش إلى ابن الدغنة فقالوا له : إنك لم تُجِرْ هذا
ليؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرقُّ وكانت له هيئة ونحوه ،
فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضَعَفَتْنَا أن يفتنهم ، فأنته فائمه أن يدخل
بيته فليصنع فيه ما شاء .

فشي ابن الدغنة فقال : يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذي قومك ، إنهم
قد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه
ما أحببت .

قال : أو أردُّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟

قال : فاردد عليّ جِواري . قال : قد رددته عليك .

فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد ردَّ عليّ
جِواري فشانكم بصاحبكم .

وعن القاسم بن محمد أن أبا بكر لقيه سفيه من سفيهاء قريش وهو عامدٌ
إلى السكبة ، فخذا على رأسه التراب ، فرَّ الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل
فقال أبو بكر : ألا ترى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت هذا بنفسك
وهو يقول : أي ربَّ ما أحلَّك أي رب ما أحلَّك !

[نقض الصحيفة]

قال ابن إسحق : ثم إنه قام في نقض الصحيفة التي تسكتبت فيها قريش

(١) ط : هيئته .

على بنى هاشم وبنى المطلب نفر من قريش ، ولم يُبَلِّ أحدٌ فيها أحسن من
بلاء هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حسل ، وذلك
أنه كان ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، فكان هشام
البنى هاشم واصلاً ، وكان ذا شرف في قومه ، فكان فيما بلغنى يأتى ليلاً
بالبعر قد أوقره طعاماً ، حتى إذا أقبله في فم الشعب^(١) خلع خطامه من رأسه
ثم ضرب على جنبه ليدخل^(٢) الشعب عليهم ، ويأتى^(٣) به قد أوقره برّاً^(٤)
خفيفاً به مثل ذلك .

ثم إنه مشى إلى زهير بن أمية بن المغيرة ، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب ،
فقال : يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ،
وأحوالك حيث قد علمت لا يُبَاعُونَ ولا يُبْتَاعُ منهم ولا يَنكحُونَ
ولا يُنكحُ إليهم ، أما إنى أحلف بالله ، أن لو كانوا أحوال أبى الحكم
ابن هشام ثم دعوتَه إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً .

فقال : ويحك يا هشام ، فإذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد . والله لو كان
معى رجل آخر لقمْتُ في نقضها حتى أنقضها . قال : قد وجدت رجلاً .
قال : من هو^(٥) ؟ قال أنا . قال له زهير : أبقنا ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له : يا مطعم أرضيت أن يهلك بطنان
من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ أما والله لئن
أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سريعا . قال : ويحك فإذا أصنع ؟

(١) ابن هشام : أقبل به فم شعب .

(٢) ابن هشام : فيدخل .

(٣) ابن هشام : ثم يأتى .

(٤) وتروى : برا بالزأى المعجمة .

(٥) ابن هشام : فمن هو .

إنما أنا رجل واحد . قال : قد وجدت ثانياً . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال :
أبغنا ثالثاً . قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية . قال :
أبغنا رابعاً .

فذهب إلى أبي البختري بن هشام ، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن
عدى . فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال نعم . قال : من هو ؟ قال :
زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدى وأنا معك . قال : أبغنا خامساً .

فذهب إلى زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلّمه وذكر له
قرابتهم ومكانهم^(١) . فقال : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من
أحد ؟ قال : نعم . ثم سئى له القوم .

فَاتَعَدُّوا خَطَمَ الْحَبْجُونِ^(٢) ليلاً بأهل مكة ، فاجتمعوا هنالك فأجمعوا
أمرهم وتماهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينفذوها . وقال زهير : أنا
أبدؤكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدّوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير عايه حُلّة ، فطاف بالبيت .
سبعاً ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنا كل الطعام ونلبس الثياب
وبنو هاشم ههناكى لا يباعون ولا يبتاع منهم ! والله لا أقعد حتى تُشَقَّ
هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل ، وكان فى ناحية المسجد : كذبت والله لا تُشَقَّ .

قال زَمْعَةُ بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضىنا كتابتها حين
كُتِبَتْ . قال أبو البختري : صدق زَمْعَةُ ، لا نرضى ما كتب فيها

(١) ابن هشام : وحقهم .

(٢) خطم الحبجون : مقدمه .

ولا نقره به . قال المَطْعِم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ
إلى الله منها ومما كتب فيها . [و] قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك .
فقال أبو جهل : هذا أمرٌ قُضِيَ بليل تشوُّور فيه بغير هذا المكان .
وأبو طالب جالس في ناحية المسجد ، وقام المَطْعِم إلى الصحيفة يشتمها
فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم .
وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة ، فشأت يده فيما يزعمون .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب :
يا عم إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسماً هو لله
إلا أثبتته فيها ونفت منها القطيعة والظلم والبهتان . قال : أربك أخبرك
بهذا ؟ قال : نعم . قال فوالله ما يدخل عليك أحده . ثم خرج إلى قريش فقال :
يا معشر قريش إن ابن أخى أخبرنى كذا وكذا ، فاهل صحيفةكم فإن كانت
كما قال فاتهموا عن قطيعتنا ، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخى . قال
القوم : رضينا . فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا فإذا هى كما قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم فزادهم ذلك شراً فعند ذلك صنع الرهط في نقض الصحيفة
ما صنعوا .

قال ابن إسحق : فلما مُزِّت الصحيفة وبطل ما فيها قال أبو طالب فيما
كان من أمر أولئك الذين قاموا في نقضها يمدحهم :
ألا هل أتى بحَرْبٍ بنا صنَّع ربنا على نأيهم والله بالناس أَرْوَدُ^(١)
فنفخهم أن الصحيفة مُزِّت وأن كل ما لم يرضه الله مُفسدٌ

(١) يريد بالبحرى هنا من هاجر إلى الحبشة من المسلمين . وأرود : أرفق .

تراوحها إلفك وسحره مجمع
 جزى الله رهطاً بالحقجون تمايموا
 ولم يلف سحراً آخر الدهر يصمد
 على ملا يهدي الخزم ويرشد^(١)
 تعوداً لدى خطم الحجون كأنهم
 مقالة بل هم أعز وأجود
 أعاب عليها كل صقر كأنه
 إذا ما مشى في رفرع الدرع أحرد^(٢)
 جرى على جل الخلوب كأنه
 شهاب بكفى قابس يتوقد
 من الأكرمين من لوى بن غالب
 إذا سيم خسفاً وجهه يتردد
 طويل الدجاد خارج نصف ساقه
 على وجهه نسق الغمام ونسعد
 عظيم الرماد سيد وابن سيد
 يحض على مقري الضيوف ويمجد
 ويبني لأبناء العشيرة صالحاً
 إذا نحن طغنا في البلاد ويمجد
 ألق^(٣) بهذا الصلح كل مبرأ
 عظيم اللواء أمره ثم يمجد
 قضا ما قضا في ليلهم ثم أصبحوا
 على مهل وسائر الناس رقد
 هم رجعوا سهل بن بيضاء^(٤) راضياً
 وسر أبو بكر بها ومحمد
 متى شرك الأقوام في جل أمرنا
 وكنا قديماً قبلها نتودد
 وكنا قديم لا نقر ظلامه
 ونذكر ما شئنا ولا نتشدد

(١) أسقط المؤلف من القصيدة أبيتاً ذكرها ابن هشام . انظر ابن هشام ٢ / ١٨ .

(٢) رفرع الدرع : ما فضل منه . وأحرد بطيء المشى من ثقل الدرع .

(٣) ألق : أقام ولزم .

(٤) هو سهل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن ضبة بن الحارث بن فهر والبيضاء أمه .

فيا كقصي هل لكم في نفوسكم وهل لكم فيما يجيء به غد
فإني وإياكم كما قال قائل لَدَيْكَ البَيَانُ لو تكلمت أسودُ
أسودُ هنا اسم جبل كان قُتِل فيه قتيل لم يعرف قاتله ، فقال أولياء المقتول
هذه المقالة ، يعنون بها أن الجبل لو تكلم لأبان عن القاتل ولعرف بالجاني ،
واسكنه لا يتكلم ، فذهبت مقالاتهم تلك مثلاً .

[حديث الطفيل بن عمرو الدوسي]

قال ابن إسحق : فكان^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يرى من
قومه يبذل لهم النصيحة ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه ، وجعلت قريش حين
منعه الله منهم يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

فكان طفيل بن عمرو الدوسي [وكان رجلاً شريفاً شاعراً لبيداً]^(٢)
يحديث أنه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، فشى إليه رجال
من قريش فقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين
أظفرنا قد أعضل بنا ، فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق
[به]^(٣) بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين
زوجته ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه
ولا نسمع منه^(٤) .

قال : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكله ،

-
- (١) ابن هشام : وكان
(٢) ابن هشام : وكان الطفيل .
(٣) ليست في ابن هشام .
(٤) ابن هشام : ولا يستمن منه شيئاً .

حتى حشوتُ في أذنيَّ حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفًا^(١) فَرَقًا من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمع .

قال : فغدرت إلى المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة ، فقامت قريباً منه ، فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي : وائسكل أمي ! والله إنى لرجل لبيب شاعر وما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل [ما يقول]^(٢) ، فإن كان الذي يأتي به حسناً قَبِلْتُهُ ، وإن كان قبيحاً تركته .

فكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت : يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا [للذي قالوا]^(٣) ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددتُ أذنيَّ بكرُسُفٍ لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني [قولك]^(٣) فسمعت قولاً حسناً ، فاعرض علىَّ أمرك .

فعرض علىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلامَ وتلا علىَّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسنَ منه ولا أمراً أعدلَ منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبي الله إنى امرؤ مطاع في قومي وإنى راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لي آيةً تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه . فقال اللهم اجعل له آية .

فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت على ثَنِيَّةٍ^(٤) تُطلعتُ على الحاضر

(١) الكرُسُف : القطن .

(٢) من ابن هشام .

(٣) من ابن هشام .

(٤) ابن هشام : بثنية . والثنية : الفرجة بين الجبلين .

وقع نور بين عينيّ مثلُ المصباح . قلت : اللهم في غير وجهي ، إلى أخشى أن يظنوا أنها مُثَلَّةٌ وقعت في وجهي لفراق دينهم . قال : فتحوّل فوق في رأس سوطي ، فجعل أهل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط إليهم من النية حتى جثتهم .

فلما نزلتُ أناني أبي وكان شيخاً كبيراً ، فقلت : إليك عنى يا أبت فلستُ منك ولستَ مني . قال : لِمَ يا بني ؟ قلت : أسلمتُ وتابعت دينَ محمد . قال : أي بني فدبني دينك . فقلت : فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ، ثم تعال حتى أعلمك ما علّمت . فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ، ثم جاء فعرضتُ عليه الإسلام فأسلم

ثم أتدّى صاحبتى فقلت لها : إليك عنى فلستُ منك ولستَ مني . قالت : لِمَ بأبي أنت وأمي ؟ قلت : فرّق بيني وبينك الإسلام وتابعت دينَ محمد . قالت : فدبني دينك . قلت : فاذهبي إلى حِذَا ذِي الشَّرَى . - قال ابن هشام : ويقال حِجَى ذِي الشَّرَى - فتطهرى منه ، وكان ذو الشرى صنماً لدوس وإلحنا^(١) حِجَى حَمَوَهْ له ، به وَشَل^(٢) من ماء يهبط من جبل . فقالت : بأبي أنت وأمي ، أنخشي على الصُّبْيَةِ من ذِي الشرى شيئاً ؟ قلت : لا أنا ضامن لذلك . فذهبتُ فاغتسلتُ ثم عادت فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمت .

ثم دعوتُ دَوْسًا إلى الإسلام فأبطاوا ، ثم جثت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقلت : يا نبي الله إنه غلبني على دوس الزُّنَا فادع الله عليهم . فقال : اللهم اهْدِ دَوْسًا ، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

(١) ابن هشام : والحي .

(٢) الوشل : القليل .

فلم أزل بأرض دوس أدعوم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ومضى بدر وأُحُد والخندق ، ثم قَدِمْتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معي من قومي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بَيْتًا من دَوْس ، ثم لحقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر فأَسْتَهَمَ لِفَاعٍ مع المسلمين .

ثم لم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا فتَحَ الله عليه مكة قلت : يا رسول الله ابعثنني إلى ذِي الْكُفَّيْنِ صَنْمِ عمرو بنِ حُحَمَةَ حتى أحرقه .

قال ابن إسحق : نَفَرَ جِإِلِيهِ لَجُئِلٍ وَهُوَ يُوْقِدُ عَلَيْهِ النَّارَ يَقُولُ :

يَا ذَا الْكُفَّيْنِ ^(١) لَسْتُ مِنْ عِبَادِكَ

مِلَادُنَا أَقْدَمُ مِنْ مِلَادِكَ

أَنَا ^(٢) حَشَوْتُ النَّارَ فِي فُؤَادِكَ

ثم رجع ، فكان بالمدينة حتى قبض الله رسوله ، فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين فسار معهم حتى فرغوا من طَلَيْحَةَ ومن أرض نجد كلها ، ثم سار مع المسلمين إلى البِئَامَةِ ومعه ابنه عمرو بن طُفَيْلٍ فرأى رؤيا وهو متوجه إلى البِئَامَةِ فقال لأصحابه : إني قد رأيتُ رؤيا فاعبروها لي . رأيتُ أن رأسي حُلِقَ ، وأنه خرج من في طائر ، وأنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها وأرى ابني يطلبني طلبًا حثيثًا ثم [رأيتُه] ^(٣) حُبَسَ عني .

قالوا : خيرًا . قال : أمّا أنا فقد أَوَّلْتُهَا . قالوا : ماذا ؟ قال : أمّا حَلَقَ رأسي فَوَضَعُهُ ، وأمّا الطائر الذي خرج من في فروحي ، وأمّا المرأة التي

(١) الكفّين : أصله بالتشديد تخفف للضرورة .

(٢) ابن هشام : إني .

(٣) من ابن هشام .

أدخلتني في فرجها فالأرض تُخَفَّر لي فأغيب فيها ، وأما طلبُ ابني إياي
ثم حَبَسُهُ عني فإني أراه سَيَجْهَدُ أن يصيبه ما أصابني .
فَقُتِلَ رحمه الله شهيداً باليامة ، وجُرح ابنه جراحة شديدة ثم اسْتَقَلَّ^(١)
منها ثم قتل عامَ البرموك في زمن عمر شهيداً .

[أَعشى قيس]

وذكر ابن هشام أن أَعشى بنى قيس بن ثعلبة خرج إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام ، وقال قصيدة يمدحه فيها ، نذكرها بعد .
فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله
عن أمره ، فأخبره أنه جاء يريد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليسلم .
فقال له : يا أبا بصير إنه يجرّم الزنا . فقال الأَعشى : والله إن ذلك لأمر مالى
فيه من أرب . فقال : يا أبا بصير : فإنه يجرّم الخمر . فقال : أما هذه
فوالله إن في النفس منها أَعْلَالات ، ولكنى منصرف فاتروى منها طامى
هذا ثم آتته فأسلم .

فانصرف فمات في عامه ذلك ولم يَعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
هذا ما ذكر ابن هشام في قصة الأَعشى ، وظاهره يقتضى أن قصده كان
إلى مكة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها حينئذ لم يهاجر بعدُ .

ويعارض هذا الظاهر ما ذكر من تحريم الخمر ، فإن أهل النقل مجمعون
على أن الخمر إنما حُرمت بالمدينة بعد أن مضى بدر وأحد ونزل تحريمها في
سورة المائدة وهي من آخر ما نزل من القرآن ، فإن صحَّ أن خروج الأَعشى
كان قبل الهجرة كما في ظاهر الخبر فلمسل المشرك الذى لقيه وأخبره عن

(١) ابن هشام : استهل . والمعنى أفاق وشفى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريم الخمر ، أراد بهذا القول تديفيره عن الإسلام وإبعاده عنه ، مع ما كان من كراهية رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً للخمر وتنزيه الله إياه عنها .

ألا تراه ليلة الإسراء لما عُرِضَتْ عليه آنية الخمر واللبن اختار اللبن فقل له هُديتَ للفطرة ، لو أخذت الخمر غَوَتْ أمتك . والإسراء إنما كان بمكة في صدر الإسلام .

وقد يمكن أن يكون قصد الأعشى إلى المدينة بعد الهجرة وبعد تحريم الخمر فلتلقاه بعض المشركين من قريش ممن لم يكن أسلم بعد .

ولعل هذا هو الأولى بدليل قوله في قصيدته الآتية بعد :

ألا أيهذا السائلِ أين يَمُمْتُ فإن لها في أهل يثرب مَوْعِدَا
والله أعلم بالحقيقة في ذلك كله .

والقصيدة التي مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

ألم تغتمض عيناك ليلة أُرْمَدَا	وَبِتَّ كما بات السليمُ مُسَهَّدَا
وما ذاك من عِشْقِ النساءِ وإنما	تناسيتَ قبل اليوم خَلَّةَ مَهْدَا
ولسكن أرى الدهر الذي هو خائنٌ	إذا أصلحت كَفَّأى عاد فأفسدَا
كهولا وشباناً فقدتُ وُزْرَةً	فله هذا الدهرُ كيف ترددا
وما زلتُ أبغى السالَ مُذْ أنا يافعٌ	وليداً وكَهْلاً حين شَبْتُ وأمرَدَا
وأبتذلُ العيسَ المراقيلَ تَعْتَلِي	مسافة ما بين النَجِيرِ فصَرَخَدَا ^(١)
ألا أيهذا السائلِ أين يَمُمْتُ	فإن لها في أهل يثرب مَوْعِدَا
فإن تسألني عني فيا رَبَّ سائلٍ	خَفِيَّ عن الأعشى به حيث أصعدَا

(١) المراقيل : المسرعة . والنجير وصرخد موضعان باليمن والجزيرة .

أَجَدْتُ بِرَجُلَيْهَا النَّجَاءَ وَرَاجَعْتُ يَدَاهَا خِنَافًا لَيْفًا غَمِيرَ أُخْرَدَا^(١)
 وَغَيْبَهَا إِذَا مَا هَجَرْتُ عَجْرَفِيَّةً إِذَا خِلْتُ حِرْبَاءَ الظُّهَيْرَةِ أَصِيدَا^(٢)
 وَأَلَيْتُ لَا آوِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَقٍّ حَقٍّ تَلَاقِي مُحَمَّدَا
 مَتَى مَا تَنَاجَى عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ تُرَاجِي وَتَلْقَى مِنْ قَوَاضِيهِ نَدَا
 نَبِيًّا يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرَى^(٣) فِي الْبِلَادِ وَأُنْجِدَا
 لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تَقْبُ وَنَائِلٌ وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانَعَهُ غَدَا
 أَجَدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيٍّ إِلَهِ حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ الثَّقَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
 نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمَثَلِهِ فَتُرْصِدَ لِلْمَوْتِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا
 فَيَاكَ وَالْمِيتَاتِ لَا تَقْرَبْنَهَا وَلَا تَأْخُذْنَ سَهْمًا حَدِيدًا لَتُقْصِدَا
 وَذَا النُّصُبِ الْمَنْصُوبِ لَا تَنْسُكَنَّه وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ وَاللَّهُ فَاعْبُدَا^(٤)
 وَلَا تَقْرَبَنَّ حَرَةً كَانَ سِرُّهَا عَلَيْكَ حَرَامًا فَانْكَحْنَ أَوْ تَأْبُدَا
 وَذَا الرَّحِمِ الْقَرْبَى فَلَا تَقْطَعَنَّه لِعَاقِبَةٍ وَلَا الْأَسِيرَ الْمُقَيَّدَا
 وَسَبِّحْ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَحْمَدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهُ فَاحْمَدَا
 وَلَا تَسْخَرَنَّ مِنْ بَائِسٍ ذِي ضَرَارَةٍ وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَالَ لِلْمَرْءِ مُخْلِدَا

(١) الخفاف : أن تلوى يديها في السير من النشاط . والأحرد : الذي يقتل في السير .
 (٢) هجرت : أي سارت في الهجرة وهي شدة الحر ، والعجرفية : نسبة إلى العجرفة
 في السير والحرباء : دويبة يدور بوجهه مع الشمس حيث دارت . والأصيد : مائل العنق .
 (٣) قال ابن دريد : وغار الرجل في غور تهامة ، إذا دخله ، ولا يقال أغار ، فإنه
 خطأ ، قال الأعمش : نبي يرى ما لا ترون وذكره . لعمرى : غار في البلاد وأنجدا . ومن
 روى : « أغار لعمرى » فقد لحن وأخطأ . الاشتقاق / ١٨ .
 (٤) أسله : فاعبدن بالنون الخفيفة فوقف عليها بالأنف ، وكذا فيما يأتي من الأفعال .
 (م ٢٤ - الاكتفا)

[مع أبي جهل وركانة]

قال ابن إسحق : وقد كان عدو الله أبو جهل [بن هشام ^(١)] مع عداوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وبُغضه إياه وشدة عليه يذله الله له إذا رآه .

حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي ، وكان واعية قال :
قدم رجل من إراش بابل له مكة ، فابتاعها منه أبو جهل فطله بأثمانها ،
فأقبل الإراشي حتى وقف على نادر من قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم
جالس في ناحية المسجد ، فقال : يا معشر قريش ، من رجل يؤذيني ^(٢)
على أبي الحكم بن هشام ، فإني غريب ابن سبيل وقد غلبني على حق .

فقال له أهل ذلك المجلس : أتري ذلك الرجل ؟ لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وسلم - يهزأون به لئلا يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة - اذهب إليه
فهو يؤذيك عليه .

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام غلبني على حق لي قبله وأنا غريب ابن سبيل ،
وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤذيني عليه ، يأخذني على حق منه ، فأشاروا لي
إليك فخذني حتى يرحمك الله .

قال : انطلق إليه . وقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه
قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ما يصنع .

قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضرب عليه بابه .
فقال : من هذا ؟ فقال : محمد ، فاخرج إلي . فخرج إليه وما في وجهه من رائحة ،
لقد انتقع لونه ، فقال : أعط هذا حقه . قال : نعم لا يبرخ حتى أعطيه الذي له .

(١) من ابن هشام .

(٢) يؤذيني : يسيئني .

فدخل نفرج إليه بحقه فدفعه إليه ، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً ، فقد والله أخذ لي حتى .

وجاء الرجل الذي بعثوا معه فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟

قال : هجباً من العَجَب ! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه نفرج إليه وما معه روحه ، فقال : أعط هذا الرجل حقه . قال : نعم ، لا يبرح حتى أخرج إليه حقه . فدخل نفرج إليه بحقه فأعطاه إياه .

ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا : ويحك ! مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط .

قال : ويحكم ! والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعتُ صوته فلبثت رعباً ، ثم خرجتُ إليه وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرتُه^(١) ولا أنيا به لفحل قط ، والله لو أبئتُ لأكلني .

وذكر الواقدي عن يزيد بن رومان قال : بيننا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالساً في المسجد معه رجال من أصحابه أقبل رجل من بني زبيد يقول : يا معشر قريش كيف تدخل عليكم السادة أو يُجلبب إليكم جلبب أو يُحلب تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرَمكم . يقف على الحلق حلقه .

حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن ظلمك ؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال كانت خيرة إبله ، فسامه أبو جهل ثلث أثمانها ثم لم يسْمه بها لأجله سائم ، قال : فأكْسَد على سلمي وظلمي . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأين أجمالك ؟ قال : هي هذه بالحزورة .

(١) القصرة : أصل العنق .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم معه وقام أصحابه ، فنظروا إلى الجمال
فرأى جمالا فرها . فساوم الزبيدي حتى ألحقه برضاء ، فأخذها رسول الله
صلى الله عليه وسلم فباع جمالين منها بالثمن ، وأفضل بعيرا بابه وأعطى أراملا
بني عبد المطلب ثمنه ، وأبو جهل جالس في ناحية من السوق لا يتكلم .
ثم أقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عمرو إياك أن تمود
لمثل ما صنعت بهذا الأعرابي فترى منى ما تسكره . فجعل يقول : لا أعود
يا محمد لا أعود يا محمد .

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عليه أمية بن خلف
ومن حضر من القوم ، فقالوا : ذللت في يدي محمد ، فلما أن تسكون تريد
أن تتبعه وإما رعب دخلك منه . قال : لا أتبعه أبداً ، إن الذي رأيتم منى
لمّا رأيتم معه ، لقد رأيتم رجلا عن يمينه وشماله معهم رماح بشرعونها
إليّ ، لو خالفته لسكانت إياها . أى لأتوا على نفسى .

* * *

وذكر محمد بن إسحق عن أبيه قال : كان رُكّانة بن عبد يزيد بن هاشم
ابن المطلب أشدّ قريش ، فخلّا يوماً برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض
شعاب مكة ، فقال له : باركاًة ألا تقبّل ما أدعوك إليه ؟ قال :
لو أعلم أن الذى تقول حق لا تبعثك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
أفرايت إن صرعتك أنعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم . قال : فقم حتى
أصارعك . فقام إليه رُكّانة فصارعه^(١) ، فلما بطش به رسول الله صلى الله
عليه وسلم أضجعه لا يملك من نفسه شيئاً .

ثم قال : عُد يا محمد . فماد فصارعه . فقال : يا محمد إن ذا لمّجب أنصرعنى !!
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه
إن اتقيت الله واتبعت أمرى .

(١) ابن هشام : يصارعه .

قال : ما هو ؟ قال : أدعوك هذه الشجرة التي نرى فتأثني . قال :
ادعها . فدعاه ، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال لها : ارجعي إلى مكانك ، فرجعت إلى مكانها .

فذهب ركبان إلى قومه فقال : يا بني عبد مناف ساحروا بصاحبكم أهل
الأرض ، فوالله ما رأيت أشجر منه قط . ثم أخبرهم بالذي رأى وصنع^(١) .

* * *

قال ابن إسحق : ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة
عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى ، يقال إنهم من أهل نجران ،
حين بلغهم خبره من الحبشة .

فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه وكلوه وسألوه ، ورجال من قريش
في أندية حول السكبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم
عما أرادوا دعاهم إلى الله ونلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا [القرآن]^(٢) فاضت
أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان
يوصف لهم في كتابهم من أمره .

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبتكم
الله من ركبنا بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخير الرجل ،
فلم نطمئن بحالكم عنده حتى فارقت دينكم وصدقتموه ! ما نعلم ركباً أحق منكم .
أو كما قالوا .

فقالوا لهم : سلام عليكم لا نبأه لكم ، لغا ما نحن عليه واسم ما أنتم عليه ،
لم نأل أنفسنا خيراً .

(١) ابن هشام : والذي صنع .

(٢) من ابن هشام .

فَيَقَالُ وَاللَّهِ أَعْلَمُ : فِيهِمْ نَزَلَتْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ ثُمَّ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا بُتِلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يَوْمَئِذٍ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ^(١) » .

قَالَ : وَقَدْ سَأَلْتُ ابْنَ [شَهَاب ^(٢)] الزَّهْرِيَّ فَقَالَ : مَا زِلْتُ أَسْمَعُ مِنْ عُلَمَائِنَا أَنَّهُمْ نَزَلْنَ فِي النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ . وَالْآيَاتِ مِنَ الْمَائِدَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « وَلَنَجْذِئَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُفْهَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُمْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ^(٣) » .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ لِمَجْلِسٍ إِلَيْهِ الْمُسْتَضْعِفُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، حَبَّابٌ وَعُمَارٌ وَأَبُو فُكَيْمَةَ بِسَارٍ وَصُهَيْبٌ وَأَشْبَاهُهُمْ هَزَّيْتُ بِهِمْ قَرِيضَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : هَؤُلَاءِ أَصْحَابُهُ كَمَا تَرُونَ ، أَهَؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا بِالْهُدَى وَالْحَقِّ أَلَوْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ خَيْرًا مَّا سَبَقْنَا هَؤُلَاءَ إِلَيْهِ وَمَا خَصَّهُمُ اللَّهُ بِهِ دُونَنَا .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ

(١) سورة القصص ٥٢ — ٥٥ .

(٢) من ابن هشام .

(٣) سورة المائدة ٨٢ ، ٨٣ .

مِنْ شَيْءٍ ، فَتَطْرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ . وكذلك فَمَتْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
الْيَقُولُوا : أَهَؤُلَاءِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَّا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ،
وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ^(١) .

وهؤلاء أيضاً ومن قال بقولهم هم الذين عَنَى اللَّهُ سبحانه بقوله : « وقال الذين
كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سُبِّحُوا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ
هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » ^(٢) .

قال ابن إسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني كثيراً
ما يجلس عند المروة إلى متبعية غلام نصراني يقال له جَبْرٌ ، عَقْدٌ لِبَنِي الْحَضَرَمِيِّ ،
وكانوا يقولون : والله ما يَعْلَمُ محمداً كثيراً مما يَأْتِي به إلا جَبْرُ النَّصْرَانِيِّ ، فَأَنْزَلَ
اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ
الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » ^(٣) .

وكان العاص بن وائل إذا ذَكَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
دَعَاؤُهُ ، فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ أَبْتَرٌ ، لَوْ قَدْ مَاتَ لَقَدْ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ فَاسْتَرْحَمَ مِنْهُ ،
فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ السَّكُوتَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ
وَانْحَرْ ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أَيْ أَعْطَيْنَاكَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا .
وَالسَّكُوتُ الْعَظِيمُ . وَقِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا السَّكُوتُ الَّذِي أَعْطَاكَ
اللَّهُ ؟ قَالَ : نَهْرٌ كَمَا بَيْنَ صَدْعَاءِ إِلَى أَيْلَةِ آيَتِهِ كَعَدَدِ نَجُومِ السَّمَاءِ تَرِدُهُ طَيْرُهَا

(١) سورة الأنعام ٥٢ — ٥٤ .

(٢) سورة الأحقاف ١١ .

(٣) سورة النحل ١٠٣ .

أعناق كأعناق الإبل . قال عمر بن الخطاب : إنما يارسول الله أفاعية .
قال : آكلها أنعم منها .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً إلى الإسلام ، فقال له زمعة بن
الأسود والنضر بن الحارث والأسود بن عبد يغوث وأبي بن خاف والعاص بن
وائل : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك ؟ فأنزل الله
في ذلك : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر
ثم لا ينظرون ، ولو جلدناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم
ما يلبسون ^(١) » .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوليد بن المغيرة وأممية بن خلف
وأبي جهل ، فهمزوه واستهزؤا به ، فغاضه ذلك ، فأنزل الله عليه : « ولقد
استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ^(٢) » :

(١) سورة الأأنام ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الأأنام ١٠ .

ذكرُ الحديث عن مَسْرَى رسول الله

صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق : ثم أُسْرِى^(١) برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس من إيلياء ، وقد فشا الإسلام بمكة في قريش وفي القبايل كلها .

فكان من الحديث فيما بلغنى عن مَسْرَاهُ صلوات الله عليه وسلامه عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ومعاوية بن أبي سفيان وأم هانئ بنت أبي طالب والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزهري وقبادة وغيرهم من أهل العلم ما اجتمع في هذا الحديث ، كلُّ ما يحدث عنه بعض ما ذكر من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أُسْرِى به صلى الله عليه وسلم .

وكان في مَسْرَاهُ وما ذكر عنه بلائاً ونمحيص وأمرٌ من الله في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق .

(١) لم يذكر ابن إسحاق تحديداً للسنة التي وقع فيها الإسراء ، وقد تعرض لذلك ابن كثير في البداية والنهاية ٣ / ١٠٨ فقال : « ذكر ابن عساكر أحداث الإسراء في أوائل البعثة ، وأما ابن إسحاق فذكرها في هذا الموطن ، بعد البعثة بنحو من عشر سنين . وروى البيهقي من طريق موسى بن عقبة عن الزهري أنه قال : « أُسْرِى برسول الله (ص) قبل خروجه إلى المدينة بسنة .. ثم روى الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن أسباط ابن نصر عن إسماعيل السدي أنه قال : فرض على رسول الله ص الخس بيت المقدس ليلة أُسْرِى به قبل مهاجره بستة عشر شهراً . فعلى قول السدي يكون الإسراء في شهر ذي القعدة ، وعلى قول الزهري وعروة يكون في ربيع الأول . ثم ذكر عن جابر وابن عباس قالا : ولد رسول الله (ص) عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول وفيه بمث وفيه عرج به إلى السماء وفيه هاجر وفيه مات . وفيه انقطاع . ثم ذكر أن المقدسي أورد حديثاً لا يصح سندُه أن الاسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب ، والله أعلم » .

وكان مِنْ أَمْرِ اللَّهِ عَلَى يَقِينٍ ، فَأَسْرَى بِهِ كَيْفَ شَاءَ وَكَمَا شَاءَ لِيُرِيَهُ
مِنْ آيَاتِهِ مَا أَرَادَ ، حَتَّى عَايَنَ مَا عَايَنَ مِنْ أَمْرِهِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ وَقُدْرَتِهِ الَّتِي يَصْنَعُ
بِهَا مَا يَرِيدُ .

فَسَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِيهَا بِلُغْنِي عَنْهُ يَقُولُ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ بِالْبَرَّاقِ ، وَهِيَ الدَّابَّةُ الَّتِي كَانَتْ تُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ ، تَضَعُ
حَافِرَهَا فِي مَنْتَهَى طَرَفِهَا ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ ^(١) ، ثُمَّ خَرَجَ بِهِ صَاحِبُهُ بِرَى الْآيَاتِ فِيمَا بَيْنَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَوَجَدَ فِيهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى فِي نَفَرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَدْ جَمَعُوا لَهُ ، فَصَلَّى بِهِمْ ثُمَّ أُتِيَ
بثَلَاثَةِ آتِيَةٍ ، إِنْاء فِيهِ لَبَنٌ ، وَإِنْاء فِيهِ خَمْرٌ ، وَإِنْاء فِيهِ مَاءٌ ، قَالَ : فَسَمِعْتُ قَائِلًا
يَقُولُ : إِنْ أَخَذَ الْمَاءَ فَعَرِقَ ^(٢) وَغَرِقَتْ أُمَّتُهُ ، وَإِنْ أَخَذَ الْخَمْرَ فَعَوَى وَغَوَتْ
أُمَّتُهُ ، وَإِنْ أَخَذَ اللَّبَنَ هُدًى وَهُدِيتْ أُمَّتُهُ . قَالَ : فَأَخَذْتُ إِنْاءَ اللَّبَنِ فَشَرِبْتُ ،
فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ : هُدِيتَ وَهُدِيتْ أُمَّتُكَ يَا مُحَمَّدُ .

قَالَ : وَحُدِّثْتُ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
يَبْنَا أَنَا نَائِمٌ فِي الْحِجْرِ ^(٣) جَاءَنِي جَبْرِيلُ فَهَمَزَنِي بِقَدَمِهِ ، فَجَلَسْتُ فَلَمْ أَرْ شَيْئًا ،
فَعُدْتُ لِمَضْجِعِي ، فَجَاءَنِي الثَّانِيَةُ فَهَمَزَنِي بِقَدَمِهِ فَجَلَسْتُ فَلَمْ أَرْ شَيْئًا ، فَعُدْتُ
لِمَضْجِعِي الثَّالِثَةَ فَهَمَزَنِي بِقَدَمِهِ فَجَلَسْتُ فَأَخَذَ بَعْضُي ، فَقَمَتُ مَعَهُ فَخَرَجَ بِي إِلَى
بَابِ الْمَسْجِدِ ، فَإِذَا دَابَّةٌ أَبْيَضُ ، بَيْنَ الْبَعْلِ وَالْحِمَارِ ، فِي نَفْذِيهِ جَدَا حَانَ يَحْفَرُ ^(٤) بِهِمَا
رِجْلَيْهِ ، يَضَعُ يَدَيْهِ فِي مَنْتَهَى طَرَفِهِ ، فَحَمَلَنِي عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ مَعِيَ لَا يَفْقُوتُنِي
وَلَا أَفُوتُهُ .

(١) ابن هشام : عليها .

(٢) ابن هشام : غرق .. غوى .

(٣) ابن هشام : إذ جاءني .

(٤) أي يدفع .

وفى حديث قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لَمَّا دَنُوتَ مِنْهُ
لَأَرْكَبَهُ شَمْسٌ ^(١) فَوَضَعَ جَبْرِيلُ يَدَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ ^(٢) ثُمَّ قَالَ : أَلَا نَسْتَحْيِ
يَا بَرَأَقَ مِمَّا تَصْنَعُ إِنْ فَوَّاهُ مَا رَكِبَكَ عَبْدٌ لَلَّهِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ . فَاسْتَحْيَا
حَتَّى أَرَفَضَ عَرَقًا ثُمَّ قَرَّ حَتَّى رَكِبَتْهُ .

وفى حديث الحسن من انتهاء جبريل بالذي صلى الله عليه وسلم إلى بيت
المقدس وإمامته فيه بمن وجده عنده من الأنبياء ، على جميعهم السلام ، نحو ما
تقدم من ذلك فى حديث ابن مسعود .

قال : ثُمَّ أَتَى بِلَانَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا خَمْرٌ وَفِي الْآخَرِ لَبَنٌ ، فَأَخَذَ إِنْاءَ اللَّابَنِ وَتَرَكَ
إِنْاءَ الْخَمْرِ ، فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ : هُدَيْتَ لِلْفُطْرَةِ وَهَدَيْتَ أُمَّتَكَ وَحَرَّمْتَ
عَلَيْكُمْ الْخَمْرَ .

وَذِكْرُ نَهْيِ الْخَمْرِ هُنَا غَرِيبٌ جَدًّا ، وَالَّذِى عَلَيْهِ الْعِلْمُ أَنَّ الْخَمْرَ إِنَّمَا
حُرِّمَتْ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ سَنَيْنِ مِنَ الْهِجْرَةِ .

قال الحسن : ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَكَّةَ ، فَلَمَّا
أَصْبَحَ غَدَا عَلَى قَرِيشٍ فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبْرَ . فَقَالَ أَكْثَرُ النَّاسِ : هَذَا وَاللَّهِ الْإِمْرُ ^(٣)
الْبَيِّنُ ، وَاللَّهُ إِنْ الْعَمِيرَ لَتُطْرَدَ شَهْرًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ مُدَّةَ بَرَةٍ وَشَهْرًا مُقْبِلَةً ،
أَفِيذْ هَبْ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَرْجِعْ إِلَى مَكَّةَ .

قال : فَارْتَدَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ كَانَ أَشْلَمَ ، وَذَهَبَ النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَقَالُوا :
هَلْ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فِي صَاحِبِكَ إِنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ جَاءَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَصَلَّى
فِيهِ وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ . فَقَالَ لَهُمْ أَبُو بَكْرٍ : إِنْ كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيْهِ . فَقَالُوا : بَلَى هَـ هُوَ
ذَاكَ فِي الْمَسْجِدِ يَحْدُثُ بِهِ النَّاسُ .

(١) شمس : امتنع ولم يمكن أحدا من ظهوره .

(٢) المعرفة : اللحم الذى يلبس عليه شعر العرف .

(٣) الإمْر : العجيب المنكر .

فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟
فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار
فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله
أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال . يا نبي الله
فصِّفه لي فأني قد جئته .

قال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرفع لي حتى نظرتُ إليه .
فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يَصِفُه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقتَ
أشهد أنك رسول الله . كلما وصف له منه شيئاً قال : صدقتَ أشهد أنك رسول الله .
حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : وأنت
يا أبا بكر الصديق . فيومئذ سماء الصديق .

قال الحسن : وأنزل الله فيمن ارتد عن إسلامه لذلك : وما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا
الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ
إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ^(١) .

فهذا حديث الحسن عن مَسْرَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما دخل
فيه من حديث قَتَادَةَ .

قال ابن إسحق : وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول :
ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن الله أسرى بروحه .

وكان معاوية بن أبي سفيان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : كانت رؤيا من الله صادقة .

فلم يُنكر ذلك من قولها لقول الحسن إن هذه الآية نزلت في ذلك ، قول الله : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » ولقوله تعالى في الخبر عن إبراهيم إذ قال لابنه « يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ^(١) » ثم مضى على ذلك ، فعرفت أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظاً ونياماً .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تنام عيني وقلبي يقظان .
فالله أعلم أي ذلك كان قد جاءه وعين فيه ما عين من أمر الله ، على أي حاله كان نائماً أو يقظان ، كل ذلك حق وصدق ^(٢) .

وزعم الزهري عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رآهم في تلك الليلة ، صلوات الله على جميعهم ، فقال :

أما إبراهيم فلم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه ،
وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جفد أفتى ^(٣) كأنه من رجال شنوءة ،

(١) سورة الصافات ١٠٢ .

(٢) هذه التسوية من ابن اسحق بين كلا الرأيين عجيبة جداً ، فإن مذهب جمهور السلف والخلف أن الإسراء كان ببدنه وروحه صلوات الله وسلامه عليه ، فلو كان مناماً لما نادر كفار قريش إلى التكنيب به واستبعاده إذ ليس في ذلك كبير أمر ، فدل على أنه أخرجه بأنه أسرى به يقظة لا مناماً ، والفرآن قال : « سمعان الذي أسرى بعبده » فالعبد عبارة عن الروح والجسد ، وكذلك التسميع لأنما يكون عند الآيات العظيمة الخارقة .

قال ابن كثير : وقد توقف ابن اسحق في ذلك وجوز كلا الأمرين من حيث الجملة ، ولا يمكن الذي لا يشك فيه ولا يتأري أنه كان يقظان لا محالة . وليس مقتضى كلام عائشة رضي الله عنها أن جسده صلى الله عليه وسلم ما فقد وإنما كان الإسراء بروحه أن يكون مناماً ، كما فهمه ابن اسحق ، بل قد يكون وقع الإسراء بروحه حقيقة وهو يقظان لا نائم . . .

ثم قال : « ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء طبق ما وقع بعد ذلك ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وقد تقدم مثل ذلك في حديث بدء الوحي أنه رأى مثل ما وقع له يقظة مناماً قبله ، ليكون ذلك من باب الإرهاس والتوطئة والتثبيت والإناس والله أعلم » انظر البداية والنهاية ٣ / ١١٣ — ١١٤ .

(٣) ضرب : أي خفيف الاعم . وجعد : متكسر الشعر ، وأفتى : مرتفع فصبة الأنف .

وأما عيسى بن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل ، سَبَطُ الشعر كثير خيلان الوجه كأنه خرج من ديماس^(١) تخال رأسه يَقْطُر ماء وليس فيه^(٢) ماء ، أشبه رجالكم به عُروة بن مسعود الثقفي .

قال ابن هشام : وكانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر عمر مولى غُفْرَةَ عن إبراهيم بن محمد بن علي بن أبي طالب قال : كان علي إذا نَعَتَ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لم يكن بالطويل الممَّط^(٣) ولا القصير المتردد ، كان رُبْعَةً من القوم ، ولم يكن بالجمْد القَطَط^(٤) ولا بالسَّبَط كان جَمَدًا رَجُلًا^(٥) ، ولم يكن بالمطهم ولا المُسْكَلَم^(٦) ، وكان أبيض مُشْرَبًا أَدْعَجَ العيين أهدب الأشفار جليل المشاش والسكند^(٧) دقيق المسربة^(٨) أجرد^(٩) شثن الكفين^(٩) والقدمين ، إذا تمشَّى تقلَّع كأنما يمشى في صَبَب ، وإذا التفت التفت معا ، بين كتيفيه خاتم النبوة ، وهو صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين أجود الناس كفا وأجرا الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وأوفى الناس بذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحق : وكان فيما بلغني عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها أنها كانت تقول : ما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو في

(١) السبط : المسترسل غير الجمد ، والخيلان جمع خال وهو الشامة السوداء . والديماس : الحمام .

(٢) ابن هشام : به .

(٣) الممَّط : الممتد .

(٤) القَطَط : الشديد جمودة الشعر .

(٥) مسرح الشعر .

(٦) المطهم : العظيم الجسم والمسكلم : المستدير الوجه في صغر

(٧) المشاش : عظام رهوس المفاصل ، والسكند ما بين الكتفين .

(٨) المسربة : الشعر الذي يعتد من الصدر إلى السرة .

(٩) الأجرد : قليل شعر الجسم . وشثن الكفين : غليظهما .

في بيتي ، نام عندي تلك الليلة ^(١) فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبطنا ^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هاني لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم قد صليت معكم صلاة الغداة الآن كما ترين .

ثم قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه ، فتسكشفت عن بطنه وكأنه قُبْطِيَّةٌ ^(٣) مطوية ، فقلت : يا نبي الله لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك ، قال : والله لأحدثنهموه . فقلت لجارية لي حَبَشِيَّة : ويحك اتبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تسمعي ما يقول للناس وما يقولون له .

فلما خرج إلى الناس أخبرهم فعجبوا وقالوا : ما آية ذلك يا محمد ، فإنا لم نسمع بمثل هذا قط ؟ قال : آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا ^(٤) ، فأفرم حس الدابة ، فنزلهم بعير فدللتهم عليه وأنا موجه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بَضَجَان ^(٥) مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن تُصَوَّب من البيضاء ^(٦) ، ثنية التميم ، يقدّمها جبل أُوْرَق عليه غِرارتان إحداها سوداء والأخرى بَرَقَاء ^(٧) .

فابتدر القومُ الثنية فلم يلقهم أول من الجبل ، كما وصف لهم ، وسألهم

(١) ابن هشام : نام عندي تلك الليلة و بيتي .

(٢) أهبطنا : أيقظنا .

(٣) ثياب من كتان تنسج بعصر منسوبة إلى القبط على غير قياس .

(٤) ابن هشام : كذا وكذا .

(٥) بضعجان : حبل بناحية تهامة .

(٦) تصوب : تنزل من عل ، والبيضاء : عقبة قرب مكة .

(٧) أي مختلفة الألوان .

عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه
مُغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماء ، وسألوا الآخرين وهم بمكة فقالوا : صدق
والله ، لقد أنفَرنا في الوادى الذى ذكر وندَّ لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل
يدعونا إليه حتى أخذناه .

[المعراج]

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم ، عن أبي سعيد الخدري رضى الله
عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لَمَّا فرغت مما كان
في بيت المقدس أتيت بالمعراج ، ولم أَر شيئاً قط أحسن منه ، وهو الذى يمدُّ
إليه ميثمكم عنده إذا حُضر .

فأصعدنى صاحبي فيه حتى انتهى بى إلى باب من أبواب السماء يقال له :
باب الحفظة ، عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل تحت يديه اثنا عشر
ألف ملك تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حدث بهذا الحديث :
« وما يَعْلَمُ جدودَ ربك إلا هو ^(١) » .

فلما دخل بى قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : محمد . قال : أو قد بُعث ؟
قال : نعم ، فدعا [لى ^(٢)] بخير وقاله .

قال : وحدثني بعض أهل العلم عن حدثه عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، قال : ثم تَلَقَّنى الملائكة حين دخلت السماء الدنيا ، فلم يَلَقَّنى
ملك إلا ضاحكاً مستبشراً ، يقول خيراً ويدعوه ، حتى لَقَّنى ملكٌ من
الملائكة فقال مثل ما قالوا ودعا بمثل ما دعوا به ، إلا أنه لم يضحك ، ولم

(١) سورة المدثر ٣١ .

(٢) من ابن هشام .

أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره ، فقلت لجبريل : من هذا الملك الذى قال لى مثل ما قالت الملائكة ولم يضحك ولم أر منه من البشر مثل الذى رأيت منهم . فقال جبريل : أما إنه لو كان ضحك إلى أحد قبلك أو كان ضاحكا إلى أحد بعدك لضحك إليك ، ولكنه لا يضحك ، هذا ملك صاحب النار .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت لجبريل ، وهو من الله بالمكان الذى وصف لك « مطّاع ثم أمين » ألا تأمره أن يرينى النار ؟ فقال بلى ، يا مالك أرى محمداً النار ، فكشف عنها غطاءها فقارت حتى ظننت لتأخذنى ما أرى . فقلت لجبريل : مره فليردها إلى مكانها . فأمره ، فقال لها : اخبى فرجعت إلى مكانها الذى خرجت منه ، فما شئت رجوعها إلا وقوع الظل ، حتى إذا دخلت من حيث خرجت ردّ عليها غطاءها .

قال أبو سعيد الخدرى فى حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلاً جالساً تعرض عليه أرواح بنى آدم ، فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيراً ويُسّرّ به ، ويقول : روح طيبة خرجت من جسد طيب ، ويقول لبعضها إذا عرضت عليه أفت ، ويعبس بوجهه ، روح خبيثة خرجت من جسد خبيث .

قال : قلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك آدم تعرض عليه أرواح ذريته ، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سُرّ بها وإذا مرت به روح الكافر منهم أنف منها وكرها .

قال : ثم رأيت رجلاً لهم مشافر كشافر الإبل ، فى أيديهم قطع من نار كالأنهار^(١) يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدهام ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً .

(١) الأنهار : جمع نهر وهو الحجر الصغير قدر ما يملأ الكف .

ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط ، بسبيل آل فرعون ، يمرون عليهم كالإبل المهيومة ^(١) حين ^(٢) يُعْرَضُونَ على النار ، يطأونهم لا يقدرُونَ على أن يتحولوا من مكانهم ذلك . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا .

ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن ، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحلَّ الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن .

ثم رأيت نساء معلقات بِثُدْيَتِهِنَّ ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من إيس من أولادهم .

قال : ثم صعد بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا .

قال : ثم أصعد ^(٣) بي إلى السماء الثالثة فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر ، قلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب ثم أصعد بي إلى السماء الرابعة ، فإذا فيها رجل ، فسألته من هو ؟ فقال : هذا إدريس . قال : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ورفَعناه مكانا عَليَّا » .

قال : ثم أصعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهمل أبيض الرأس والاحية عظيم العُشَنُونَ ^(٤) لم أرَ كهملًا أَجَل منه . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الخُجَّاب في قومه : هرون بن عمران .

(١) أي الطاش .

(٢) ط : حتى .

(٣) ابن هشام : أصعدني .

(٤) العُشَنُونَ : اللحية .

قال : ثم أوصعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها رجل آدمٌ طويلٌ أقفى كأنه من رجال شئونة فقلت : من هذا يا جبريل ؟ قال هذا أخوك موسى بن عمران . ثم أوصعد بي إلى السماء السابعة فإذا كهل جالس على كرسي إلى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة ، لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

ثم دخل بي الجنة فرأيت فيها جارية لعشاء^(١) فسألتها لمن أنت ؟ وقد أجهتني حين رأيته ، فقالت : يزيد بن حارثة . فبشّر بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زيداً^(٢) .

ومن حديث عبد الله بن مسعود أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن في دخولها : من هذا يا جبريل ؟ فيقول : محمد . فيقولون أو قد بُعث ؟ فيقول : نعم . فيقولون حيّاه الله من أخ وصاحب . حتى انتهى به إلى السماء السابعة ، ، ثم انتهى به إلى ربه^(٣) ، ففرض عليه خمسين صلاة كل يوم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأقبلت راجعاً فلما مررت بموسى بن عمران ، ونعمّ الصاحبُ كان لكم ، سألتني : كم فرض عليك من الصلاة ؟ فقلت خمسين صلاة في كل يوم . قال : إن الصلاة ثقيلة وإن أمتك ضعيفة ، فارجع إلى ربك فسأله أن يخفف عنك وعن أمتك . فرجعت فسألت ربّي فوضع عني عشراً ، ثم انصرفت فررت على موسى فقال لي مثل ذلك ، فرجعت

(١) اللس : حرة في الشفاء تضرب إلى السواد .

(٢) ابن هشام : زيد بن حارثة .

(٣) يحسن هنا الفهم المجازي بما يتفق مع العقيدة الإسلامية في البعد عن التجسيم والتشبيه .

فسألت ربي فوضع عني عشراً ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك كلما رجعت إليه ، فأرجع فأسأل حتى انتهيت إلى أن وضع عني ذلك إلا خمس صلوات في كل يوم وليلة .

ثم رجعت على ^(١) موسى فقال لي مثل ذلك ، فقلت : راجعتُ ربي وسألتُه حتى استجيبَ مِنهُ ، فما أنا بفاعل .
فن أذاهن منكم إيماناً واحتساباً لمن كان له أجر خمسين صلاة .

[عاقبة المستهزئين]

قال ابن إسحق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله صابراً محتسباً مؤدياً إلى قومه النصيحة ، على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء ، وكان عظماء المستهزئين خمسة نفر من قومه ، وكانوا ذوى أسنان وشرَف في قومهم : الأسود بن المطلب الأسدي ، أبو زمعة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني قد دعا عليه إيماناً كان يبلغه من أذاه واستهزائه به فقال : اللهم أعم بصره وأثكِّلْه ولده .

والأسود بن عبد يغوث الزهري والوليد بن المغيرة الخزومي ، والماص ابن وائل السهمي ، والحارث بن الطلائعة الخزاعي .

فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله عليه : « فاصدَعْ بما تَوَمَّرُ وأعرضْ عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون » ^(٢)

فأتى جبريلُ عليه السلام رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جفبه ، فقرأ به الأسود

(١) ابن هشام : إلى .

(٢) سورة الحجر ٩٤ — ٩٦ .

ابن المطلب فرمى^(١) في وجهه بورقة خضراء فعمى ، وسيأتى بعد أنه أصيب له يوم بدر ثلاثة من ولده ، ابناء زمعة وعقيل وابن ابنه الحارث بن زمعة ، فاستوفى الله سبحانه بذلك فيه لرسوله صلى الله عليه وسلم لإجابة لدعوته عليه بالعمى والشكل .

ثم مر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حباً^(٢) .

وعن غير ابن إسحق أنه لما نزل : « إنا كفيناك المستهزئين » نزل جبريل عليه السلام فحنا ظهر الأسود بن عبد يغوث الزهري ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خالي خالي فقال له جبريل : خله عفاك ، ثم حناه حتى قتله .

قال ابن إسحق : ومرو به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرحه بأسفل كعب رجله أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر سبيله^(٣) ، فانتفض به فقتله .

ومرو به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف فربص به على شبارقة^(٤) فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته .

ومر به الحارث بن الطلائع فأشار إلى رأسه فامتخص قيحاً فقتله .

قال : وكان نفر الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته أبو لهب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدي بن حمران الثقفي وابن الأصداء الهذلي ، وكانوا جيرانه لم يسلم أحد منهم إلا الحكم .

(١) أي جبريل .

(٢) الحين معركة : انتفاخ البطن من داء .

(٣) سبله : فضول ثيابه .

(٤) الأصل : شبرقة . وما ذكرته عن ابن هشام . والشبارقة : شجرة عالية .

فكان أحدهم فيما ذكر لي يطرح عليه رَحِمَ الشاة وهو يصلي ، وكان أحدهم يطرحها في بُرْمَتِهِ^(١) إذا نصبت له حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حِجْرًا^(٢) يستتر به منهم إذا صلى .

فكان صلى الله عليه وسلم إذا طرخوا عليه ذلك الأذى يخرج به هلى القود فيقف به هلى بابه ثم يقول : يا بنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ ثم يلقيه فى الطريق .

[وفاة خديجة وأبى طالب]

قال ابن إسحق : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد^(٣) ، فتتأملت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام^(٤) ، يسكن إليها ، وبهملك أبى طالب عمه ، وكان له عَضُدًا وحِرْزًا فى أمره ومَنَعَةً وناصرًا على قومه ، وذلك قبل مُهاجره إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع فيه^(٥) فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفهاء من سفهاء قريش فذتر على رأسه ترابًا ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى

(١) البرمة : قدر من حجر .

(٢) أى حائطًا .

(٣) كان الأسب ، أن يذكر وفاة أبى طالب وخديجة قبل الإسراء . كما ذكره البيهقى وغير واحد . وقد روى عن عروة أن خديجة توفيت قبل أن تفرض الصلاة ، كما روى عن الزهرى أنه قال : توفيت خديجة بمكة قبل خروج رسول الله (س) إلى المدينة وقبل أن تفرض الصلاة . قال البيهقى : وزعم الواقدي أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين عام خرجوا من الشعب ، وأن خديجة توفيت قبل أبى طالب بخمسة وثلاثين ليلة .

(٤) البداية والنهاية : الابتلاء .

(٥) ابن هشام : تطمع به .

تبسكى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لا تبسكى يا بنية فإن الله مانع أباك . ويقول بين ذلك : ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب .

قال : ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله قال^(١) بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا فإننا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا .

فمشوا إلى أبي طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه ، عقبه وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب في رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب إنك مما حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه وخذ له مما وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه وليدعنا وديننا وندعه ودينه .

فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال : يا بن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا بك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم . فقال أبو جهل : نعم وأبيك ، عشرين كلمات ، قال : تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه .

قال : فصنفوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لمعجب .
ثم قال بعضهم لبعض : والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً مما تريدون ،

(١) ابن هشام : قالت قريش بعضها لبعض .

فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم ويدينه . ثم تفرقوا .
فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا بن أخي ما رأيته .
سألتهم شططاً . فلما قالوا طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فجعل يقول
له : أى عم ، فأنت فقلتها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة . فلما رأى
حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه قال : يا بن أخي والله لولا مخافة
الشبهة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى وأن تظن قريش أنى إنما قتلها جزعاً
من الموت أقتلها ، لا أقولها إلا لأسررك بها .

فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفّتيه فأصغى إليه
بأذنيه ، فقال : يا بن أخي والله لقد قال أخى السكامة التى أمرته أن يقولها .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أسمع .

وخرج مسلم بن الحجاج فى صحيحه من حديث المسيب بن حزن قال :
لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد
عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ياعم قل : لا إله إلا الله ، كذا أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل
وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ .

فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة
حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول
لا إله إلا الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه
عنك . فأنزل الله عز وجل : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا
للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم »^(١)

وأنزل في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين ^(١) » .

وفي الصحيح أيضاً أن العباس قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبا طالب كان يحوطك ويُنصرك ويغضب لك ، فهل يدفعه ذلك ؟ قال : نعم ، وجدته في غمرات من الدار فأخرجته إلى ضحضاح .

وفيه أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عنه أبو طالب ، فقال : لعله تدفعه شفاعتي يوم القيامة فيُجمل في ضحضاح من الدار يبلغ كعبه يغلى منه دماغه .

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أهون أهل الدار عذاباً أبو طالب ، وهو مُنتعل بفعلين يغلى منهما دماغه »

ويروى أن أبا طالب لما حضرته الوفاة جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : يا معشر قريش ، أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع وفيكم المقدم الشجاع والواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا احتزموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية فإن فيها مرضاة للرب وقواماً للعاش وثباتاً للوطاة ، صابوا أرحامكم ولا تقطعوها فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل وزيادة في العدد ، واتركوا البنى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجبوا الداعي وأعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والمات ، عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، فإن فيها محبة في الخاص ومكرمة في العام ^(٢) ، وإنى أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) تظهر على الخطبة أثر الصنعة في هذه الألفاظ .

وَالصِّدِّيقُ فِي الْعَرَبِ ، وَهُوَ الْجَامِعُ لِكُلِّ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ ، وَقَدْ جَاءَ بِأَمْرِ
قَبْلِهِ الْجَنَانُ وَأَنْكَرَهُ اللِّسَانُ خِيفَةَ الشَّيْءِ ، وَأَيُّمَ اللَّهِ لَكُنِّي أَنْظُرَ إِلَى
صِعَالِيكَ الْعَرَبِ وَأَهْلِ الْبَرِّ فِي الْأَطْرَافِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ النَّاسِ قَدْ أَجَابُوا
دَعْوَتَهُ وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ وَعَظَّمُوا أَمْرَهُ ، نَفَاضَ بِهِمْ غِمَرَاتِ الْمَوْتِ فَصَارَتْ
رُؤْسَاءَ قَرِيشٍ وَصَنَادِيدَهَا أَذْنَابًا وَدَوْرَهَا خِرَابًا وَضَعْفَاؤَهَا أَرْبَابًا وَإِذَا أَعْظَمْتُهُمْ
عَلَيْهِ أَحْوَجُهُمْ إِلَيْهِ ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنْهُ أَخْطَأُهُمْ عِنْدَهُ ، قَدْ مَحَضَّتْهُ الْعَرَبُ
وِدَادَهَا وَأَعْطَتْهُ قِيَادَهَا ، دُونَكُمْ يَا مَعْشَرَ قَرِيشِ ابْنِ أَبِيكُمْ ، كُونُوا لَهُ وَلَاةَ
وَلِحْزَبِهِ حِمَاةَ ، وَاللَّهُ لَا يَسْلُكُ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَبِيلَهُ إِلَّا رَشْدَ ، وَلَا يَأْخُذُ أَحَدٌ
بِهَدْيِهِ إِلَّا سَعَادَ ، وَلَوْ كَانَ لِنَفْسِي مَدَّةٌ وَلَأَجَلٌ تَأْخِيرُ لَكُنْفَتِ عَنْهُ الْمَزَاهِرُ^(١)
وَلَدَافَتِ عَنْهُ الدَّوَاهِي .

(١) الْمَزَاهِرُ : الْحُرُوبُ وَالشَّدَائِدُ .

ذكر خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف

بعد مهلك عمه أبي طالب

قال ابن إسحاق : ولما هلك أبو طالب ونالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم تسكن تنال منه في حياته ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وحده يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله .

فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم ، وهم إخوة ثلاثة ، عابد يا ليل ومسعود وحبيب ، بنو عمرو بن عمير بن عُدَّة بن غَيْرَة بن عوف بن ثقيف ، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُحَج .

فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام على من خالفه من قومه .

فقال له أحدهم : هو يَمْرُط ^(١) ثياب السكبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وجد أحدا يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ! لأن كنت رسولا من الله كما تقول لأنك أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، وإن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم : فيما ذكر لي ، إذا فعلتم ما فعلتم فاكموا علي . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه فيذئروهم ^(٢) ذلك عليه .

(١) أي ينزعها ويرى بها .

(٢) يذئروهم : يجرئهم .

فلم يفعلوا ، أغرّوا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس .

قال موسى بن عقبة : وقعدوا له صفين على طريقه ، فلما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين صفّينهم جمل لا يرفع رجله ولا يضمهما إلا رضخوها بالحجارة ، حتى أدمّوا رجله .

وزاد سليمان التيمي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بمعضديه فيقيّمونه ، فإذا مشى رجوه وهم يضحكون !
قال ابن عقبة : فخلص منهم ورجلاه تسيلان دما فعمد إلى حائط من حوائطهم فاستظلّ في ظل حبلّة^(١) منه وهو مكروب مُوجع ، وإذا في الحائط عتّبة وشيّبة ابنا ربيعة ، فلما رأها كره مكانهما لما يعلم من عدائهما لله ورسوله .

وذكر ابن إسحاق أن الحائط كان لهما وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اطمأن ، يعني في ظلّ الحبلّة قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوّتي ، وقِلّة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربّي ، إلى منّ تكلّني إلى بعيدٍ يتجهّمني ، أم إلى عدوٍّ ملّكته أمرى ، إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي ولكنّ عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العتبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

قال : فلما رآه ابنا ربيعة ، تحركت له رجليهما ، فدعّوا غلاماً نصرانياً يقال له : عدّاس فقالا له : خذ قطناً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ،

(١) الحبلّة : شجرة العنب .

ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يا كل منه . ففعل عدّاسٌ ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : بسم الله ثم أكل ، فنظر عدّاسٌ في وجهه ثم قال له : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أى البلاد أنت يا عدّاس وما دينك ؟ قال : نصراني وأنا من أهل نينوى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى كان نبياً وأنا نبيٌ . فأكبّ عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه . فلما جاءهما عداس قال له : ويلك ، مالك تقبل رأسى هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدي ما فى الأرض شيء خيرٌ من هذا لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبيٌ . قالوا : ويحك يا عدّاس لا بصرفتك عن دينك فإن دينك خيرٌ من دينه .

وقد خرج البخارى ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : هل أنى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟

فقال : لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد باليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردتُ ، فانطلقت على وجهى وأنا مهموم ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأس فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلمتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فنادانى وقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

فنادانى ملك الجبال فسلم على فقال : يا محمد ذلك لك ، فما شئت ؟ إن شئت

أن أطبق عليهم الأخشابين^(١) . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً .

وذكر ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عن أهل الطائف ، ولم يجبهوه إلى مادعاهم إليه من تصديقه وأُصْرته ، سار حتى أتى مكة ثم بعث إلى الأخنس بن سُرَيْق يُجِيره ، فقال له : أنا حليفٌ والحليف لا يُجِير . فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال : إن بني عامرٍ لا تجيرُ على بني كعبٍ . فبعث إلى المطعم بن عدي فأجابه إلى ذلك ، ثم تسأَح المطعم وأهل بيته ، وخرجوا حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ادخل . فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبَيْت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله^(٢) . ولأجل هذه السابقة التي سبقت للمطعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدرٍ : لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء الننتي ، لتركتهن له .

* * *

وفي انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم لكفرهم ، راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف مرَّ به الذفر من الجن الذين ذكر الله تعالى في كتابه ورسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة قد قام من جوف الليل يصلي ، فرأى أولئك الذفر من الجن فيما ذكر ابن إسحاق قال : وهم فيما ذكر لي سبعة نفر من جن أهل نصيبين ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته وأوا إلى قومهم مفزرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا فقصَّ الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم قال عز من قائل :

(١) الأخشبان : جبلان حول مكة .

(٢) ليس في سيرة ابن هشام التي بين أيدينا ذكر لخبر هذا الجوار . . . وامله سقط منها .

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ^(١) » .

ذِكْرُ عَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

نفسه على قبائل العرب

قال ابن إسحاق : ثم قَدِمَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مكةَ وقومه أشدَّ ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلاً مستضعفين من آمن به .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه في المواسم إذا كانت على قبائل العرب ، يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبيُّ مُرْسَلٌ ، ويسألهم أن يُصدِّقوه ويمدعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به ^(١) .

قال ربيعة بن عباد الدؤلي : إني لَعَلَّامٌ شاب مع أبي بَيْتَى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بني فلان إني رسول الله إليكم بأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدِّقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به ، وخَلَقَهُ رجلٌ أَحْوَلُ وضىء له غديرتان ، عليه حُلَّةٌ عَدَنِيَّةٌ ، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ، وما دعا إليه قال ذلك الرجل : يا بني فلان إن هذا يدعوكم إلى أن تَسْلُخُوا اللات والعزى من أعناقكم ، وخُلُفَاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

قال ربيعة : فقلت لأبي : من هذا الرجل الذي يتبعه ويردُّ عليه ما قال ؟ قال : هذا عمُّ عبد العزى بن عبد المطلب ، أبو لهب .

وعن غير ربيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى كِنْدَةَ في منازلهم ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فأبوا عليه ، وأتى كَلْبًا في منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه

(١) في سيرة ابن هشام : حق يبين لهم الله ما بعثه به . وهي مضطربة ، وما هنا مستقيم .

حتى إنه ليقول لهم : يا بنى عبد الله : إن الله عز وجل قد أحسن اسم أيكم .
خلم يقبلوا منه ما عرض عليهم . وعرض نفسه على بنى حنيفة فلم يك أحد
من العرب أقبح رداً عليه منهم .

وذكر الواقدي بإسناد له عن عامر بن سلمة الحنفي ، وكان قد أسلم في آخر
مُحمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : نسأل الله عز وجل أن لا يُخزى
الجنة ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءنا ثلاثة أعوام بعكاز
وبمجنّة وبذى المجاز يدعونا إلى الله عز وجل وأن نمنع له ظهره حتى يبلغ
رسالات ربه ، ويشترط لنا الجنة ، فما استجبنا له ولا ردّدنا جيلًا ، لقد
أخشدنا عليه وحلم عنا .

قال عامر : فرجعت إلى حَجْرٍ^(١) في أول عام فقال لى هوذة بن على : هل
فى موسمكم هذا خبرٌ ؟ فقلت : رجل من قريش يطوف على القبائل ، يدعوهم
إلى الله وحده ، وإلى أن يمنعوا ظهره حتى يبلغ رسالته ربه ولهم الجنة . فقال
هوذة : من أى قريش ؟ قلت : هو من أوسطهم نسباً من بنى عبد المطلب .
قال هوذة : أهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ قلت : هو هو .
قال : أمان أمره سيظهر على ماها هنا ، فقلت : ها هنا قط من بين البلدان ؟
قال : وغير ماها هنا .

ثم وافيتُ السنة الثانية فقدمتُ حَجْرًا ، فقال : ما فعل الرجل ؟
فقلت : رأيته على حاله فى الامام الماضى . قال : ثم وافيت فى السنة الثالثة وهى
آخر ما رأيته ، وإذا بأمره قد أُمِر ، وإذا ذكره كثير فى الناس ، وأسمع
أن الخزرج تبعته ، فقدمت حَجْرًا ، فقال لى هوذة : ما فعل الرجل ؟ فقلت :
رأيت أمره قد أُمِر ورأيت قومه عليه أشدّاء . فقال هوذة : هو الذى
قلت لك ، ولو أناتبناه كان خيرًا لنا ، ولكفنا نَصْنُ بملسكنا . وكان قومه
قد توجّوه وملكوه .

.. (١) حجر : موضع فى ديار بنى حنيفة .

قال عامر : فرَّ بي سَلِيط بن عمرو العامري ، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هُوذة ، فضيَّفته وأكرمته وأخبرني من خبر هُوذة ، أنه لم يسلم ، وقد ردَّ ردًّا دون ردِّ . قال : فأخبرت سَلِيطًا خبري لهُوذة ، فأخبره سَلِيطُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأسلمَ عامرُ بن سلمة ، ومات هُوذة . ابن على سنة ثمان من الهجرة كافرًا على نصرانيته .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبس إلى الإسلام فلم يقبلوا . قال أبو وابصة العبسي فيما ذكر الواقدي : جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا بنى ، فدعانا إلى الله ، فوالله ما استجبنا له ، وما خِبرَ لنا ، وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسي فقال لنا : أحلف بالله لو صدقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحلَّ به وسط رحالنا لكان الرأي . فقال له القوم : من بين العرب نفعل هذا ؟ قال : نعم من بين العرب ، فأحلف بالله ليظهرن أمره ، حتى يبلغ كلَّ مَبْلَغ . فقال له القوم : دعنا منك لا تتردنا لما لا قبل لنا به . وطمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في ميسرة ، فكلَّمه ، فقال . ميسرة : ما أحسن كلامك وأنوره ، ولكن قومي يخالفونني ، وإنما الرجل بقومه . فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج القوم مغادرين إلى أهلهم ، فقال ميسرة ميلوا بنا إلى فذك فإن بها يهود ، نسألكم عن هذا الرجل . فمالوا على يهود ، فأخرجوا سيفراً لهم فوضموه ، ثم درسوا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، الأحمى العربى يركب الحمار ويحتزى بالكسرة ، وليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بالجعد ولا بالسَّهْبُ ، في عينيه سحرة مشربُّ اللون . قالوا : فإن كان هذا الذى دعاكم فأجيبوه ، وادخلوا في دينه ، فإننا نحسده ولا نتبعه وإنما منه في مواطنَ بلايا عظيم ، ولا يبقى في العرب أحدٌ إلا اتبعه أو قتله ، فكونوا بمن يتبعه . قال ميسرة : يا قوم والله ما بقى شيء إلا أن هذا لأمرٌ بين . قال القوم : نرجع إلى الموسم ونلقاه ، ورجع القوم .

إلى بلادهم ، فأبى ذلك عليهم رجالهم ، فلم يذهبوا أحدٌ منهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً وحجَّ حجة الوداع لقيه ميسرة ، فعرفه فقال : يا رسول الله والله ما زلتُ حريصاً على اتباعك منذ يوم رأيتك أنخنتَ بنا حتى كان ما كان ، وأبى الله عز وجل إلا ما ترى من تأخر إسلامي ، وقد مات عامةُ التفر الذين كانوا معي ، فأبى مدخلهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات على غير الإسلام فهو في النار . فقال ميسرة : الحمد لله الذي تنقذني . فأسلم ، فحسن إسلامه ، وكان له عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه مكان .

وعن ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم يقال له بَيْشَجْرَة : ابن فِرَاس : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب ، ثم قال له : أرايت إن تابعتك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيسكون لنا الأمر من بعدك ؟

قال : الأمر إلى الله بضعه حيث يشاء .

قال : أفتَهْدِفُ^(١) نحوَرنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا إلا حاجة لنا بأمرك .

فلما صدر الناسُ رجعت بدو عامر إلى شَيْخ لهم أدركته السنُّ حتى لا يقدر أن يوافي معهم موسمهم ، فسكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم ، فقالوا جاءنا فتى من قريش ثم أحدُ بني عبد المطلب يزعم أنه نبي ، يدعوننا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

(١) ابن هشام : أفتَهْدِفُ .

فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ، هل لذا من تلافٍ ،
هل لذنابها^(١) من مَطْلَب ؟ والذي نفس فلان بيده ما تقو لها إسماعيلُ قط
وإنها لحق ، فأين رأسكم^(٢) كان عنكم ؟ !

وزاد الواقدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قام عن بني عامر
وانصرف إلى راحلته ليركبها أتاه بَيْتَحْرَة ، ونسبه الواقدي : بَيْتَحْرَة بن عبد الله
ابن سلمة ، ورجلان معه فمخَّسوا به راحلته حتى سقط عنها ، ويقال قطعوا
بطانَ راحلته .

قال : فقامت امرأة منهم يقال لها ضُبَاعَة بنت قُرْط ، وكانت قد أسلمت
وكانت تحت عبد الله بن جُدْعان ، فسكرهته ففارقها وخلف عليها بدمه
هشامُ بن المغيرة وهي أم ابنه سلمة ، وصاحت : يا بني عامر أيؤذى محمدٌ
وأنا شاهدة ؟ ! فقام إليهم غطيف وغطفان ابدا سهيل وعُدْرَة بن عبد الله بن
سلمة بن قُشَيْر ، فضربوه حتى هزموهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين صنعوا ما صنعوا : اللهم بارك على هؤلاء ، والعن هؤلاء الآخرين . فأسلم
الذين بارك عليهم جميعاً ومات الذين آمنَ وهم كفار .

وذكر الواقدي أيضاً من حديث جَهَنم بن أبي جَهَنم أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقف على بني عامر يدعوهم إلى الله فقام رجل منهم فقال له : هجبا لك
والله ، أعيالك قومك ثم أعيالك أحياء العرب كلها ، حتى تأتيننا وتردد علينا مرة
بعد مرة ! والله لأجعلنك حديثنا لأهل الموسم .

ونهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان جالسا فسكر الله عز وجل
ساقه ، فجعل يصيح من رجليه ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه .

(١) مثل يضرب للفوت .

(٢) ابن هشام : فأين رأيكم .

قال الواقدي بإسناد ذكره : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم غساناً في منازلهم بمسكاظ ، وهم جماعة كثيرة ، فحاس إليهم فدعاهم إلى الله تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

قال : وأن تمنعوا إلى ظهري حتى أبلغ رسالات ربي ولكم الجفة . فقال رجل منهم : هذا والله يا قوم الذي تذكر الفصاري في كتبها والذي يقولون : بقي من الأنبياء نبي اسمه أحمد ، فعملوا نؤمن به ونتبعه فنسكون من أنصاره وأوليائه ، فإنهم يزعمون أنه يظهر على ما بلغ الخلف والحافر ، فيجتمع لنا شرف الدنيا مع ما يكون بعد الموت .

قال القوم : فنسكون نحن أول العرب دخل في هذا الأمر فتتصيب لنا العرب قاطبة ويبلغ ملوك بني الأصفر فيخرجوننا من ديارهم ، ولكفنا نفق عنه وننظر ما تصنع العرب ، ثم ندخل فيما يدخل فيه الناس . قال الرجل : يا محمد تأبى عشيرتي أن يتبعوا قولي فيك ، ولو أطاعوني رشدوا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذه القلوب بيد الله عز وجل . فانصرف عنهم ثم عاد بعد ذلك إليهم فدعاهم إلى الإسلام فقالوا : نرجع إلى من وراءنا ثم نلقاك قابلاً .

فرجعوا فوفد منهم نفر إلى الحارث بن أبي شمر ، فذكروا له أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال الحارث : إياكم أن يتبعه رجل منكم ، إذا يبيد ملكي من الشام ويتمني هرقل .

قال : فأمسكوا عن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني محارب بن خصفة بمسكاظ فوجدتهم في محالهم فيهم شيخ منهم وهو جالس في أصحابه ، فنزل رسول الله

صلى الله عليه وسلم عن راحلته ودعا إلى الله وطلب المذمة حتى يبلغ رسالات ربه ، فردّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبح الرد وقال له : عجبا لك ! يا أبى قومك أن يتبعوك ، وتأتى إلى محارب تدعوهم إلى ترك ما كان عليه آباؤهم ! اذهب فإنه غير مُتّبعك رجل من محارب آخر الدهر .

وَيُقْبَلُ إِلَيْهِ سَفِيهِ مِنْهُمْ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ مَا فِي بَطْنِ نَاقَتِي هَذِهِ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا ؟ فَلَمَرَى إِنَّكَ لَتَدْعَى مِنَ الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُكَ عَنْهُ ، تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يُوْحَى إِلَيْكَ وَيَكَلِّمُكَ .

فَأَسْكَتْ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ سَلَمَةُ بْنُ قَيْسٍ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا قَرِيبًا مِنْ مَنْزِلِهِمْ ، فَأَرَادَ أَنْ يَطْرَحَهُ فِي الْبُئْرِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنَحَّى عَنِ الْبُئْرِ ، فَجَعَلَ سَلَمَةُ يَقُولُ : لَوْ وَقَعْتَ فِي الْبُئْرِ اسْتَرَحَ مِنْكَ أَهْلُ الْمَوْسِمِ .

وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِزِمَامِ رَاحِلَتِهِ يَقُودُهَا وَهُمْ بِرَمُونِهَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى تَوَارَى عَنْهُمْ وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ لَوْ شِئْتَ لَمْ يَكُونُوا هَكَذَا ، وَإِنْ قُلُوبُهُمْ بِيَدِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ هَذَا عَنْ سَخَطٍ بِكَ عَلَيَّ فَلَكَ الْعُقْبَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ .

وَذَكَرَ قَاسِمُ بْنُ ثَابِتٍ بْنُ حَزْمٍ الْعَوْفِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَمْرُضَ نَفْسَهُ عَلَى قِبَائِلِ الْعَرَبِ خَرَجَ وَأَنَا مَعَهُ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ؛ حَتَّى دَفَعْنَا إِلَى مَجْلِسٍ مِنَ مَجَالِسِ الْعَرَبِ فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَسَلَّمَ وَكَانَ رَجُلًا نَسَابَةً وَمَقْدَمًا فِي كُلِّ خَيْرٍ ، فَقَالَ : يَمُنُّ الْقَوْمُ ؟ قَالُوا : مِنْ رِبِيعَةٍ . قَالَ :

هو من أى ربيعة؟ أم من هاشمها أم من أهازمها^(١)؟ قالوا: بل من هاشمها العظمى، قال: وأى هاشمها العظمى أتم؟ قالوا: ذهل الأ كبر.

فذكر الحديث فى مُناسبة أبى بكر إياهم ومُقاولة لهم، وانبراء دغفل ابن حنظلة النسابة إليه من بينهم وهو يومئذ غلام حين بقل^(٢) وجهه، وموافقة لأبى بكر، حتى اجتذب أبو بكر زمام الداقة ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث مشهور تركته لشهرته، مع أن المقصود فيها بعده.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: ثم دَفَعْنَا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم وكان مقدماً فى كل خير، فقال: من القوم؟ قالوا: من شديان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: بأبى أنت وأمى هؤلاء غُرَرٌ فى قومهم. وفيهم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة والثئنى بن حارثة والقعمان بن شريك، وكان مفروق ابن عمرو قد غلبهم جالا ولساناً، وكانت له غديرتان تسقطان على تربتيه^(٣) وكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر.

فقال له أبو بكر: كيف العمد فيكم؟ قال له مفروق: إنا لنزيد على ألف ولن تغلب ألف من قلة. فقال أبو بكر: فكيف المنعة فيكم؟ قال: علينا الجهد ولكل قوم جد^(٤)، قال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلتقى، وإنا لأشد

(١) الهازم: جميع لهزمة بكسر اللام والزاي، وهى عظم ناتيء والحي تحت الأذن
هو ما لهزمتان والمراد: الأطراف.
(٢) بقل: خرج شعره.
(٣) النزائب: عظام الصدر.
(٤) الجد: الحظ:

مانكون لقاء حين نفضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على اللقاح
فالنصر من عند الله ، يُدِلُّنا مسرةً ويدلُّ علينا ، لعلك أخو قريش ؟

فقال أبو بكر : أو قد بلغكم أنه رسول الله ؟ فهاهوذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، فإلام تدعوا يا أخا قريش ؟

فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسولُ الله ، وإلى أن تُثبوني وتصورني ،
فإن قريشاً قد ظاهرتُ على أمر الله وكذّبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن
الحق ، والله هو الغنى الحميد .

فقال مفروق : وإلام تدعوا أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي
عليكم ، ألاَّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم مِنْ إِسْلَاقٍ
نحن نَرْزُقُكُمْ وإِيَّاهُمْ ولا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، ولا تَقْتُلُوا
الْأَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (١) .

فقال مفروق : وإلام تدعوا أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (٢) .

فقال مفروق : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن
الأعمال ، ولقد أفك قومٌ كذَّبوك وظاهروا عليك . وكأنه أراد أن يشركه في
الكلام هاني بن قبيصة .

(١) سورة الأنعام .

(٢) سورة النحل .

فقال : وهذا هاني* بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

فقال هاني* : قد سمعتُ مقاتلك يا أخا قريش ، وإني أرى أن ترزكنا ديننا واتباعنا إياك على دينك ، لمَجْلَسِ جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، زَلَّةٌ في الرأي وقلة نظر في العاقبة ، وإنما تكون الزَّلَّةُ مع العَجَلَةِ ، ومن ورائنا قومٌ نَكْرَهُ أن نَعْقُدَ عليهم عَقْدًا ، ولكن ترجع وترجع وتُنْظَرُ وتُنْظَرُ . وكأنه أَحَبُّ أن يَشْرَكَه في الكلام للمثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حَرْبِنا .

فقال المثنى* : قد سمعتُ مقاتلك يا أخا قريش ، والجوابُ هو جواب هاني* ابن قبيصة في ترك ديننا واتباعنا إياك لمَجْلَسِ جلست إلينا ليس له أول ولا آخر وإنما منزلنا بَيْنَ صَرِيي^(١) اليأمة والسجامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذان الصَّريان ؟ فقال : أنهارُ كسرى ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرى فذَنُوبُ صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول ، وأما ما كان من أنهار العرب فذَنُوبُ صاحبه مغفور وعذره مقبول ، وإنما نزلنا على عهدٍ أخذناه علينا كسرى ألا نُحَدِّثَ حَدَثًا ولا نُؤْوِي مُحَدِّثًا ، وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعوننا إليه هو مما تَكْرَهُه الملوك ، فإن أَحَبَّبتُ أن تؤوبك وننصرَكَ مما يَلِي مياه العرب فَعَلْنَا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق ، وإنَّ دينَ الله لن يقصره إلا مَنْ حاطه من جميع جوانبه ، أرايتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويُفَرِّشَكُم نساءهم أتَسْبِّحُونَ الله وتَقْدِّسُونَهُ ؟

فقال الزمان : اللهم لك ذا .

(١) المصري : الماء المجتمع . النهاية ٢ / ٢٨٥ .

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنا أرسلناك شاهداً ومُبَشِّراً
ونذيراً ، ودَاعِيًا إلى الله بإذنه وسِرَاجًا مُنِيرًا » .

ثم نهض النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي فقال : يا أبا بكر يا أبا حَسَن
أيةُ أخلاق في الجاهلية ما أشرفها ! بها يدفع الله بأسَ بعضهم عن بعض
وبها يتعاجزون فيما بينهم .

* * *

قال ابن إسحق : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره
كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ويعرض
عليهم نفسه وما جاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة ، ولا يسمع بقادم قدم^(١)
مكة [من العرب]^(٢) له اسم وشرف إلا تصدَّى له فدعاه إلى الله وعرض
عليه ما عنده .

وقدِم سُوَيْدُ بن صامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجًا أو مُعْتَمِرًا ،
فتصدَّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له
سُوَيْد : فلعن الذي معك مثل الذي معي .

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الذي معك ؟ قال : مجلَّة لقمان ،
يعنى حكمة لقمان .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها عليّ فعرضها عليه . فقال :
إن هذا الكلام حَسَن والذي معي أفضل من هذا ، قرآنٌ أنزله الله على
هو هدى ونور .

(١) ابن هشام : يقدم .

(٢) من ابن هشام .

فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يَبْعُدْ منه ، وقال : إن هذا القول حَسَنٌ .

ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج قَبْلَ بُعَاثٍ .

فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا انراهم قد قُتِلَ وهو مُسْلِمٌ .
وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل ، لجلده وشعره وشرفه ونسبه وهو القائل :

أَلَا رَبُّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى مَقَالَتَهُ بِالْغَيْبِ سَاءَ مَا يَنْقُرِي ^(١)
مَقَالَتُهُ كَالشَّهِيدِ مَا كَانَ شَاهِدًا وَبِالْغَيْبِ مَأْنُورٌ ^(٢) عَلَى نُفُورِ الدَّحْرِ
يَسْرُكُ بِأَدْيِهِ وَنَحْتُ أَدْيِمِهِ تَمِيمَةُ غِشٍّ تَبْتَرِي ^(٣) عَقَبَ الظَّهْرِ
تُبَيِّنُ لَكَ الْعَيْنَانِ مَا هُوَ كَاتِمٌ مِنْ الْغُلِّ وَالْبَهْضَاءِ بِالْفُظْرِ الشَّزْرِ
فَرِشْنِي بِخَيْرٍ طَالَ مَا قَدِ بَرَبْتَنِي وَخَيْرُ الْمَوَالِي مَنْ بَرِيشُ وَلَا يَبْرِي

* * *

ولما قَدِمَ أَبُو الْحَيْسَرِ أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ مَكَّةَ وَمَعَهُ فَتْيَةٌ مِنْ بَنِي عَهْدِ الْأَشْهَلِ فِيهِمْ إِبَاسُ بْنُ مَعَاذٍ يَلْتَمِسُونَ الْخِلْفَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى قَوْمِهِمْ مِنَ الْخَزْرَجِ ، سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ : هَلْ لَكُمْ فِي خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهْ ؟ فَقَالُوا لَهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : أَنَا رَسُولُ اللَّهِ بِعَثْنِي إِلَى الْعِبَادِ أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْهَدُوا لِلَّهِ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْزَلَ عَلَى السَّكَنَاءِ .
ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ .

(١) يَفْرِي : يَفْتَرِي .

(٢) الْمَأْنُورُ : السَّيْفُ الْمَوْشَى .

(٣) تَبْتَرِي : تَقْطَعُ .

فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حَدَّثَنَا : أَيْ قَوْم ، هذا والله خير لكم مما جئتم له .

فياخذ أبو الحَيْسَر حَفَمَةً من التَّبَعْلَاء فضرب بها وجه إياس وقال : دعنا منك ، فلمعمرى لقد جئنا لغير هذا .

فصمت إياس . وقام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرفوا إلى المدينة ، فكانت وقعة بعثت بين الأوس والخزرج .

ثم لم يلبث إياس أن هلك ، فَأَخْبَرَ مَنْ حَضَرَ مِنْ قَوْمِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ أَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا يَسْمَعُونَهُ يَهْتَلِ اللَّهُ وَيُسَكِّرُهُ وَيَحْمَدُهُ وَيُسَبِّحُهُ حَتَّى مَاتَ .

فما كانوا يشكُّون أن قد مات مسلماً ، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمع .

بَدَأَ إِسْلَامَ الْأَنْصَارِ

وَذَكَرَ الْعَقَبَةَ الْأُولَى

قال ابن إسحق : فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز موعوده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أين موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكتلكم ؟ قالوا : بلى .

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . وكان مما صنع الله به^(١) في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد عزوهم^(٢) ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظلل زمانه نذبه فقتل عادي وإرم .

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إياه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الأسلاء وقالوا له : إنا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا .

(١) ابن هشام : بهم .

(٢) ابن هشام : عزوهم . وعزوهم : غلبوهم

وهم فيما ذكر لي ، ستة نفر من الخزرج : منهم من بنى الفجار أسعد بن
زُرارة أبو أمامة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عَفراء . ومن بنى
زُرَيق رافع بن مالك بن العجلان ، ومن بنى سلمة قُطَبة بن عامر بن حديدة ،
وعُقَبة بن عامر بن نابي ، وجابر بن عبد الله بن رِثاب .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
ودعاهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم يَبْقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها
ذِكْرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فيهم من
الستة المسمّين قَبْلُ : أبو أمامة وعوف ورافع وقُطَبة وعُقَبة ، ومن غير الستة من
الخزرج أيضا : ذَكوان بن عبد قيس بن خَلْدَةَ الزُّرقي وعُبادة بن الصامت ،
وزيد بن ثعلبة من بنى غُصَيَّة من بَنِي حليف لهم ، والعباس بن عُبادة بن نَضَلَة
العَجَلاني ، ومعاذ بن الحارث بن رفاعة ، وهو ابن عَفراء ، ومن الأوس :
أبو الهيثم بن مالك بن العتيهان ، وعُوَيم بن ساعدة ، فلقوه بالعقبة ، وهي
العقبة الأولى .

قال عُبادة بن الصامت : كذبت ممن حضر العقبة الأولى ، وكذا اثني عشر
رجلا ، بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء^(١) وذلك قبل أن
تُفْرَضَ الحرب ، على ألا تشرك بالله شيئا ، ولا تسرق ولا تزني ولا تقتل
أولادنا ولا نأتي بهتاناً نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نمصيه في معروف .
قال : فإن وقَّيْتُمْ فلاكم الجنة ، وإن غَشِيْتُمْ من ذلك شيئا [فأصيبتُم بعدة

(١) هي البيعة المذكورة في القرآن في قوله تعالى : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات
يُبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرفن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين
بهتاناً يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يصينكن في معروف » .

في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة^(١) [فأمركم إلى الله ،
إن شاء عذب وإن شاء غفر .

قال ابن إسحق : فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
معههم مُصْعَبَ بن عُمَيْرَ بن هَاشِمَ بن عَبْدِ مَنَافِ بن عَبْدِ الدَّارِ بن قُصَيٍّ ، وأمره
أن يُقرئهم القرآنَ ويعلمهم الإسلامَ ويفقههم في الدين ، فسكان مصعب يسمي
المقرئ بالمدينة ، وكان منزله على أسعد بن زُرارة بن عدس أبي أمية ،
وكان يصلي بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤتمَّ بهم .

(١) ساءلت هذه الجملة من ابن هشام .

إسلام سعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْر على يدي

مُصَنَّب بن عمير رضى الله عنه

ذكر ابن إسحق عَمَّن سَمَّى من شيوخه أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دارَ بنى الأشهل ودار بنى ظَفَر ، فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظفر ، فجلسا فيه واجتمع إليهما رجال ممن أسلم .

فلما سمع بذلك سعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْر وها يؤمّئذ سيّدا قومهما بنى عبد الأشهل وكلاهما مشرك على دين قومه ، قال سعد لأسيّد: لا أبالك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارَنا ليسفها ضعفاءنا فازجراهما وانهمما عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة منى حيث علمت كفيّتك ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجِد عليه مقدّما .

فأخذ أسيّد حرّبتَه ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدّق الله فيه .

قال : فوقف عليهما مُتَشَتِّماً فقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ، اعتزلانا إن كانت لِسْكُما بأنفسكما حاجة .

فقال له مُصَنَّب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قَبِلْتَه وإن كرهتَه كُفَّ عنك ما تَكْرَه .

قال : أنصفتَ ثم رَكَزَ حرّبتَه وجلس إليهما ، فكلّمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر عنهما : أعرفنا في وجهه الإسلامَ قبل أن يتكلّم في إشرافه وتسلّله .

ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالوا له : تغتسل فتتطهّر وتطهّر ثوبيك ثم تتشهد الحق ثم تصلّي .

فقام فاغتسل وطهر توبيه ونشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين
ثم قال لهما : إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله
إليكما الآن ، سعد بن معاذ .

ثم انصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد
مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما وقف على الدادى قال له سعد : ما فعلت ؟ قال كلمت الرجلين فوالله
ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت . وقد حدثت
أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارمة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه
ابن خالتك ليخفروك .

فقام سعد مُنْضَبِهاً مبادراً متخوفاً للذي ذكر له من بنى حارثة ، فأخذ
الحربة من يده ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئاً .

ثم خرج إليهما فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد أن يسمع
منهما ، فوقف عليهما متشتماً ثم قال : يا أبا أمامة والله لولا ما بيني وبينك من
القرابة ما رُميت هذا منى ، أتغشانا في دارينا بما نكره !

وقد قال أسعد لمصعب بن عمير : أي مصعب ، جاءك والله سيد من
وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان .

فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته
وإن كرهته عزّلنا عنك ما تكره .

قال سعد : أنصت . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام
وقرأ عليه القرآن .

قالا : فعرّفنا والله في وجه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسئله ،
ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أتمت أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟

قالا : تغتسل فتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين .
فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق وركع ركعتين ، ثم أخذ
حربته فأقبل حامدا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن خضير ، فلما رآه قومه مقبلا
قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل كيف تعملون أمرى فيكم ؟
قالوا : سيدنا أفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة . قال : فإن كلام رجالكم ونساءكم
حرام على حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

قال : فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مُسَلِّما
أو مُسَلِّمة . ورجع مُصْطَب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس
إلى الإسلام ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ،
إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله ،
وهم من الأوس بن حارثة

وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأشلت وكان شاعرا لهم قائدا يسمعون
منه ويعطيونه ، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله
عليه وسلم ومضى بدر وأحد والخندق ، وقال فيما رأى من الإسلام وما اختاف
الناس فيه من أمره :

أرب الناس أشيالا أَلَمْتُ يَلُفُّ الصَّعْبُ مِنْهَا بِاللَّوْلِ
أرب الناس إِمَّا إِنْ ضَلَلْنَا^(١) فَيَسِّرْنَا لِمَعْرُوفِ السَّبِيلِ
فلولا ربُّنا كُنَّا يَهُودًا وما دِنُ الْيَهُودِ بَذَى سُكُولِ^(٢)

(١) ابن هشام : أما إذ ضللنا .

(٢) يعنى أنه لا نظير له من الحق ، والعكول جمع شكل وهو المثل والشبيه .

ولولا ربُّنا كنا نصارى مع الرهبان في جَبَل الجبل^(١)
ولكننا خَلَقْنَا إِذْ خُلِقْنَا حَنِيفًا دِينُنَا عَنْ كُلِّ جَيْلٍ
نَسُوقُ الْهَدَى تَرُسُفُ مُذْعَفَاتٍ مُسَكَّشَةً الْمَنَاكِبِ فِي الْجُلُولِ^(٢)

ذكر العقبة الثانية

قال ابن إسحق : ثم إن مُصْعَبَ بْنَ عُثَيْرٍ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ ، وَخَرَجَ مَنْ خَرَجَ
مِنَ الْأَنْصَارِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ حُجَّاجٍ قَوْمِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ حَتَّى قَدِمُوا مَكَّةَ ،
فَوَاعَدُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ،
حِينَ أَرَادَ اللَّهُ مَا أَرَادَ مِنْ كَرَامَتِهِ وَالنَّصْرَ لِنَبِيِّهِ وَإِعْزَازَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ
وإِذْلالَ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ .

حَدَّثَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ، وَكَانَ مِنْ شُهَدَاءِ الْعَقَبَةِ وَبَايَعَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : خَرَجْنَا فِي حُجَّاجٍ قَوْمَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ صَلَّيْنَا
وَقَفَّيْنَا ، وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ سَيِّدُنَا وَكَبِيرُنَا ، فَلَمَّا وَجَّهْنَا لِسْفَرِنَا وَخَرَجْنَا
مِنَ الْمَدِينَةِ قَالَ لَنَا الْبَرَاءُ : يَا هَؤُلَاءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا وَوَاللَّهِ مَا أَدْرَى
أَتَوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لَا . فَقُلْنَا : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ إِلَّا أَدَعَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ
مَنِّي بَظُهُرٍ ، يَعْنِي السَّكْمَةَ ، وَأَنْ أَصِلِّيَ إِلَيْهَا . فَقُلْنَا : وَاللَّهِ مَا بَلَّغْنَا أَنْ نَمِيدَ .
يَصِلُ إِلَّا إِلَى الشَّامِ ، وَمَا نَزِيدُ أَنْ نَخَالَفَهُ . فَقَالَ : إِنِّي أُمَصِّلُ إِلَيْهَا . فَقُلْنَا لَهُ :
لَسْنَا لَا نَفْعَلُ .

فَسَكْنَا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ وَصَلَّى إِلَى السَّكْمَةِ ، حَتَّى
قَدِمْنَا مَكَّةَ ، فَلَمَّا قَدِمْنَاهَا وَقَدْ كُنَّا عِثْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ ، قَالَ لِي : يَا بْنَ أَخِي انْطَلِقْ
بِدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَسْأَلَهُ عَمَّا صَنَعْتَ فِي سَفَرِي هَذَا

(١) قال السهيلي : الجليل بالميم التمام ، وهذا الجبل من جبال الشام معروف بهذا الاسم -

(٢) الجلول : جمع جل وهو ما تلبسه الدابة لتصان به .

فإنه والله لقد وقع في نفسى منه شيء لما رأيت من خلافتكم إياي فيه .
فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا لا نعرفه لم نره قبل ذلك ،
فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عنه فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا . فقال :
هل تعرفان العباسَ عمُّه ؟ قلنا : نعم . وقد كنا نعرف العباسَ كان لا يزال
يَقْدَم علينا تاجراً . قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس .

فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس
معه ، فسلمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس : هل
تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه
وهذا كعب بن مالك .

فوالله ! ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشاعر ؟ قال : نعم .
فقال له البراء بن معرور : يا نبي الله إني خرجت في سفرى هذا وقد هدانى
الله للإسلام ، فرأيت ألا أجعل هذه البيئَةَ منى بظَهْرٍ ، فصليت إليها ، وخالفني
أصحابي في ذلك ، حتى وقع في نفسى منه شيء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟
قال : قد كنت على قبلةٍ لو صيرتَ عليها .

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معنا إلى الشام .
قال : وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات ، وليس كما قالوا ،
نحن أعلم به منهم .

قال كعب : ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حَرَام ، أبو جابر ،
سيدنا من ساداتنا معنا وكنا نسكن منّا من المشركين أمرنا ،
فكلمناه وقلنا : يا أبا جابر إنك سيدنا من ساداتنا وشريف من أشرفنا ،

وإنا نَرْغَبُ بِكَ أَنْ تَكُونَ حَطْبًا لِلنَّارِ غدا . ثم دعونا إلى الإسلام وأخبرناه
بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا العَقَبَةَ ، فَأَسْلَمَ وشهد معنا وكان نقييا .
فمنما تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا
لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ننسلل تسلل القَطَا مُسْتَخْفَيْن ، حتى اجتمعنا
في الشَّعب عدد العَقَبَة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نساءنا ،
نُسَيْبَةُ بنت كعب أم عُمَارَة ، إحدى نساء بنى مازن بن النجار ، وأسماء بنت
عدي بن عمرو بن نابي ، أم مَفِيع ، إحدى نساء بنى سَلَمَة ، فاجتمعنا في الشَّعب
ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا معه عمه العباس وهو يومئذ
على دين قومه إلا أنه أحبُّ أن يحضر أمرَ ابن أخيه ويقوِّث له .

فلما جلس كان أول متكلم العباسُ فقال : يا معشر الخزرج - وكانت العرب
إنما يسمون هذا الحَيَّ من الأنصار الخزرج ، خَزْرَجُهَا وَأَوْسِيهَا - إن محمداً منا
حيث قد علمتم وقد منعناه من قومه ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزٍّ من
قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم ، فإن كنتم
ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحمّلتم
من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوهُ وخاذلوهُ بعد الخروج به إليكم
فإن الآن فدعوه ، فإنه في عزٍ ومنعة من قومه وبلده .

فقلنا له : قد سمعنا ما قلت . فتكلّم يا رسول الله نخذ لنفسك ولربك
ما أحببت .

فتكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلّا القرآن ودعا إلى الله ورغّب
في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما^(١) تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .
فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع

(١) ط : بما .

منه أُرِّفْنَا^(١) فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحَلَّة ورثناها كابراً عن كابر .

فاغترض القول ، والبراء يتكلم ، أبو الهيثم بن التَّيَّهَان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حباً لا ونحن قاطعوها ، بمعنى اليهود ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدمُّ والدمُّ والدمُّ الهذمُّ أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .
قال كعب : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً يكونون^(٢) على قومهم بما فيهم .

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، من الخزرج : أبوامامة أسعد بن زُرَّارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رَوَاحَة ، ورافع بن مالك بن العَجَلان ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن حَرَام ، وعُبَادَة ابن الصامت وسعد بن عبادَة بن دُلَيْم ، والمفذر بن عمرو . ومن الأوس : أُسَيْد ابن حُصَير ، وسعد بن خَيْشَمَة ورفاعة بن عهد المفذر .
قال ابن هشام : وأهل العلم يُعدُّون فيهم أبا الهيثم بن التَّيَّهَان ولا يمدون رفاعه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء : أنتم على قومكم بما فيهم كغفلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم ، وأنا كغفيل على قومي . قالوا : نعم .
وحدث عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عبادَة بن نَضْلَة ، أخو بني سالم بن عوف :

(١) الأزر : النساء أو الأنفس .

(٢) ابن هشام : ليكونوا .

يا معشر الخزرج : هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال :
إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم
إذا نهكت أموالكم مصيبةً وأشرافكم قتلًا أشدتموه فن الآن ، فهو والله
إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتهم
إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك
يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة .

قالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

قال عاصم : والله ما قال ذلك العباسُ إلا ليشدَّ العقْدَ لرسول الله صلى الله
عليه وسلم في أعناقهم . وقال غيره : ما قاله إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء
أن يحضرها عبد الله بن أبي بن سلول فيكون أقوى لأمر القوم . قاله أعلم
أى ذلك كان .

قال ابن إسحق : فبئس النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول
من ضرب على يده ، وبئس عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التميمي .

وفي حديث معبد بن كعب عن أخيه عبد الله عن أبيه قال : كان أول
من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور ، ثم بايع
القوم ، فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة
بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجبأجب ، وهى المنازل ، هل لكم في مذمتهم
والصبياء معه قد اجتمعوا على حربكم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أذب العقبة هذا ابن أزيب ،
ويقال ابن أزيب ، أسمع أئى عدو الله ، أما والله لأفرغن لك .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفضوا إلى رسالكم . فقال له العباس

ابن عُبَادَةَ بن نَضْلَةَ : والذي بعثك بالحق إن شئت لتميلن على أهل مِثِّي
بأسيا فإنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أومر بذلك ، واسكن أرحموا
إلى رحالكم . فرجعنا إلى مضاجعنا فقمنا عليها .

فلما أصبحنا غدت علينا جيلة قريش حتى جاءونا في منازلنا ، فقالوا :
يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من
بين ظهورنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى في العرب أبغض
إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث من هنالك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء ،
وما علمناه . وصدقوا ، لم يعلموه ، وبعضنا ينظر إلى بعض .

ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام الخزومي ، وعليه نعلان له جديبان
فقلت له كلمة ، كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا : يا أبا جابر ما تستطيع
وأنت سيّد من سادتنا أن تتخذ مثل نعل هذا الفتى من قريش ؟ فسمعها
الحارث فغلمهما من رجليه ، ثم رمى بهما إلى قل : والله لتقتلانهما .

قال : يقول جابر : مَهْ أَحْفَظْتَ والله الفتى ، فاردد إليه نعليه . قلت :
والله لا أردّها ، قَالَ والله صالح والله لئن صدق القَال لَأَسْلُبْنَهُ .

وفي حديث غير كعب أنهم أنوا عبد الله بن أبي بن سلُول ، فقال مثل
ما قال كعب من القول ، فقال لهم : إن هذا لأمرٌ جسيم ، ما كان قومي
ليَتَفَوّتوا عليّ بمثل هذا ، وما علمته كان . فانصرفوا عنه .

ونفر الناس من مِثِّي ، فتدنّس^(١) القومُ الخبز ، فوجدوه قد كان ،
وخرجوا في طلب القوم ، فأدركوا سعدَ بن عبادَةَ بأذخر والمنذرَ بن عمرو

(١) التدنّس : المبالغة في النظر في الأمور .

أخا بنى ساعدة ، وكلاهما كان نقيبا ، فأما المذنب فأعجز القوم ، وأما سعدة
فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنشع^(١) رَحْلِهِ ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة ،
بضربونه ويجذبونه بُجْمَتِهِ^(٢) ، وكان ذا شعر كثيف .

قال سعدة : فوالله إني أنى أيديهم إذ طلع نفر من قريش ، فيهم رجل
وضي^(٣) أبيض شمشاع^(٣) حلو من الرجال .

قال فقلت في نفسي : إن بك عند أحد من القوم خير فعند هذا .
فلما دنا مني ، رفع يده فلكفني لكفة شديدة ، فقلت في نفسي : لا والله ،
ما عندهم بعد هذا من خير .

فوالله إني أنى أيديهم يستحبونني إذا وى إلى رجل من معهم ، فقال :
ويحك ! أما بينك وبين أحد من قريش تجارة ولا عهد ؟ فقلت : بلى والله لقد
كنت أجزى الجبير بن مطعم نجاره وأمنهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ،
وللجوارح بن حرب بن أمية . قال : ويحك فاهتم باسم الرجلين واذكر
ما بينك وبينهما .

قال : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما عند الكعبة ، فقال لهما :
إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح آيهتف بكما ويذكر أن بينه وبينكما
جوارح . قال : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة . قال : صدق والله ، إن كان
ليجزى لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده .

قال : فجاءا فخلصا سعدة من أيديهم ، وكان الذي لكم سعدة سُهَيْل
ابن عمرو .

(١) النشع : الشراك الذي يشد به الرجل .

(٢) الجمة : شعر الرأس المتجمع .

(٣) الشمشاع : الطويل الحسن .

قال ابن هشام : والذي أوى له أبو البختري بن هشام .
قال ابن إسحق : فكان أول شعر قيل في الهجرة بيتين قالهما ضيرار بن
الخطاب بن مرداس أخو بني محارب بن فهر . قال :

تداركت سعدًا عنوةً فأخذته وكان شقاء لو تداركت مُنذرًا
ولو نلتَه ظَلَمْتُ هناك جراحةً وكان حقيقاً أن يُهان ويُهدَرًا
فأجابه حسان بن ثابت فقال :

لست إلى عمرو^(١) ولا المرء منذرٍ إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمرًا
فلولا أبو وهبٍ لمرت قصائدُ على شرف البرقاء^(٢) يهنون خُسرًا
أتنفخر بالسكتان لَمَّا لبستَه وقد تلبس الأنباط رِبطاً مُقهرًا^(٣)
فلا تَكُ كالوشنان يَحلمُ أنه بقرية كسرى أو بقرية قيصَرَا
ولا تَكُ كالشكلى وكانت بمنزل عن الشكلى لو كان النواذ تفكرًا
ولا تَكُ كالشاة التي كان حَتَفُها بحفر ذراعها فلم ترَضَ تحفَرَا
ولا تَكُ كالعاوى فأقبل نحرة ولم يحشه سهمٌ من النبل مُضمَرَا
فإننا ومن يَهْدِي القصائدَ نحونا كمُسْتَبْضعٍ تمرا إلى أرضٍ خَيْرَا

* * *

قال : فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها ، وفي قوتهم بقايا من شيوخ
لهم على دينهم من الشرك ، منهم عمرو بن الجموح ، وكان ابنه معاذ شهيد
العقبة وبايع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عمرو سيداً من سادات

(١) ابن هشام : سعد .
(٢) البرقاء : موضع بالبادية .
(٣) الرِيط : الملاحف البيض .

بنى سلمة وشريفًا من أشرفهم ، وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يقال له مناة كما كانت الأشراف يصدعون ، يتخذها إلهًا يعظمه ويطهره^(١) ، فلما أسلم فتية بنى سلمة ، ابنه معاذ ومعاذ بن جبل ، في فتية منهم ممن أسلم وشهد العقبة ، كانوا يذجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيجملونه فيطرحونه في بعض حفرة بنى سلمة وفيها عذرة الناس ، منكسًا على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال : ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ! ثم يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسله وطره وطيبه ، ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزيته .

فإذا أمسى ونام عمرو عدا عليه ففعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه ، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أكتروا عليه استخرجوه من حيث ألقوه يومًا فغسله وطره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عدا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلهم ميثاقًا فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بنى سلمة فيها عذرة من عذرة الناس ، وغدا عمرو بن الجوح فلم يجده في مكانه فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت ، فلما رآه أبصر^(٢) شأنه ، وكلمه من أسلم من قومه فأسلم رحمه الله وحسن إسلامه ، فقال حين أسلم وعرف

(١) ابن هشام : يتخذها إلهًا تعظمه ويطهره .

(٢) ابن هشام : وأبصر . وما هنا أصبح .

من الله ما عرف ، يذكر^(١) صنمه ذلك وما أبصر من أمره ، ويشكر الله
الذى أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت إوكب وسطاً بئر في قرن^(٢)
بئس لعلقك إلهاً مستعدن^(٣) الآن فنشأك عن سوء الغبن
الحمد لله العلى ذى المن الواهب الرزاق ديان الدين^(٤)
هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون في ظلمة قبر مرثن

[الإذن بالقتال]

قال ابن إسحق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة
لم يؤذن له في الحرب ولم يحمل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله تبارك
وتعالى والصبر على الأذى والصنح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت
من اتبعه من قومه حتى فتنوم عن دينهم ونفؤهم عن بلادهم ، فهم من بين
مفتون في دينه وبين معذب في أيديهم وبين هارب في البلاد منهم ، منهم
بأرض الحبشة ، ومنهم بالمدينة وفي كل وجه .

فلما عتت قريش على الله وردوا عليه ما أرادهم به من السكرامة ،
وكذبوا نبيه وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه واعتصم بدينه ،
أذن الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال والامتناع
والانتصار ممن ظلمهم وبقي عليهم .

(١) ابن هشام : وهو يذكر .

(٢) القرن : الحبل .

(٣) مستعدن : ذليلاً مستعبداً .

(٤) الدين : جمع دينة وهي العادة ، ويقال لها أيضاً دين . ويجوز أن يكون أراد
بالدين : الأديان أى هو ديان أهل الأديان ، ولكن جمعها على الدين لأنها ملل ونحل . انظر
الروض الأثب .

فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والفعال لمن بغى عليهم ، فيما بلغنى عن هروة بن الزبير وغيره من العلماء ، قول الله تبارك وتعالى : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ سَوَابِغُ وَيْجٍ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ^(١) » .

ثم أنزل الله عليه : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ » أى حتى لا يُفْتَن مؤمن عن دينه « وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » أى وحتى يُعبد الله لا يُعبد غيره ^(٢) .

(١) سورة الحج ٣٩ - ٤١ .

(٢) ابن هشام : منه غيره .

بَدءُ الهجرة إلى المدينة

قال ابن إسحاق : فلما أذن الله تبارك وتعالى لرسوله في الحرب ، وبإبعاده هذا الحى^١ من الأنصار على الإسلام والثَّصرة له ولبن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللاحق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً يأمنون بها .

فخرجوا أرسالا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

فكان أول من هاجر إليها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش من بنى مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد ، هاجر إليها قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدِم مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً .

قالت أم سلمة : لما أَتَجَعَ أبو سلمة الخروج إلى المدينة رَحَلَ لى بعيره ثم حملني عليه وحمل معي ابني سلمة في حجرى ، ثم خرج بى يقود بعيره ، فلما رآته رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبتنا هذه علَّامَ نتركك تسير بها في البلاد ؟

قالت : فترعوا خطام البعير من يده فأخذونى منه ، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة فقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا . فتجاذبوا ببنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده ! وانطلق به بنو عبد الأسد .

وحبسنى بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجى أبوسلمة إلى المدينة ، ففرّق بينى وبين زوجى وبين ابنى ، فسكنت أخرج كلّ غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنةً أو قريباً منها . حتى مرّ بى رجل من بنى عمى فرأى ما بى فرحمنى فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون من هذه المسكينة^(١) ! فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

فقالوا لى : الحقى بزواجك إن شئت . وردّ بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابنى ، فارتحلت بعميرى ثم أخذتُ بنى فوضعتة فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة وما معى أحد من خلق الله ، قلت : أتبلغ بمن أقيمت حتى أقدم على زوجى .

حتى إذا كنت بالتدعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، أبا بنى عبد الدار ، فقال : إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ قلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أو ما معك أحد ؟ قلت : لا والله ، إلا الله وبنى هذا ! قال : والله مالك من مترك . فأخذ بخطام البعير يقودنى معه يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت استأخر بعميرى فخطّ عنه ثم قيّده فى الشجر ، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرّواح قام إلى بعميرى فرحله ثم استأخر عنى فقال اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بعميرى أتى فأخذ بخطامه فقادنى حتى ينزل بى .

فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظرنا إلى قرية بنى عمرو ابن عوف وكان أبوسلمة بها ، قال : زوجك فى هذه القرية فادخليها على بركة الله .

(١) ابن هشام : ألا تخرجون هذه المسكينة . وذكر محققو الكتاب أن الأصل : ألا تخرجون من هذه المسكينة . فيكون ما هنا أولى وأصح .

ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

فكانت أم سلمة تقول : ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحبها كان أكرم من عثمان بن طلحة !

* * *

قال ابن إسحق : ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة عامرُ ابن ربيعة حليف بنى عدى بن كعب ، معه امرأته ليلي بنت أبي حنمة ابن غانم ، ثم عبد الله بن جحش بن رئاب من بني غنم بن دودان بن أسد بن خزيمه حليف بنى أمية بن عبد شمس ، احتمل بأهله وبأخيه أبي أحمد عبید ابن جحش ، وكان أبو أحمد رجلاً ضرير البصر يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعراً وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت أمه أمية بنت عبد المطلب .

ففلقت دارُ بنى جحش هجرةً ، فرَّ بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام ففطر إليها عتبةُ تخفيقُ أباها يَبَاباً^(١) ليس فيها ساكن ، فتنفّس الصعداء ثم قال : وكلُّ دارٍ وإن طالَّت سلامتها يوماً ستُدركها الفسكباء والخُوبُ^(٢)

ولما خرج بدو جحش من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة أخى بنى عامر بن لؤى ، فذكر ذلك عبد الله بن جحش ، لما بلغه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً في الجنة خيراً منها ؟ قال : بلى . قال : فذلك لك .

(١) يبابا : قفرا .

(٢) الخوب هنا : الحزن والوحشية .

فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة كله أبو أحمد في دارهم
خائباً عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الناس لأبي أحمد : يا أبا أحمد
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن ترجعوا في شيء أصيب منكم
في الله . فأمسك عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) .

وكان بنو غنم بن دودان أهل الإسلام قد أوعبوا^(٢) إلى المدينة مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم هجرة رجالهم ونسائهم ، فقال أبو أحمد بن جحش
يذكر هجرة بني أسد بن خزيمه من قومه إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله ،
وإيعابهم في ذلك حين دُعوا إلى الهجرة :

لو حلفت بين الصفا أم أحمد ومروقتها بالله برت يمينها
لنحن الأولى كنفا بهائم لم نزل بمكة حتى عاد غنا سمينها
بها خيمنت غنم بن دودان وانبت وما أرعدت غنم وخف قطينها
إلى الله تعدو بين مثنى وواحد ودين رسول الله بالحق دينها
وقال أبو أحمد أيضاً :

لما رأتني أم أحمد غادياً بذمة من أخشى غيب وأزهب
تقول فيما كنت لا بد فاعلا قيمم بنا البلدان ولقناً يثرب
خقلت لها : ما يثرب بمظنة وما يشاء الرحمن فالعبد ير كب
إلى الله وجهي والرسول ومن يقيم إلى الله يوماً وجهه لا يحيب
فكم قد تر كذا من حيم مفاصح وناحية تبكي بدمع وتدب
ترى أن وترأ نأيدنا عن بلادنا ونحن نرى أن الرغائب نطلب

(١) خبر اغتصاب دار بني جحش عن غير ابن إسحق .

(٢) أي هاجروا جميعاً لم يبق منهم أحد .

دعوتُ بنى غنمٍ لحقنِ دماءهم وللحقِّ لَمَّا لاح للناس مَلَحَبٌ^(١)
أجابوا بحمدِ اللهِ لَمَّا دعاهمُ إلى الحقِّ دايعٍ والنجارحِ فأوعبوا
وكنا وأصحاباً لنا فارقوا الهدى أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا
كفؤَجَيْنِ أَمَّا منهما ففوقُ على الحقِّ مَهْدِيٌّ وفوجٌ معذبٌ
طَفَوْا وتمنَّوا كَذِبَةً وَأَزَّاهم عن الحقِّ إبليسٌ نخابوا وخيَّبوا
ورُعِنَا^(٢) إلى قولِ النبيِّ محمدٍ فطاب وِلَاةُ الحقِّ منا وطيبوا
نَمَتْ بأرحامِ إليهم قريبةٍ ولا قُرْبَ بالأرحامِ إذ لا تُقَرَّبُ
فأى ابنِ أختٍ بعدنا يَأْمَنُكُمْ وأيةُ صِهْرٍ بعد صِهْرِي يُرَقَّبُ^(٣)
سَتَعْلَمُ يوماً أَيْنَا إذ تَزَايَلوا وزُيِّلَ أمرُ الناسِ للحقِّ أَصَوَّبُ

* * *

ثم خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعيَّاش بن أبى ربيعة الخزومى ،
حتى قدما المدينة .

قال عمر رضى الله عنه : لَمَّا أَرَدْنَا الْمَجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ اتَّعَدْتُ أَنَا وَعِيَّاشُ
ابن أبى ربيعة وهشام بن العاص التَّنَاضُبَ مِنْ أَصْأَةِ بَنِي غِفَّارٍ فَوْقَ مَرِّفٍ^(٤) ،
وَقُلْدَسَا : أَيْنَا لَمْ يُصْبِحْ عِنْدَهَا فَقَدْ حُبِسَ فَلْيَمِضْ صَاحِبَاهُ . فَأَصْبَحْتُ أَنَا
وعيَّاش عِنْدَهَا وَحُبِسَ عِنَّا هِشَامُ وَفُتِنَ فَافْتَنَ .

(١) ملحَب : طريق واضح .

(٢) ابن هشام : ورعنا . ومعناها رجعنا .

(٣) ابن هشام : ترقب .

(٤) التَّنَاضُب : يقال هو اسم موضع ، ومن رواه بالكسر فهو جمع تنضب وهو شجر
واحدته تنضبة . وَأَصْأَةُ بَنِي غِفَّارٍ : موضع على عمرة أميال من مكة ، وسرف موضع على
سنة أميال من مكة .

فلما قدمنا المدينة نزلنا بقُبَاءَ ، وخرج أبو جهل والحارث أخوه إلى عِيَّاش ، وكان ابن عمهما وأخاها لأمهما حتى قدما علينا فقالا له : إن أمك نذرت ألا تمس رأسها بمشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك .

فرق لها ، فقلت له : يا عيَّاش والله إن يريك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ! ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت .

فقال : أبرئ قَسَمَ أُمِّي ولي ههناك مال فأخذه .

قلت : والله إنك لتعلم أني لمن أكرم قريش مالا ، فلَكَ نصفُ مالي ولا تذهب معها .

فأبى علي إلا أن يخرج معها ، فلما أبى إلا ذلك قلت : أمّا إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها نجيمة ذلول ، فالزم ظهرها فإن رابك من القوم رَبِّبَ فأنج عليها .

فخرج عليها معها ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : والله يا أخي^(١) لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تُعقبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى . قال : فأناخ وأناخا ليتحول عليها ، فلما استقوا بالأرض عدوا عليه فأوثقوه رباطاً ثم دخلا به مكة ، وفتنناه فافتتن !

وفي غير حديث عمر أنهما دخلا به مكة نهراً مؤثماً ثم قال : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهاءكم كما فعلنا بسفهاءنا هذا .

قال عمر رضي الله عنه في حديثه : فكنا نقول : ما اللهُ بقابلٍ من افتتن

(١) ابن هشام : يا بن أخي . وما هنا أصح لقوله قبل : وكان ابن عمهما وأخاها لأمهما .

صَرَخًا وَلَا عَدْلًا وَلَا تَوْبَةً ، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لِهَلَاءِ أَصَابِهِمْ
وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قَدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم
المدينة أنزل الله تبارك وتعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم : « قل يا عبادي
الذين أشرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوبَ
جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن
يأتىكم العذاب ثم لا تنصرون * واتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بُعْثَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ^(١) » .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثتُ
بها إلى هشام بن العاص .

قال : فقال هشام : لما أتتني جعلتُ أقرؤها بذي طوى ^(٢) أصعد بها فيه
وأصوب ولا أفهمها ، حتى قلت : اللهم فهمنيها . فأتني الله في قلبي أنها إنما
نزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا . فرجعتُ إلى بعيري فجلست
عليه ، فلحقني برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

هذا ما ذكر ابن إسحق في شأن هشام .

وذكر ابن هشام عن يثقب به أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
وهو بالمدينة : مَنْ لى بعبّاش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص ؟ فقال الوليد
ابن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما . فخرج إلى مكة فقدمها
مستخفياً ، فلقى امرأة تحمل طعاماً ، فقال لها : أين تريدن يا أمة الله ؟ فقالت :

(١) سورة الزمر .

(٢) موضع بأسفل مكة .

أريد هذين المسجونين^(١) . تعذيبهما . فتبعهما حتى عرف موضعيهما ، وكانا
محبوسين في بيت لاسقف له ، فلما أمسى تسوّر عليهما ثم أخذ مروة^(٢) فوضعهما
تحت قيديهما ثم ضربهما بسيفه فقطعهما ، فكان يقال لسيفه ذو المروة لذلك .

ثم حملهما على بعيره وساق بهما فعثر فدَمِيت إصبعه فقال :
هل أنتِ إلا إصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ
ثم قدم بهما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

ثم تقابع المهاجرون أرسالا فنزل طلحة بن عبيد الله وصُهيب بن سنان
على خبيد بن إيساف . ويقال : بل نزل طلحة على أسعد بن زُرارة .

قال ابن هشام : وذُكر لي أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار
قريش : أتيتنا صملوكا حقيراً فكثُر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت ،
ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ! والله لا يكون ذلك .

فقال لهم صهيب : أرايتم إن جعلت لكم مالى أن تخلّون سبيلي ؟ قالوا :
نعم . قال فإني قد جعلتُ لكم مالى .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : رَجِصْ صهيبٌ رَجِصٌ
صهيب !

* * *

قال ابن إسحاق : وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه
من المهاجرين ، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخلف معه أحد بمكة من
المهاجرين ، إلا من حُبِس أو فتن ، إلا على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق .

(١) ابن هشام : المحبوسين (٢) أى حِجراً .

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فيقول له : لا تمُجِّل ، لعل الله يجعل لك صاحباً . فيقطع أبو بكر أن يكونه .

[مؤامرة قريش]

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كانت ^(١) له شيعه وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فتخذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا أنه مُجْمِع ^(٢) لحربهم .

فاجتمعوا له في دار الندوة ، وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، يتشاورون ما يصفهون في أمره .

فاعترض لهم إبليس في هيئة شيخ جليل عليه بَت ^(٣) ، فوقف على باب الدار في اليوم الذي اتعدوا له ، ويسمى يوم الزحمة ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم يسمع ما تقولون وعسى أن لا يُعَدِّمكم منه رأياً ونصحاً . قالوا أجل فادخل . فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشرف قريش وغيرهم .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، ولما والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً .

فتشاوروا ثم قال قائل : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والناطقة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم .

(١) ابن هشام : قد صارت (٢) ابن هشام : قد أجمع .

(٣) البيت : الطليسان من الخز وغيره .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه
كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه .
فلأؤشكوا أن يَدْبُوا عليكم فينزعه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلّبواكم
على أمركم ، ما هذا لكم برأى فانظروا في غيره .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ،
فإذا خرج عنا فوالله ما نُبْألى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه
فأصلحنا أمرنا وأفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حُسنَ
حديثه وحلاوة مقطعه وغلبته على قلوب الرجال لما^(١) يأتى به ؟ والله لو فعلتم
ذلك ما أمتم أن يَحُلَّ على حتى من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله
وحديثه حتى يتابعوه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يبطأكم بهم فيأخذ أمركم من
أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد ، أدبروا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل : والله إن لى فيه لرأياً ما أراكم وقتم عليه بهدؤ .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم .

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ،
ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل
واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن^(٢) فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل
جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا مداهم بالعقل
فمَقَلْنَاهُمْ .

(١) ابن هشام : إذا . (٢) ابن هشام : بما

فقال الشيخ المنجدى : القول ما قاله الرجل ، هو الرأى لا رأى غيره ^(١) .
ففرّق القوم على ذلك وهم يُجمعون له .
فأتى جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبيت هذه الليلة
على فراشك الذى كفت تبيت عليه .

فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يَرْتَضِدُونَهُ حَتَّى ^(٢) ينام
فيذهبون عليه ^(٣) ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعل بن
أبى طالب : نَمْ عَلَى فِرَاشِي وَتَسَجَّ بِبُرْدِي هَذَا الْحَضْرَمِ الْأَخْضَرِ فَتَمَّ فِيهِ
فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَسْكُرُهُ مِنْهُمْ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
ينام فى بُرْدِهِ ذَلِكَ إِذَا نَامَ

فاجتمعوا له وفيهم أبو جهل ، فقال وهو على بابه : إِنْ مُحَمَّدًا يُزْعِمُ أَنَّكُمْ
إِنْ تَابِعْتُمُوهُ عَلَى أَمْرِهِ كُنْتُمْ مَلُوكَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ثُمَّ بَعُثْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ
فَجَعَلَتْ لَكُمْ جِيفَانٍ كَجِيفَتَيْنِ الْأَرْدُنِّ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ لَكُمْ فِيهِ ذُبْحٌ ،
ثُمَّ بَعُثْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ فَجَعَلَتْ لَكُمْ نَارَ تُحْرَقُونَ فِيهَا
وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب فى يده
ثم قال : نَعَمْ أَنَا الَّذِى أَقُولُ ذَلِكَ ^(٤) أَنْتَ أَحَدُهُمْ .

وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه ، وجعل ينفذ ذلك التراب على رؤوسهم
وهو يتلو هؤلاء الآيات : « يَسِّ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

(١) ابن هشام : هذا الرأى الذى لا غيره .

(٢) ابن هشام : متى .

(٣) المروى من أخلاق العرب أنهم كانوا لا يقاتلون خصمهم فى داره نائما ، والراجح
أنهم انتظروه حتى يخرج .

(٤) ابن هشام : أنا أقول ذلك .

على صراطٍ مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، لتُنذِر قوماً ما أُنذِر آبائهم فهم غافلون ، لقد حَقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون^(١) .

حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ولم يبقَ منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب . فأنابهم آتٍ من لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمدًا . قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفلا ترون ما بكم ؟ !

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يطلمعون فيرون علياً في الفراش متسججاً بُرد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون : والله إن هذا ل محمد نائمٌ عليه بُرده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام على عن الفراش ، فقالوا : والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا .

فكان مما أنزل الله من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له قول الله سبحانه : « وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ^(٢) » .

وَأَذِنَ اللَّهُ تبارك وتعالى عند ذلك لنبيه في الهجرة .

ذِكْرُ الْحَدِيثِ عَنْ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

مُهَاجِرِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ

حَدَّثَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ لَا يَخْطِئُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفِي النَّهَارِ ، إِمَّا بُكْرَةً وَإِمَّا عَشِيَةً ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي أُذِنَ اللَّهُ فِيهِ لِرَسُولِهِ فِي الْمُهْجَرَةِ وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِي ظَهَرَ لِي قَوْمُهُ ، أَنَا نَا بِالْمُهْجَرَةِ فِي سَاعَةِ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا ، فَلَمَّا رَأَى أَبُو بَكْرٍ قَالَ : مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلَّا مِنْ حَدَثٍ^(١) .

فَلَمَّا دَخَلَ تَأَخَّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ سَرِيرِهِ ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا أَنَا وَأَسْمَاءُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَخْرَجَ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ . فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِيَّاهُمَا ابْنَتَايَ ، وَمَا ذَاكَ فِذَاكَ أَبِي وَأُمِّي ؟

فَقَالَ : إِنْ اللَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْمُهْجَرَةِ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : الصُّحْبَةُ بِرَسُولِ اللَّهِ . قَالَ : الصُّحْبَةُ .

قَالَتْ : فَوَ اللَّهِ مَا شَعَرْتُ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ أَحَدًا يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ حَتَّى رَأَيْتَ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ !

ثُمَّ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنْ هَاتَيْنِ الرَّاحِلَتَيْنِ قَدْ كُنْتُ أَعْدَدْتُهُمَا لِهَذَا .

(١) ابْنُ هِشَامٍ : إِلَّا لِأَمْرِ حَدَثٍ .

وكان أبو بكر رجلاً ذا مالٍ فـسكان حين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، فقال : لا تَعْجَلْ لعل الله يجعل لك صاحباً ، قد طمع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعنى نفسه ، فابتاع راحلتين ، فخبسهما في داره يعلمهما إعداداً لذلك .

فاستأجر عبد الله بن أريقط رجلاً من بنى الدَّيْل بن بكر وكان مشركاً ، يدأُهما على الطريق ، ودفعهما إليه راحلتيهما فسكانتا عنده برعاهما ليعادها .

قال ابن إسحاق : ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج أحدٌ ، إلا على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق ، وآل أبي بكر .

أمّا على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس ، ولم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لئلا يعلم من صدقه وأمانته .

فلما أجمع صلى الله عليه وسلم الخروج أنى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظَهْر بيته ، ثم عمدا إلى غار ثور ، جبل بأسفل مكة ، فدخلاه .

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاراً ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، فكان يفعل ذلك ، وأمر عامر بن فهيرة موله أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار ، فسكان عامر يرعى في رُعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة ، تقبّع عامر أثره بالغنم حتى يُعفى عليه ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأنيهما من الطعام بما يصلحهما .

وذكر ابن هشام عن الحسن بن أبي الحسن قال : انتهى رسول الله

وأبو بكر إلى الغار ليلاً فدخل أبو بكر قبله فلمس الغار لينظراً فيه سمعة أوحية ،
يَقِي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه . ولما فقدت قريش رسول الله صلى الله
عليه وسلم طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافلة يتبعون أثره في كل وجه ،
فوجد الذي ذهب قبل نور أثره هناك ، فلم يزل يتبعه حتى انقطع له لما انتهى
إلى ثور . وشقَّ على قريش خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، وجزعوا
لذلك فطفقوا يطلبونه بأنفسهم فجا قُرُب منهم ، ورسالون من يطلبه فيما بعد
عنهم ، وجعلوا مائة ناقة لمن رده عليهم ، ولما انتهى إلى فم الغار ، وقد كانت
العنكبوت ضربت على بابه بعشاشٍ بعضها على بعضٍ ، بعد أن دخل رسول
الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكروا ، قال قائل منهم : ادخلوا الغار ، فقال أمية
ابن خلف : وما أربُكم إلى الغار ؟ إن عليه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد !
قالوا : فذهي النبي صلى الله عليه وسلم يومئذٍ عن قتل العنكبوت ، وقال :
إنها جند من جنود الله .

وخرج أبو بكر البزار في مسنده من حديث أبي مُصْعَب المكي قال :
أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك ، يحدثون : أن النبي
صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة بات في الغار ، أمر الله تبارك وتعالى شجرة
فنبتت في وجه الغار ، وأمر الله عز وجل حمامتين وحشيتين فوقفتا بعم الغار ،
وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر
أربعين ذراعاً ، معهم قسيهم وعصيهم ، فتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين ،
فرجع فقال لأصحابه : ليس في الغار شيء ، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن
ليس فيه أحد .

فسمع قوله النبي صلى الله عليه وسلم فعرف أن الله قد درأ بهما عنه فشمت
عليهما^(١) وفرض جزاءهما واتخذت في حرم الله ففرخن . أحسبه قال : فأصل

(١) شمت عليهما : دعا لهما بخير .

كلّ حمامٍ في الحرم من فراخهما .

وذكر قاسم بن ثابت فيما تولى شرحه من الحديث أن الله أنبت الزّاعة على باب الغار لما دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه قال : وهى شجرة معروفة .

قال غيره : تكون مثل قامة الإنسان ، ولها زهر أبيض تُخشى به المخاض للبيده وخفته .

وحكى الواقدي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل الغار ، دعا بشجرة كانت أمام الغار ، فأقبلت حتى وقفت على باب الغار ، فحببت أعين الكفّار وهم يطوفون في الجبل .

وقال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصر ما تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما !

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في الغار ثلاثاً ، حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببيعيريهما ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاماً ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس فيها عصام ، فتحلّ نطاقيهما فتجمله عصاماً ، ثم تعلقها^(١) به ، فكان يقال لها ذات النطاق لذلك فيما ذكر ابن إسحاق .

وأما ابن هشام فذكر أنها إنما يقال لها ذات النطاقين ، وهو المشهور عنها رضى الله عنها ، وذكر أنه سمع غير واحد من أهل العلم يفسّره بأنها شقت نطاقيها بثنين ، فعلق السفرة بواحد وانتظمت بالآخر .

قال ابن إسحاق : فلما قرّب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله صلى الله

(١) ابن هشام : ثم علقها به .

عليه وسلم قدّم له أفضلهما ، ثم قال : اركب فذاك أبي وأمي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لا أركب بعيراً ليس لي . قال : فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي . قال : لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا . قال : قد أخذتها بذلك . فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر خلفه مولاه عامر بن فهيرة ليرحمهما في الطريق .

قال : فحدثت عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أنا نافر من قريش فيهم أبو جهل ، فقالوا : أين أبوك يا بنة أبي بكر ؟ قلت : لا أدري والله . فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لطمة طرح منها قرطبي ، ثم انصرفوا فسكرنا ثلاث ليالٍ ما ندري أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتخفى بأبيات من شعر غناء العرب وإنّ الناس ليتبعونه بسمعون صوته وما يرونه ، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله ربّ الناس خيرَ جزائه رقيقين حلاًّ حَيَمَتِي أم مَعْبِدِ
ها نزلا بالبرّ ثم تروّحا فأفلح مَنْ أَمَسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
ليهنّ بنى كعبٍ مكانُ فتانهم ومعهدها للمؤمنين بِمَرْصَدِ
قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن وجهه إلى المدينة .

[قصة أم معبد]

وعن غير ابن إسحاق وهو عندنا بالإسناد من طرق^(١) ، أن أمّ مَعْبِدِ هذه امرأة من بنى كعب من خزاعة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) قال ابن كثير : واصلتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً .

حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ومولاه عامر بن قُهيرة ودليلهما اللبثي عبد الله بن الأرقط مرثوا على خيمتي أم معبد الخزاعية وكانت امرأة برززة جلدة^(١) نحتبي بفداء القبة ثم تسقي ونعلم ، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها فلم يصيبوها عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مُرملين مُسْتَعِين^(٢) فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر الخيمة فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خَلَفَهَا الْجَهْدُ عن الغنم . قال : هل بها من لبن ؟ قالت : هي أَجْهَدُ من ذلك . قال : أتأذنين أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبي أنت وأمي إن رأيتَ بها حَلَباً فاحلبها . فدعا بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها وسَمَّى الله ودعا لها في شاتها فتفاجَّت^(٣) عليه ودرَّت واجترَّت ، ودعا بإِناء يُرِيضُ^(٤) الرهط فحلب فيه ثَجًّا حتى علاه لبنها ، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخروهم ، ثم أراضوا^(٥) ، ثم حلب فيه ثانياً بعد بَدْءِ حَتَّى مَلَأَ الإِناء ، ثم غادره عندها وباعها وارتحلوا عنها .

فَقَلَّ ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أُعْزُراً حِجَافاً يَتَسَاوَكُنُ^(٦) هزلاً ضِخَامَهُن قَلِيل^(٧) ، فلما رأى أبو معبد الابنَ حجب وقال : من أين لك هذا الابن يا أم معبد ؟ وَالشَّاء طازب حِيَالٍ وَلَا حَكُوبٌ فِي الْبَيْتِ ؟ قالت : لا والله ، إِلَّا أَنَّهُ مَرٌّ بِفَارِجٍ مَبَارِكٍ مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا . قال : صِفِيهِ لِي يَا أُمُّ مَعْبِد :

-
- (١) البرزة : المرأة العفيفة تبرز للرجال وتتحدث معهم ، وهي المرأة التي أَسَات وخُرِجَتْ عن حد المحجوبات . والجلدة : القوية .
- (٢) مُرْمِلِينَ : نفد زادهم فافتقروا ، ومُسْتَعِينِينَ : أصابتهم السنة وهي الجذب .
- (٣) التفاج : المبالغة في تفرج ما بين الرجلين . النهاية ٣ / ٩٩ .
- (٤) يريض الرهط : يرويه بعض الرى ، من أراض الحوض إذا صب فيه من الماء ما وارى أرضه . النهاية ٢ / ١١٨ .
- (٥) أراضوا : شربوا علا بعد نهل . أو صبوا اللبن على اللبن .
- (٦) يتساوكن : يتأيلن من الضعف .
- (٧) كَذَا بِالْأَصْلِ ، وفي الوفا لابن الجوزي ٢٤٣ : غنم قليل .

قالت : رأيت رجلا ظاهر الوضأة أبلج الوجه حسن الخلق لم يعبه ثجلة ولم تُزِر به صُعلة^(١) وسيم قسيم في عينيه دَعَج وفي أشفاره غَطَف^(٢) وفي عنقه سَطَع^(٣) وفي صوته تَحَل^(٤) وفي لحيته كثافة ، أزج أقرن^(٥) إن صمّت فعليه الوقار وإن تسكلم سَمَا وعَلَاه البهاء ، أجمل وأنبهأ من بعيد وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق فصل لا نَزَر ولا هَذَرَ كأن مَنطِقَه خرزات نظمهم يتحدرون ربة لا يَأْس من طول ولا تقصمه العين من قِصَر ، غُصْن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظرأ وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفون به إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تبادروا لأمره محفود محشود لا عابس ولا مُقَنَّد .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قریش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة ، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .
وأصبح صوت بمكة عالٍ يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه ، وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين قالا خيمتي أم معبد
هما نزلاها بالهدى فاهتدت به^(٦) فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيا لقصى ما زوى الله عنكم به من فقال لا تجارى وسودد

(١) الثجلة : عظم البطن واسترخاؤه والصعلة : الدقة والنحول يقال صعلت الناقة إذا ضمرت . وقيل : أرادت أنه لم يكن منتفخ الخاصرة جدا ولا ناحلا جدا . النهاية لابن الأثير ٢ / ٢٩٣ .

(٢) الغطف : أن يطول شعر الأَجْفَان ثم يتمطف . ويروى بالعين كما يروى بالواو .

(٣) سَطَع : ارتفاع وطول .

(٤) الصعل : كالبعجة ، وأن لا يكون حاد الصوت .

(٥) الزجج : تقوس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد . وأقرن : مقرون الحواجب .

(٦) البداية والنهاية : هما نزلا بالهدى وارتحلا به .

لَيْتَنِي بَنِي كَعْبٍ مَقَامُ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدٍ
سَلُّوا أَخْفَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا فَإِنَّكُمْ إِن تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدُ
دَعَاها بِشَّاةٍ حَائِلٍ فَتُحَلَّبَتْ لَهُ بِصَرِيحٍ ضَرْبُ الشَّاةِ مُزِيدٌ^(١)
فَنَادَرَهَا رَهْمًا لَدَيْهَا لِحَالِبٍ يَرُدُّهَا فِي مَصْصَدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدٍ
فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ حَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ جَعَلَ يَحَابِبُ الْهَاتِفَ وَيَقُولُ :

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالٌ عَنْهُمْ نَبِيهِمْ وَقُدُسٌ مَن يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَفْتَدِي
تَرْحَلُ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عَقُولُهُمْ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِغَوْرٍ مُجَدِّدٍ
هَدَامَ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رُبَّهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ ، مَن يَنْتَبِغِ الْحَقَّ يُرْشِدُ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضُلَالُ قَوْمٍ تَسْكَعُوا عَمَى وَهْدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمَهْتَدِي
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُمْ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ رَكَابُ هُدًى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدٍ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَقُولُ كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ
وَإِن قَالُ فِي يَوْمٍ مَقَالَةٌ غَائِبٍ فَتَصْدِيقُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضَحَى الْغَدِ
لَيْتَنِي أَبَا بَكْرٍ سَمَادَةٌ جَدَّةُ بِصَحْبَتِهِ ، مَن يُسْعِدِ اللَّهَ يُسْعِدِ

* * *

وذكر أبو منصور محمد بن سعد السائدي بإسناد له إلى قيس بن النعمان
قال : لما انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه يستخفيان في الغار
مرًّا بهمد يرى غنما فاستسقىاه من اللبن فقال : والله مالي شاة تُحَلَّبُ ، غير
أن هاهنا عناقًا^(٢) حلت أول الشاء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
انذبا بها . فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ثم حلب عُسًا^(٣)
فسقى أبا بكر ، ثم حلب آخر فسقى الراعي ، ثم حلب فشرِب .

(١) الضرة : أصل الضرع .

(٢) العناق : هي الأنثى من أولاد الغنم لم تَم لها سنة .

(٣) العس : القدح الضخم .

فقال العبد : من أنت ؟ فوالله ما رأيت مثلك قط !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتراك إن حدثتك تسكنتم على ؟ قال : نعم . قال : فإني محمد رسول الله . قال : أنت الذي تزعم قريش أنك صابى ؟ قال : إنهم ليقولون ذلك . قال العبد : فإني أشهد أنك رسول الله وأن ماجئت به الحق ، وأنه ليس بفعل فعلك إلا نبي . ثم قال العبد : أتبعك ؟ قال : لا ، حتى نسمع بدا أنا قد ظهرنا .

وخرّج البرّقاني^(١) [في مصالحيته^(٢)] من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما ، وأورده الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما^(٣) من حديثه قال : اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رَحْلاً^(٤) بثلاثة عشر درهماً ، فقال أبو بكر لعازب : مُرِ البراء أن يحمله إلى أهلي . فقال له عازب : حتى نحدثني كيف صنعت أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجتما والمشركون يطلبونكم . قال :

(١) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب البرقاني الحواري الفقيه المحدث الأديب الصالح له التصانيف المشهورة روى عن الدارقطني وخلق كثير روى عنه أبو بكر الخطيب وقال لم نر في شيوخوا أثبت منه . تولى مستهل رجب من سنة خمس وعشرين وأربعمائة وكانت ولادته سنة ست وثلاثين وثلاثمائة الباب ١ / ١١٣ .

(٢) المصاحفة : هي ضرب من علو السند ، وهي أن تقع المساواة لشيخك لا لك ، فيقع ذلك لك مصاحفة . كما قال ابن الصلاح . والمساواة كما قال ابن الصلاح أيضا : أن يقل العدد ولسنادك لا إلى شيخ مسلم وأمثاله ولا إلى شيخ شيعته بل إلى من هو أبعد من ذلك كالصحابي أو من قاربه وربما كان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يقع بينك وبين الصحابي مثلاً من العدد مثل ما وقع من العدد بين مسام وبين ذلك الصحابي فتكون بذلك مساوياً لمسلم مثلاً في قرب الاسناد وعدد رجاله .

إذا وقعت هذه المساواة للشيخ وقع ذلك مصاحفة لتلميذه إذ يكون كأنه لقي مسلماً في ذلك

الحديث لسكونه قد لقي شيخه المساوي لمسلم انظر الباعث الحديث ١٨٣ .

(٣) البخاري ٢ / ١٩٥ مختصرة جداً باختلاف عما هنا .

(٤) ابن كثير : سرجاً .

ارتحلنا من مكة فأحشنا^(١) يومنا وليلتنا حتى أظهرنا وقام قائم الظميرة ،
فرميت ببصرى هل أرى من ظل ناوى إليه ، فإذا أنا بصخرة فاتهمت
إليها^(٢) فإذا بقية ظل لها ، فنظرت بقية ظلها فسوَّبتَه وفرشت لرسول الله
صلى الله عليه قرَّةً وقلت : اضطجع يا رسول الله . فاضطجع .

ثم ذهبت أنظر ما حوله هل أرى من الطلب أحدًا فإذا أنا براعى غنم
يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها مثل الذى أريد ، يعنى الظل . فسألته
فقلت : لمن أنت يا غلام ؟ قال : لفلان ، رجل من قريش سماء ، فعرفته ،
فقلت : هل فى غنمك من لبن ؟ قال : نعم . قلت : هل أنت حالب لى ؟
قال : نعم . فاعتقل شاةً من غنمه فأمرته أن ينفض ضرعها من الغبار ،
ثم أمرته أن ينفض كفيه ، فقال هكذا ، فضرب إحدى يديه على الأخرى
فحلب لى كُشبة^(٣) من لبن وقد رويت معى لرسول الله صلى الله عليه وسلم
إداوة على فمها خرقة ، فصببت على اللبن حتى برد أسفله ، فاتهمت لى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقد استيقظ ، قلت : يا رسول الله اشرب . فشرب
حتى رضيت ، وقلت : قد آن الرحيلُ يا رسول الله .

فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحدٌ منهم غير سُرَّاقة بن مالك
ابن جُشم على فرس له ، فقلت : هذا الطلبُ قد لحقنا يا رسول الله .
وبكيت ، قال : لا نحزن إن الله معنا !

قال : فلما دنا فكان بيننا وبينه قدرُ رحمين أو ثلاثة قلت : هذا
الطلبُ يا رسول الله قد بلَّغنا . وبكيت . قال : ما يبكيك ؟ فقلت :
أما والله ما على نفسى أبكى ، ولسكنى أبكى عليك .

(١) ابن كثير : خرجنا فأدبلنا فأحشنا .

(٢) ابن كثير : فأهويت إليها .

(٣) الكشبة : قدر الحلة .

فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اكفناه بما شئت ،
فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها ، فوثب عنها وقال : يا محمد قد علمتُ
أن هذا عملك فادعُ الله أن ينجيني مما أنا فيه ، فوالله لأعطينَّ على مَنْ ورأى
من الطلاب ، وهذه كفاتى نخذ منها سهماً فإنك ستمر على إلى وغفمى
بمكان كذا وكذا . نخذ منها حاجتك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حاجة لى فى إبلك . ودعاه ،
فانطلق راجعاً إلى أصحابه .

وفى حديث البخارى ومسلم : فجعل لا يلقى أحداً إلا قال : قد كفنتكم
ما هنا . فلا يلقى أحداً إلا ردّه . قال : وَوَفَى لَنَا .

[حديث سُرَاقَة]

وعن سُرَاقَة بن مالك بن جُهم فبما أورده ابن إسحق قال : لما خرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش
فيه مائة ناقة لمن ردّه عليهم .

قال : فبينما أنا جالس فى نادى قومى أَقْبَلَ رجل منا حتى وقف عليهما
فقال : والله لقد رأيتُ رَكْبَةَ ثلاثة مرثوا على آفنا ، إني لأراهم محمداً وأصحابه .
قال : فأومأتُ إليه ، يعنى أن اسكت ، ثم قلت : إنما هم بنو فلان
يتبعون ضالّة لهم . قال : لعله . ثم سكت .

فسكتُ قليلاً ثم قمت فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرسى فقيدَ لى إلى بطن
الوادى وبسلاحى فأخرج لى من دُبُر حجرى ، ثم أخذت قِدَاحى التى
أَسْتَقْسِمُ بها ، ثم انطلقت فلبست لَأُمِّى ، ثم أخرجت قِدَاحى ، فاستقسمت بها
نفرج السهم الذى أكره : لا يضره . وكنت أرجو أن أردّه على قريش
فأخذ المائة .

فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشتد بي عثري فسقطت عنه ، فقلت :
ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره :
لا بضره . فأبیتُ إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فبينما فرسى يشتد بي عثري
فسقطت عنه فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج
السهم الذي أكره : لا بضره . فأبیتُ إلا أن أتبعه فركبت في أثره ، فلما بدا
لى القوم عثري فرسى وذهبت يداه فى الأرض وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه
عن الأرض وتبعهما دخان كالإعصار ، فعرفت حين رأيتُ ذلك أنه قد مُنع
منى وأنه ظاهرٌ .

فناديت القوم : أنا سراقه بن جُشم ، انظرونى أكلکم ، فوالله لا أريکم
ولا يأتیکم منى شيء تکرهونه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه : قل له :
ما تبغى ؟ قال : تكتبوا لى كتاباً يكون آيةً بينى وبينك . قال اكتب
يا أبا بكر . فكتب لى كتاباً فى عظم أو فى رقعة أو فى خرقة^(١) ثم ألقاه إلى ،
فأخذته فجعلته فى كنفائى ، ثم رجعت فلم أذكر شيئاً .

حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرغ من
حُدَيْن والطائف خرجتُ ومعى الكتاب لألقاه فلقيته بالجحرانة^(٢) فدخلتُ
فى كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعونى بالرماح ويقولون : إلیك إلیك
ماذا تريد ؟

فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، والله لكأنى

(١) ابن هشام : خرقة .

(٢) الجحرانة : ما بين الطائف ومكة ، وهى إلى مكة أقرب .

أنظر إلى ساقه في غرزه كأنها جُمارة^(١) ، فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت :
يا رسول الله هذا كتابك لي ، أنا سراقه بن جُعشم . فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : يوم وفاء وبرّ اذن^(٢) . فدنوت فأسلمت . ثم تذكرت شيئاً
أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فأذكر ، إلا أني قلت : يا رسول الله
الفضالة من الإبل تنفسي حياضى وقد ملأها ليلى ، هل لي من أجر في أن
أسقيها ؟ قال : نعم ، في كل ذات كبده حرّى أجر^(٣) .

ثم رجعت إلى قومي فسئلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتى .
وفي حديث آخر عن غير ابن إسحق أن سراقه بن مالك بن جُعشم هذا
كان شاعراً مجيداً ، وأنه قال يخاطب أبا جهل بن هشام بعد انصرافه عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أبا حَكَمٍم والله لو كنت شاهداً لِأَمْرِ جَوَادِي إِذ تَسُوخُ قَوَائِمُهُ
علمت ولم تشكك بأن محمداً رسولاً بهراني فن ذا يقاومه
عليك بكفّ القوم عنه فإنني أرى أمره يوماً ستهبده معالمة
بأمر يودّ الناس فيه بأسرهم بأنّ جميع الناس طراً يسأله
وذكر ابن إسحق^(٣) من رواية يونس بن بكير عنه شعراً نسبته إلى
أبي بكر الصديق^(٤) رضى الله عنه ، يذكر فيه مسيره مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقصة الغار وأمر سراقه ، وهو :

(١) الحجارة : شعوم النخل . يريد بياضها .

(٢) ابن هشام : ادله .

(٣) لم يرد هذا الخبر في ابن هشام ، إذ أن ابن هشام إنما أثبت رواية البكائي عن
ابن إسحق .

(٤) روى السهيلي أن عائشة رضى الله عنها قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال

بيت شعر في الإسلام .

قال النبي ولم يَجْزَعْ يوقرنى^(١) ونحن في سُدفَةٍ من ظُلْمَةِ الغارِ
لا تَخْشَ شَيْئًا فَإِنَّ اللَّهَ ثَالِثُنَا وقد تَوَكَّلْ لِي مِنْهُ بِإِظْهَارِ
وإنما كَنَيْدُ مَنْ نَخْشَى بَوَادِرَهُ كَيْدُ الشَّيَاطِينِ كَادَتَهُ لِكِفَارِ
وَاللَّهُ مَهْلِكُهُمْ طَرًّا بِمَا كَسَبُوا وجاعلُ الْمُنْتَهَى مِنْهُمْ إِلَى الْفَسَادِ
وَأَنْتَ مُرٌّ تَحِلُّ عَنْهُمْ وَتَارِكُهُمْ إِمَّا غَدُوًّا وَإِمَّا مُدْلِجٌ سَارِي
وَهَاجِرٌ أَرْضَهُمْ حَتَّى يَكُونَ لَنَا قَوْمٌ عَلَيْهِمْ ذَوُو عِزٍّ وَأَنْصَارِ
حَتَّى إِذَا الْيَمَلُ وَارْتَمَا جَوَانِبُهُ وَسَدَّ دُونَ مَنْ نَخْشَى بِأَسْتَارِ
سَارِ الْأَرَبِ قَطُ يَهْدِينَا وَأَنْتِيقُهُ بِعَيْنِ الْقَرَمِ نَعِيًّا نَحْتُ أَكْوَارِ^(٢)
بِعَسْفِيقٍ عَرْضَ الثَّنَا بِمَدِّ أَطْوَلِهَا وَكُلَّ سَهْبٍ رِقَاقِ التُّرْبِ مَوَّارِ^(٣)
حَتَّى إِذَا قُلْتُ قَدْ أَنْجَدَنْ عَارِضَهَا مِنْ مُدْلِجِ فَارِسٍ فِي مَنْصَبِ وَارِ^(٤)
يُرْدِي بِهِ مَشْرِفُ الْأَفْطَارِ مُعْتَزِمٌ

كَالسَّيِّدِ ذِي اللَّيْثَةِ الْمُسْتَأْسَدِ الضَّارِي^(٥)

فَقَالَ كَرُّوا فَقُلْنَا إِنْ كَرَّتْنَا مِنْ دُونِهَا لَكَ نَصْرُ الْخَالِقِ الْبَارِي
إِنْ يَخْسِفُ الْأَرْضَ بِالْأَخْوَى وَفَارِسِهِ فَاَنْظُرْ إِلَى أَرْبُعٍ فِي الْأَرْضِ غَوَّارِ^(٦)
فَمَهْلٍ لِمَا رَأَى أَرْسَاغَ مُقَرَّبِهِ قَدْ سُوِّخْنَ فِي الْأَرْضِ لَمْ تُخْفَرْ بِمُخْفَارِ
فَقَالَ هَلْ لَكُمْ أَنْ تَطْلُقُوا فَرَسِي وَتَأْخُذُوا مَوْثِقِي فِي نَصْحِ أَسْرَارِ

(١) يوقرنى : يطمئنى ، يقال : جنان وافر : لا يستخفه الفزع .

(٢) الألبق : جمع ناقة . والقرم : السيد : وينمين : يمدون .

(٣) يمسقن : يقطعن . والسهب : الغلالة . والموار : المضطرب المتحرك .

(٤) أنجدين : ارتفعن . والوارى : الشديد ، من ورى الزند ، خرجت ناره .

(٥) يردى : يجرى . ومشرف الأفطار : مرتفع النواحي . والسيد : الأسد .

(٦) الأخوى : الأسود . يربد الفرس . والأربع : المواضع .

وأصرف الحى عنكم إن لقيتمهم وأن أعور منهم عين عوار
 فاذع الذى هو عنكم كف عذوتنا يطلق جوادى وأنتم خير أبرار
 فقال قولاً رسول الله مهتلاً يارب إن كان منه غير إخبار
 فنبه سألماً من شر دعوتنا ومهزّه مطلقاً من كلام آثار
 فأظهر الله إذ يدعو حوافره ونار فارسه من هول أخطار^(١)
 وسراقة بن مالك هذا الذى أظهر الله فيه هذا العلم العظيم من أعلام
 نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قد أظهر الله فيه أثراً آخر من الآثار
 الشاهدة له عليه السلام بأن الله أطلعه من الغيب فى حياته ما ظهر مصداقه
 بعد وفاته .

روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن ، أن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك : كيف بك إذا لبست سيواري
 كسرى ؟ !

قال : فلما أتى عمر رضى الله عنه بسواري كسرى ومنطقته وتاجه
 دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها .

وكان سراقة رجلاً أزب^(٢) كثير شعر الساعدين ، وقال له : ارفع
 يدك فقل : الله أكبر الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز الذى كان

(١) روى أبو نعيم هذه القصيدة من طريق زياد بن محمد بن اسحق فذكرها مطولة
 جداً ومع ذلك فسماها الصنعة والتكلف بادية عليها ، وليس بها طابع العصر الأول .

(٢) وذلك سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه السلام . قال ابن كثير : وذلك أول
 التاريخ الإسلامى كما اتفق عليه الصحابة فى الدولة العمرية . وروى حديث البخارى عن ابن
 عباس : بعث النبي (ص) لأربعين سنة ، فسكت فيها ثلاث عشرة يوحى إليه ، ثم أمر
 بالهجرة فهاجر عشر سنين ، مات وهو ابن ثلاث وستين سنة .

(٣) الأزب : الكثير الشعر .

يقول : أنا رب الناس وألبسهما سراقة بن مالك بن جُشم أعرابياً من
بنى مُدْج ! !

ورفع بها عمر رضى الله عنه صوته .

* * *

قال ابن إسحق ، وذكر إسناداً رفعه إلى أسماء بنت أبي بكر ، قالت :
لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج معه أبو بكر احتَمَل
أبو بكر ماله كله ، خمسة ألف أو ستة ، فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد
ذهب بصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجّكم بماله مع نفسه . فقلت : يا أبت
إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . فأخذت أحجاراً فوضعتها في كتوة كان أبي يضع
ماله فيها ، ثم وضعتُ عليها ثوباً ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضَع يدك على
هذا المال . قالت : فوضع يده عليه ثم قال : لا بأس إذا كان ترك لكم هذا
فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم .

ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، واسكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

* * *

وذكر ابن إسحق الطريق التي سَلَكَ برسول الله صلى الله عليه وسلم
وبأبي بكر الصديق رضى الله عنه دليله عبدُ الله بن أَرْقِط ، والمناقل التي سار
بهما عليها إلى أن قَدِمَ بهما قُبَاء على بنى عمرو بن عوف لا ثلثي عشرة
ليلة خلت من ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحى وكادت
الشمس تعتدل .

وقال غير ابن إسحق : قَدِمَا لثَمَانِ خَلَوْنَ مِنْ ربيع الأول .

وقال ابن السكبي : خرج من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول ،
ووصل المدينة يوم الجمعة لا ثلثي عشرة منه . فالله تعالى أعلم .

[دخول النبي المدينة]

وذكر ابن إسحق من حديث عبد الرحمن بن عوف بن سعد قال :
حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا^(١) :
لما سمعنا يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة توكلنا^(٢) قدومه ،
فكنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا فننظره ، فوالله ما نبرح حتى
تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلًا دخلنا ، وذلك في أيام حارة .
حتى إذا كان اليوم الذي قديم فيه جاسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم
يَبْقَ ظِلٌّ دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا
البيوت ، فساكن أول من رآه رجل من يهود وقد رأى ما كنا نصنع وأنا
فننظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته :
يا بني قيلة هذا جدكم قد جاء .

فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر
في مثل سببه ، وأكثرتنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ،
وركيه الناس ، وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك .

قال ابن إسحق : فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون على
كلثوم بن هذم ، أخى بني عمرو بن عوف . ويقال : بل نزل على سعد
ابن حشيمة .

ويقول من يذكرون نزوله على كلثوم أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج

(١) الأصل : قال .

(٢) قال الزعفراني : ومن المجاز : فلان يتوكل الأخبار نحو : يستعقل الأخبار .
واللهي : ترقبناه وانتظرناه .

من منزل كلثوم جلس للعباس في بيت سعد بن خيثمة ، لأنه كان عزباً لا أهل له ، فمن هناك يقال نزل عليه . وكان يقال لبیت سعد : بيت العزب^(١) ، لأنه كان منزل المهاجرين منهم . قاله أعلم أى ذلك كان .
ونزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على خبيب بن إيساف ، أحد بنى الحارث بن الخزرج بالشنع ، ويقال على خارجة بن زيد بن أبي زهير منهم .

* * *

وأقام على بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها ، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للعباس ، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل معه .
فكان على رضى الله عنه - وإنما كانت إقامته بقاء ليلة أو ليلتين - يقول : كانت بقاء امرأة مسلمة لا زوج لها ، فرأيت إنساناً بأنيها من جوف الليل فيضرب عليها بأبها فتخرج إليه فيعطها شيئاً معه فتأخذه .

قال : فاستترت شأنه ، فقلت لها : يا أمة الله ، من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو ، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟

قالت : هذا سهل بن حنيف ، قد عرف أنى امرأة لا أحد لى ، فإذا أمسى عدا على أو ثمان قومه فكسرها ثم جاءني بها فقال : احتطبي بهذا !
فكان على رضى الله عنه يأنر ذلك في أمر سهل بنت حنيف ، حين^(٢) هلك عنده بالعراق .

* * *

(١) في شرح السيرة لأبي ذر : الأعزب .

(٢) ابن هشام : حتى .

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمُتَبَاءَ في بني عمرو
ابن عوف يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسسَ مسجدَهم ثم
أخرجه الله تعالى من بين أظهرهم يوم الجمعة .

وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك^(١) ،
فأله أعلم .

فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعةُ في بني سالم بن عوف
فصلاًها في المسجد الذي في بطن الوادي ، وادى رانُونَاء ، فكانت أول جمعة
صلاها في المدينة .

فأتاه عَتَبَانُ بن مالك وعباس بن عُبادَةَ بن نَضْلَةَ ، في رجال من بني سالم ،
فقالوا : يا رسول الله ، صلى الله عليك ، أقيم عندنا في العَدَدَ والمُدَّةَ والمنعة .
قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . لنافقه . تخلّوا سبيلها .

فانطلقت حتى إذا وازنت دارَ بني بَيَاضَةَ تلقَّاهُ زيادُ بن لبيد وفَرَوَةَ
ابن عمرو ، رجال من بني بَيَاضَةَ ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا إلى العَدَدَ
والمُدَّةَ والمنعة . قال : خلّوا سبيلها فإنها مأمورة تخلّوا سبيلها .

فانطلقت حتى إذا وازنت دارَ بني الحارث بن الخزرج اعترضه سعد
ابن الربيع وخارجة بن زيد بن أبي زهير وعبد الله بن رَوَاحَةَ ، رجال من
بلحارث^(٢) ، فقالوا يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والمُدَّةَ والمنعة . قال :
خلّوا سبيلها فإنها مأمورة . تخلّوا سبيلها .

فانطلقت حتى إذا مرّت بدار بني عدى بن النجار وهم أخواله دُنِيَا

(١) ترددت روايات الزيادة عن ذلك بين أربع عشرة ليلة وثماني عشرة ليلة
واثنتين وعشرين .

(٢) ابن هشام : مل بني الحارث بن الخزرج .

أمّ عبد المطلب سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم ، اعترضه سليط بن قيس وأبو سليط أسيرة بن أبي خارجة ، في رجال منهم ، فقالوا : يا رسول الله هلم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة . قال . خلوا سبيلها .

حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده ، وهو يومئذ مرابطاً لفلانين يتيمين من بني مالك بن النجار ، في حجر معاذ بن عفراء فلما بركت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل وتبدت ، فسارت غير بعيد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامها لا يتنكبها به ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تحلّجت ورزمت ووضعت جرائنها^(١) فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتمل أبو أيوب رحله فوضعه في بيته .

[بناء المسجد]

ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بنى مسجده ومساكنه ، وسأل عن العير^١ لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهيل وسهيل ابني عمرو ، وهما يتيمان له وسأرضيهما منه ، فاتخذ مسجداً .

فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُبَنَّى ، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل المهاجرون والأنصار ودأبوا . فقال قائل من المسلمين :

لئن قمنا والنبي يعمل فذاك منا العمل المضلل

(١) تحلّجت . تحرّكت وانزجرت . ورزمت : أظمت من الكلال . والجران ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن حلقها .

وحدّث أبو أيوب قال : لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل في الشغل وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت له : يا نبي الله بأبي أنت وأمي إني لأكره وأُعْظِم أن أكون فوقك وتسكون تحتي ، فظهر أنت فسكن في العلو ونزل نحن ففسكون في الشغل . فقال : يا أبا أيوب ، إن أرقت بفا وبمن يفشاننا أن نسكون في سفلى البيت .

فلقد انكسر حُبُّ لنا فيه ماء ، فقامت أنا وأم أيوب بقطيفة ما لنا لحاف غيرها نَنَشِف بها الماء ، تخوفاً أن يَقْطُر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء فيؤذيه .

فكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه ، فإذا رَدَّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه ، نبتغي بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بمشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً ، فردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر ليده فيه أثراً ، فخبثته فزِعاً فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة . قال : إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجى ، فأما أنتم فكلوه . فأكلناه ولم نضع له تلك الشجرة بعد .

* * *

قال ابن إسحاق : وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ، ولم يؤعب أهل هجرة من مكة بأهلهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، إلا أهل دُورِ مُسَمُون .

بدو مَظْمُون من بني جُحَيْح ، وبدو جُحَيْش بن رِثَاب ، حلفاء بني أمية ،

وبنو البُكَيْر من بنى سعد بن ليث ، حلفاء بنى عدى بن كعب ، فلِئِ دورهم غلقت بمكة هجرة ، ليس فيها ساكن .

[أول خطبة للنبي بالمدينة]

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة ، بُنى له فيها مسجده ومساكنه .

قال : وكانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن - نعوذ بالله أن نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل - أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس فقدموا لأنفسكم تَعْلَمُونَ والله يُصْطَقُّ أَحَدَكُمْ ثُمَّ لِيَدَعَنَّ غَدَمَهُ لَيْسَ لَهُ رَاغٍ ، ثُمَّ لِيَقُولَنَّ لَهُ رَبِّهِ ، لَيْسَ لَهُ تَرْجَانٌ وَلَا حَاجِبٌ يَحْجِبُهُ دُونَهُ : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولِي فَهَلَّا تَكُونُوا لِيَتَبَلَّغَكُمْ مَالًا وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكُمْ فَمَا قَدَّمْتُمْ لِنَفْسِكُمْ ؟

فَلْيَنْظُرَنَّ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَا يَرَى شَيْئًا ، ثُمَّ لِيَنْظُرَنَّ قَدَامَهُ فَلَا يَرَى غَيْرَ جَهَنَّمَ .

فمن استطاع أن يَتَّقِيَ وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال ابن إسحق : ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس مرة أخرى فقال : إن الحمد لله أحده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضِلِّ الله فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله

تبارك وتعالى ، قد أفلح من زَيَّنَه الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعمد الكفر ، فاختاره^(١) على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملأوا كلام الله وذِكْرَه ، ولا تنس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، فقد سَمَّاه [الله]^(٢) خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ومن كل ما أوتي الناس الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بديكم ، إن الله يغضب أن يُنكث عهده ، والسلام عليكم .

[الإخاء ، وموادعة اليهود]

قال ابن إسحق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادّع فيه يهود وعاهدم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم .

وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا - ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل : تأخّوا في الله أخوين أخوين . ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخى . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيد المرسلين وإمام المؤمنين ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلي بن أبي طالب أخوين .

ثم سمى ابن إسحق نفرأ بمن آخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه تركنا ذكرهم اختصاراً .

(١) ابن هشام : واختاره .

(٢) من ابن هشام .

[وفاة أسعد بن زُرارة]

قال : وهلك في تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زُرارة ، والمسجدُ
يَبْنَى ، أخذته الذبحة أو الشبهة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بُئْسَ
المَيتُ أبو أمامة ليهود ولمُنافقٍ^(١) العرب ، يقولون : لو كان نبياً لم يمت
صاحبه ! ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً .

ولما مات أبو أمامة اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وكان أبو أمامة نقيبهم ، فقالوا : يا رسول الله إنَّ هذا كان مداً
حيث قد علمت ، فاجعل منا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم أخوالي وأنا أُولَى بكم ، فأنا
نقيبكم . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخصَّ بها بعضهم دون بعض .
فكان من فضل بنى النجار الذى يمدُّون على قومهم أن كان
رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نقيبهم .

[الأذان]

قال ابن إسحق : فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة
واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمرُ الأنصار ، استحكم أمر
الإسلام فقامت الصلاة وفُرِضَت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود وفُرِضَ
الحلال والحرام وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحث من الأنصار
الذين تبوأوا الدارَ والإيمانَ .

وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها إنما يجتمع إليه
الناس للصلاة في مواقيتها^(٢) بغير دعوة ، فهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

(١) ابن هشام : ومنافق .

(٢) ابن هشام : لحين مواقيتها .

أن يجعل بُوقاً كبوق يهود الذى يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر
بالناقوس فنُحِتَ ليُضْرَبَ به للمسلمين للصلاة .

فَبَيْنَمَا هم على ذلك رأى عبدُ الله بن زيد أخو بلجارت بن الخزرج
النداء ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله إنه طاف
بى هذه الليلة طائف ، مرّ بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى
يده ، فقلت : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعوا
به إلى الصلاة . قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال :
تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ،
أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حتى على الصلاة ،
حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح ، حتى على الملاح ، الله أكبر ، الله أكبر ،
لا إله إلا الله .

فلما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنها لرؤيا حقّة
إن شاء الله ، فقم مع بلال فآلقها عليه فليؤذّن بها فإنه أنذى ^(١) صوتاً منك .

فلما أذّن بها بلالٌ سمعها عمر بن الخطاب وهو فى بيته ، فخرج إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجرّ رداءه وهو يقول : يا نبي الله والذى
بعمتك بالحق لقد رأيتُ مثل الذى رأى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
فله الحمد ^(٢) .

وذكر ابن هشام عن عُبَيْد بن عُمَيْر أن عمر بن الخطاب بَيْنَا هو يريد
أن يشتري خشبتين للناقوس عند ما ائتمر ^(٣) به النبي صلى الله عليه وسلم
وأصحابه إذ رأى فى المنام أن لا يجعلوا الناقوس ، بل أذّنوا بالصلاة .

(١) أنذى : أبعد .

(٢) ابن هشام : فله الحمد على ذلك .

(٣) ائتمر : هم به .

فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بالذي رأى ، فمسا راعه
إلا بلالاً يؤذن ، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بذلك . فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره : سَبَقَكَ ^(١) بذلك الوحي .

* * *

قال ابن إسحق : فلما اطمانت برسول الله صلى الله عليه وسلم داره
وأظهر الله بها دينه وسره بما جمع من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته
قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس أخو بني عدي بن النجار ، يذكر
ما أكرمهم الله تبارك وتعالى به من الإسلام ، وما خصهم به من نزول
رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة	يذكر لو يلقى صديقاً موثقاً ^(٢)
ويعرض في أهل المواسم نفسه	فلم ير من يؤوى ولم ير داعياً
فلما أناما أظهر الله دينه	فأصبح مسروراً بطيبة راضياً
والقى صديقاً واطمانت به النوى	وكان له عوناً من الله هادياً ^(٣)
يقص لنا ما قال نوح لقومه	وما قال موسى إذ أجاب للمادياً
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً	قريباً ولا يخشى من الناس نائياً
بذلنا له الأموال من أجل مالنا	وأنفسنا عند الوغى والتأسياً
ونعلم أن الله لا شيء غيره	ونعلم أن الله أفضل هادياً

(١) ابن هشام : قد سبقك .

(٢) ثوى : أقام . والحجج : العام . والمواثي : المساعد .

(٣) الذوى : العمد . وى ابن هشام : عوناً من الله هادياً .

نُعَادِي الذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمَصَافِيَا
أَقُولُ إِذَا أَدْعُوكَ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ تَبَارَكَتَ قَدْ أَكْثَرْتَ لاسْمِكَ دَاعِيًا^(١)
أَقُولُ إِذَا جَارَزْتَ أَرْضًا مَخُوفَةً حَمَانِيكَ لَا تُظْهَرُ عَلَى الْأَعَادِيَا^(٢)
فَطَأًا مُعْرِضًا إِنْ الْخُفُوفَ كَثِيرَةٌ وَإِنَّكَ لَا تُبْقِي لِنَفْسِكَ بَاقِيَا
فَوَاللَّهِ مَا يَدْرِي الْفَتَى كَيْفَ يَبْقَى إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهُ وَاقِيَا
وَلَا يَجْعَلُ النِّخْلُ الْمَقِيمَةَ رَبِّهَا إِذَا أَصْبَحْتَ رَبِّيَا وَأَصْبَحَ ثَوَابِيَا^(٣)
وَكَانَ أَبُو قَيْسٍ هَذَا رَجُلًا قَدْ نَزَّهَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَبَسَ السُّوْحَ وَفَارَقَ
الْأَوْثَانَ وَاغْتَسَلَ مِنَ الْجَنَابَةِ وَتَطَهَّرَ مِنَ الْخَائِضِ مِنَ الْإِنْسَاءِ وَهَمَّ بِالنِّصْرَانِيَّةِ
ثُمَّ أَمْسَكَ عَنْهَا وَدَخَلَ بَيْتًا لَهُ فَاتَّخَذَهُ مَسْجِدًا لَا يَدْخُلُ فِيهِ طَائِفَةٌ
وَلَا جُذُبٌ وَقَالَ : أَعْبُدُ رَبِّي إِبْرَاهِيمَ . حَتَّى قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، وَكَانَ قَوًّا لَا بِالْحَقِّ . مَعْظَمًا
لِلَّهِ فِي جَاهِلِيَّتِهِ يَقُولُ فِي ذَلِكَ أَشْعَارًا حَسَنًا ، هُوَ الَّذِي يَقُولُ :

يَقُولُ أَبُو قَيْسٍ وَأَصْبَحَ غَادِيَا أَلَا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ وَصَائِي فَاغْتَدُوا
أَوْصِيَكُمْ بِاللَّهِ وَالْبِرِّ وَالنَّقَى وَأَعْرَاضَكُمْ وَالْبِرِّ بِاللَّهِ أَوَّلُ
وَأَنْ قَوْمَكُمْ سَادُوا فَلَا تَخْشَدْتُمْهُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ الرِّيَاسَةِ فَاعْدِلُوا
وَإِنْ نَزَلَتْ لِأَحَدٍ الدَّوَاهِي بِقَوْمِكُمْ فَأَنْفُسَكُمْ دُونَ الْعَشِيرَةِ فَاجْعَلُوا

(١) البيعة : مكان العبادة . ومي في الأصل : معبد النصاري .

(٢) حمانيك : رحمتك .

(٣) ابن هشام : ولا تحفل النخل المقيمة . . ومعنى البيت غير واضح . ولعل مراده .

بربها : أصلها .

وإن ناب غُرْمٌ فادحٌ فارقوم^(١) وما حَلَّوكم في الملَّات فاحملوا
وإن أنتم أمعرتم^(٢) فتعففوا
وإن كان فضلُ الخير فيكم فأفضوا

وقال أبو قيس أيضاً :

سَبَّحُوا اللهَ شَرْقَ كُلِّ صَبَاحٍ طلعت شمسُه وكلَّ هِلَالٍ
عالم السِّرِّ والبيانِ لديننا ليس ما قال ربُّنا بضلالٍ
وله الطير تستدير^(٣) وتأوى في وكورٍ من آمِنات الجبالِ
وله الوحشُ بالَفَلَاةِ تراها في حِقَافٍ وفي ظلالِ الرمالِ^(٤)
وله هَوْدَتُ يَهُودُ ودانت كلَّ دينٍ إذا ذكرتَ عُضَالِ^(٥)
وله شَمْسُ^(٦) النَّصَارَى وقاموا كلَّ عِيدٍ لَدَيْهِمْ^(٧) واحتفالِ
وله الراهبُ الحَبِيسُ تراه رَهَنَ بُؤْسٍ وكانَ ناعِمَ بالِ
يا بَنِي الأَرْحَامِ لا تَقْطَعُوهَا وصلوها قصيرةً من طِوَالِ
واتقوا اللهَ في ضِعَافِ اليَتَامَى ربَّما يَسْتَحِلُّ غَيْرُ الحلالِ
واعلموا أن لليتيمِ وليًّا طالما يَهْتَدِي بِغَيْرِ السَّوَالِ

(١) ط : فارقوم .

(٢) أمعرتم : التقرتم .

(٣) ابن هشام : تستدير .

(٤) الفلاة : الصحراء . والحفاف : جمع حقف ، وهو الرمل العظيم المستدير .

(٥) العضال : الشديد .

(٦) شمس : تعبد .

(٧) ابن هشام : لريهم .

ثم مالَ اليتيم لا تأكلوه إن مالَ اليتيم يرعاه والي
يا بَنَى النجومَ لا تخزلوها إن خزلَ النجوم ذو عُمَالٍ^(١)
يا بَنَى الأيامَ لا تأمُدوها واحذروا مَكْرَهَا وَمَرَّ اللَّيَالِي
واعلموا أن أمرها لنفاد الخلق ما كان من جديدٍ وبالي
واجمعوا أمركم على البر والتقوى وترك الخلفاء وأخذ الحلال

* * *

قال ابن إسحق: ونصب^(٢) عند ذلك أحبارُ يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم المداوة بغير حسدٍ وضيقٍ لما خصَّ الله العربَ من أخذه رسوله منهم . وانضاف إليهم رجالٌ من الأوس والخزرج ، ممن كان عسى^(٣) على جاهليته فكانوا أهلَ نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام واتخذوه جنة من القتل ، وناقضوا في السر فكان هوام مع يهود لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وجحودهم الإسلام .

وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ويتمنّونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل ، [إلا ما كان من عبد الله ابن سلامٍ ومُخْزِرِيقٍ]^(٤) فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه إلا قليلا من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها .

(١) النجوم : الأسول وتخزلوها : تقطعوها . العقال : داء في رجل الدابة ، إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط - ورواية البيت في ابن هشام :
يا بَنَى النجوم لا تخزلوها .. إن خزل النجوم ذو عُمَالٍ
وفسر السهيل النجوم بالحدود بين القرى .. وأرى أن ما هنا أصح .
(٢) ابن هشام : وأصبحت .
(٣) عسى : غلط ، أى كبر وتقدم به السن .
(٤) ليست في ابن هشام .

[إسلام عبد الله بن سلام]

وكان من حديث عبد الله بن سلام وإسلامه ، وكان حَبْرًا عالمًا قال : لما سمعتُ برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفتُ صِدْقَهُ واسمَهُ وزمانَهُ الذي كُنا نتوَكَّفُ^(١) له ، فكُنتُ مُسِيرًا لذلك صامتًا عليه حتى قَدِمَ المدينة .

فلما نزل بَقُيَاءَ في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة ، فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كَبُرْتُ ، فقالت لي عمتي حين سمعتُ تكبيرتي : حَيِّيكَ الله ! لو كُنتَ سمعتَ موسى بن عمران قادمًا ما زِدْتُ !

فقلت لها : أي عَمَّة ، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه ، بُعثَ بما بُعثَ به .

فقلت : أي ابن أخي ، أهو النبي الذي كُنا نُخَبِّرُ أنه يُبعثُ مع نفس الساعة ؟ فقلت لها : نعم . فقالت : فذاك إذا .

قال : ثم رُحْتُ^(٢) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمتُ ثم رجعتُ إلى أهلي فأمرتهم فأسلموا وكنتمُ إسلامي من يهود .

ثم جِئْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إن يهود قومٌ بُهتَ ، وإنِّي أحبُّ أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيثني عنهم ، ثم تسألهم عني حتى يجزوك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي ، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني .

(١) توَكَّفَ : لانتظر .

(٢) ابن هشام : ثم رجعت .

قال : فأدخلني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض بيوته ، ودخلوا عليه فكلّموه وسألوه ثم قال لهم : أي رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ فقالوا سيدنا وابن سيدنا وخبرنا وعالمنا .

فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فإني أشهد أنه رسول الله وأومِن به وأصدقّه وأعرفه . قالوا : كذبت . ثم وقعوا بي .

فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يا نبي الله^(١) أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب ونجور ؟

قال : فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي ، وأسلمت عتي خالدة فحسّن إسلامها .

[إسلام مخبريق]

قال ابن إسحاق : وكان من حديث مخبريق ، وكان حبراً عالمًا غنياً^(٢) كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وما يجد في علمه ، وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أُحُد ، وكان يوم السبت ، قال : يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نهر محمد عليكم لحق . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لا سبت عليكم^(٣) ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم [وأصحابه]^(٤)

(١) ابن هشام : يا رسول الله .

(٢) ابن هشام : وكان رجلاً غنياً .

(٣) ابن هشام : لكم .

(٤) ليست في ابن هشام ،

بِأَحَدٍ ، وَعَهْدَ إِلَى مَنْ وِرَاءَهُ مِنْ قَوْمِهِ : إِنْ قُتِلَتْ هَذَا الْيَوْمَ فَأَمْوَالِي لِلْحَمْدِ بِصَنْعِ
فِيهَا مَا أَرَادَ اللَّهُ .

فَلَمَّا اقْتَتَلَ الدَّاسُ قَاتِلَ حَتَّى قُتِلَ ، وَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أَمْوَالَهُ ، فَعَامَتَهُ صَدَقَاتُهُ بِالْمَدِينَةِ مِنْهَا .

وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا بِلَغْنَى يَقُولُ : نَحْيِرُ بَقِي خَيْرُ يَهُودٍ .

[المداوة]

قَالَ : وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثْتُ عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُجَيْفٍ
أَنَّهَا قَالَتْ : كُنْتُ أَحَبَّ وَلَدِ أَبِي إِلَيْهِ وَإِلَى عَمِي أَبِي يَاسِرٍ ، لَمْ أَلْقَهُمَا مَعَ
وَلَدِهِمَا إِلَّا أَخَذَانِي دُونَهُ ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ غَدَا
عَلَيْهِ أَبِي وَعَمِي مُتَمَلِّسَيْنِ فَلَمَّا يَرَجَعَا حَتَّى كَانَ مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، فَأَتَيْتُمَا كَاتِلَيْنِ
كَنْسَلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوْبَيْنِ فَهَشَشْتُ إِلَيْهِمَا كَمَا كَفْتُ أَصْنَعُ ،
فَوَاللَّهِ مَا لَقِيتُ إِلَيَّ وَاحِدَ مِنْهُمَا مَعَ مَا بِهِمَا مِنَ الْقَمِ ، وَسَمِعْتُ عَمِي أَبَا يَاسِرٍ
وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي : أَهْوُ هُوَ ؟ قَالَ نَعَمْ وَاللَّهِ . قَالَ : أَنْتَ تَعْرِفُهُ وَتَثْبُتُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ .
قَالَ : فَنَافِي نَفْسِكَ مِنْهُ ؟ قَالَ : عِدَاوَتُهُ وَاللَّهِ مَا بَقِيَتْ .

وَكَانَ^(١) هَذَانِ الْأَخْوَانِ الشَّقِيَّانِ مِنْ أَشَدِّ يَهُودٍ لِلْعَرَبِ حَسَدًا لِمَا
خَصَّصَهُمُ اللَّهُ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَانَا جَاهِدَيْنِ فِي رَدِّ النَّاسِ عَنِ
الْإِسْلَامِ بِمَا اسْتَطَاعَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمَا : « وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ
السَّكَاةِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا كَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ،
مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٢) » .

(١) ليست عن ابن هشام .

(٢) سورة البقرة ١٠٩ .

ومرَّ شأس بن قيس ، وكان شيخاً قد عسى^(١) عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فماظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بَينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملائني قتيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لذا معهم إذا اجتمع مأوهم بها من قرار .

فأمر شاباً من يهود كان معه فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بُعث وما كان فيه وأنشدكم بعض ما كانوا يقولوا فيه من الأشعار . وكان يوماً قد اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه الأوس ، وكان عليها يومئذ حُضَيْرٌ أبو أُسَيْد ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البَيَّاضِي فقتلوا جميعاً .

ففعل الشاب ما أمره به شأس ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى توائب رجلان من الحيين على الركب وهما أوس بن قَيْظِي وجَبَّار ابن صخر فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جَذْعَة . وغضب الفريقان منه جميعاً وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة - وهي الحرة - السلاح السلاح .

فخرجوا إليها ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين الله الله ! أيدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم^(٢) .

(١) عسى : أسن .

(٢) ابن هشام : بين قلوبكم .

فعرِف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان وكيدةٌ من عدوهم فبسكوا وعانقوا الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيدَ عدو الله شأس بن قيس .
فأنزل الله تبارك وتعالى في شأن شأس ^(١) وما صنع : « قل يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » ^(٢) .

وأنزل الله في أوس بن قَيْظَى وَجَبَّارِ بْنِ صَخْرٍ ومن كان معهم من قومهم الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » ^(٣) .

* * *

قال ^(٤) : وحُدِّثت عن سعيد بن جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ : أَنَى رَهْطٌ مِنْ يَهُودٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَالُوا لَهُ : يَا مُحَمَّد ، هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ ، فَمَنْ

(١) ابن هشام : في شأس .

(٢) سورة آل عمران ٩٩ .

(٣) سورة آل عمران ١٠٠ — ١٠٣ .

(٤) ترك المؤلف ذكر كثير من حوادث اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذكرها ابن هشام ٢ / ٢٠٤ — ٢٢٠ .

خَلَقَهُ ؟ قَالَ : فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى انْتَقَسَ لَوْنُهُ ، ثُمَّ سَاوَرَهُمْ ^(١) غَضَبًا لِرَبِّهِ ، فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ فَسَكَّنَهُ فَقَالَ : خَفِّضْ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَجَاءَهُ مِنَ اللَّهِ بِجَوَابٍ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

فَلَمَّا تَلَاهَا عَلَيْهِمْ قَالُوا : فَصِّفْ لَنَا يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ خَلَقَهُ ؟ كَيْفَ ذَرَأَهُ كَيْفَ عَصَدُهُ ؟

فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِهِ الْأَوَّلِ وَسَاوَرَهُمْ ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَجَاءَهُ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِجَوَابٍ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ ، يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمُوتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » ^(٢) .

* * *

وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْتَ الْمِئْدَرَسِ ^(٣) عَلَى يَهُودٍ ، فَوَجَدَ مِنْهُمْ نَاسًا كَثِيرًا قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ فَيْضُحَاصُ وَكَانَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ ، وَمَعَهُ خَبَرٌ مِنْ أَحْبَارِهِمْ يُقَالُ لَهُ أَشْيَعُ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِفَيْضُحَاصَ : وَيْلَكَ ^(٤) ! أَتَقِ اللَّهَ وَأَسْلِمَ ، فَوَاللَّهِ لَأَنْتَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ ، نَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ .

(١) سَاوَرَهُمْ : وَاقَبَهُمْ .

(٢) سُورَةُ الزُّمَرِ ٦٧ .

(٣) بَيْتُ الْمِئْدَرَسِ : الْبَيْتُ الَّذِي يَتَدَرَّسُ فِيهِ الْيَهُودُ كَتَبَتِهِمْ .

(٤) ابْنُ هِشَامٍ : وَيْحَكَ .

فقال فنحاص لأبي بكر : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإننا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، إنها كم عن الربا ويمطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر فضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربتُ رأسك أى عدو الله .

فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، إنه زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال فضربتُ وجهه . فجحد ذلك فنحاص وقال : ما قلتُ ذلك .

فأنزل الله عز وجل فيما قال فنحاص ردّاً عليه وتصديقاً لأبي بكر : « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : « إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ »^(١) »

ونزل فى أبى بكر وما بلغه فى ذلك من الغضب : « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ، وَإِنْ تُصْبِرُوا وَنَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ »^(٢) .

١) سورة آل عمران ١٨١ .

٢) سورة آل عمران ١٨٦ .

[المذافقون]

وكان ممن انضاف إلى يهود من المذافقين من الأوس والخزرج فيما ذكروا والله أعلم :

من الأوس : جُلَّاسُ بنُ سُؤيد بن الصامت من بنى حبيب بن عمرو ابن عوف ، وهو القائل : - وكان ممن نخاف عن غزوة تبوك : ان كان هذا الرجل صادقاً لنحن شرّاً من الحُمُر .

وكان في حجره عُمير بن سعد ، خلف جُلَّاسُ على أمه بعد أبيه ، فقال له عُمير : والله يا جُلَّاسُ إنك لأحب الناس إلى وأحسنه عندي وأعزّه على أن يصيبه شيء يكرهه ، ولقد قلتَ مقالةً لن رفعها عليك لأفضحك ، ولئن صممتُ عليها ليهلكن ديني ، ولا أحداهما أيسرُ على من الأخرى .

ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال جُلَّاسُ ، فخلف جلاس لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالله لقد كذب على عُمير وما قلتُ ما قال .

فأنزل الله فيه : « يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتُّوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَمْذِبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » (١) .

فزعوا أنه تاب فحسن توبته حتى عُرف فيه الإسلام والخير .
وأخوه الحارث بن سُؤيد ، قَتَلَ الجُذَر بن ذِياد البَلَوِي .

وذلك أن المجذَر - فيما ذكر ابن هشام - قتل أباه سويدَ بن الصامت في بعض الحروب إذ كانت بين الأوس والخزرج ، فلما كان يوم أحد طلب الحارث غِرَّةَ المجذرية قتله بأبيه ، فقتله .

وذكر ابن إسحق أن سويداً إنما قتل معاذ بن عفراء غيلةً في غير حرب ، رماه بسهم فقتله قبل يوم بُعث .

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون قد أمر عمر ابن الخطاب بقتل الحارث إن هو ظفر به ، ففاته فكان بمكة ، ثم بعث إلى أخيه جُلَّاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه . فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : « كيف يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ^(١) » إلى آخر القصة .

ونَبَتِلُ بن الحارث من بني ^(٢) ضبيعة بن زيد بن مالك ، وهو القائل :
إنما محمد أذنٌ من حديثه شيئاً صدَّقه .

فأنزل الله تعالى : وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبُرُوءٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(٣) »

وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر : « من أحب أن

(١) سورة آل عمران ٨٦ .

(٢) كذا بالأصل وهو خطأ ، فنبتل كما ذكر ابن هشام : من بني لؤذان بن عمرو ابن عوف ، أما الذي من بني ضبيعة بن زيد بن مالك فهو بجاد بن عثمان بن عامر . ابن هشام :

٢ / ١٦٨ .

(٣) سورة التوبة ٦١ .

يدنظر إلى الشيطان فليدنظر إلى نبتك بن الحارث « وكان جسيماً أذكماً^(١)
 ثائر شعر الرأس أحمر العينين . وذكر أن جبريل أتى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم فقال : إنه يجلس إليك رجل أذكماً ثائر شعر الرأس أشفع
 الخدين^(٢) أحمر العينين كأنهما قد ران من صفر^(٣) كبده أغلظ من كبد
 الحمار ، يدنقل حديثك إلى المنافقين ، فاحذره .

وعمر بن خنّام ، وعبد الله بن نبتل ، وجارية بن عامر بن العطاء
 وابناه زيد ومجّمع وهم ممن اتخذ مسجد الضرار .

وكان مجّمع ، غلاماً قد جمع من القرآن أكثره ، وكان يصلى بهم
 فيه ، فلما كان زمان عمر بن الخطاب كلّم في مجّمع ليصلى بقومه بنى عمرو
 ابن عوف في مسجدهم ، فقال : لا ، أو ليس بإمام المنافقين في مسجد الضرار !
 فقال له مجّمع : يا أمير المؤمنين والله الذى لا إله إلا هو ما علمتُ بشيء
 من أمرهم ، ولكنى كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا لا قرآن معهم ،
 فقدموني أصلى بهم وما أرى أمرهم إلا على أحسن ما ذكروا .
 فزعموا أن عمر رضى الله عنه تركه فصلّى بقومه .

* * *

ومن الخزرج ، ثم من بنى عوف : عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وكان
 رأس المنافقين وإليه يجتمعون .

وهو الذى قال فى غزوة بنى المصطلق : لئن رجعنا إلى المدينة ليخربنَّ

(١) الأذم : الأسود الطويل .

(٢) الأشفع : الداحب .

(٣) الصفر : النحاس .

الأعزُّ منها الأذلَّ . وسيأتى ذكر ذلك مستوفياً وبيان سببه عند الانتهاء إلى غزوة بنى المصطلق ، إن شاء الله تعالى .

وقدِم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيدُ أهلها عبد الله ابن أبيّ هذا ، ولا يَخْتَلَف عليه في شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين .

حتى جاء الإسلام ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع ، أبو عامر عبد عمرو بن صَيْفِيّ بن النعمان أحد بنى ضُبَيْعَةَ بن زيد ، وهو أبو حَنْظَلَةَ النَّسِيلِ يومَ أُحُد ، وكان قد ترهَّب ولبس المسوح فكان يقال له الراهب ، فشَقِيًّا بشرفهما !

أمّا عبد الله بن أبيّ فكان قومه قد نظموا له أَنْخَرَزَ لِيَتَوَجَّوه وَيَمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ ، فجاءهم الله تبارك وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ، فلما انصرف عنه قومه إلى الإسلام ضَعِفَ ورَأَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقلَّه مُسَكًّا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مُصِيرًا على نفاق وضيغن .

وحدَّث أسامةُ بن زيد حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رَكِب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادَةَ يعودُه من شَكْوِ أَصَابِهِ على حمار عليه لحافٌ^(١) فوقه قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ^(٢) مَخْطُومَةٌ^(٣) بجبل من ليف وأزْدَفَنِي خَلْفَهُ ، فَرَّ بعبد الله بن أبيّ وحوله رجال من قومه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تَذَمَّعَ أن يجاوزَه حتى ينزل ، فنزل فسَلَّمَ ثم جلس فتلا القرآن ودعا إلى الله وذَكَرَ به وحذَّر وبَشَّرَ وأنذَر ، وعبدُ الله زامٌ

(١) ابن هشام : لكاف .

(٢) فدكية : منسوبة إلى فدك وهي قرية بالحجاز قرب المدينة .

(٣) ابن هشام : مخطومه .

لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً ، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تغشّه ^(١) به ولا تأت به في مجلسه بما يكره .
فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى فأغشينا به واثقنا في مجالسنا ودورنا وبموتنا ، فهو والله ما نحب وما أكرمنا الله به وهدانا له .

فقال عبد الله حين رأى من خلاف قومه ما رأى :
مَتَى يَسْكُنُ مَوْلَاكَ خَصْمَكَ لَمْ تَزَلْ ^(٢) تَذِكُ وَيَصْرَعُكَ الَّذِينَ تَصَارِعُ
وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحِهِ وَإِنْ جُدَّ يَوْمًا رِيْشُهُ فَهَوَّ وَاقِعُ
قال : وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على سعد بن عباد
وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبي ، فقال : والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً : لكأنك سمعت شيئاً تكرهه ؟ قال : أجل . ثم أحبره بما قال ابن أبي . فقال سعد : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظّم له الخرز لنتموجّه ، فإنه أكبرى أن قد سلّبتّه ملكاً !

* * *

وأما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام ، وأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فقال : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم . قال : فأنا عليها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لست عليها ^(٣) .
قال : إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها . قال : ما فعلتُ

(١) ابن هشام : فلا تغشّه . وهي رواية .

(٢) ابن هشام : لا تزل .

(٣) زاد في ابن هشام : « قال بلى » .

ولكنى جئتُ بها ببيضاء نقيّة . قال : الكاذب أمانته الله طريداً غريباً وحيداً . يعرض برسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل ، فمن كذب يفعل الله ذلك به .

فكان هو ذلك عدو الله ، خرج إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا : الراهب ، ولكن قولوا الفاسق .

فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فأت بها طريداً غريباً وحيداً .

* * *

قال ابن إسحق : وكان ممن تعوذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار يهود ، من بنى قَيْنُقَاع : سعد بن حنيفة ، وثمان بن أوفى ، وثمان بن أوفى ، وزيد بن اللصيت ، وهو الذى قال حين ضلّت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودُلّ على ناقة وجاء الخبر بما قال عدو الله فى رحله : « إن قائلاً قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقة ، وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها فهى فى هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها » .

فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما وصف .

* * *

وكان هؤلاء المنافقون السّمون وغيرهم ممن لم يُسمّ يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهنئون بدينهم .

فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضين أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً .

فقام أبو أيوب خالد بن زيد إلى عمرو بن قيس أحد بني غنم بن مالك ابن النجار ، وكان صاحب آلتهم في الجاهلية ، فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد ، وهو يقول : أنخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة !

ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن ودبة أحد بني النجار فلبّيه بردائه ثم نثره نثراً شديداً ثم لعن وجهه وأخرجه ^(١) من المسجد وهو يقول : أف لك منافقاً خبيثاً ، أذرا جاك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقام عمار بن حزم إلى زيد بن عمرو ، وكان طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقاده بها قوذاً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد ، ثم جمع عمار يديه فلذمه ^(٢) بهما في صدره لذمة خر منها . قال : يقول : خدشني يا عمار ! قال : أبعدك الله يا منافق ، فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك ، فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقام أبو محمد ، رجل من بني النجار ، وكان بدرياً ، إلى قيس بن عمرو فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد . وكان قيس غلاماً شاباً لا يعلم في المنافقين شاب غيره .

وقام رجل من بلخدره ^(٣) يقال له عبد الله بن الحارث إلى رجل يقال له الحارث بن عمرو وكان ذا جمة فأخذ بجمته يسحباً سحباً عنيفاً على ما مر به من الأرض حتى أخرجه من المسجد .

(١) ابن هشام : ولعن وجهه ثم أخرجه .

(٢) اللد : الضرب بيطن الكف .

(٣) بلخدره : بنو الخدر ، وهم رهط أبي سعيد الخدري .

قال : يقول المنافق : لقد أغلظت يا بن الحارث . فقال له : إنك أهلٌ لذلك يا عدو الله ! ما أنزل الله فيك ، فلا تقرب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنك نجس .

وقام رجل من بنى عمرو بن عوف إلى أخيه ذؤيب بن الحارث فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً وأقف منه وقال : غاب عليك الشيطان وأمره .
فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجهم .

ففي هؤلاء من أحبار يهود والمنافقين من الأوس والخزرج نزل صدرُ سورة البقرة إلى المائة منها ، فيما بلغني والله أعلم ^(١) .

[وفد نصارى نَجْرَانَ]

وقدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وفدُ نصارى نَجْرَانَ ، سقون راكباً ، فدخلوا عليه المسجد حين صَلَّى العصر عليهم ثياب الحَبَرَات جُبَّ وأردية ، في جَمال رجال بنى الحارث بن كعب ، يقول بعضُ من رآهم يومئذ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأينا بَعْدَهُم وفداً مثلهم .

وحانت صلاتهم فقاموا يصلُّون في المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دَعُوهم . فصلُّوا إلى المشرق ، وكان فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، في الأربعة عشر منهم ثلاثة نفرٍ إليهم يؤول أمرهم : العاقبُ أميرُ القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم الذي لا يصْـدُرُون إلا عن رأيه ، واسمه عبد المسيح ، والسيدُ نَمَـكَلُهم ^(٢) وصاحبُ رَحْلهم ومجتَمعهم واسمه الأَيْهَم ،

(١) استمرس ابن هشام صدر سورة البقرة الذي ذكر فيه المنافقون واليهود . انظر

١٧٧/٢ — ١٩٤ .

(٢) أى القائم بأمرهم .

وأبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل أسقطهم وحزبهم وإمامهم وصاحب
مدرّاسهم وكان أبو حارثة هذا قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن
علمه في دينهم ، فكان ملوكهم قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبدوا له السكنائس
وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم .

فلما وجّهوا^(١) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من تَجْران جلس
أبو حارثة على بغلة له موجّها وإلى جديده أخ له يقال له كوز بن علقمة ، ويقال
كرز بن علقمة ، فمئرت بغلة أبي حارثة فقال كوز : تعس الأبعد . يريد
رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست . قال :
ولم يا أخى ؟ قال : والله إنه للذي الذي كنا ننتظره . فقال له كوز : فما يملك
منه وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا ومولونا
وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى .
فأخبر عليها منه أخوه كوز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك ، فهو كان
يحدث عنه هذا الحديث .

وكان أبو حارثة هذا ممن كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم هو والعاقب
والسيد ، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف من أمرهم [في عيسى
عليه السلام^(٢)] ، يقولون هو الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ،
ويقولون هو وَلَدُ الله كبرت . كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ،
ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلنا
بعضهم على بعض . سبحانه الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتمتعالى
عما يشركون . ويقولون هو ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد .

(١) ابن هشام : رجعوا . وما هنا أقرب .

(٢) سقطت من ابن هشام وهي متعينة .

ففي كل^(١) هذا من قولهم قد نزل القرآن مُدْحِضًا حُجَجَهُمْ وَمُبْطِلًا دَعَايَهُمْ ، والله يقول الحقّ وهو يَهْدِي السَّبِيلَ .

قال الله العظيم : « لقد كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، وقالَ الْمَسِيحُ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما مِن إله إلا إلهٌ واحد ، وإن لم ينتموا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، ما الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انظُرْ كَيْفَ نَبِّئْنَاهُمْ لَمْ يَلَمْسْ لَهُمُ الْآيَاتِ نِمْ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ^(٢) » .

وقال عزّ من قائل : « وقالت اليهودُ عَزَبَ ابْنُ اللَّهِ وقالت النصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلك قولهم بأفواههم يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ، اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٣) » .

* * *

ولمّا كلموا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإسلام ، فقال له

(١) دفع الآراء والتعليق عليها لم يذكره ابن هشام .

(٢) سورة المائدة ٧٢ — ٧٥ .

(٣) سورة التوبة ٣٠ — ٣١ .

حَبْرَانِ مِنْ كَلِمَةٍ مِنْهُمْ : قَدْ أَسْلَمْنَا . فَقَالَ لَهَا : إِنَّكُمْ لَمْ تُسْلِمُوا فَاسْلِمَا . فَقَالَا :
بَلَى قَدْ أَسْلَمْنَا قَبْلَكَ .

فَقَالَ : كَذَبْتُمَا ، يَمُودُكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ دَعَاؤُكَ لِلَّهِ وَلَدًا وَعِبَادَتُكَ الصَّالِبَ
وَأَكْلُكَ الْخَنزِيرَ .

قَالَا : فَمَنْ أَبُوهُ يَا مُحَمَّد ؟

فَصَمَّتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَجِبْهُمَا .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ وَاخْتِلَافِ أَمْرِهِمْ [كَلَهُ] ^(١) صَدَرَ سُورَةِ
آلِ عِمْرَانَ إِلَى بَضْعِ وَثَمَانِينَ آيَةٍ مِنْهَا .

فَافْتَتَحَ السُّورَةَ بِتَنْزِيهِ نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ ^(٢) قَالُوا ، وَتَوْحِيدِهِ إِبَاهَا بِأَنْخَلِقُ
وَالْأَمْرَ ، رَدًّا عَلَيْهِمْ مَا ابْتَدَعُوا مِنَ الْكُفْرِ وَجَعَلُوا مَعَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ لِيُعَرِّفَهُمْ
بَذَلِكَ ضَلَالَتِهِمْ . فَقَالَ جَلَّ قَوْلُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ : « أَلَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ ، مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

ثُمَّ اسْتَمَرَ سُبْحَانَهُ فِيمَا شَاءَ مِنَ التَّبْيَانِ لَهُمُ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمُ وَالِاحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ ،
وِإِلْهَادِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى سَبِيلِ الضَّرَاعَةِ إِلَيْهِ بِأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ إِذْ
هَدَاهُمْ ، وَأَنْ يَهَبَ لَهُمْ مِنْ لَدُنْهِ رَحْمَةً ، وَمَا وَصَلَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ الْحَقُّ وَذِكْرُهُ
الْحَكِيمُ .

(١) مِنْ ابْنِ مَشَام .

(٢) ابْنُ مَشَام : عَمَّا .

ثم استقبل لهم أمر عيسى وكيف كان بذه ما أراد به ، فقال : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذُرِّيَّةَ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

ثم ذكر امرأة عمران ونذرها لله ما في بطنها محررا ، أى تمثله له سبحانه لا يذتفع به لشيء من الدنيا ، ثم ما كان من وضعها مريم وتعوذها بإياها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم .

يقول الله تبارك وتعالى : « فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا » أى ضمها وقام عليها بعد أيها وأما .

ثم قص خبرها وخبر زكريا وما دعا به وما أعطاه ، إذ وهب له يحيى ، ثم ذكر مريم وقول الملائكة لها : « يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » .

يقول الله جل وعز : « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلَىٰ أُولَآئِهِمْ أَهْلَهُمْ بِكَلِمَةٍ مَرْيَمُ » أى يستهيمون عليها ، أيهم يخرج سهمه بكلمتها . « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » أى ما كنت معهم إذ يختصمون فيها .

يخبره بخفى ما كنتموا عنه من العلم ، تحقيقا لنبوته وإقامة للحجة عليهم (١) بما يأتهم به مما أخفوا منه .

ثم قال تعالى : « إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بَكَلِمَةٍ مِنْهُ

(١) ابن هشام : لتحقيق نبوته والحجة عليهم .

اسمهُ المسيحُ عيسى بنُ مريمَ ، وجيهاً في الدنيا والآخرةِ ومن المُقربينَ ، وبكلامِ
الناسِ في المهدِ وكهلاً ومنَ الصالحينَ .

أى هكذا كان أمره لا ما يقولون فيه ، وإن هذه حالاته التي يتقلب بها
في عمره كتقلب بنى آدم في أعمارهم صغاراً وكباراً ، إلا أن الله خصه بالكلام
في مهد. آيةً لنبوته ، وتعريفاً للعباد لمواقع قدرته .

« قالت : رَبُّ أُنَى يَكُونُ لِي وَلَئِنْ وَلَمْ يَمْسُسْنِي بَشَرٌ ؟ قال كذلك
اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . »

أى يصنع ما أراد وَيَخْلُقُ ما يشاء من بشر أو غير بشر . [ويصور في الأرحام
ما يشاء وكيف يشاء بِذِكْرٍ وبغير ذِكْرٍ^(١)] .

« إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ » .

ثم أخبرها بما يريد به من كرامته وتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة
المنزلة على موسى قبله والإنجيل المنزل عليه ، وجعله رسولا إلى بنى إسرائيل ،
مؤيِّداً من الآيات بما هو صادر عن إذنه موقوف على مشيئته تحقيقاً لما أراد من
نبوته ، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وغير ذلك
مما أبداه الله به من العجائب المصدقة له ، وأمره إياهم بتقوى الله وطاعته
وقوله لهم : « إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ » تَبَرُّباً من الذي يقولون فيه واحتجاجاً
لربه عليهم . « فاعبدوه ، هذا صراطٌ مستقيم » أى هذا الهدى قد حملتكم
عليه وجئكم به .

« فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قال
الْحَوَارِيُّونَ : نحنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا
بِمَا أُنْزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » .

ثم ذكر رَفَعَهُ إِيَّاهُ إِلَيْهِ حين اجتمعوا لقتله ، فقال : « وَمَسْكُرُوا
وَمَسْكُرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

ثم أخبرهم وردَّ عليهم فيما أفروا لليهود بصَلْبِهِ ، كيف رَفَعَهُ وَطَهَّرَهُ مِنْهُمْ
فقال : « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . ثم القصة
حتى انتهى إلى قوله : « ذَلِكَ نَتَلَوُهِ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي كَرِهَ الْحَكِيمُ .
إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » .

أى قد جاءك الحق من ربك فلا تَرْتَابَنَّ بِهِ وَلَا تَمْتَرَنَّ فِيهِ ، وَإِنْ قَالُوا
كَيْفَ خُلِقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ ذَكَرْ فَقَدْ خَلَقْتَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ بِتِلْكَ الْقُدْرَةِ
مِنْ غَيْرِ أَنْثَى وَلَا ذَكَرٍ ، فَكَانَ كَمَا كَانَ عِيسَى لِحَمًا وَدَمًا وَشَعْرًا وَبَشَرًا ،
فَلَيْسَ خَلْقُ عِيسَى مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ بِأَعْجَبَ مِنْ هَذَا .

« فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » أى من بعد ما قصصتُ
عليك من خبره وكيفية أمره ^(١) « فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْدَاءَنَا وَأَبْدَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا
وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » .
نَبْتَهِلُ : نَدْعُو بِاللَعْنَةِ ، وَنَبْتَهِلُ أَيْضًا نَجْتَهِدُ بِالْإِدْعَاءِ ^(٢) .

« إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ » أى ما أخبرتك به من أمر عيسى
« وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . فَإِنْ قَالُوا فَإِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

(١) ابن هشام : وكيف كان أمره .

(٢) ابن هشام : فى الدعاء .

أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .
فدعاهم إلى النِّصْف وقطع عنهم الحجة .

* * *

فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من الله عز وجل في شأن عيسى وقُضِلَ القضاء بينه وبينهم بما أُمِر به من مُلَاعَنَتِهِمْ إِنْ رَدُّوا ذَلِكَ عَلَيْهِ ، دعاهم إلى ذلك ، فقالوا يا أبا القاسم دَعْنَا نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيكَ بِمَا نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ فِيمَا دَعَوْتَنَا إِلَيْهِ .

فانصرفوا عنه ثم خَلَوْا بِالْعَاقِبِ ، وكان ذا رأيهم ، فقالوا : يا عبد المسيح ما ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصاري لقد علمتم أن محمداً لنبى مُرْسَلٌ ، ولقد جاءكم مِنْ خَيْرِ صَاحِبِكُمْ بِالْحَقِّ ، ولقد علمتم ما لا عَنْ قَوْمٍ نَبِيًّا قَطُّ فَبَقِيَ كَبِيرُهُمْ وَلَا نَبَتْ صَغِيرُهُمْ ، وإِنَّهُ لَلِاسْتِثْصَالِ مِنْكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ أَتَيْتُمْ إِلَّا الْفِتْنَةَ دِينَكُمْ وَالْإِقَامَةَ عَلَى أَتَمِّ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ فِي صَاحِبِكُمْ فَوَادِعُوا الرِّجْلَ وَانصَرِفُوا^(١) إِلَى بِلَادِكُمْ .

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا أَلَّا تُلَاعِنَكَ وَأَنْ تَتْرَكَ عَلَى دِينِكَ وَتَرْجِعَ إِلَى دِينِنَا ، وَلَكِنْ أَبْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ تَرْضَاهُ إِذَا يَحْكُمُ بَيْنَنَا فِي أَشْيَاءِ اخْتَلَفْنَا فِيهَا مِنْ أَمْوَالِنَا ، فَإِنَّكُمْ عَدَدْنَا رِضَى .
فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائْتُونِي الْعَشِيَةَ أَبْعَثْ مَعَكُمْ الْقَوَى الْأَمِينَ .

فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما أحببتُ الإمارة قط حَيٍّ

(١) ابن هشام : ثم انصرفوا .

إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فُرِخت إلى الظاهر مهجراً ، فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ثم نظر عن يمينه ويساره فجمعت أنطاول له ليراني ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح ، فدعاه فقال اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه .

قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة .

[مرض المهاجرين بالمدينة]

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدمها وهي أوبساً أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم حتى جحدوا فما كانوا يصلون إلا وهم قُمُود ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم فخرج عليهم صلوات الله عليه وهم يصلون كذلك ، فقال لهم : اعلوا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم . فتجشتم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماس الفضل !

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ممن أصابته الحمى وكذلك مولياه عامر بن فهيرة وبلال ، قالت عائشة : فدخلت أعودهم قبل أن يضرب عليهم الحجاب وهم في بيت واحد وبهم ما لا يعلمه إلا الله من الوباء ، فدنوت من أبي بكر فقلت له : كيف تجددك يا أبت ؟ فقال :

كلُّ امرئٍ مُصَبِّحٌ في أهله والموتُ أدنى من شركٍ نَعْلِهِ
فقلت : والله ما بدرى أُنَى ما يقول ، ثم دنوت إلى عامر فقلت ، كيف تجددك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدتُ الموتَ دونَ ذَوْقِهِ^(١) إنَّ الجبانَ حَتَفَهُ مِنْ قَوْقِهِ

(١) ابن هشام : قبل .

كل امرئ مجاهد بطوقه كالنور يجمي جلده بروقه
قالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع
عقيرته وقال :

ألا ليت شعري هل أبيتن أيلة^(١) وحولى إذ خرو وجليل
وهل أريدن يوماً مياه بحنة وهل يبدون لي شامة وطفيل
قالت عائشة : فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت منهم ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم حبب لنا المديقة كما حببت
[إلينا]^(٢) مكة أو أشد ، وبارك لنا في مدها وصاءها ، وانتقل وباءها إلى
منهية . وهي الجحفة .

انتهى الجزء الأول من كتاب « الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة
الخلفاء » بحمد الله ، ويليها الجزء الثاني وأوله : « شروع رسول الله
صلى الله عليه وسلم في حرب المشركين ، وذكر مغازيه التي أعز الله بها
الإيمان والمؤمنين » .

(١) ابن هشام : بفتح (٢) من ابن هشام .

تصويبات

الصفحة	السطر	الصواب
٤١	١٦	مُضَرِّ
١٢٣	٨	وَحَاتَتْ
٢٨٦	١٨	وَأَمْسَكَتُ
٢٨٧	١٣	ثَبِيرًا
٢٨٩	١	اِخْتَلَفَا
٢٩٦	٣	لَا تَشْوِي
٢٩٦	١١	يَخْبِرُكُمْ
٤١٤	١٩	بِحِدَّةٍ
٢٩٠	١٢	رَحْمَةٍ
٤٥٤	هامش	الْجَمَّارَةُ

25442155000